الجامعة الإسلاميـــة – غزة
عمادة الدراســـــات العلـــيا
كليـــــــــــــة الآداب
قســـــم - التاريـــخ والآثار



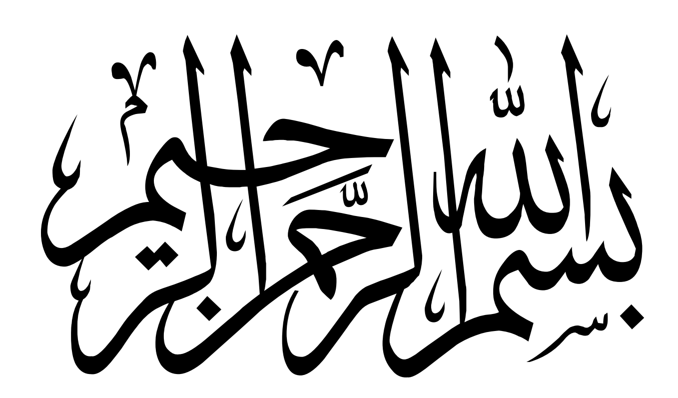
جهود علماء مصر والشام في إصلاح المجتمع زمن الحروب الصليبية (491-692هـ = 1097-1292م).

إعداد:
عبد الفتاح عبد الله عاشور أبو جهل.

إشراف:
الأستاذ الدكتور: رياض مصطفى شاهين.
الأستاذ في التاريخ الإسلامي.

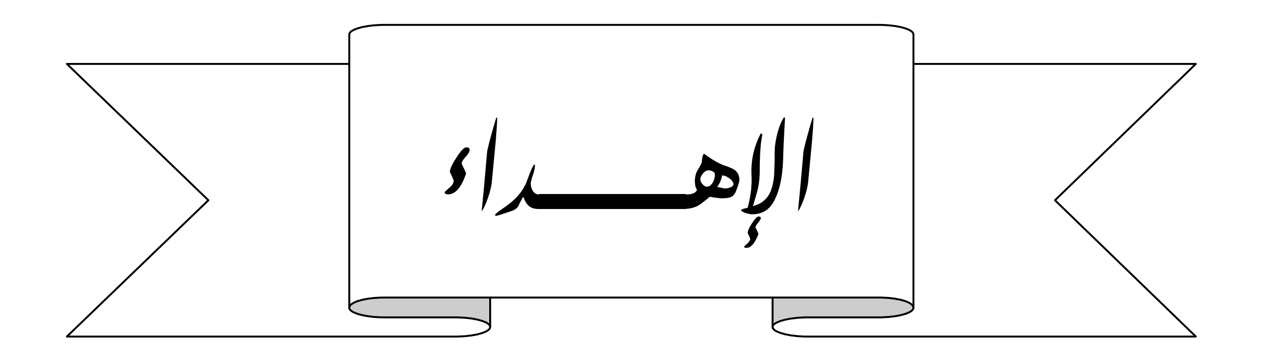
قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي (بحث تكميلي) في قسم التاريخ والآثار بكلية الآداب في الجامعة الإسلامية بغزة ــ فلسطين.

1431 هــ- 2010م.
غزة - فلسطين.



"قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ" [1]

(1) سورة الأنعام، الآية، 162،163



إلى . . . والداي الأعزين أطال الله بعمرهما وأحسن ختامهما .

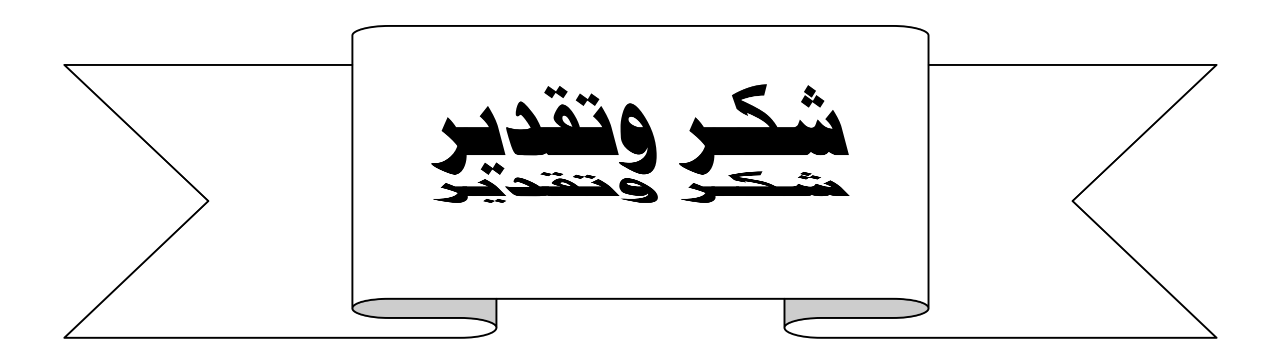
إلى . . . زوجتي العزيزة الطيبة الصابرة التي كان لها الفضل بعد الله في توفير أجواء الدراسة .

إلى . . . أبنائي الأعزاء : محمد وإيمان وحسام وبراءة وعلي ونور ومحمود فلذات كبدي .

إلى . . . أرواح الأكرم منا جميعاً شهداء فلسطين الحبيبة .

إلى . . . أرواح العلماء المخلصين للدين والوطن .

إلى . . . الأُسود القابعين خلف قضبان الحديد في السجون الصهيونية .



انطلاقا من قول النبي- صلى الله عليه وسلم- " من لا يشكر الناسَ لا يشكر الله "[1].
فلا يسعني إلا أن أتقدم بجزيل الشكر والعرفان والتقدير، وعظيم الامتنان، إلى كل من أسهم، وقدم المساعدة في إخراج هذه الرسالة إلى حيز الوجود، وأخص بالذكر أستاذي ومشرفي الأستاذ الدكتور/ رياض مصطفى شاهين، الذي تفضل مشكوراً بالإشراف، على هذه الرسالة، فكان إشرافه عليها مبعث عز وفخر لي، وقد حباني وأمدني من واسع علمه، وجليل توجيهاته وعظيم مكتبته مما كان له أعظم الأثر في إخراج هذا البحث على الصورة التي بين أيدينا.

والشكر موصول إلى أساتذتي الأفاضل الذين قاموا بتدريسي مساقات ومتطلبات الرسالة، الدكتور خالد الخالدي، والدكتور يوسف الزاملي، والدكتور زكريا السنوار جزاهم الله عني كل خير.

كما وأشكر زميلي الأستاذ الفاضل زايد ماضي" أبو باسل" لمساهمته في تدقيق و مراجعة الرسالة لغويا، فله مني كل التقدير والاحترام، فجزاه الله خيراً على هذه المساهمة.

وشكري وتقديري إلى زوجتي "أم محمد" على صبرها وتحملها معي عناء البحث والدراسة، فجزاها الله عني كل خير.

---

(1) ابن حنبل، المسند، ج15، ص232.

فهرس المحتويات

قائمة المختصرات والرموز

1- ت: توفي.

2- ج: جزء.

3- ص: صفحة.

4- م: السنة الميلادية.

5- هــ: السنة الهجرية.

6- د.ت: دون تاريخ.

ملخص الدراسة

تناولت هذه الدراسة جهود علماء مصر والشام في إصلاح المجتمع، منذ قدوم الصليبيين سنة (491هـ=1097م)، إلى بلاد الشام ومصر وحتى طردهم في سنة (692هـ=1292م)، حيث تم بيان بعض مظاهر الفساد التي كانت سائدة في تلك الحقبة التاريخية، والتي تمثلت في تعاطي الحشيش وشرب الخمور، وممارسة فاحشة الزنا، والرقص والمجون، وإتباع الخرافات والبدع الدخيلة والبعيدة عن العادات والتقاليد الإسلامية.

كذلك بينت الدراسة ظاهرة التعصب المذهبي الذي ساد بين المذاهب الإسلامية(السنية بعضها لبعض ومع الشيعة)، وما أدت إليه من تكفير بعضها البعض وتلفيق التهم، والاعتداء على بعضهم البعض من ضرب وقتل والاعتداء على المساجد.

وأيضاً أظهرت هذه الدراسة مكانة العلماء في القرآن الكريم والسنة النبوية ومكانتهم عند السلاطين والأمراء وعامة الناس، وما تمتعت به فئة العلماء من مكانة مرموقة.

وأظهرت الدراسة دور العلماء الأجلاء في محاربة هذه المفاسد الاجتماعية التي سادت تلك الحقبة التاريخية في مصر وبلاد الشام من خلال الأعمال التي قام بها العلماء من وعظ وإرشاد، وتصدي لتلك المفاسد، حيث تم بيان الدور الايجابي الذي قام به العلماء في تصديهم لتلك الآفات التي سيطرت على المنطقتين(مصر وبلاد الشام).

وأوضحت الدراسة أيضاً دور العلماء في حث وتحريض المسلمين على قتال الصليبيين، ومشاركة العلماء الفعلية في المعارك التي دارت بين المسلمين والصليبيين، حيث حالفهم النجاح والتوفيق في إصلاح ما أفسدته تلك المفاسد وبناء جيل متمسك بالدين وبالعادات والتقاليد الإسلامية، والذي قاد الأمة إلى النصر والتحرير.

وختم الباحث دراسته بخاتمة أورد فيها ما توصل إليه من نتائج، وبعض التوصيات

مقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، نستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين.

إن تاريخ الأمة الإسلامية ليدعو إلى الفخر والاعتزاز؛ إذ لم تكن هذه الأمة بشرعها وتراثها ومثلها العليا ومبادئها العظيمة عاجزة عبر هذا التاريخ الطويل عن إيجاد الحلول المناسبة الناجحة لكل ما يطرأ على المجتمع الإسلامي من انحرافات أو ظواهر دخيلة عليه فهي أمة قادرة على حسن قيادة الشعوب وصيانة الأمن في المجتمع، وتملك قلوب الناس بحسن سياستهم والقدرة على تدبير أمورهم وحمايتهم من الرذائل والجرائم بأنواعها، سواء ظهرت هذه الجرائم جلية للسلطة أم خفيت عليها.

فأمتنا الإسلامية لها فضل السبق على غيرها في تهيئة الحياة الفاضلة المتحضرة؛ إذ دينها يدعو إلى التقدم والتعلم في سائر الجوانب التي تخدم الحياة الإنسانية، ويحافظ على مقدراتها، وهذا الدين قد أقام أرقى حضارة عرفتها الإنسانية حتى اليوم. فما أحوجنا أن نعود إلى هذا الدين لننهل من معينه؛ لأنه دين يقوم على العلم والخلق معًا، وليس على العلم المادي المجرد عن السمو الأخلاقي، وبالنظر إلى غايات الشريعة الإسلامية نجد أن هذه الشريعة جاءت لتحقيق غايات نبيلة وجليلة في مقدمتها تعبيد الناس لرب الناس، وتكوين مجتمع صالح نبيل خالٍ من الانحرافات والضلالات، مستقيم على منهج الله - تعالى - في سائر شؤونه.

وقد وضعت هذه الشريعة الوسائل الوقائية والعلاجية للانحرافات، فإذا ما اقترف أحد أفراد المجتمع أمرًا يفسد على هذا المجتمع صحته ونقاءه فإن الشريعة قد حملت بقية الأفراد مسؤولية المحافظة على دينهم ومجتمعهم، وأن يتخذوا الوسائل والأساليب الكفيلة بمحاربة هذا الفساد وإقامة ما اعوج، وهذا التكليف شامل للأفراد والأسر والجهات الرسمية والتطوعية كل حسب قدرته.

فقد أوجب الشرع أن تقوم فرقة من المسلمين بهذه المهمة، وأن تجدَّ وتحرص على تنقية الأمة من الرذائل وأن تحليها بالفضائل، وهذه الفرقة هم أهل الخير والفلاح بنعت الله تعالى لهم" وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُور"[(1)]، فعلى العلماء والدعاة تحمل مسؤوليتهم تجاه تقويم سلوك الناس والحكام، وأن يدركوا

---

(1) فاطر، الآية،28.

حقيقة مهمة ثابتة لا يمكن التغافل عنها أو الالتفات عن أهميتها، ألا وهي أن انحراف سلوك الناس عن مساره الصحيح هو نتيجة ظاهرة لمرضٍ في قلب من يسعى إليه أو يشارك فيه.فهذا ما قام به علماء مصر والشام في الحقبة التاريخية(491-692هـ= 1097-1292م)، إبان الاحتلال الصليبي لبلاد الشام، فقاموا في علاج الظواهر الاجتماعية الخبيثة والتي ابتلى بعض فئات المجتمع فيها، وتصدوا إلى هذه الظواهر وعلاجها عملاً بقول الرسول صلى الله عليه وسلم: " ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء"[(1)] فإذا أدرك علماء وفقهاء تلك الحقبة هذه الحقيقة ولم يسعوا إلى الدواء وعلاج هذا المرض فيخشى أن يكون في هذا إهمال وصدّ عن ترغيب رسول الله صلى الله عليه وسلم في المداواة والمعالجة؛ لأن عموم الحديث يقتضي أن جميع الأمراض الباطنة والظاهرة لها أدوية تعالجها وفي هذا الحال نهض علماء مصر والشام في تحمل هذه الأمانة وقاموا بجهود جبارة في إصلاح المجتمع لتحمل هذه الأمانة العظيمة، فهم مطالبون ببذل قصارى جهدهم لوصف الدواء الناجع لهذه الأمراض وهذا مما ائتمنهم الله تعالى، عليه ليكونوا ورثة الأنبياء.

أهمية الدراسة:

ترجع أهمية الدراسة إلى ما يلي:

1- إلقاء الضوء على جهود ودور علماء مصر والشام في القيام بواجبهم، من خلال تصديهم للمفاسد الاجتماعية، ومحاربتهم للتيارات الفكرية المنحرفة وتصديهم إلى السلاطين والأمراء الظلمة.

2- دور العلماء الدعوي والتربوي في نشر الفضيلة والتحذير من مخاطر الرذيلة، وحثهم للمسلمين على الجهاد في سبيل الله ومشاركتهم في القتال ضد أعداء الإسلام.

3- بيان مكانة العلماء عند الله عز وجل، وعند السلاطين والأمراء، وباقي طبقات المجتمع.

4- التعرف على علماء مصر والشام في تلك الحقبة والذين ضحوا في سبيل هذه الدعوة بأرواحهم.

أسباب اختيار الموضوع:

1- ندرة الدراسات المتخصصة التي تناولت الموضوع بالرغم من أهميته، والرغبة في إثراء المكتبة بمثل هذا الموضوع.

---

(1) البخاري، صحيح، كتاب الإيمان، باب فضل من ستبرأ لدينه ، رقم 52 .

2- الأثر الكبير الذي تركته المفاسد التي سادت المجتمع على النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية في مصر و بلاد الشام.

3- إن إهمال هذا الدور الذي قام به علماء الأمة وعدم إبراز جهودهم في هذه الحقبة الهامة والخطيرة في تاريخنا، هو الذي دفعني للكتابة في هذا الموضوع إحقاقاً للحق ورداً للفضل إلى أهله.

4- تناثر المعلومات في المصادر المختلفة حول موضوع الدراسة وضرورة جمعها وإخراجها في إطار دراسة علمية ترصد جهود العلماء.

5- كذلك أردت أن أجمع في هذا البحث أكبر عدد ممكن من أسماء هؤلاء القدوة الصالحة من العلماء الذين أدوا الأمانة التي حملوها، وأن أتعمق في دراسة هذه الشخصيات العظيمة لألقي مزيداً من الضوء على المعروفة منها، ولأزيح الستار عن الشخصيات الأخرى منها التي ظلت في طي النسيان.

6- التهديد المستمر الذي تشكله الظواهر المستوردة من الغرب والتي تهدد كيان المجتمع الإسلامي وتحاول ضرب صلب عقيدتة من خلال طرق مختلفة ومتنوعة.

7- رغبة الباحث في الربط بين دور العلماء في الماضي، ودورهم في الحاضر وخاصة في فلسطين بشكل عام، وقطاع غزة بشكل خاص.

8- يمثل البحث في هذا المجال موضوعاً جديداً في بيان جهود العلماء في إصلاح المجتمع.

دراسات سابقة:

حسب اطلاع الباحث على مواقع البحث المتخصصة في الشبكة العنكبوتية (الانترنت) وفهارس المكتبات المختلفة المحلية، والعربية وسؤال بعض المتخصصين، لم يجد الباحث دراسة وافية عن هذا الموضوع تغطي الإطار الزمني و المكاني للدراسة.

وتركزت معظم الدراسات السابقة على دراسة نوع واحد من جهود القادة السياسيين والعسكريين، في الجهاد ضد الصليبيين وإدارة الدولة؛ إلا أن الباحث وجد دراستين اختصت بدور العلماء والفقهاء وهي:

1- دور العلماء في إصلاح المجتمع زمن الحروب الصليبية، من إعداد: الدكتور أحمد محمد عدوان، وهو بحث محكم نُشر في الجمعية التاريخية السعودية، الإصدار الحادي عشر، صفر(1422هـ = مايو 2001م)، وتضمنت هذه الدراسة على عرض موجز، عن بعض المفاسد

التي سادت فترة الحروب الصليبية، في مصر وبلاد الشام، حيث قام الكاتب بالتعرض إلى هذه المفاسد بالشيء القليل وكذلك عرض الكاتب في هذه الدراسة دور العلماء في محاربة هذه المفاسد دون التعمق في الموضوع.

واستفاد الباحث من هذه الدراسة في بعض فصول الرسالة.

2- دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى في الجهاد ضد الصليبيين، خلال الحركة الصليبية(489- 690هـ= 1095-1291م)، كتاب، للدكتورة/ آسيا سليمان نقلي. واستفاد الباحث من هذه الدراسة في الفصل الرابع من هذه الرسالة.

منهج الدراسة:

خلال هذا البحث اتبع الباحث المنهج الوصفي والمنهج التحليلي .

صعوبات واجهت الباحث أثناء إعداد الدراسة:

1- تناثر المعلومات الخاصة بموضوع الرسالة في بطون المصادر والمراجع التي لم تتحدث عن هذا الموضوع بشكل مباشر.

2- استمرار انقطاع التيار الكهربائي.

3- الارتباط بالعمل لساعات طويلة، وصعوبة التوفيق ما بين الدراسة والعمل.

وتغلبت على هذه الصعاب ببذل جهد أكبر، والسهر حتى الفجر.

تقسيمات الدراسة:

قُسمت الدراسة إلى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة، فكان الفصل الأول، بعنوان مظاهر الفساد في المجتمع الإسلامي زمن الحروب الصليبية، واشتمل على ثلاثة مباحث، حيث تعنون المبحث الأول، بعنوان الفساد الأخلاقي وشيوع المنكرات، وتم بيان ظواهر الفساد التي كانت سائدة في تلك الحقبة في مصر وبلاد الشام، و المبحث الثاني، بعنوان الصراع المذهبي والسياسي، حيث تحدثت بإسهاب عن الصراع المذهبي بكل أنواعه، بين الطوائف والمذاهب الإسلامية، وكان المبحث الثالث بعنوان الانحرافات العقائدية والفكرية، والتي بينت فيه عن الانحرافات البدع والخرافات التي سادت تلك الحقبة والمنطقة.

ويأتي الحديث في الفصل الثاني عن مكانة العلماء، واشتمل على مبحثين، الأول مكانة العلماء الاجتماعية، حيث بينت مكانتهم في الكتاب والسنة، وعند عامة الناس، وعند السلاطين والأمراء، والمبحث الثاني، عن أحوال العلماء الاجتماعية، من حيث أحوالهم المالية وتكسبهم بأعمال أخرى غير الأعمال الدينية، والمستوى المعيشي لهم.

أما الفصل الثالث فقد تناولت فيه دور العلماء في محاربة الفساد في المجتمع، واشتمل المبحث الأول على دورهم الدعوي والتربوي، من خلال مجالس الوعظ والإرشاد والمبحث الثاني، عن دورهم الرسمي من خلال إدارة شؤون الدولة، وتقلدهم المناصب القضائية، والوزارية، والإدارية، والمبحث الثالث، عن دورهم في محاربة الفساد والتيارات الفكرية المنحرفة، من خلال تأليف الكتب، والمؤلفات، والتحذير من تلك التيارات والأفكار وكذلك من خلال إصدار الفتاوى.

وبينت في الفصل الرابع دور العلماء في صناعة مجتمع إسلامي مجاهد؛ حيث اشتمل على ثلاثة مباحث، الأول عن جهود العلماء في تحريض المسلمين على الجهاد، من عامة الناس والسلاطين والأمراء، وذلك عبر مجالس الوعظ وتأليف المؤلفات التي تبين أجر وثواب الجهاد في سبيل الله، والمبحث الثاني عن مشاركة العلماء في القتال ضد الأعداء المشاركة الفعلية وحمل السلاح، أو من خلال شحذ الهمم، ورفع المعنويات في ساحات القتال و المبحث الثالث، كان عن المصاعب والمعوقات التي واجهت العلماء أثناء أداء دورهم وبينت ما تعرضوا له من قبل السلطة الحاكمة من حبس وطرد وإقامة جبرية وقتل.

وفي الختام، لا يسع الباحث إلا أن يسير على نهج سلفه، فهذه خلاصة جهدي وضعتها في الرسالة ، فإن وفقت فمن الله عز وجل، الهادي إلى سواء الصراط، وإن كان غير ذلك فمن النفس الأمارة بالسوء، ومن الشيطان.

واللهَ أسأل أن يتقبل مني هذه الدراسة، وأن ينفع بها عامة المسلمين

هذا وبالله التوفيق.

الــبــاحــث

عبد الفتاح عبد الله أبو جهل.

دراسة تحليليه لأهم المصادر:

أولاً: كتب التاريخ العام:

1- العماد الأصفهاني[1]: لقد ألف الأصفهاني خمسة كتب في التاريخ، والذي يعنينا منها ما كان له علاقة بمادة الدراسة وهي:

أ- كتاب البرق الشامي: ويغلب على هذا الكتاب طابع المذكرات الشخصية، حيث وصف فيه ما شاهده بنفسه أثناء مصاحبته لصلاح الدين[2]، ويقع هذا الكتاب في سبعة مجلدات لا يوجد منها سوى الجزء الثالث والخامس والذي حققه فالح حسين، وقد اعتمدنا عليهما، أما باقي الأجزاء فقد اعتمدنا على مادتها فيما نقله إلينا أبو شامة في الروضتين، بالإضافة إلى المختصر الذي ألفه الفتح البنداري، والذي أطلق عليه اسم "سنا البرق الشامي"[3].

ب- كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي: وهو المصدر الثاني للعماد الذي اعتمدنا عليه. وترجع أهمية المصدرين السابقين إلى كون صاحبهما من رجال الإدارة في عهد صلاح الدين وأحد كتابه المقربين، والقائمين على الأمور بديوان إنشائه والمطلعين على مراسلاته ووثائقه، ولقد أفاد الأصفهاني بهذين المؤلفين الدراسة بما قدمه من معلومات مهمة خاصة حول معارك صلاح الدين، وأيضاً أمدنا بمعلومات عمن شارك صلاح الدين من العلماء في معاركه ضد الصليبيين[4].

ت- خريدة القصر وجريدة العصر: وهو كتاب أدبي جمع الكثير من القصائد الشعرية وأسماء الشعراء الذين عاصروا حكام تلك الحقبة من تاريخ بلاد الشام، وقد استفاد الباحث من ذلك

---

(1) هو عبد الله محمد بن محمد، ولد في أصفهان سنة 519هـ=1125م، تفقه على المذهب الشافعي وعمل في خدمة نور الدين محمود زنكي بدمشق حتى وفاة نور الدين في سنة 569هـ=1173م، وأشرف على ديوان الإنشاء، ثم عمل في خدمة السلطان صلاح الدين، و كان من كتاب عصره المشهورين، صنف العديد من الكتب أهمها "البرق الشامي" " الفتح القسي في الفتح القدسي" وغيرها، توفي سنة، 579هـ=1183م. أنظر، الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، مقدمة المحقق، ص6-10؛ سعداوي، المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين، ص19-28.

(2) الأصفهاني، البرق الشامي، ج1، ص236-238.

(3) سعداوي، المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين، ص19.

(4) سعداوي، المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين، ص19-28.

المصدر أثناء ترجمته لبعض العلماء الذين كانوا لديهم بجانب علمهم الديني بلاغة الشعر والأدب.

2- **ابن الأثير**[1]: يعد ابن الأثير مصدراً معاصراً ،لأحداث الغزو الصليبي، فقد امتاز بحسن الاطلاع والنظرة الشاملة للأحداث التاريخية المتعلقة بهذا الغزو، وقد جاءت معرفته وإطلاعه على شكل تفصيلات وقائعية على مستوى عال، اقتربت بالتسلسل الزمني الذي امتاز بالدقة في تصوير الغزو ونتائجه[2]، وقد أفادت الدراسة من كتابه "الكامل في التاريخ" بدرجة كبيرة في معظم فصول الدراسة، حيث أمدنا بالكثير من المعلومات حول أحوال بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي، كما دون العديد من الحوادث المهمة منها العسكرية، والسياسية، والاقتصادية والاجتماعية؛ كما أفاد الباحث من بعض تراجم الأعلام، والعلماء والفقهاء، والقادة العسكريين كذلك أفادت الدراسة من كتابه "التاريخ الباهر"، الذي يعد مصدراً مهماً، بل وتاريخاً لحكم الأسرة الزنكية لبلاد الشام.

3- **أبو شامة**[3]:استفاد الباحث من ثلاثة مصادر من مؤلفات أبو شامة هما:

أ- كتاب "الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية" يعد من كتب التاريخ المحلي والإقليمي، وصنف حسب طريقة الحوليات، بدأها سنة(548هـ=1153م)، وأنهاها بأحداث سنة (589هـ= 1193م)، وهي سنة وفاة صلاح الدين، وتحدث فيه عن سيرة نور الدين محمود وصلاح الدين، والأحداث والوقائع التي جرت في عهدهما، وقد أفاد الباحث من هذا المصدر

---

(1) هو عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، ولد سنة 555هـ=1159م، في جزيرة ابن عمر، وهاجر مع أسرته سنة 576هـ=1180م، إلى الموصل وشاهد حروب الصليبيين مع جيش الموصل بعد سنة 584هـ=1188م، ولهذا اعتمد على ما سمعه ونقله في الحوادث الواقعة قبل سنة 584هـ=1188م، وكان إماماً في حفظ الحديث، وحافظاً للتواريخ المتقدمة والمتأخرة؛ كما كان خبيراً بأنساب العرب وأخبارهم وأيامهم ووقائعهم، وصنف عدة تصانيف منها كتاب" الكامل في التاريخ" وكتاب " التاريخ الباهر "، توفي سنة 630هـ=1232م. أنظر، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص348-350؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج21، ص488-491.

(2) سعداوي، المؤرخون، ص9.

(3) هو شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي ،ولد بدمشق سنة، 599هـ=1202م، وعرف بأبي شامة لوجود شامة كبيرة فوق حاجبه الأيسر، تفقه على المذهب الشافعي، وصنف كتباً كثيرة أهمها كتاب" الروضتين في أخبار الدولتين" وكتاب" الذيل على الروضتين" وكتاب " الباعث على إنكار البدع والحوادث" وغيرها، توفي سنة،665هـ=1266م. أنظر، أبو شامة، الروضتين، ج1، مقدمة المؤلف، ص7-18، ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص28،27؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص254، 255.

إفادة كبيرة في كل فصول الدراسة، حيث قدم للدراسة معلومات عن الأحوال الاجتماعية والسياسية في تلك الحقبة التاريخية، كما واستعان الباحث بهذا المصدر من خلال الحديث عن مشاركة العلماء في المعارك التي خاضها صلاح الدين ضد الصليبيين[1].

ب -كتاب "الذيل على الروضتين"، الذي تحدث فيه عن الفترة من (590هـ=1193م)، حتى وفاته سنة (665هـ=1266م)، وأكثر فيه من التراجم للعلماء والفقهاء الذين عاشوا في بلاد الشام خلال تلك الحقبة.

ت -كتاب "مختصر كتاب المؤمل للرد إلى الأمر الأول" وموضوعه نقد الأوضاع العلمية السائدة في القرن السابع الهجري- الثالث عشر الميلادي، والتي سيطر عليها التقليد المذهبي والجمود الفكري، و قل فيها الاجتهاد الحر، وقد أفادت الدراسة في الفصل الأول.

4- ابن واصل[2]: "مفرج الكروب في أخبار بني أيوب" يعتبر هذا الكتاب من المصادر الهامة في تاريخ الدولة الأيوبية، وترجع أهميته لما فيه من تفاصيل عن تلك الدولة، لم تذكرها مصادر أخرى واتبع ابن واصل في سرده للأحداث على المنهج الحولي، حيث أرخ فيه للحوادث من سنة(681هـ= 1282م)، واعتمد ابن واصل أيضاً على من سبقه من المؤرخين المعاصرين فنقل العديد من روايات القاضي الفاضل، وابن شداد وابن الأثير. وقد أفادت الدراسة في الكثير من المعلومات التي تتعلق بالدولة الأيوبية[3].

5- ابن كثير[4]: "البداية والنهاية" يعد هذا الكتاب من الكتب التاريخية المهمة خصصه للحوادث و الوفيات منذ بدء الخليقة وحتى سنة(767هـ=1365م)، واتبع فيه الترتيب الحولي، وقد أفادت

---

(1) أنظر، مقدمة المحقق، ص5.

(2) هو جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سالم بن واصل ولد بحماه سنة 604هـ=1207م، وتلقى فيها علومه الأولى وكان أول مدرس فيها حيث برع في علوم كثيرة، مثل علم المنطق والهندسة، وأصول الدين، والفقه الإسلامي، وعلم الهيئة والتاريخ. رحل في طلب العلم إلى دمشق وحلب وبيت المقدس والقاهرة وبغداد ومكة والمدينة وأقام في مصر مدة طويلة، وكلفه السلطان الظاهر بيبرس المملوكي بالسفارة إلى صقلية، فمكث بها زمناً غير قصير، ومن نتائج هذه السفارة العلمية تأليفه لكتاب" الموجز في المنطق." ولما عاد ابن واصل إلى مصر عين قَاضياً للقضاة، والذي يزيد من أهمية هذا المصدر معاصرة ابن واصل للحملات الصليبية وسقوط الدولة الأيوبية توفي سنة 697هـ=1297م.أنظر،ابن واصل، مفرج الكروب،ج1، مقدمة المحقق، ص4؛ عبد الله، معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر الهجري ، ص185.

(3) أنظر، مقدمة المحقق، ص3-5.

(4) هو عماد الدين إسماعيل بن عمر ولد سنة 700هـ=1300م، قدم إلى دمشق وله سبع سنين مع أخيه بعد موت أبيه، اجتهد كثيراً، وسمع من الكثير من العلماء حتى برع في علوم الحديث والتفسير والتاريخ، ولابن كثير العديد =

الدراسة كثيراً من الجزأين الثاني عشر والثالث عشر، حيث ذكر ابن كثير فيهما معلومات كثيـــرة عن عدد كبير من العلماء والفقهاء والأعلام وغيرهم.

6- المقريزي[1]: استفاد الباحث من أربعة مصادر من مؤلفات المقريزي هما:

أ- "اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء"، وتناول فيه المقريزي بالــشرح والتفــصيل تاريخ الدولة الفاطمية، وأفاد الباحث من هذا المصدر عند دراسة أحوال الخلافــة الفاطميــة السياسية ولاقتصادية والاجتماعية، وكذلك النزاع بين السلاجقة والفاطميين وأثر ذلك علـــى أحوال بلاد الشام[2].

ب- "السلوك لمعرفة دول الملوك"، الذي كان من المصادر الأساسية فيما يتعلق بالفترة المملوكية وجهاد المماليك ضد الصليبيين،وأشار خلاله إلى بعض التغيرات في النظم الإدارية والاقتصادية والسياسية للسلطة المملوكية، وكذلك أعمال وتصرفات السلاطين والأمراء، وبين لنـــا مـــشاركة بعض العلماء في فتح المدن الإسلامية[3].

ت- "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" حيث أمدنا فـــي هـــذا المـــصدر بـــالكثير مـــن المعلومات حول، الظواهر الاجتماعية التي كانت سائدة في مصر وبلاد الشام، وقد أفاد الدراســـة في الفصل الأول بشكل خاص[4].

=

من التصانيف المهمة منها البداية والنهاية توفي سنة 774هـــ=1372م. أنظر، ابن العماد، شـــذرات الـــذهب، ج6، ص432.

(1) هو تقي أحمد بن علي المقريزي، ولد بالقاهرة سنة 766هـــ=1364م، بحارة برجوان بمدينـــة القـــاهرة، وهو بعلبكي الأصل، مصري المولد والمنشأ، عرف باسم المقريزي نسبة إلى حارة المقـــارزة فـــي مدينـــة بعلبك، وهو من أسرة شيعية فاطمية، ولا خلاف في تبوئه صدارة المؤرخين المصريين في النـــصف الأول من القرن التاسع الهجري- الخامس عشر الهجري، وقد عكف على دراسة القرآن، وعلوم الدين، والتـــاريخ وغيرهما، وتقلد العديد من الوظائف، كان آخرها وظيفة الحسبة بالقاهرة، وله مؤلفات تاريخية كثيرة، وقـــد تميزت كتاباته بالدقة في إيراد الحقائق والاعتماد على مصادر ووثائق لا تزال أصولها مفقودة، تـــوفي ســـنة 845هـــ=1441م.المقريزي، المواعظ والاعتبار، مقدمة المحقق، ص7-17؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج2، ص21؛ الغامدي، بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي، ص9؛ عنان، مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصري، ص87.

(2) انظر عن ذلك بالتفصيل، الفصل الأول من الدراسة.

(3) عنان، مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصري، ص85.

(4)عنان، مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصري، ص87.

ث- "إغاثة الأمة بكشف الغمة" وهذا من الكتب القليلة والتي ركز فيها المؤرخون على دراسة الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية، وقد استفدت منه في الفصل التمهيدي خلال عرض الأحوال الاقتصادية والاجتماعية لبلاد الشام ومصر[1].

ثانياً: كتب التراجم والطبقات

لكتب التراجم والطبقات أهمية كبيرة للبحث العلمي، حيث أنها تلقى الضوء على الجوانب الفكرية و الثقافية، والمذهبية للأشخاص، وتقدم بعض اللمحات الحضارية والاجتماعية، والاقتصادية، وأهم كتب التراجم والطبقات التي اعتمدت عليها الدراسة هي:

1- ابن خلكان[2]: كتاب " وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان" ويعد هذا الكتاب من أهم المصادر في التراجم والتاريخ الأدبي، وتكمن أهميته في كون مصنفه اعتمد على مصادر عديدة منها" تاريخ دمشق " لابن عساكر، والنوادر السلطانية لابن شداد[3]، وقد ترجم فيه للعديد من العلماء والفقهاء والقادة السياسيين في حقبة الدراسة.

2- الذهبي[4]: يعد كتاب الذهبي" سير أعلام النبلاء " من أكبر الموسوعات التاريخية الشاملة التي بحثت في التراجم والطبقات ، ومن خصائص موسوعة الذهبي أنها احتضنت سبعة قرون ونيفاً من تاريخ رجال الإسلام ،وذلك منذ فجر الدعوة الإسلامية وحتى سنة(746هـ= 1345م) كما أنها تناولت جميع طبقات الشعب، خلفاء وسلاطين وملوك، وحكام، وأمراء، وشعراء، وأدباء ونحاة، ومسلمين، وغير مسلمين. وقد أفادت الدراسة من هذه الموسوعة في معظم فصول الدراسة إذ زودتنا بمعلومات وفيرة عن عدد كبير من العلماء والفقهاء وغيرهم ممن ورد ذكرهم في الدراسة.

---

(1) عنان، مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصري، ص79.

(2) هو شمس الدين محمد بن بكر، ولد في أربيل سنة 608 هـ=1211م، وعين في وظيفة نائب قاضي القضاة وهو لم يبلغ بعد التاسعة والعشرين من العمر، ثم عين قاضياً للقضاة في دمشق عام 659هـ=1260م، ،كان ابن خلكان إماماً ذكياً وبارعاً، وإخبارياً عالماً بالشعر والتاريخ وأيام الناس، توفي سنة 681هـ=1282م. أنظر، أبو الفداء، المختصر في تاريخ البشر، ج2، ص350؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج17، ص281؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج7، ص210. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص305.

(3) عبد الله، معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر الهجري، ص77.

(4) هو شمس الدين محمد الذهبي، ولد بدمشق سنة 673هـ=1274م، وبرع في علوم الحديث والقراءات والتاريخ، صنف مصنفات عديدة بلغت حوالي مائة مصنف ، وفي عام 741هـ=1340م، فقد بصره فانقطع عن التأليف، واكب على التدريس بمدارس دمشق حتى وفاته سنة 748هـ=1347م،.الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج1، مقدمة المحقق، ص13-15؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج10، ص144، 145؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج3، ص153-155.

وهناك مصادر أخرى للذهبي أفادت الدراسة ، منه ا" :تذكرة الحفاظ " و"العبر في خبر من غبر " ، و"تاريخ الإسلام" ووفيات المشاهير والأعلام."، و " ميزان الاعتدال".

3- **تاج الدين السبكي**[1]:كتاب " طبقات الشافعية الكبرى" هو حافل بتراجم علماء الشافعية، وأحوالهم العلمية، والاجتماعية، وقد استفدت منه في أغلب فصول الرسالة، خاصة في ترجمة الكثير من علماء الشافعية ومعرفة أحوالهم الاجتماعية والعلمية.

4-**ابن رجب**[2]: كتاب "الذيل على طبقات الحنابلة" جعله ابن رجب ذيلا لطبقات الحنابلة للفقيه أبي الحسين بن أبي يعلى الفراء البغدادي الحنبلي(ت526هـ=1113م)، ورتبه على الوفيات،لا على الأحرف كما فعل الأول؛ و كتابه هذا تاريخ حافل بالأخبار عن الحنابلة ومذهبهم،على امتداد قرابة ثلاثة قرون من سنة (460 هـ=1067م)، إلى سنة (751هـ= 1350م)؛ و قد احتوى على نصوص ورسائل عديدة إلى الكثير من الفقهاء الحنابلة، وفيه كذلك فتاوى، و اختيارات فقهية كثيرة، لكبار علماء الحنابلة[3]، وقد وثق ابن رجب كتابه بذكره لمصادره وعزوه الروايات لأصحابها كما انه لم يكتف بالنقل والسرد للحوادث، بل كثيرا ما كان يعلق، و يناقش ويرجح مبديا رأيه في كثير من المسائل التي يتطرق إليها[4]؛ وقد استفدت من كتابه هذا في بعض فصول الدراسة، خاصة في ترجمة الكثير من علماء الحنابلة ومعرفة أحوالهم الاجتماعية والعلمية.

---

(1) هو تاج الدين السبكي، عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي، أبو نصر، قاضي القضاة، المؤرخ، الباحث. وقيل السبكي نسبته إلى سبك (من أعمال المنوفية بمصر)، ولد في القاهرة، سنة 727هـ=1326م، وانتقل إلى دمشق مع والده، فسكنها، وكان طلق اللسان، قوي الحجة، انتهى إليه الأمر إلى قضاء الشام وعزل عنه، وتعصب عليه شيوخ عصره فاتهموه بالكفر واستحلال شرب الخمر، وأتوا به مقيدا مغلولا من الشام إلى مصر .ثم أفرج عنه، وعاد إلى دمشق، من تصانيفه " طبقات الشافعية الكبرى و" معيد النعم ومبيد النقم " و" جمع الجوامع" توفي بالطاعون سنة 771هـ=1369م.أنظر، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج12، ص137 ابن كثير البداية والنهاية، ج12، ص221؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص54؛الزركلي، الأعلام، ج4، ص184.

(2) هو زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الشيخ الزاهد، الإمام العالم المقرىء، شهاب الدين، أبي العباس أحمد بن حسن بن رجب، توفي سنة 795هـ=1392م. للمزيد عن ترجمتة أنظر، ابن العماد، شذرات الذهب، ج4، ص134-138.

(3) ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج2، ص154.

(4) علال، الحركة العلمية الحنبلية وأثرها في المشرق الإسلامي، ص7،8.

5-ابن العماد[1]: كتاب " شذرات الذهب في أخبار من ذهب" جمع فيه ابن العماد بين التراجم و الحوادث، مع التركيز على التراجم، وذكر فيه الوفيات حسب السنين، من القرن الأول إلى نهاية القرن العاشر الهجري، القرن السابع إلى السادس عشر ميلادي، وأدخل في كتابه معظم ما كتبه ابن رجب في الذيل على طبقات الحنابلة؛ ونقل عنه نقلا حرفيا في كثير من الأحيان[2]؛ وقد أفاد الدراسة بالكثير من تراجم العلماء.

ومن كتب التراجم والطبقات التي أفادت الدراسة، أيضاً: كتاب "طبقات الحنابلة" لابن أبي يعلي(ت.526هـ=1228م)، وكتاب" عيون الأنباء في طبقات الأطباء"،لأبن أبي أصيبعة(ت.668هـ=1269م)، وكتاب "الوافي بالوفيات" لابن أيبك الصفدي (ت 764هـ=1363م)، وكتاب "فوات الوفيات" لابن شاكر الكتبي(ت.764هـ=1362م) وكتاب "المنهل الصافي" لابن تغري بردي (ت.874هـ=1464م).

ثالثاً كتب الجغرافيا والرحلات:

قدمت كتب الجغرافيا معلومات قيمة عن الكثير من المدن والقرى، من الناحية الجغرافية لبلاد الشام موضوع الدراسة واستفاد الباحث من هذه المصادر خلال تعريفه للكثير من المناطق الإسلامية في بلاد الشام ومصر، أما كتب الرحلات فقد كان لأصحابها دور كبير في جمع المعلومات المتنوعة من خلال مشاهدتهم، وتجاربهم، وعلاقاتهم العامة والخاصة مع الناس من مختلف الطبقات الاجتماعية، وقد أفادت هذه الكتب الدراسة بمعلومات كثيرة لم تذكرها كتب التاريخ العام وكتب التراجم، ومن هذه المصادر:

ابن جبير[3]: هو سجل لكل ما شاهده في بلاد الشام في كتاب "تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار" المعروف برحلة ابن جبير، من خلال زيارته لتلك البلاد، حيث دون فيها مشاهداته في

---

(1) هو شهاب الدين أبي الفلاح بن العماد الحنبلي، توفي سنة، 1089هـ=1678م، أنظر، ابن العماد، شذرات الذهب، ج1، مقدمة المحقق، ص5-8.

(2) علال، الحركة العلمية الحنبلية وأثرها في المشرق الإسلامي، ص9.

(3) هو محمد بن أحمد الأندلسي، ولد في مدينة بلنسية 540هـ=1145م، وتلقى العلم على شيوخ عصره في غرناطة، وسبتة، وقام ابن جبير بثلاث رحلات إلى المشرق الإسلامي، الأولى سنة 578هـ=1182م، وانتهى منها بعودته إلى نابلس سنة 581هـ=1185م، والثانية في سنة 585هـ=1189م، أي بعد أن استرد السلطان صلاح الدين بيت المقدس، أما الثالثة فكانت في سنة 614هـ=1217م، ولكن لم يطل به العمر حيث توفي في لإسكندرية في العام نفسه.ابن جبير، الرحلة، مقدمة المحقق، ص6-10؛ سالم، التاريخ والمؤرخون =

رحلته الأولى إلى المشرق سنة(578 هـ= 1182م)، والثانية سنة(585هـ=1189م)، والتي أشار إلى القوافل التجارية التي كانت تعبر البلاد المحتلة، كما تحدث عن الضرائب التي كان يفرضها الاحتلال الصليبي على السكان، ودوّن ما شاهده عن الأسرى المسلمين. و قد أفادني بمعلومات قيمة عن الحياة العلمية والمذهبية بمصر، والشام.

ج- **ياقوت الحموي**(1):يعتبر كتابه "معجم البلدان"، من أهم مؤلفاته، فهو بمثابة موسوعة جغرافية قائمة بذاتها، نظراً لوفرة المادة التي أوردها وتحدث فيها عن البلدان والأقاليم والمدن والجبال والأنهار، وكتاب معجم البلدان مرتب وفق الحروف الأبجدية ولا غنى عنه للباحث في التاريخ والجغرافيا والأدب وتاريخ البلدان خاصة في تحقيق أسماء المدن والبلدان والمعالم الجغرافية(2)، وقد أفاد منه الباحث من حيث كونه المصدر الأول للتعريف بالبلدان والمدن والقرى التي تناولتها الدراسة.

ومن المصادر الجغرافية الأخرى التي استفاد منها الباحث، كتاب "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"، للمقدسي(ت.380هـ=990م)،وكتاب "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" للإدريسي (ت.560هـ=1124م)، ورحلة ابن بطوطة(ت.776هـ= 1374م)، وغيرها من المصادر الجغرافية وكتب الرحالة.

بالإضافة إلى المصادر سالفة الذكر فقد استفاد الباحث خلال دراسته من عدد من المصادر الأخرى من بينها على سبيل المثال لا الحصر:كتاب "ذيل تاريخ دمشق" لابن القلانسي(ت.555هـ=1159م)، وكتاب "بغية الطلب في تاريخ حلب"، و"زبدة الحلب في تاريخ حلب" لابن العديم (ت.660هـ=1261م)،وكتاب "ذيل مرآة الزمان" لليونيني (ت.726هـ=1325م)، وكتاب "نهاية الأرب في فنون الأدب" للنويري(ت 732هـ=1331م)، وكتاب " صبح الأعشى في صناعة الإنشاء" للقلقشندى(ت.821هـ=1418م)، ومصادر عديدة

=

العرب، ص220-221. عوض، الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، ص283-287.

(1) هو ياقوت بن عبد الله، ولد في الفترة الواقعة بين سنتي 574-575هـ، ببلاد الروم، ولكنه وقع في الأسر وهو صغير فاشتراه أحد تجار بغداد كي يعتمد عليه في تجارته، وتنقل ياقوت بين كثير من الأمصار وتوفي بظاهر مدينة حلب سنة 626هـ=1228م.ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج6، ص127-129. اليافعي، مرآة الجنان، ج4، ص59. فراج، معجم البلدان لياقوت الحموي، مجلة العربي، العدد 141، ص78. سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، 196. الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، ص774. عوض، الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، ص75،73.

(2) البيشاوي، نابلس الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية في عصر الحروب الصليبية، ص26.

أخرى. أضف إلى ذلك ما قدمته لنا المصادر اللغوية من فائدة عظيمة في شرح وتفسير بعـــض المصطلحات العربية ونخص بالذكر: كتاب "لسان العرب" لابن منظور(ت 711هـــ= 1311م).

الفصل الأول:

مظاهر الفساد في المجتمع الإسلامي زمن الحروب الصليبية

المبحث الأول: الفساد الأخلاقي وشيوع المنكرات.

المبحث الثاني: الصراع المذهبي والسياسي.

المبحث الثالث: الانحرافات العقائدية والفكرية.

المبحث الأول:

الفساد الأخلاقي وشيوع المنكرات.

- تعاطي الخمور والمخدرات.
- تفشي ظاهرة الرشوة.
- الغناء والمجون والزنا.

تمكن أعداء الإسلام من الغزو المزدوج (العسكري والفكري)، لديار الإسلام وكانوا يهدفون إلى القضاء على كل ما من شأنه أن يجمع شمل المسلمين ويوحد كلمتهم. قد كان المسلمون في غفلة، من هذا الخطر الداهم، وغارقين في صراعات، سياسية ومذهبية، مميتة استنزفت الكثير من طاقاتهم البشرية، والمادية، وعملت على اضطراب الأحوال الاجتماعية داخل مجتمعاتهم، مما زاد من التفكك والضعف، فظهرت المفاسد الأخلاقية وشاعت المنكرات داخل المجتمع المسلم؛ ومع أن وجود المنكر في المجتمع أمر طبيعي، إذ لا يخلو مجتمع في أي حقبة من حقب الحياة، من المنكرات، ولكن الذي ليس من الطبيعي أن تشيع هذه المنكرات والفواحش بين طبقات المجتمع، ولا يستطيع السيطرة عليها، أو أن تكون السلطة الحاكمة غير قادرة على القضاء على هذه الفواحش والمنكرات، فالرسول صلى الله عليه وسلم حذرنا من ذلك البلاء في قوله:" يا معشر المهاجرين خصال خمس إن ابتليتم بهن و نزلن بكم أعوذ بالله أن تدركوهن لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا إلا فشا فيهم الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم و لم ينقصوا المكيال و الميزان إلا أخذوا بالسنين و شدة المؤنة و جور السلطان و لم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا المطر من السماء و لولا البهائم لم يمطروا و لا ينقضوا عهد الله و عهد رسوله إلا سلط عليهم عدو من غيرهم فيأخذ بعض ما في أيديهم و ما لم يحكم أئمتهم بينهم إلا جعل بأسهم بينهم"[1].

وقد انتشرت بعض الخصال التي ذكرها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وسادت في المجتمع الشامي والمصري قبيل الغزو الصليبي، وكذلك أثناء الاحتلال الصليبي لهذين الإقليمين،إلا أن الإشارة إلى مظاهر الفساد الأخلاقي وشيوع المنكرات، في المجتمع الإسلامي في حقبة الدراسة ليست هدفاً في حد ذاته، بل إن الهدف من ذكرها وما صاحبها ولازمها من حركة إصلاح قادها جمع من العلماء الأفاضل، حاربوا وتصدوا لتلك المظاهر، مما مكنهم من خلق مجتمع مسلم واعٍ عفيف، كل ذلك مهد لانتقالهم إلى مرحلة الإعداد والبناء والتحرير.

(1) البيهقي، السنن الكبرى وفي ذيله الجوهر النقي، ج3، ص196.

تعاطي الخمور والمخدرات:

لقد كان من أبرز المنكرات، المنتشرة في المجتمع، تعاطي الخمور والمخدرات وصنعها بشكل لافت للنظر، حيث تذكر المصادر أن أسعار العنب كانت ترتفع في موسم قطف العنب لكثرة ما كان يعصر منه" وفي هذا الشهر{شهر رمضان من سنة 592هـ}، غلا سعر الأعناب لكثرة العصير منها وتظاهر به أربابه لتحكير تضمينه السلطاني، واستيفاء رسمه بأيد مستخدميه، وبلغ ضمانه سبعة عشر ألف دينار"(1)، وكان الناس يتظاهرون بشرب الخمر وخاصة في بعض احتفالاتهم ومواسمهم، ومما يؤكد أن هذه الظاهرة كانت منتشرة في المجتمع، انه كان لصناعة الخمور أماكن خاصة موجودة في مصر والشام، منها ما كان في منطقة الأغوار الشمالية والجنوبية(2)، وكذلك في مدن متعددة من فلسطين لكثرة زراعة الكروم وخاصة في مدينة الخليل(3) وسميت قرية من قرى الرملة باسم العنب(4)، لكثرة زراعة العنب فيها وكثرة محصوله، وكذلك كانت هناك أماكن خاصة لشرب الخمور وتعاطي المخدرات، وارتكاب المعاصي، والمنكرات المتعددة ومن هذه الأماكن خان الزنجاري بالعقيبة أحد أحياء دمشق(5).

ويصف لنا المقريزي عن حالة المجتمع المصري في وصفه لحوادث عام (590هـ= 1193م)، بقوله:" في متجدّدات سنة تسعين وخمسمائة، وكان قد تتابع في شعبان أهل مصر والقاهرة على إظهار المنكرات، وترك الإنكار لها، وإباحة أهل الأمر والنهي لها وتفا حش الأمر فيها إلى أن غلا سعر العنب لكثرة من يعصره، وأقيم طاحون لطحن الحشيش بالمحمودية، وأفردت برسمه وحميت بيوت المز(6)، وأقيمت عليها

---

(1) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ص34.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص91؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك،ج1، ص137،136؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة،ج2، ص13؛ غوانمة، التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي، ص106.

(3) الخليل، هي إحدى مدن فلسطين، تقع بالقرب من البيت المقدس بينهما مسيرة يوم فيه قبر الخليل إبراهيم عليه السلام في مغارة تحت الأرض وهناك مشهد وزوار وقوام في الموضع وضيافة للزوار والخليل اسمه الأصلي حبرون وقيل حَبرى. ياقوت الحموي، معجم البلدان،ج2، ص178.

(4) خسرو، سفرنامة، ج1، ص55؛ العليمي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج2، ص147.

(5) ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص166.

(6) المزرِ هو نبيذ الذرة و يقال هو كريم المزر، وقيل، نَبيذ الذُّرة والشَّعير والحِنطة والحُبوب وقيل، نبيذ الذرة خاصّة، تمزّر المزر وهو السكركة، نبيذ الذرة تذوّقه شيئاً بعد شيء. قال: تكون بعد الحسو والتمزر في فمه مثل عصير السكر، وما اتخذ من الشعير فهو الجعة ومن الذرة السكركة والسقرقة.ابن سيده،المخصص،ج3،ص203؛الزبيدي،تاج العروس من جواهر القاموس،ج1،ص3489؛ مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط ج2، ص653.

الضرائب الثقيلة، ...وحملت أواني الخمر على رؤوس الأشهاد، وفي الأسواق من غير منكر وتجاهر الكافة بكل قبيح فترقب أهل المعرفة حلول البلاء"[1].

وفي موضع آخر يصف المقريزي وصفاً خطيراً، ما كان شائعاً في المجتمع من مفاسد ومعاصي، حتى وصل الأمر، إلى إباحة هذه المعاصي حسب وصف المقريزي لتلك الأحوال وصار الناس وأهل المعرفة، ينتظرون حلول البلاء عليهم، فيقول "...وفي سنة تسعين وخمسمائة.....وقبل عيد الصليب بسبعة أيام بدت في هذا اليوم من مخايل[2] القوم ما يوجبه سوء الأفعال من المجاهرة بالمنكرات، والإعلان بالفواحش، وقد أُفرط في هذا الأمر، واشترك فيه الآمر والمأمور، ولم ينسلخ شهر رمضان، إلا وقد شهد ما لم يشهده رمضان قبله في الإسلام وبدا عقاب الله في الماء الذي كانت المعاصي على ظهره فإن المراكب كان يركب فيها في رمضان الرجال والنساء مختلطين، مكشفات الوجوه وأيدي الرجال تنال منها ما تنال في الخلوات، والطبول، والعيدان مرتفعات الأصوات، والصنجات واستنابوا في الليل عن الخمر بالماء، والجلاب[3] ظاهراً، وقيل: إنهم شربوا الخمر مستوراً وقربت المراكب بعضها من بعض، وعجز المنكر عن الإنكار إلا بقلبه"[4].

وقد أُتهم بعض السلاطين، والخلفاء، والأمراء، بتعاطي الخمور والمخدرات والتغاضي عن محاربة شاربيها، ومتعاطيها أو منع صناعتها، ومع ذلك ذكرت الكثير من المصادر عن الكثير من الخلفاء و السلاطين والأمراء، الذين قاموا بإراقة الخمور وإبطال ضمانها، ومنع التظاهر بشيء من المسكرات[5].

---

(1) السلوك لمعرفة دول الملوك،ج1، ص28.

(2) مخايل، يُعنى بها البشارة، أو الدلالة، على حدوث الشيء، فيقال ظهرت فيه مخايل النجابة، أي دلائلها ومظنتها، ويقال أيضاً: مخايل الرحمة ودلائل المغفرة ما تلألأت أنواره. وقد قيل أن المَخِيْلَةُ ، هي السحابة الخَلِيقة بالمطر وأغزرها، أي أكثرها ماءً. القلقشندى، صبح الأعشى،ج8، ص340؛ الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس،ج10، ص195؛ ابن منظور، لسان العرب،ج11، ص226؛ مصطفى وآخرون،المعجم الوسيط ،ج1، ص267.

(3) جُلاَّب يعني أنه كان يغتسل من الجنابة. ابن منظور، لسان العرب ،ج1، ص272.

(4) المواعظ والاعتبار،ج2، ص116.

(5) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج5، ص81؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص9؛ المقريزي،السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ص224؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج1، ص55، ج3، ص130.

ومن ذلك ما قام به الحاكم بأمر الله[1]، فقد أصدر سجلاً(قرار)، منع بموجبه تعاطي المسكرات، وإقفال الحانات وإراقة ما فيها[2]؛ إلا أنه عاد عن هذا القرار بعد أن أشار عليه طبيبه الخاص أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن انسطاس[3] بفوائد ومنافع النبيذ، وإمكانية التداوى به، فعاد الناس إلى ما كانوا عليه من قبل، إلى شُرب الخمور جهراً[4].

وفي عهد ابنه الظاهر لإعزاز دين الله[5]، خرج المصريون بمناسبة عيد الفصح عند النصارى إلى قنطرة المقس حيث أمضوا نهارهم في اللهو وشرب الخمور رجالاً

---

(1) هو الحاكم بأمر الله ،هو أبو علي ، منصور بن العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله ، أبو تميم ، معد بن المنصور إسماعيل بن القائم محمد بن المهدي عبيد الله العبيدي، الفاطمي، المغربي الأصل، المصري، ولد في القاهرة، وتسلم الخلافة في مدينة بلبيس، بعد وفاة أبيه ،سنة 386 هـ=996م، وعمره إحدى عشرة سنة ،فدخل القاهرة في اليوم الثاني ودفن أباه وباشر أعمال الدولة، وخطب له على منابر مصر والشام وإفريقية والحجاز، وهو، الثالث من خلفاء مصر من بني عبيد، وكان الحاكم في شخصيته التناقض بين شجاعة وإقدام، وجبن وإحجام، ومحبةٍ للعلم وانتقام من العلماء، وميل إلى الصلاح وقتل الصلحاء. وكان الغالب عليه السخاء، وربما بخل بما لم يبخل به أحد قط. استبد الحاكم بالأمر وحده بالحكم وطغى وتجبر ، وساءت سيرته في الرعية وفسدت عقيدته في الدين، وكانت أخته ست الملك عاقلة، وعلمت بزوال الملك عنهم ؛ فعملت على قتله، إلى أن قتل بحلوان خارج القاهرة وكان قتله في ثامن عشرين شوال سنة 411هـ=1030م. أنظر، ابن الأثير،الكامل في التاريخ، ج9، ص117؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج1، ص251؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج28، ص283؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء،ج15، ص173؛ ابن الوردي، تاريخ، ج2، ص78؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،ج1، ص446؛ ابن تغري بردي، مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة، ج1،ص274، 275؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار،ج1، ص331؛ الزركلي، الأعلام، ج7، ص305.

(2) المقريزي، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء،ج2، ص26،25؛ حسن، تاريخ الإسلام، ج4، ص633.

(3) هو أبو يعقوب، إسحق بن إبراهيم بن نسطاس بن جريج، نصراني فاضل في صناعة الطب، وكان في خدمة الحاكم بأمر اللّه ويعتمد عليه في الطب وتوفي إسحق بن إبراهيم بن نسطاس بالقاهرة في أيام الحاكم. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ،ج1 ، ص359.

(4) الأنطاكي، تاريخ، ص269.

(5) هو أبو هاشم، أبو الحسن، علي، الملقب الظاهر لإعزاز دين الله، ابن الحاكم بن العزيز بن المعز ابن المنصور بن القائم بن المهدي عبيد الله صاحب مصر، ولد سنة 395هـ وبويع بالخلافة في يوم عيد الأضحى سنة411هـ=1020م وله من العمر ست عشرة سنة وثلاثة أشهر، كان محبا للعدل، وفيه لين وسكون مع ميل إلى اللهو. توفي سنة 427هـ=1035م، وعمره إحدى وثلاثون سنة وأحد عشر شهرا وخمسة أيام. ومدة خلافته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وخمسة أيام. ابن الأثير،الكامل في التاريخ ،ج 9، ص178؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان،ج3، ص407؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر،ج1، ص252؛الصفدي، الوافي بالوفيات، ج7، ص76؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء،ج15،ص184؛المقريزي،اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج1، ص133؛ الزركلي، الأعلام، ج5، ص25.

ونساءً "واختلط الرجال بالنساء وهم يعاقرون الخمر، حتى حملت النساء في قفاف الحمالين من شدة السكر"[1].

وكان المستنصر بالله الفاطمي[2]، يركب على النجب[3] ومعه النساء والحشم إلى جب عميرة[4]، وهو متزيَ بزي من يريد الحج، ومعه الخمر محمول في الروايا بدلاً من الماء، ويدور به سقاته عليه وعلى من معه كأنه في مجلسه هناك حتى شبهه المقريزي بقوله:"كأنه ماء زمزم"[5]، وهو بذلك يشبه الخمر بماء زمزم التي يشربها الحجاج عند العطش.

وراجت في أيام الأفضل بن بدر الجمالي[6]، الخمره وكثر من يشربها، ولكن ما إن قتل الأفضل حتى أصدر خليفته في الوزارة بن البطائحي[7] إلى جميع ولاة الأعمال

---

(1) المقريزي، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج1، ص138.

(2) هو أبو تميم معد الملقب بالمستنصر بالله بن الظاهر لإعزاز دين الله علي بن الحاكم بأمر الله منصور بن العزيز بالله بن المعز لدين الله معد أول خلفاء الفاطميين بمصر ابن المنصور بالله إسماعيل بن القائم بالله محمد بن المهدي عبيد الله العبيدي الفاطمي المغربي الأصل، المصري المولد والمنشأ والدار والوفاة؛ وهو الخامس من خلفاء مصر من بني عبيد، والثامن من المهدي عبيد الله. ولي الخلافة بعد موت أبيه الظاهر لإعزاز دين الله في يوم الأحد منتصف شعبان سنة 427هـ=1035م، وكان عمره يوم ولي الخلافة سبع سنين وسبعة وعشرين يوماً؛ وختن وهو ابن ست سنين. توفى سنة 487هـ=1093م، وكانت خلافته ستين سنة. أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج2، ص152؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج33، ص228؛ ابن تغري بردي،النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،ج1، ص484؛ المقريزي، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج3، ص214.

(3) النُجُبُ، جمع النجيب، ومعناه الإبل. ابن منظور، لسان العرب ،ج1، ص748؛ الجوهري، الصحاح في اللغة، ج2، ص193.

(4) يقع في الجهة البحرية(الشمالية) من القاهرة، ويسمى أيضاً بركة الحجاج إذ كان الحجاج يجتمعون بهذا الموقع قبل سفرهم الى الحج وعند عودتهم. وعميرة هو ابن تميم بن جزء التجيبي من بني القرناء، نسبت هذه الأرض عليه، فقيل لها: أرض جب عميرة اليعقوبي، البلدان، ج1، ص43؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2 ، ص117.

(5) اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج1، ص188.

(6) هو الأفضل بن بدر الجمالي، أبو القاسم شاهنشاه، الملقب بالملك الأفضل، ابن أمير الجيوش بدر الجمالي ولد سنة، 458هـ=1066م، تولى وزارة مصر بعد وفاة والده سنة،466هـ=1073م ، وسيطرة على مقاليد حكم مصر سيطرة تامة، ونصب ابن الخليفة المستنصر بالله بعد وفاته ابنه الطفل المستعلي بالله 487-495هـ=1094-1101م، وأصبح واصياً عليه، وحجر عليه، وساء في حكمه للبلاد، و استبدل المذهب الاسماعيلي بالمذهب الاثنا عشرية الأمامية توفي سنة 488هـ.ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص488؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج17، ص425؛ المقريزي، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج2، ص329.

(7) هو الملك أبو عبد الله محمد بن فاتك المأمون البطائحي، الملقب (بالمأمون) عمل حمالا في السوق بمصر، في بداية حياته، فرآه الأفضل شابا مليحا، خفيف الحركات، فاستخدمه فراشا مع الجماعة، فتقدم وتميز، وترقى به الحال إلى الملك، وهو الذي أعان الآمر بالله على الفتك بأمير الجيوش، وولي

=

بغلق جميع قاعات الخمارين في سائر الأعمال وأن ينادي بأنه" من تعرض لبيع شيء من المسكرات، أو لشرائها سراً أو جهراً فقد عرض نفسه لتلافها وبرئت الذمة من هلاكها"[1].

كذلك وصل الأمر بالسلطان الظاهر بيبرس[2] إلى أن يصلب أحد شاربي الخمر يدعى بابن الكازروني، ليكون عبرة لغيره[3]؛ ومع هذا فقد أشارت بعض المصادر أن الظاهر بيبرس، عقد مجلساً لشرب القمز[4] سنة (676هـ=1271م)،"وعظم سروره وفرحه، فأكثر من الشرب، وبعد انقضاء المجلس توعك" وظل حتى مات[5].

ولعل السلطان بيبرس كان يرى أن شراب القمز ليس خمراً، مع انه مسكر بدليل أنه كان يواظب على شربه هو والأمراء، حتى في أيام منع المنكرات[6].

=

منصبه، وكان شهما مقداما، جوادا بالأموال، سفاكا للدماء، قتل سنة 519هـ=1125م. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص475؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج19، ص533.

(1) المقريزي، المواعظ والاعتبار،ج2، ص119؛ المقريزي، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج1، ص236.

(2) هو الملك الظاهر بيبرس الأول، ركن الدين، البندقداري العلائي الصالحي، الملك الظاهر، صاحب الفتوحات و الإخبار والآثار، مولده بأرض القبچاق، سنة 625 هـ=1227م، وأسر فبيع في سيواس، ثم نقل إلى حلب، ومنها إلى القاهرة، فاشتراه الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار، وبقي عنده، فلما قبض عليه الملك الصالح (نجم الدين أيوب) أخذ بيبرس، فجلعه في خاصة خدمه، ثم أعتقه، رابع من تسلطن بمصر والشام من المماليك البحرية الأتراك، وتلقب بالملك (القاهر، أبي الفتوحات) ثم ترك هذا اللقب وتلقب،بالملك (الظاهر)، وكان شجاعا جبارا، يباشر الحروب بنفسه، وله الوقائع الهائلة مع الصليبيين التتار وله الفتوحات العظيمة، توفي سنة،676هـ=1277م ودفن بالمدرسة الظاهرية الكبرى بدمشق. ابن كثير، البداية والنهاية ،ج13 ص321؛ ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور،ج1، ص308؛ الزركلي، الأعلام، ج2، ص79؛ الشهابي، معجم ألقاب أرباب السلطان، ص134.

(3) ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص333؛ الصفدي،الوافي بالوفيات،ج3، ص444؛ الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر، ج2، ص296؛ الكتبي، فوات الوفيات، ج1، ص245.

(4) القمز، ويقال قمز قُمزة والقمز، وشراب القمز الرُّذالُ الذي لا خير فيه وهو عبارة عن لبن الفرس(الخيل) المحمض، وقد عرف المماليك شربه في موطنهم الأصلي، ويعتقد انه كان غير معروف في مصر قبلهم.المقريزي،السلوك لمعرفة دول الملوك،ج1،ص342؛ الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس،ج15، ص289؛ النجار وآخرون، المعجم الوسيط ،ج2 ،ص433.

(5) عُقد مجلس الشرب هذا في محرم من سنة، 676هـ=1277م، وتوفى الظاهر بيبرس في نفس الشهر من هذه السنة أثر وعكة صحية أصابته. أنظر، المقريزي،السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ص213؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،ج2،ص305؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج3، ص441؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج50، ص29.

(6) أنظر،المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك،ج1، ص318،315؛ نصار، وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك، ص116.

والواقع أنه ومع انغماس الناس من ذوي الجاه والشأن في تعاطي الخمور والمخدرات فإن ذلك أدى إلى الإمعان في الاستزادة من التعاطي، وأصبحت مجالس الشراب، والتعاطي من الأمور المألوفة في تلك الحقبة. وقد شغف كثير من حكام مصر والشام بتلك المجالس المليئة بالمعاصي والذنوب وأظهروا بذخاً كبيراً فيها(1). فقد عُرف عن سلاطين المماليك شغفهم بشرب الخمر حتى أصبح من عاداتهم المرعية، فهذا الملك السعيد محمد(2) بن الملك الظاهر بيبرس، بعد أن أرسل جيشاً إلى سيس(3) "أخلد إلى الراحة وأخذ في اللهو واللعب فهذه المجالس كان يجري فيها من المعاصي، من شرب خمر، وغناء، وهذا ما يدل على انتشار تلك المجالس التي أصبحت ظاهرة لا يمكن تجاهلها"(4).

والحقيقة المؤلمة والتي لا يستطيع الباحث أن ينكرها، هي أن عصر سلاطين المماليك الأول والثاني، امتلأ بكثير من الأمراض الاجتماعية الخبيثة والتي انتشرت بين جميع الطبقات حكاماً و محكومين، من أهل الدنيا والدين، ومن خلال الدراسة الدقيقة لتاريخ سلاطين وأمراء المماليك، أنهم كانوا مصابين بمرض ازدواج الشخصية، فحرصت الغالبية العظمى منهم على إظهار أكبر قدر ممكن من التقوى والورع والتدين في حياتهم العامة، في حين أنهم لم يتحرجوا في حياتهم الخاصة، من ارتكاب أشد أنواع المنكرات والموبقات؛ وربما كان للثروة التي تدفقت عليهم أثر في ذلك الفساد، على حد قول ابن خلدون(5).

وكذلك تفشى تعاطي الحشيش في مصر والشام وخاصة في عصر المماليك، وقد قال المقريزي عن ظاهرة تعاطي الحشيش في أيامه:" وقد فشت هذه الشجرة الخبيثة في

---

(1) قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص337؛ نصار، وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك في مصر، ص113.

(2) هو الملك السعيد محمد بركه خان، ابن الظاهر بيبرس، وأخذ له أبوه البيعة من الأمراء وأركبه ومشى الأمراء بين يديه، وبعد وفاة أبيه تسلم السلطنة سنة 677هـ=1278م، وله ثمان عشرة سنة، ثم خلع وولي أخوه الملك العادل سلامش، توفي سنة 678هـ=1279م. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص285؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار،ج3، ص215؛ العليمي،الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل،ج2، ص88؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص349؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص198؛ الزركلي، الأعلام، ج7، ص287.

(3) هو بلد من أعظم مُدن الثغور الشامية يقع بين أنطاكية وطرسوس على عين زربة وبها مسكن ابن ليون سلطان تلك الناحية الأرمني، ويقال عنها سِيسِية وعامة أهلها يقولون سيس. ياقوت الحموي،معجم البلدان،ج3، ص13.

(4) ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور،ج1، ص290.

(5) المقدمة، ص418؛ عاشور المجتمع المصري، ص248.

وقتنا هذا فشوّاً زائداً، وولع بها أهل الخلاعة والسخف ولعاً كثيراً، وتظاهروا بها من غير احتشام بعدما أدركنا أنها تعدّ من أرذل الخبائث وأقبح القاذورات، وما شيء في الحقيقة افسد لطباع البشر منها، ولاشتهارها في وقتنا هذا، عند الخاص والعام بمصر والشام والعراق والروم"[1].

وفرض على الحشيش في أوائل عصر المماليك ضريبة تمد الدولة بأموال وافية، حتى ألغيت زمن الظاهر بيبرس سنة (658-676هـ=1260-1277م)، والذي أمر" بإبطال ضمان الحشيش من ديار مصر كلها في سنة خمس وستين وستمائة"[2]، ولم يقتصر تعاطي الحشيش على الطبقات الدنيا من المجتمع، بل تخطاها إلى غيرها من الطبقات[3].

ومما يؤلم ويؤسف له في هذا الجانب، أن هذه الآفة شغف بها الكثير من العلماء والقضاة، بل أفتى بعض القضاة بإباحة أكلها[4]؛ كذلك شغف بعض من علماء الصوفية بالحشيش شغفاً كبيرا، حتى زرعوا نباتها في بيوتهم، ونسب إليهم المعاصرون من شدة شغفهم بـ" حشيشة الفقراء"[5]، وفي سياق ترجمتة لأحد علماء الصوفية يقول الإمام الذهبي: " إلا أنه كان يأكل الحشيشة .... ويقول: هي لقيمة الذكر والفكر"[6].

ونظم الكثير من الشعراء والأدباء، الكثير من الأشعار الغرض منه إيضاح مزايا الخمر وتفضيله على الحشيش، أو تفضيل الحشيش على الخمر، ومن تلك الأشعار:

غنّني يا ساقي الراح بها ..... ليس يُغني فاقتي إلا غناها

وامـلَ لي حتى تراني ميّتاً ..... إن موت السُكر للنفس حياها

ليس في الأرض نباتٌ أنبتت..... فيه سرٌ حيّر العقل سواها

---

(1) المواعظ والاعتبار،ج 2 ، ص290.
(2) المقريزي،المواعظ والاعتبار،ج1،ص133؛ ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور،ج1، ص104.
(3) المقريزي، المواعظ والاعتبار،ج2، ص117؛ عاشور، المجتمع المصري، ص252.
(4) السخاوي، الضوء اللامع، ج5،ص205.
(5) المقريزي، المواعظ والاعتبار،ج2، ص290.
(6) تاريخ الإسلام ،ج51، ص321.

رامـــت الخضراء تحكي سُكرها..... قـــتلوها بعـــد تقـــطيـــع قـــفـــاهـــا[1].

وقالوا في مدح الحشيش:

في خمـــار الحـــشيش معنى مرامي ..... يـــا أهـــل العـــقول والأفـــهام

حـــرموها من غـــير عـــقلٍ ونـــقل..... وحـــرام تـــحريم غير الحرام[2].

أما ما قاله الشعراء في تفضيل الحشيش على الخمر:

وخـــضراء لا الحـــمراء تفعل فعلها..... لـــها وثـــبات في الحـــشا وثـــبات

تـــؤجج نارا في الحشا وهي جـــنة..... وتـــبدى مريـــر العيـــش وهي نبات[3].

وقالوا أيضاً:

قـــل للـــذي تـــرك الحشيـــشة جاهلا .....ولـــه بكـــاسات المـــدام ولـــوع

إن المـــدامة لـــو أردت تـــطـــوعـــا.....لـــهى المـــحرم والحشـــيش ربيع[4].

واشتهرت أرض الطبالة وباب اللوق بزراعة الحشيش في ذلك العـــصر[5]، وقـــد لجأ سلاطين وأمراء هذه الحقبة التاريخية، في أوقـــات الـــشدائد مـــن وقـــوع الكـــوارث والمجاعات، إلى إراقة الخمور وتحريم تعاطيها في مختلف أنحاء البلاد إظهـــاراً للتوبـــة وبضغط من عامة الناس على السلاطين بمنع المسكرات وبيع الزبيب والعنب إلا لحاجـــة. "منع من بيع الزبيب... ومُنع من بيع العنب إلا أربعة أرطال فما دونهـــا، ومنـــع مـــن عصره وطُرح كثير منه وديس في الطرقات، وغرّق كثير منه في النيل"[6]. وقد ذكر ابن

---

(1) الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر،ج3، ص38؛ الصفدي،الوافي بالوفيات،ج7، ص370؛ ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ،ج2، ص157.

(2) ابن كثير،البداية والنهاية،ج13، ص370؛ العيني،عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج1، ص207؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي،ج1،ص144؛ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ،ج2، ص370؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص403.

(3) العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج1، ص521.

(4) الكتبي، عيون التواريخ، ج5، ص231.

(5) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2، ص293.

(6) المقريزي،المواعظ والاعتبار،ج 3، ص8؛ عاشور، المجتمع المصري في عهد المماليك، ص256.

الأثير وأبو شامة، أن الناس خرجوا للاستسقاء، لانقطاع الغيث وشدة الغلاء وطالبوا الأمير سيف الدين غازي بن مودود[1]، بمنع الخمور لكي يزول غضب الله عنهم[2]. ولكن هذه الأوامر لم تكن تستمر إلا مدة قصيرة من الزمن، يعود الناس بعدها إلى المجاهرة بشرب الخمر" ولم ينتهوا عما هم فيه!"[3].

تفشي ظاهرة الرشوة:

ومن المفاسد التي عرفت آنذاك، الرشوة، حيث تحتوي المصادر على العديد من الحالات التي تثبت بما لا يقبل الشك أن الرشوة كانت متفشية في هذه الحقبة التاريخية الخاصة بالدراسة. ففي العصر الفاطمي انتشرت الرشوة في المستوى السياسي والديني حيث تتهم بعض المصادر حمزة بن الغلبونى[4] الذي استخلف للقضاء سنة (398هـ= 1007م)، "بقلة الأمانة، وظهور الخيانة، ورقة الدين، واغتصاب مال المسلمين والارتشاء على الحكم، إلى غير ذلك من القبائح"[5].

ولعل ظاهرة الرشوة بين بعض قضاة العصر الفاطمي، كانت سبباً في أن الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي (ت.411هـ= 1020م)، قد أمر بأن يضاعف للحسين بن علي

---

(1) غازي بن عماد زنكي بن آق سنقر، الملقب، بـ، سيف الدين ،صاحب الموصل، ولد سنة 545هـ=1150م ، كان شابا حسنا مليح الشكل تام القامة، مدور اللحية، وكان عفيفا في نفسه، مهيبا وقورا، لا يلتفت إذا ركب وإذا جلس، وكان غيوراً لا يدع أحد من الخدم الكبار يدخل على النساء، وكان لا يقدم على سفك الدماء، وكان ينسب إليه شئ من البخل سامحه الله، وكان غازي منطويا على خير وصلاح يحب العلم وأهله، وبنى بالموصل المدرسة المعروفة بالعتيقة، ، ودفن في مدرسته المذكورة، رحمه الله تعالى. وقد مرض بمرض السل، وطال معه المرض، توفي في ثالث صفر، سنة 576هـ=1180م، وكان عمره نحو ثلاثين سنة وكانت ولايته عشر سنين ونحو ثلاثة أشهر. ابن خلكان، وفيات الأعيان ،ج 4 ، ص 3؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج 11، ص 146؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص116؛ ابن كثير، البداية والنهاية ،ج 12 ، ص 375؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،ج5، ص286.

(2) الكامل في التاريخ، ج11، ص146؛ الروضتين في أخبار الدولتين، ج2، ص18.

(3) ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج3، ص85.

(4) هو حمزة بن علي بن يعقوب أبا القاسم الغَلبوني الوراق استخلفه مالك بن سعيد الفارقي على الحكم، فتمكن في القضاء فشكي الناس منه قلة الأمانة، وظهور الخيانة، ورقة الدين، واغتصاب مال المسلمين، والارتشاء على الحكم، إلى غير ذلك من القبائح. قتل سنة 398هـ=1007م. أنظر، ابن حجر، رفع الإصر عن قضاة مصر،ج1، ص62،138.

(5) الكندي، الولاة وكتاب القضاة، ص609، 610؛ ابن حجر، رفع الإصر عن قضاة مصر،ج1، ص62،138.

بن النعمان[1] رزقه وصلاته واقطاعاته، حتى يحول بينه وبين أخذ الأموال بالباطل كما شرط عليه" ألا يتعرض من أموال الرعية"[2]، وكذلك شاعت الرشوة بين الوزراء الفاطميين، إذ يعيب مؤرخو هذه الحقبة على الصالح بن طلائع رزيك[3]حبه للمال وجمعه من أي سبيل[4]، كما يستنكرون عليه بيعه الولايات لمن يزيد عليها[5]، بحيث جعل مدة الولاية سنة أو ستة أشهر فقط، وأيضاً تتبعه لأرباب البيوتات والنعم والأعيان وسلبه لنعمهم، الأمر الذي ترتب عليه تضرر الناس من كثرة تردد الولاة عليهم. وقد كان طبيعياً

---

(1) هو الحسين بن علي بن النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيُّون، المغربي الإسماعيلي، ولد سنة 353هـ =963م بالمهدية، بالمغرب وقدم مع أبيه القاهرة وهو صغير، فحفظ كتاباً في الفقه ومهر إلى أن صار من أئمة السبعة. واستخلفه عمه محمد بن النعمان بالجامع في الحكم سنة 389هـ=998م، عزل سنة 394هـ. وفي أوّل سنة 395هـ=1004م، قتله الحاكم، وأحرق جثَّته. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج27، ص314؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج4، ص278؛ ابن حجر، رفع الإصر عن قضاة مصر،ج1، ص58؛ الزركلي، الأعلام،ج2، ص245.

(2) الكندي،الولاة وكتاب القضاة، ص579؛متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري،ج1، ص407، 408.

(3) هو طلائع بن رزيك الأرمني، وزير العاضد العلوي، الأرمني ثم المصري الشيعي، وزير عصامي، كان جواداً شجاعاً فاضلاً، يعد من الملوك، أصله من الشيعة الأمامية في العراق. وكنيته أبو الغارات، قدم الى مصر فقيرا، فترقى في الخدم، وسنحت له فرصة فدخل القاهرة، بقوة، فولي وزارة الخليفة الفائز (الفاطمي) سنة 549هـ=1154م، فأحسن الفاطميون إليه وبالغوا في إكرامه، فأقام عندهم، ومدحهم، واستقل بأمور الدولة، ونعت بالملك الصالح فارس المسلمين نصير الدين، ومات الفائز سنة 555 هـ=1159م، وولي العاضد، فتزوج بنت طلائع، واستمر هذا في الوزارة، وكان أديباً شاعراً يحب أهل الفضل، وكان لا يترك غزو الفرنج في البر والبحر، وله ديوان شعر، وكان يجمع العلماء ويناظرهم على الإمامة، وصنف كتاباً سماه الاجتهاد في الرد على أهل العناد يقرر فيه قواعد الرفض، فكرهت عمة العاضد استيلاءه على أمور الدولة وأموالها، فأكمنت له وكان سبب قتله أنه تحكم بالدولة التحكم العظيم، واستبد بالأمر والنهي وجباية الأموال إليه، لصغر العاضد، فكمن له جماعة من السودان في دهليز القصر، ووثبوا عليه بموافقة العاضد فقتلوه سنة 565هـ=1169م. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص526؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ،ج9، ص82؛أبو الفداء ،المختصر في أخبار البشر،ج1،ص335؛الذهبي،تاريخ الإسلام،ج38،ص97؛ الصفدي،الوافي بالوفيات،ج5، ص300،301؛ ابن خلدون، تاريخ، ج4، ص76؛ ابن تغري بردي،النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،ج2،ص99؛ا بن العماد، شذرات الذهب،ج4، ص224؛ الزركلي،الأعلام ،ج3، ص228.

(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ،ج5، ص311.

(5) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج1، ص111.

أن يتبع هؤلاء الولاة نفس الأسلوب مع مرءوسيهم مما أدى في النهاية إلى انتشار الرشوة والفساد، وإرهاق عامة الناس والفلاحين بالضرائب[(1)].

كما فشت الرشوة بين الخلفاء الفاطميين، فهذا الوزير الفاطمي عيسى بن نسطورس[(2)] قبض عليه أعوان الخليفة، العزيز بالله (ت.386هـ =996م)، بسبب فساده فاستشفع عيسى بست الملك، ابنة الخليفة، وقدم لخزانة العزيز ثلاثمائة ألف دينار، ثمناً لاطلاق سراحه[(3)].

وكذلك تفشت الرشوة في العصر الأيوبي، في بعض نواحي الجهاز الإداري، فقد ذكر أن بعض السكان القريبين من خراج السنط[(4)] كانوا يقومون بقطع أخشابها فيأخذون جزءا منه لتعمير السواقي وآلات المعاصر، ويحملون الباقي على مراكب إلى ساحل مصر، حيث دأبوا على دفع رشوة لتسهيل أعمالهم التهريبية، وقيامهم ببيع تلك الأخشاب لحسابهم الخاص بأموال كثيرة[(5)]. ويصف لنا الشيرازي الذي عاصر عهد الأيوبيين أحوال وكلاء القضاة في أخذهم للرشوة بقوله:"وأما الوكلاء الذين بين يدي القاضي فلا خير فيهم، ولا مصلحة للناس بهم في هذا الزمان؛ لأن أكثرهم رقيق الدين يأخذ من الخصمين، ثم يتمسكون فيه بسنة الشرع، فيوقفون القضية، فيضيع الحق ويخرج من بين يدي طالبه وصاحبه"[(6)].

---

(1) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج1، ص112؛ المناوى، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، ص152؛ أحمد، البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك، ص17.

(2) هو عيسى بن نسطورس النصرانيّ، كانت له مكانة عظيمة لدى الخليفة الفاطمي العزيز بالله، وأخته للعزيز، فتولى الوزارة وتملك فيها بمصالح الناس، وكان جباراً قاسي القلب وظف داخل وزارته الكثير من المسيحيين، وفي عهد الخليفة الحاكم بأمر الله قبض عليه وضرب عنقه سنة 393هـ=1002م.أنظر، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق،ج1، ص21؛ ابن الأثير،الكامل في التاريخ، ج9، ص105؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر،ج1، ص238؛ ابن خلدون، تاريخ، ج4، ص55؛المقريزي،المواعظ والاعتبار،ج3، ص277؛ اتعاظ الحنفاء، ج1، ص94.

(3) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ج1، ص21؛ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج4، ص116؛ أحمد، البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك، ص18.

(4) السنط نوع من أنواع الحطب المصري وهو أفضلها. الجبرتي، عجائب الآثار،ج 2،ص 374.

(5) الجبرتي، عجائب الآثار،ج2، ص372،371؛ ربيع، النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، ص138، 140.

(6) نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص 115.

كذلك وصف لنا المقريزي أثناء سرده لأحداث سنة (633هـ= 1235م)، كيف نُصب البطريك أنبا كيرلس داود بن لقلق على ولاية الكنيسة بالإسكندرية على طائفة اليعاقبة[1] للمرة الثانية بطريق الرشوة، في أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب[2]، حيث خلت أرض مصر من الأساقفة، ويروي لنا كيف أن "حبه للرياسة وجمع المال قد أثار عليه أقاربه وأزلامه، فقام عليه ابن التعبان الراهب وعانده وذكر مثالبه، وانه إنما تقدم بالرشوة، فلا تصح كهنويته على حكم القوانين، ومال معه جماعة، وعقدوا له مجلساً بحضور.... شيخ الشيوخ في أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب، وأثبتوا عليه أموراً شنيعة، وعزموا على خلعه،{ لولا أن قام معه} الكتاب المستوفون بديار مصر، وتحدثوا مع الصاحب معين الدين، فقرر مالاً حمله البطريك إلى السلطان، واستمر أنبا كيرلس على بطركيته حتى مات"[3].وكذلك ذُكر أن الملك الظاهر غازي[4] صاحب حلب قد حصل سنة(599هـ=1202م)، على مبلغ عشرين آلاف دينار، وقيل عشرة آلاف دينار

---

(1) اليعاقبة، طائفة من طوائف المسيحيية، ينتسبون إلى يعقوب البرادعي، وهو راهب من القسطنطينية نصب أسقفا في حوالي عام 541م، وانهم خالفوا المسحيون في أعتقادهم، حيث اتبع اليعاقبة المذهب المونوفيزي القائل بالطبيعة الواحدة، ولم يقبلوا بمبدأ (الإلهية والبشرية) في الشخص الواحد للمسيح، وقد نظمت الكنيسة المونوفيزية من قبل يعقوب البرادعي المتوفي سنة 578م، وانتشر مذهب اليعاقبة في صوريا إلى أرمينيا، وفي الشمال ومصر في الجنوب .الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص108-110. حتى، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ص412،413.

(2) هو السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد بن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر ابن الأمير نجم الدين أيوب بن شادي الأيوبي سلطان الديار المصرية ولد بالقاهرة في سنة 603هـ=1206م وبها نشأ، واستخلفه أبوه على مصر لما توجه إلى الشرق فأقام الصالح هذا بمصر وأصلح أمورها ومهد قواعدها وكان مهيباً عالي الهمة، عفيفاً طاهر اللسان والذيل، شديد الوقار، كثير الصمت، وجمع من المماليك الترك ما لم يجتمع لغيره وكان غاوياً بالعمارة، بنى قلعة الجزيرة، وبنى الصالحية، وبنى قصراً عظيماً بين مصر والقاهرة، يسمى بالكبش، وكان آخر سلطان بني أيوب بمصر. توفي سنة 647هـ=1249م. أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر،ج1، ص433؛ابن كثير،البداية والنهاية، ج13، ص180؛ الصفدي،الوافي بالوفيات، ج3،ص350؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج2، ص222؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي،ج1، ص247.

(3) السلوك لمعرفة دول الملوك،ج 1، ص 252.

(4) هو غازي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب، الملقب بالظاهر أبو منصور، وكان من خيار الملوك وأسدهم سيرة، ولكن كان فيه عسف ويعاقب على الذنب اليسير كثيرا، وكان يكرم العلماء والشعراء والفقراء، أقام في الملك ثلاثين سنة، وحضر كثيرا من الغزوات مع أبيه، وكان ذكيا له رأي جيد وعبارة سديدة وفطنة حسنة، توفي في سنة 613هـ=1216م.أنظر،ابن العبري، تاريخ مختصر الدول،ص142؛ أبو الفداء،المختصر في أخبار البشر،ج1، ص390؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج48، ص392؛ ابن كثير،البداية والنهاية،ج13، ص85.

وقرية تسمى القرادي من أعمال شبختان[1] نتيجة لتوسطه في الصلح بين السلطان العادل[2] وصاحب ماردين[3]،[4].

ويمكن أن نُجمل القول بأن الرشوة كانت متمكنة في النفوس بدليل إقدام السلاطين عليها، إلا أن الحق يملئ علينا أن ننزه بعض السلاطين عنها أمثال العزيز بن صلاح الدين[5] فقد ورد في المصادر أن عبد الكريم البيساني[6]بذل له في سنة(591هـ= 1194م) على أن يكون قاضياً على الإسكندرية أربعين ألف دينار مصرية وكان رسوله في ذلك الأمير فخر الدين جهاركس[7] الذي بذل له أيضا خمسة آلاف دينار[8]؛ إلا أن العزيز رفض هذا العرض في وقت كان في غاية الحاجة إلى المال وقال للأمير فخر الدين: "هذه خزانة مال قد أتيتك بها من غير طلب ولا تعب .... أعد المال إلى صاحبه ، وقل له إياك والعود إلى مثلها، فما كل ملك يكون عادلا، وعرفه أنني إذا قبلت هذا منه أكون قد بعت به أهل الإسكندرية، وهذا لا افعله أبدا ، فلما سمع هذا

(1) شبختان، ذكر المقدسي في أحسن التقاسيم بأن ديار ربيعة القريبة من شبختان هي قصبة الموصل شمال العراق أنظر،،ص130. وعلى هذا الأساس فأن شبختان تقع في شمال العراق.

(2) هو أبو بكر بن أبي الشكر أيوب بن شادي، الملقب بالملك العادل، أخو صلاح الدين الأيوبي، تنقل في الممالك في حياة أخيه، حيث كان ينوب، عن صلاح الدين في بلاد الشام في حال غيابه، تملك حلب ثم قلعة الكرك، وآخر الأمر استقل بالديار المصرية سنة 596هـ=1199م وملك معها بلاد الشام وبلاد اليمن سنة612 هـ=1215م، وكان ملكا عظيما ذو رأي ومعرفة، وافر العقل حازما في الأمور، توفى سنة 615هـ=1218م. للمزيد عن ترجمته، انظر ، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص74 ؛ اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، ج4، ص 25 ؛ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج 6، ص1.

(3) ماردين، قلعة مشهورة على قمة جبل الجزيرة مشرفة على دنيسر ودارا ونصيبين من ديار ربيعة،انظر، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص39. البكري،معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع،ج2، ص568؛ الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، ج2، ص662.

(4) ابن الأثير،الكامل في التاريخ،ج12،ص180،179؛ابن واصل،مفرج الكروب، ج3، ص139، 140.

(5) هو السلطان الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ولد بالقاهرة في ثامن جمادى الأولى سنة 567هـ=1171م، كان سلطانا على ديار مصر، لما توفى أبوه، كان ملكا مباركا كثير الخير وكان في غاية السماحة والكرم والعدل، والرفق بالرعية، والإحسان إليهم. وكان، فخر الدين جهاركس، المسيطر على أمور دولته، توفى سنة 595هـ=1198م.ابن خلكان،وفيات الأعيان،ج3، ص251؛ ابن الأثير،الكامل في التاريخ ،ج 12،ص140؛أبو الفداء،المختصر في أخبار البشر، ص375؛ المقريزي،السلوك لمعرفة دول الملوك ،ج1، ص26.

(6) هو عبد الكريم بن علي بن الحسين الرئيس الأثير،القاضي، أبو القاسم اللخمي، البيساني، العسقلاني المولد المصري الدار، الشافعي، أخو القاضي الفاضل. كان له هوس في تحصيل الكتب وكان عنده منها زهاء مايتي ألف كتاب من كل كتاب نسخ. توفي سنة621هـ=1323م.الذهبي، سير أعلام النبلاء،ج22، ص247؛ الصفدي،الوافي بالوفيات،ج6، ص 220.

(7) لم أعثر له على ترجمة.

(8) انفرد ابن تغري بردي، عن بقية المؤرخين في سرده لهذه الواقعة إذ ذكر أن المبلغ المبذول كان للحصول على قضاء المحلة بدلا من قضاء الإسكندرية، كما أشار أن الوسيط كان الملك العادل عم العزيز، وأضاف كذلك إلى إن البيساني قد بذل لكل من أبي بكر الحاجب ألف دينار ومثلها للأمير فخر الدين جهاركس. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،ج6، ص137،136.

جهاركس وجم، وظهر في وجهه التغير، فقال له العزيز: أراك واجما، أظنك أخذت على الوساطة شيئا، قال : نعم خمسة آلاف دينار، فأطرق العزيز، ثم قال : أعطاك مالا تنتفع به، وأنا أعطيك في قبالته ما تنتفع به مرات عديدة، ثم وقع له بخطه إطلاق جهة طنبدة[1]، ومغلها في السنة سبعة آلاف دينار"[2].

وكذلك ورد أن السلطان العزيز بن صلاح الدين، ضاقت به أوضاع بلاده الاقتصادية "ولم يبق في خزانة دولته درهم ولا دينار، فجاء رجل من أهل الصعيد إلى أزكش سيف الدين[3] وقال:" عندي للسلطان عشرة آلاف دينار ولك ألف دينار، وتوليني قضاء الصعيد؛ فدخل الأمير إلى العزيز فأخبره؛ فقال: والله لا بعت دماء المسلمين وأموالهم بملك الأرض! وكتب ورقة لأزكش بألف دينار، وقال: اخرج فاطرد هذا ولولاك لأذبته"[4].

مما تقدم نستطيع أن نستخلص من النصوص التاريخية أن الرشوة كانت شائعة حتى في زمن السلطان العزيز، بدليل قبول كل من جهاركس وأزكش للمبالغ التي بذلت لهما ثمناً لوساطتهما لدى السلطان. وقد أكد المقريزي تلك النتيجة في معرض حديثه عن البراطيل، بقوله:" فأوّل من عمل ذلك بمصر، الصالح بن رزيك في ولاة النواحي فقط، ثم بطل، وعمل في أيام العزيز بن صلاح الدين أحياناً"[5].

أما في عصر المماليك فقد تفشت الرشوة بين الحكام والمحكومين وكبار موظفي الدولة فشوا خطيراً، وخاصة في القرن الثاني من عصر سلاطين المماليك، فقد ذكر المقريزي أن أصل الفساد في عصره هو تحكم الرشوة "في ولاية الخطط السلطانية والمناصب الدينية... كالوزارة والقضاء ونيابة الأقاليم وولاية الحسبة وسائر الأعمال؛ بحيث لا يمكن التوصل إلى شيء منها إلا بالمال الجزيل، فتخطى لأجل ذلك كل جاهل ومفسد وظالم وباغ إلى ما لم يكن يؤمله من الأعمال الجليلة والولايات العظيمة"[6] ويأسف المقريزي وهو معاصر لهذه الظواهر، بقوله:" والتظاهر بالبراطيل التي يستأديها

---

(1) طَنبَدَةُ، قرية من أعمال البهنسا من صعيد مصر. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص171.
(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص84، 86؛المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك،ج1، ص31.
(3) لم أعثر له على ترجمة.
(4) ابن تغري بردي،النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج2، ص159.
(5) المواعظ والاعتبار،ج1 ، ص140.
(6) إغاثة الأمة، ص38.

واقتدى الولاة به في ذلك، حتى صار عرفاً غير منكر البتة"[1]. و"تجاهر الناس بالبراطيل فلا يكاد أن يلي أحد وظيفة ولا عملاً إلا بمال، فترقى للأعمال الجليلة والرتب السنية الأراذل، وفسد بذلك كثير من الأحوال"[2]؛ وعلى الرغم مما جاء به المقريزي من نصوص، متنوعة وكثيرة، بخصوص تفشي ظاهرة الرشوة وأنها ارتكبت لأول مرة زمن الأمير شيخو[3]، عند تعيينه لعمال الأقاليم" وفيها انفتح باب السعي عند الأمير شيخو بالبراطيل في الولايات، فسعى جماعة بأموال في عدة جهات، فأجيبوا إلى ذلك وقرروا فيما أرادوه، وأخذ منهم ما وعدوا به، منهم"[4]. ومع ذلك فإن بالإمكان التأكد بأن ظاهرة الرشوة وجدت قبل هذا التاريخ، أي منذ بداية العصر المملوكي، فقد ذكرت المصادر التاريخية في حوادث،(658هـ= 1259م) أن القاضي ابن الزكى[5] سعى في قضاء دمشق، "فبذل أموالا كثيرة على أن يقر القضاء والمدارس ليستمر فيه وفيما بيديه من المدارس" فبقى نحو الشهر ثم سافر مع السلطان الظاهر بيبرس إلى مصر فولى بعده القاضي نجم الدين ابن سنى الدولة[6]"[7].

---

(1) السلوك لمعرفة دول الملوك،ج2، ص403.

(2) المقريزي،السلوك لمعرفة دول الملوك، ج2، ص403.

(3) شيخو بن عبد الله الناصري الأمير الكبير سيف الدين،أصله من كتابية الملك الناصر محمد بن قلاوون، وتقدم في دولة الملك المظفر حاجي بن، حظي هذا وتقدم عند السلطان الملك المظفر، وصدق الملك في أمره، وكان قارون عصره، وعزيز مصره، وصاحب العقد والحل، والنقض والإبرام فيما حرم وما حل، وكانت الأمور به ماشيه، والخيرات فاشيه، وعيون حساده بأنوار سعوده عاشيه، وأستقر له الملك وزادت عظمته وكثر دخله حتى قيل أنه كان يدخل له من أقطاعاته وأملاكه ومستأجراته في كل يوم مائتا ألف ولم يسمع بمثل ذلك في الدولة التركية. توفي رحمه الله تعالى سنة 758هـ=1356م. الصفدي،أعيان العصر وأعوان النصر،ج1، ص379؛ ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، ج1، ص251؛ ابن تغري بردي،المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي،ج 2،ص18؛ الصفدي،الوافي بالوفيات،ج 5، ص220.

(4) المقريزي،السلوك لمعرفة دول الملوك ،ج 2، ص 220.

(5) هو أحمد بن يحيى، القاضي علاء الدين بن القاضي محي الدين ابن الزكي القرشي الدمشقي الشافعي.ولد سنة632هـ=1234م، وكان رئيساً فاضلاً أديباً، كتب في الإنشاء مدة، ودرس بالعزيزية والتقوية، وناب في القضاء عن أبيه، وسمع ببغداد توفي سنة 680هـ=1281م.الذهبي، تاريخ الإسلام، ج44، 59؛ ابن تغري بردي،المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي،ج1، ص139.

(6) هو أحمد بن يحيى بن هبة الله بن الحسن بن يحيى بن محمد بن علي بن صدقة بن الخياط، قاضي القضاة صدر الدين أبو العباس بن قاضي القضاة شمس الدين أبي البركات الثعلبي الدمشقي الشافعي بن سني الدولة.ولد سنة 590هـ=1193م، وسمع من جماعة، برع في الفقه وغيره، وتفقه علَى أبيه، وفخر الدين بن عساكر،ونشأ في صيانة ودين، وناب في القضاء عن أبيه. توفي سنة 658هـ=1259م. أنظر، الذهبي، تاريخ الإسلام، ج48، ص55؛ ابن تغري بردي،المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي،ج1، ص139.

(7) أبو شامة،الذيل على الروضتين، ص206؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج48، ص55.

كذلك أشارت بعض المصادر إلى أن القاضي بدر الدين الكردي[1] ولي قضاء القضاة بالديار المصرية مرارا، وأنه ظل في ارتقاء إلى أوائل دولة الظاهر بيبرس، كما رمته المصادر "بأخذ الرشا من قضاة الأطراف والشهود والمتحاكمين...{في الوقت الذي نعته بالجود والكرم}"[2].

وكذلك استغل علاء الدين طيبرس[3] نائب السلطنة في دمشق سنة (660هـ=1261م)، نفوذه السياسي فقد قبض عليه واستخرجت أمواله، وكان قد أهلك أهل دمشق بإخراجهم من بلدهم وأهان الأكابر، وضيق على الناس..."[4].

وروى الصفدي حادثة حصلت زمن السلطان المنصور قلاوون[5]، وذلك أنه كان مستوفى على الأوقاف يهودي، فضايق الفقهاء وأهل الأوقاف، فشكوه إلى قراسنقر[6]

---

(1) هو القاضي بدر الدين الكردي السنجاري قاضي سنجار الذي تولي قضاء مصر مرارا وله سيرة معروفة من أخذ الرشا من قضاة، إلا أنه كان جوادا كريما، صودرت كل أمواله وأموال أهله. توفي سنة 663هـ=1264م.أنظر،الذهبي، تاريخ الإسلام،ج49، ص163؛ ابن كثير،البداية والنهاية،ج13، ص285.

(2) أبو شامة،الذيل على الروضتين، ص234.

(3) هو الحاج علاء الدين، الأمير الكبير الوزيري، طيبرس، صهر السلطان الملك الظاهر بيبرس، كان كثير الصدقات قليل الأذية، أوصى بثلاثمائة ألف درهم تنفق في الجند الضعفاء. ووصفه شهاب الدين أبو شامة بكل قبيح، صودرت كل أمواله التي بدمشق، وكان الحاج طيبرس قد اهلك أهل دمشق بإخراجهم من بلدهم والترسيم على أكابرهم بإخراج عيالهم وأنفسهم وإهانتهم، وضيق على الناس بتمكين العرب من شراء الغلال من دمشق، وتخويف الناس من التتار، فكان البدوي يجلب الجمل ويبيعه بأضعاف قيمته ويشتري به الغلة رخيصة لان الناس يحتاجون إلى السفر إلى مصر. توفي سنة 689هـ=1289م. أنظر، أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص22؛ أبو الفداء،المختصر في أخبار البشر،ج1،ص459؛ الصفدي، الوافي بالوفيات،ج5، ص302؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي،ج2، ص64.

(4) أبو شامة،الذيل على الروضتين، ص220.

(5) هو الملك المنصور قلاوون(سيف الدين، أبو المعالي)الألفي العلائي الصالحي النجمي، سابع من تسلطن بمصر والشام من المماليك البحرية الأتراك ولد سنة،620هـ=1223م، وتولى سنة،678هـ=1279م.توفي سنة، 689هـ=1290م. أنظر، ترجمته،ابن كثير،البداية والنهاية،ج13،ص317؛ الكتبي، فوات الوفيات،ج3،ص203؛ ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور،ج1، ص347.

(6) هو قراسنقر الجوكندار المنصوري الأمير الكبير شمس الدين أبو محمد، من أكبر الأمراء وأجل مماليك البيت المنصوري، وقيل انه من أبناء نصارى قارة سبي ثم جعل ساقيا ثم رقاه وعرف من صغره بحسن التأني وقيل بأنه، جركسي، اشتراه المنصور قلاوون في زمان الإمارة قبل أن تطير سمعته وجعله من المقربين عنده، ثم ترقى وعرف من صغره بحسن التأتي في الأمور والتحيل لبلوغ المقاصد،وهو من أقران طرنطاي ولاجين وكتبغا والشجاعي وتلك الطبقة الشجاعة من الأمراء، وكان اسعد منهم،. توفى رحمه الله بمراغة في شوال سنة 728هـ=1327م.أنظر،الصفدي،الوافي بالوفيات،ج7،ص232،237؛ ابن حجر،الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ،ج1،ص427؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ،ج4، ص159.

وعزله، ثم إن اليهودي سعى وبرطل ثم تولى وعاملهم أشد من المرة الأولى، فشكوه فعزله، ثم تولى فشكوه فعزله ثم سعى وتولى، فضاق الفقهاء وقالوا: ما لنا في الخلاص منه غير الخطيب شمس الخابوري لينجيهم من هذا الخبيث، الذي نجح في شراء ذمة النائب أكثر من مرة ببذله له الأموال، ونجح الخطيب في تخليص المسلمين من شره[1].

من هذا العرض الوجيز يمكن القول بأن ظاهرة الرشوة كانت موجودة في تلك الحقبة، مع تفاوت حجم تفشيها بين دولة وأخرى، حيث شاعت بين الحكام والوزراء وبين الولاة العمال والكتاب والقضاة. على أنه من الخطأ البين أن نرمي كل الحكام بداء الرشوة والانغماس فيها لأن المصادر تحدثنا عن وجود فئة من هؤلاء الحكام عُرفت بنزاهتها وتعففها عما بأيدي الرعية من الأموال وغيرها.

الغناء والمجون والزنا:

ومن المفاسد والمعاصي التي عُرفت في تلك الحقبة الغناء والمجون كالرقص والزنا ففي العصر الفاطمي كثر الغناء والمغنون والمغنيات، وانتشرت الملاهي والحفلات والحانات على الخليج ما بين الفسطاط والقاهرة، حتى أصبحت تلك المنطقة بؤرة للفساد وتعاطي الحشيشة والإفراط في الاستماع إلى المغنيات، وحضور حفلات المجون والخلاعة التي كانت تقام هناك وسط الأنوار المتلألئة ليلاً[2].

وتفشى في المجتمع في العهد الفاطمي وجوه عدة من الخلاعة والمجون اتصفت بصفات عدة وتسمت بأسماء مختلفة، لكن أوسعها انتشاراً التهتك[3]، لما فيها من الدلالة على تهتك الخلفاء والوزراء والأمراء من ضروب. وكذلك التسري[4] الذي ازداد وانتشر

---

(1) الوافي بالوفيات،ج2،ص418.

(2) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2، ص287؛ ايوب، التاريخ الفاطمي الاجتماعي، ص267.

(3) التهتك، الفضوح ، فقالوا وأفتضح الرجل، أي انكشفت مساويه؛ وهو لون قبيح. أبو الحسين،معجم مقاييس اللغة ،ج4، ص509.

(4) التسري عبارة عن التحصين والجماع، وهو مشتق من السر وهو الشرف، ويعنى الوطء(الزنى)، مع ترك الماء في الوطء طلبا لآنجاب الولد، وبها تصبح التسري و البغاء وإنما تصير شريفة إذا جعلها فراشا لتلحق بالمنكوحات. الكفومى، كتاب الكليات،ج 1 ، ص 814.

حتى فرضت الدولة الفاطمية على بيــوت الفــواحش ضـــريبة كــسائر المهـــن والـــسلع التجارية[1].

وقد ذكر بعض المؤرخين أن المستنصر بالله الفاطمي(ت.487هـــ=1094م)، كان يميل إلى سماع المغنيات، واقتناء الجواري والجاريات ومن ذلك أنه لما ورد الخبر من بغداد بإقامة الخطبة فيها باسم المستنصر بالله من قبل الحارث البسا سيري، زينت مصر وسر الخليفة سرور كبيراً، فغنت نسب[2]، الطبالة بالطبل تحت القصر على مسمع الخليفة قائلة:

يـــا بـــنـــي الـــعـــبـــاس ردّوا ..... مـــلـــك الأمـــر مـــعـــدُّ

مِـــلّـــكَـــكُـــم مِـــلـــكُ مُـــعـــارٌ ..... والعـــواري تُســـتـــردُّ

وهذا ما أطرب المستنصر بالله، فوهبها أرضاً بمصر عند المقس، عرفت باسم أرض (الطبالة)[3]. ولم يكن السبب في تفشي هذه الأمراض في المجتمع المصري زمن الفاطميين آنذاك إلا من قبيل كثرة الثروة بيد أهل الحكم، وازدحام الناس من الفقراء الذين صور لهم بعض القوادين طيب العيش بتعاطي الغناء والرقص والانخراط في الرذيلة فصار لكل من هذه الرذائل سماسرة يتاجرون بحناجر وأجساد الفقيرات اللواتي سقطن من حيث لا يدرين في الإثم[4].

ولم يقتصر الغناء والرقص والمجون على الدور والقصور للخلفاء والأمراء من خلال الجواري والجاريات والمغنين، والتي كان يتخللها الغناء والرقص والإسراف في ارتكاب المعاصي؛ بل تقلد الناس بهم، حيث كان يؤمر بإشعال القناديل والشمع والسرج

---

(1) المقريزي،المواعظ والاعتبار،ج1، ص89.

(2) اسم طباله المستنصر،وكانت امرأة مرجله تقف تحت القصر في المواســم والأعيــاد والمناســبات الأخرى، وتسير أمام المواكب وتغني له وممن في القصر، وهي تضرب بالطبل.المقريزي،المواعظ والاعتبار،ج2، ص289.

(3) ابن تغري بردي،النجوم الزاهرة فــي ملــوك مــصر والقــاهرة،ج5، ص14؛المقريزي،المــواعظ والاعتبار،ج2، ص289 ؛ أيوب، التاريخ الفاطمي الاجتماعي، ص267.

(4) التنوخي، الفرج بعد الشدة، ج2، ص143.

وتظهر القينات[1] والمعازف والنساء عليهن الثياب الملونة الفاتنة، وكانت تشرب الخمور في تلك المناسبات جهراً[2].

وكانت " ضامنة للمغاني" مسئولة عنهن وعن خروجهن للغناء والرقص، حيث يدفعن لها بعض الأموال، وكانت تعرف أماكن وجودهن وأسمائهن وذكرت بعض المصادر أن أحداً لا يجرؤ على منعهن من ممارسة عملهن[3].

ويفسر لنا ابن إياس طبيعة وظيفة ضامنة المغاني، فيذكر أن ضمان المغاني كان عبارة عن أخذ مال من النساء البغايا، وذلك لو خرجت أجلّ امرأة من نساء القاهرة تقصد البغاء ونزلت اسمها عند امرأة تسمى الضامنة، وقامت بما يلزمها من القدر الذي يتعين عليها، فما قدر أكبر من في الحكام أن يمنعها من البغاء وعمل الفاحشة، وكان يحصل من ذلك لنساء أعيان مصر، وبناتهم، غاية الفساد[4]، على أن ضريبة "ضمان المغاني"كانت تمثل مصدراً كبيراً من مصادر الأموال بالنسبة للدولة[5].

وجرت العادة أن يستقدم الناس المغنيات والراقصات في حفلات الزواج والختان مقابل مبلغ معين من المال، وقد فرضت الدولة على المغنين والمغنيات في ذلك العصر ضريبة أطلق عليها ضريبة المغاني وكانت ترتكب في تلك الحفلات المعاصي والفواحش من شرب خمر وتعاطي الحشيش[6].

كما شغف سلاطين المماليك بسماع الغناء واقتناء الراقصات، مما جعل للموسيقى والغناء أهمية كبيرة في ذلك العصر، وقد شجع السلاطين بإغداقهم على المغنين والمغنيات على انتشار الغناء وقد بنيت الملاهي في دمشق في منطقة اسمها درج حيرون، وفيها

---

(1) القينات، جمعها قيان، أي الإماء المغنيات، ابن منظور، لسان العرب، ج13، ص350.
(2) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ج10، ص73.
(3) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص111؛ ابن القيم الجوزية، الصواعق المرسلة، ج1، ص40؛ عدوان، دور العلماء في إصلاح المجتمع، ص11.
(4) بدائع الزهور في وقائع الدهور،ج1، ص342؛ المقريزي،المواعظ والاعتبار،ج1، ص134.
(5) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج2، ص360.
(6) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،ج5، ص112؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج3، ص405.

كانت تصنع آلات للهو مثل الطنابير[1] والشبابات[2] وكان يتردد على هذه الملاهي فئات مختلفة من الناس من بينهم بعض الأمراء[3]، كما كان للبعض من هؤلاء سرادق طيور للعب واللهو، وكان لبعضهم أكثر من مائة مغنية، وكان من عساكرهم من يدمن الخمور ويستخدم المغنيين والمغنيات[4].

وهذا ينقلنا إلى الحديث عن رذيلة قبيحة، انتشرت في المجتمع المصري والشامي في عصر المماليك وهي رزيلة الزنا، وتجلت كظاهرة اجتماعية، فقد كانت الدعارة من أكثر المهن رواجاً وتنظيماً، وكانت الدولة تتقاضى عن هذا النشاط ضرائب محددة، تدر دخلاً كبيراً على خزينة الدولة؛ فقد كانت هناك"ضامنة المغاني" كما أسلفنا القول، والتي تعتبر بمثابة نقيب مسؤول عن نشاط المطربات والواعظات، والقارئات، والندابات، وبنات الليل، وعليها أن تؤدي للدولة مبلغاً معيناً تتولى جبايته من الخاضعات لإشرافها، والغريب في الأمر أن " ضامنة المغاني" كانت مسئولة عن حرف نسائية متناقضة مع هذه الحرفة الرزيلة[5].

وكانت كل من ترغب في احتراف البغاء أن تذهب إلى الضامنة، ويقول المقريزي في ذلك" فأما ضمان الأغاني فكان بلاءً عظيماً، وهو عبارة عن أخذ مال من النساء البغايا، فلو خرجت أجلّ امرأة في مصر تريد البغاء حتى نزلت اسمها عند الضامنة وقامت بما يلزمها لما قدر أكبر أهل مصر على منعها من عمل الفاحشة، وكان على النساء، إذا تنفسن أو عرّسن امرأة أو خضبت امرأة يدها بحناء، أو أراد أحد أن يعمل فرحاً لا بدّ من مال بتقرير تأخذه الضامنة، ومن فعل فرحاً بأغانٍ أو نفس امرأته من غير

---

(1) الطنابير، آلات للعب واللهو والطرب ذات عنق وأوتار، مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط،ج2، ص573.

(2) مفردها شبابه وهي نوع من المزمار يسميها العامة" منجيرة". مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط،ج4، ص236.

(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص334.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص255.

(5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،ج5،ص113؛المقريزي،المواعظ والاعتبار،ج1، ص254؛ الصيرفي، نزهة النفوس و الأبدان، ج1، ص168؛ قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص339؛ الأغا، الحياة الاجتماعية في فلسطين زمن الحروب الصليبية، رسالة ماجستير غير منشورة، ص288.

إذن الضامنة حلّ به بلاء لا يوصف"[1]، وكانت بيوت الفواحش والبغايا تضمن من قبل الولاء والمقدمين، وكانت تحت رعاية الضامن عدة صبيان وعليهم جند مستقطعين[2].

وقد حاول السلطان الظاهر بيبرس(ت.676هـ=1277م)، أن يحد من البغاء في البلاد، فأبطل المكوس المقررة على البغايا، ومنع البغاء في القاهرة وسائر البلاد، كما حبس البغايا حتى يتزوجن، بحيث لا يزيد في مهورهن عن أربعمائة درهم يعجل منه مئتان رغبة في تيسير زواجهن[3]. ولما وردت المراسيم بذلك على القاضي ناصر الدين أحمد بن المنير قال:

ليس لإبليس عندنا أرب.....غير بلاد الأمير مأواه

حرفته الخمر والحشيش معاً.....حرّمتا ماؤه ومرعاه[4]

وقال الأديب الفاضل أبو الحسين الجزار:

قد عطل الكوب من حبابه..... وأخلى الثغر من رضابه

وأصبح الشيخ وهو يبكي.....على الذي فات من شبابه[5].

إلا أنه وبوفاة الملك الظاهر بيبرس، تساهل سلاطين المماليك الذين جاءوا بعده، وأدى ذلك التساهل من جانب السلاطين مع هؤلاء البغايا إلى المجاهرة بالزنا وارتكاب الفواحش والمعاصي، فيذكر الصيرفي أنه كان في بلاد الريف حارات مخصصة للدعارة " ومن اجتاز بها غلطاً ألزم أن يزني بخاطره فإن لم يفعل فدا نفسه بشيء"[6].

---

(1) المواعظ والاعتبار،ج1، ص134.
(2) المقريزي، المواعظ والاعتبار،ج1، ص167.
(3) ابن الفرات، تاريخ،ج6،ص96؛المقريزي،المواعظ والاعتبار،ج1،ص134؛ السيوطي،حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج2، ص209؛ عاشور، المجتمع المصري، ص249.
(4) المقريزي،المواعظ والاعتبار،ج1، ص134.
(5) المقريزي، المواعظ والاعتبار،ج1، ص134.
(6) نزهة النفوس والأبدان،ج1، ص168؛ الأغا، الحياة الاجتماعية في فلسطين زمن الحروب الصليبية، رسالة ماجستسر غير منشورة، ص289.

المبحث الثاني:

الصراع المذهبي والسياسي.

- الطعن و القدح و السب.
- التكفير المتبادل بين المذاهب الإسلامية.
- محاولات القتل و الاعتداء على بيوت الله.
- الفتن بين الشافعية و الحنابلة.
- ظاهرة تفاضل الأئمة و المذاهب.
- ظاهرة المدارس و المساجد الطائفية.
- تعصب السلاطين و الملوك لمذاهبهم.
- تمذهب جهاز القضاء و تعصبه.
- تمذهب الدول و تعصبها لمذاهبها.
- الصراع بين السلاجقة والفاطميين.

من الآفات التي أصابت المجتمع وأضعفته آنذاك الخلافات والصراعات المذهبيــة والتي زعزعت كيان الأمة وزرعت بذور الشك والريبة، وسببت له الترهــل، فقــد دارت صراعات مذهبية بغيضة، واعتقد أصحاب كل مذهب صحة فكره وسلامة موقفه، الأمــر الذي أدى إلى اختلاف شديد بينها وصل إلى الطعن والقدح والسب. وما كانت تُكنّــه تلــك الطوائف الإسلامية لبعضها بعض من حقد و كراهية و تآمر، فكان كل طــرف يتــربص بخصمه الدوائر، لإضعافه و الإيقاع به تحقيقا لمكاسب مذهبيــة و اجتماعيــة و سياســية باستخدام مختلف الوسائل الممكنة جاعلا الأخوة الإسلامية مــن وراء ظهــره، ووصــل الأمر أن يكفر بعضها البعض الآخر، حتى حدث أخطر من هذا؛ ألا وهو القتل والاعتداء على بيوت الله، والغريب أن التعصب المذهبي لم يكن قد ساد بين مــذاهب أهــل الــسنة والجماعة[1]، والمذاهب المتطرفة والخارجة[2]، بل ساد كذلك بين مــذاهب أهــل الــسنة أنفسهم بالإضافة إلى المذاهب المتطرفة والخارجة فحسب[3].

وأن التعصب المذهبي، لم يكن ظاهرة فردية محدودة عابرة، و إنما كان ظــاهرة اجتماعية عامة متجذّرة في المجتمع الإسلامي، بين كل الطوائف المذهبية المكوّنة له على امتداد العصر الإسلامي، كما أن التعصب أوصل الطوائف الإسلامية إلى الغلو في أئمتهم والتطرّف في كثير من أفكارهم الأصولية و الفقهية، وأدخلهم في صراع مــذهبي عنيــف جرّ أكثرهم إلى الكذب و اختلاق الأحاديث النبوية والروايات التاريخية، انتصارا لمذاهبهم و ردا على مخالفيهم. وأوصل التعصب إلى تمذهب الدول الإسلامية خلال تلــك الحقبــة وكان كثيرا من خلفائها وسلاطينها وملوكها و أمرائها متعصبين، ساهموا بقوة فــي نــشر

---

(1) أكثر المسلمين هم أهل السنة والجماعة، فهم جمهور المسلمين منذ أن عُرفوا بذلك الاسم، على إثــر انفصال الخوارج والشيعة عن جماعة المسلمين، في أثناء الفتنة الكبرى، (35-40هـ=655-660م)، وما بعدها، ثم انفصلت عنهم جماعات أخرى في القرن الثاني الهجري وما بعده، كــان مــن بينهــا المعتزلة، الجهمية، والكرّامية، لكن أهل السنة-مع ذلك- ظلوا ظــاهرين يمثلــون جمهــور الأمــة الإسلامية، مقابل هؤلاء الذين انفصلوا عنهم، كالخوارج الشيعة والمعتزلة والمجسمة. وأما أصــولهم الاعتمــاد علــى الكتــاب والــسنة الــصحيحة، كمــصدرين أساســين.الذهبي،ســير أعــلام النبلاء،ج11،ص236؛الشكعة، إسلام بلا مذاهب، ص413،412،411.

(2) نقصد بالمذاهب المتطرفة والخارجة، أمثال مذاهب الشيعة بجميع طوائفها، والخوارج، والمعتزلة، وغيرها ممن اعتبرهم أئمة أهل السنة والجماعة بذلك، لمزيد عن تلك المذاهب أنظر، الشكعة، إسلام بلا مذاهب.

(3) علال، التعصب المذهبي في التاريخ الإسلامي، ص21؛ الجوجو، التعصب المذهبي والتطرف الديني وأثرهم على الدعوة الإسلامية، ص1051، 1052؛ ؛الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص28.

التعصب المذهبي و ترسيخه بين الناس، خدمة لمذاهبهم و تعصبا لها، مستغلين في ذلـك نفوذهم في السلطة من جهة، و التمكين لطوائفهم من جهة أخرى[1]. وسنذكر خلال هـذا المبحث بعض ظواهر التعصب المذهبي التي سادت في تلك الحقبة التاريخيـة الخاصـة بالدراسة:

الطعن و القدح و السب:

لقد عانت الطوائف الإسلامية ظاهرة اللعن والطعن، والقـدح والتـشهير، والـذم وغيرها من الاتهامات، وكانت تلك الطوائف تكن لبعضها البعض قدراً كبيراً مـن الحقـد والكراهية والحسد والتآمر، بسبب التعصب المذهبي الذي غلب عليهـا و سـيطر علـى المشاعر و العقول، و قد تجلى ذلك في مظاهر كثيرة، منها اللعن المتبـادل بـن الأفـراد والجماعات، من ذلك، ما كان يقوم به الحافظ أبي إسماعيل عبد الله الأنصاري[2] فقد لعن أبا الحسن الأشعري[3] جهارا وعندما سأله الـشافعية والحنفيـة، فـي حـضرة الـوزير السلجوقي نظام الملك[4]، عن سبب لعنه للأشعري، قال لهم :

---

(1) علال، التعصب المذهبي في التاريخ لإسلامي، ص179؛ الخليفي، وظيفة العلماء والدعاة في احتواء السلوك الإرهابي، ص4.

(2) هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد بن إسماعيل بن إبراهيم ابن عامر بن عابد شيخ الإسلام أبـو عثمان الصابوني، الهروي، الفقيه المحدث المفسر الخطيب الواعظ المشهور الاسـم الملقـب بـشيخ الإسلام لقبه أهل السنة في بلاد خراسان فلا يعنون عند إطلاقهم هـذه اللفظـة غيـره، ولـد سـنة 373هـ=983م، عالماً بالفقيه والحديث، وله من مصنفات الكثير التي فوقت نحوه سهام أهل الإسلام كتاب ذم الكلام وكتاب الفاروق في الصفات وكتاب الأربعين وهذه الكتب الثلاثة أبان فيها عن اعتقاد التشبيه وأفصح، وله قصيدة في الاعتقاد تنبيء عن العظائم في هذا المعنى وله أيضا كتـاب منـازل السائرين في التصوف، توفي سنة 449هـ=1057م. السبكي، طبقات الشافعية الكبرى،ج4،ص151-156.

(3) أبو الحسن الأشعري، هو علي بن إسماعيل بن إسحاق، أبو الحسن، من نسل الصحابي أبي موسـى الأشعري، مؤسس مذهب الاشاعرة.كان من الأئمة المتكلمين المجتهدين. ولد سنة 260هـ=873م،في البصرة، وتلقى مذهب المعتزلة وتقدم فـيهم ثـم رجـع وجـاهر بخلافهـم. تـوفي ببغـداد سـنة 324هـ=938م، وقيل سنة 330هـ=941م،و قد بلغت مصنفاته ثلاثمائة كتاب، منها " إمامة الصديق " و " الرد على المجسمة " و " مقالات الإسلاميين "الابانة عن أصول الديانة ورسالة فـي الإيمـان، ومقالات الملحدين والرد على ابن الراوندي و"خلق الأعمال " و غيرها من المصنفات.أنظـر، ابـن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص284؛ اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان فـي معرفـة حـوادث الزمان، ج2، ص83؛الذهبي،سير أعلام النبلاء،ج16، ص191؛ الزركلي، الأعلام، ج4، ص263.

(4) هو الحسن بن علي بن إسحاق بن العباس الوزير أبو علي نظام الملك قوام الدين الطوسي، ولد عـام 408هـ=1017م، وزير حازم عالي الهمة، أصله من نواحي طوس. تأدب بـآداب العرب،وسـمع الحديث الكثير، وكان مجلسه عامراً بالفقهاء والقراء، واشتغل بالأعمال السلطانية، فاتصل بالـسلطان =

"لا أعرف الأشعري وإنما العن من لم يعتقد إن الله في السماء و إن القرآن في المصحف و إن النبي اليوم نبيا" [1].

وطعن بعض الشافعية في الحنفية واستهزئوا بهم في كيفية الصلاة عندهم انتصارا للمذهب الشافعي وردا على معارضيه، وذلك أن السلطان محمود بن سبكتكين[2] لما أراد أن يُفاضل بين المذهبين الحنفي والشافعي ليتمذهب بأحدهما، جمع الفقهاء وأمرهم بالبحث في أي المذهبين أقوى، فوقع الاختيار على أن يصلي كل طرف ركعتين بين يدي السلطان على المذهبين، فقام الفقيه الشافعي أبو بكر القفال[3] و"صلى بوضوء مُسبغ وسترة وطهارة، وقبلة، وباقي الأركان التي لا يُجوّز الشافعي الصلاة دونها. ثم صلى -أي القفال- صلاة، على ما يُجوّزه أبو حنيفة، فلبس جلد كلب مدبوغ قد لُطخ رُبعه بنجاسة، و توضأ بنبيذ، فاجتمع عليه الذباب، و كان وضوءا مُنكسا، ثم كبّر بالفارسية و قرأ بالفارسية : دو بركك سبز{ وتعني بالفارسية ورقتان خضراوان، وهو معنى قوله تعالى في سورة الرحمن (مدهامتان)} ونقر ولم يطمئن، ولا رفع من الركوع، وتشهّد وضرط{أي أخرج الريح} بلا سلام، فقال له السلطان: إن لم تكن هذه الصلاة يُجيزها الإمام قتلتك، فأنكرت

=

ألب ارسلان، فاستوزره، فأحسن التدبير وبقي في خدمته عشر سنين، ومات ألب ارسلان فخلفه ولده ملك شاه، فصار الأمر كله لنظام الملك، وليس للسلطان إلا التخت والصيد.وأقام على هذا عشرين سنة، اغتاله ديلمي في شهر رمضان وهو صائم على مقربة من نهاوند، ودفن في أصبهان سنة، 485هـ=1092م. الصفدي،الوافي بالوفيات،ج1، ص119؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج33، ص24؛ الزركلي، الأعلام، ج2، ص202.

(1) الذهبي، تذكرة الحفاظ،ج3،ص188؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج 4 ص273،272؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج1، ص21.

(2) هو السلطان محمود بن سبكتكين، أبو سعيد صاحب خراسان وغزنة وغيرهما،الملقب بيمين الدولة ولد يوم عاشوراء سنة 360هـ=970م، كان ملكاً عادلاً حسن السيرة في الرعية،، وكان قوي النفس لم يضع جنبه في مرضه بل كان يستند إلى مخدته، فأشار عليه الأطباء بالراحة، وكان يجلس للناس بكرة وعشية، توفي سنة 421هـ=1029م. ابن تغري بردي،النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ،ج1 ،ص495؛ ابن كثير، البداية والنهاية ،ج12، ص37؛ الزركلي، الأعلام،ج6، ص185.

(3) هو عبد الله بن أحمد بن عبد الله، الإمام أبو بكر المروزي القفال، شيخ الشافعية بخراسان كان يعمل الأقفال وحذق في عملها حتى صنع قفلاً بآلاته ومفتاحه وزن أربع حبات، فلما صار ابن ثلاثين سنةً أحس من نفسه ذكاءً فأقبل على الفقه فبرع فيه وفاق الأقران، وهو صاحب طريقة الخراسانيين في الفقه، وله في المذهب من الآثار ما ليس لغيره، وطريقته المهذبة في مذهب الشافعي وأكثرها تحقيقاً. وتوفي بمرو، وله تسعون سنة، في جمادى الآخرة سنة 417هـ=1026م.أنظر،أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر،ج2، ص156؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج17، ص405، 406؛ الصفدي،الوافي بالوفيات،ج5، ص357؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص22،21؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج3، ص207.

الحنفية تلك الصلاة، فأمر القفال بإحضار كتبهم فوجدوا الأمر كما قال القفـــال، و تحـــوّل السلطان محمود إلى المذهب الشافعي" [1].

وكذلك لفق بعضهم للبعض الآخر التهم، ففي سنة (495هـــ=1101م)، والحـــرب ضد الصليبيين مشتعلة، وشى بعض الحنابلة بالفقيه الشافعي، الكياالهراسي[2] علـــى أنـــه بـــاطني فـــسجن[3]، وأوقـــف أبـــو الفـــرج ابـــن الجـــوزي[4] ومنـــع مـــن الـــوعظ سنة(590هـــ=1193م)، وسجن بسبب وشاية[5]، وطرد الفقيه الحافظ عبد الغني بن عبـــد

---

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء،ج17، ص487،486؛ تاريخ الإسلام، ج29، ص72؛ االصفدي، الـــوافي بالوفيات، ج5، ص357؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص22،21؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج3، ص207.

(2) الكياالهراسي هو أبو الحسن علي بن محمد بن علي، ولد سنة 450هـــ=1058م، والكِيا بالعجمي هو الكبير القدر المقدم، وكان من أهل طبرستان، وخرج إلى نيسابور وتفقه على إمام الحرمين، وكـــان حسن الصورة، جهوري الصوت، فصيح العبارة،، ثم خرج إلى العـــراق زكـــي الأَخـــلاق. ولـــي التدريس في المدرسة النظامية ببغداد إلى مات سنة 504هـــ=1110م، وكان فقيهاً شافعي، مفـــسر، اتهم بمذهب الباطنية فرجم وسجن، وأراد السلطان قتله فحماه الخليفـــة المـــستظهر. أبـــو الفـــداء، المختصر في أخبار البشر، ج1، ص302؛ الصفدي،الوافي بالوفيات، ج7، ص32،33؛ الزركلـــي، الأعلام، ج4، ص329.

(3) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج7، ص33،32؛ الزركلي، الأعلام، ج4، ص329؛ عدوان، دور العلماء في إصلاح المجتمع، ص20.

(4) هو عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن الجوزي، أبو الفرج القرشي التيمي البكري البغدادي الحنبلي الواعظ، صاحب التصانيف المشهورة في أنواع العلوم، عرف جدهم بالجوزي لجـــوزة فـــي داره بواسط، ولم يكن بواسط جوزة غيرها، وجعفر في أجداده هو الجوزي منسوب إلى فرضة مـــن فرض البصرة يقال لها جوزة. توفي أبوه وله ثلاث سنين، وكانت له عمة صالحة وكان أهله تجـــاراً في النحاس، ولهذا كتب اسمه في بعض السماعات عبد الرحمن الصفار، ولد سنة 508هـــ=1114م، وقيل سنة 509هـــ=1115 وقيل سنة 510 هـــ=1116م، والأرجح أنه ولد بعد العشرة كمـــا يظهـــر ذلك في بعض مؤلفاته في الوعظ، حيث يقول: أنه بدأ التصنيف سنة 528هـــــ=1133م، ولـــه مـــن العمر 17 سنة، ومما يدلّ على سعة علمه واطلاعه كثرة مصنّفانه حتى أنه كـــان يؤلـــف ويكتـــب المجلدات ولا غرابة في ذلك فهو تلميذ الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله، ولا غرابة أن يؤلف ويكتب ويُصنف في أسفاره ، فهو بحرٌ لا تُكدِّره الدلاء ، ولا أدل على ذلك من كتابه "الداء والدواء"، وطُبِع باسم آخر، "الجواب الكافي" ، فقد ألّفه إجابة على سؤال واحد وَرَدَ إليه ومـــن مؤلفاتـــه،تلبيس إبليس، التذكرة في الوعظ ذم الهوى، صيد الخاطر ،لفتة الكبد إلى نصيحة الولد، المنتظم في تـــاريخ الأمم والملوك ، تاريخ بيت المقدس، أخبار الحمقى والمغفلين، وغيرها توفي سنة 597هـــــ=1200م رحمه الله. أنظر، الصفدي الوافي بالوفيات، ج6، ص81؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج8، ص231، 232؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج1، ص399؛ ابن العماد، شذرات الـــذهب، ج2، ص143؛ الزركلي، الأعلام ،ج3، ص316.

(5) أنظر، أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص6.

الواحد المقدسي[1] من دمشق إلى مصر بسبب مناظرة بينه وبين علمـاء مـن الـشافعية بمسألة الاستواء على العرش والنزول "وتعطلت يومئـذ صـلاة الظهـر فـي محـراب الحنابلة"[2].

التكفير المتبادل بين المذاهب الإسلامية :

جر التعصب المذهبي المذاهب الإسلامية إلى التكفير و التـضليل انتـصارا للمـذهب وتعصبا على المخالف، ولم ينحصر التكفير و التضليل بين الـشيعة و الـسنة، ولا بـين السنيين أنفسهم، و إنما حدث أيضا بين المعتزلة و أهل السنة، فالمعتزلة كفّروا من خالفهم في أصولهم كمسألة الصفات و كلام الله؛ فردّ عليهم أهل السنة بالتكفير هم أيضا، بـسبب انحرافهم عن الشرع في مسألة الصفات و كلام الله تعالى[3]. وجرى التكفير المتبادل بـين المذاهب السنية ذاتها، فهي أيضا كفّرت بعضها بعضا بسبب التعصب المذهبي الذي جرّها إلى التكفير و التضليل، ومن ذلك ما حدث مع الحافظ عبد الغني المقدسـي الحنبلـي(ت. 600هـ=1203م)، فإنه تعرّض لعدة محن منها إنه عندما قرأ يوما شـيئا مـن أحاديـث الصفات بالجامع الأموي بدمشق، تعصّب عليه جماعة من الأشاعرة[4] واتهموه بالتجـسيم ورفعوا أمره إلى والي دمشق، وفي حضرته حاكموه، فأفتوا بكفره وقتله وإخراجـه مـن

---

(1) هو أبو محمد عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي الجماعيلي، حنبلي المذهب وهو ابن خال موفق الدين بن قدامه قرأ عبد الغني القرآن وسمع الحديث الكثير وسافر إلى الأمصار وكتب وصنف الكثير من الكتب، منها " الكمال في أسماء الرجال"و" الأحكام الكبرى والصغرى"، قدم إلـى بعلبك سنة 560هـ=1164م فأنزلهما الشيخ عبد القادر في مدرسته، وكان ميل عبـد الغنـي إلـى الحديث أكثر، فكان أوحد زمانه فيه. واشتغل في الفقه على يد أبي الفتح ابـن المنـى، وكـان يقـرأ الحديث بعد صلاة الجمعة برواق الحنابلة من جامع دمشق، ثم ترك دمشق إلى بغداد، ثم ارتحل إلـى مصر ومات بها سنة 600هـ=1203م. أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص46، 47؛ ابن كثيـر، البداية والنهاية، ج13، ص42، 43؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلـة، ج1، ص5-34؛ الزركلـي، الأعلام، ج4، ص160.

(2) ابن كثير البداية والنهاية، ج13، ص26.

(3) البغدادي، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، ص114وما بعدها؛ ا بـن أبـي يعلـى ، طبقـات الحنابلة، ج2، ص537،37؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج10، ص305 ؛ علال، الأزمة العقيدية بين الأشاعرة و أهل الحديث، ص54.

(4) هم فرق كلامية ينتسبون لأبي الحسن الأشعري البصري المتوفى سنة، 324هـ=935م، و أتباعهـا من المالكية و الشافعية ،وهم أول من سُموا بأصحاب مذهب أهل السنة والجماعة، و عن فكـرهم و نشاطهم و علاقتهم بأهل الحديث أنظر، الشكعة، إسلام بلا مذاهب، ص490،489؛ عـلال الأزمـة العقيدية بين الأشاعرة و أهل الحديث، ص93 .

دمشق طريدا[1]. وما حدث بين الصوفي المتكلم نجم الدين الخبوشاني[2] والحنابلة وأهـل الحديث بمصر من نزاع و تناحر و تعصب، فقد كان يُكفّرهم و يُكفّرونه. وهو الذي نـبش قبر المحدث ابن الكيزاني المصري[3]، المدفون بجانب قبر الإمـام الـشافعي، فنبـشه و وصفه بالزندقة، بقوله:"لا يكون صديق و زنديق في موضع واحد". حصل ذلـك عنـدما أسـقط الـسلطان صـلاح الـدين الأيـوبي، الخلافـة الفاطميـة فـي مـصر سـنة (567هـ=1171م)[4]، وأخيراً ما حصل للشيخ تقي الدين بن تيمية[5]، فإنه لمـا أظهـر

---

(1) الذهبي، العبر في خبر من غبر،ج4، ص286؛ سير أعـلام النـبلاء، ج21 ص،463،459،455، 464؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص21 .

(2) هو محمد بن الموفق بن سعيد بن علي بن نجم الدين أبو البركـات الخبوشـاني الـصوفي الفقيـه الشافعي، الصالح الفقيه الورع، التقيّ النقيّ. ولد سنة 510هـ=1116م، فقيه شـافعي، نـسبته إلـى (خبوشان) من نواحى نيسابور، انتقل إلى مصر، وحظي عند السلطان صلاح الدين، وصنف (تحقيق المحيط) في الفقه، في ستة عشر مجلدا. وبرع في الوعظ الارشاد توفي سنة 587هـ=1190م. ابـن خلكان، وفيات الأعيان،ج4، ص239،241،240؛ أبو شامة، الروضـتين،ج1، ص289؛ الـصفدي، الوافي بالوفيات،ج2، ص125؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج15، ص212، 214،213؛ الزركلـي، الأعلام، ج7، ص120.

(3) ابن الكيزاني هو محمد بن إبراهيم بن ثابت بن فرح الكناني، فقيه واعظ و شاعر مـصري، مُـذكر حسن العبارة، مليح الإشارة، لكلامه رقة وطلاوة، ولنظمه عذوبة وحلاوة. مـصري الـدار، عـالم بالأصول والفروع، عالم بالمعقول والمشروع، مشهود له بألسنة القبول، مشهور بالتحقيق فـي علـم الأصول تصوف ونسبت إليه " الكيزانية " من طوائف المتصوفة بمصر وكان ذا رواية ودراية بعلـم الحديث، ومعرفة بالقديم مكون الحديث، إلا أنه ابتدع مقالة ضل بها اعتقاده، وزل في مزلقها سداده، وادعـى أن أفعـال العبـاد قديمـة، ولـه " ديـوان شـعر " أكثـره فـي الزهـد.تـوفى سـنة 562هـ=1166م.الأصفهاني،خريدة القصر وجريـدة العـصر،ج 2، ص311؛ الـصفدي، الـوافي بالوفيات،ج 7، ص 290؛ الزركلي، الأعلام ،ج 5 ،ص 296.

(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج6، ص116،115؛ السبكي، طبقـات الشافعية الكبرى، ج7، ص15.

(5) هو أحمد تقي الدين أبو العباس بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخضرٍ بـن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله بن تيمية الحراني شيخ الإسلام. وذكر مترجمـوه أقـوالاً فـي سبب تلقيب العائلة بآل (تيمية) فقيل أن جده محمداً كانت أمه تسمى (تيمية)، وكانت واعظة، فنـسب إليها، وعرف بها. وقيل: إن جده محمد بن الخضر حج على درب تيماء، فرأى هناك طفلـة، فلمـا رجع وجد امرأته قد ولدت بنتاً له فقال: يا تيمية، يا تيمية، فلقب بذلك،ولد رحمه الله يـوم الاثنـين، عاشر، وقيل: ثاني عشر من ربيـع الأول سـنة 661هـــ=1262م. فـي حـرّان، وفـي سـنة 667هـ1268م، أغار التتار على بلده، فاضطرت عائلته إلى ترك حران، متوجهين إلـى دمـشق ، وبها كان مستقر العائلة، حيث طلب العلم على أيدي علمائها منذ صغره، فنبغ ووصل إلـى مـصاف العلماء من حيث التأهل للتدريس والفتوى قبل أن يتم العشرين من عمره .امتحن الشيخ مـرات عـدة بسبب نكاية الأقران وحسدهم، ولما كانت منزلة شيخ الإسلام في الشام عالية عند الولاة وعند الرعية وشى به ضعاف النفوس عند الولاة في مصر، ولم يجدوا غير القدح ومن مؤلفاته وهي كثيرة يصعب إحصاؤها، وعلى كثرتها فهي لم توجد في بلد معين في زمانه إنما كانت مبثوثة بـين الأقطـار،ومن أبرز كتبه الاستقامة،و اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، وبيـان تلبـيس الجهميـة، والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدريـة تـوفي =

مذهبه في صفات الله تعالى على طريقة السلف و أهل الحديث تألّب عليه جماعة من الأشاعرة ورفعوا أمره إلى السلطان، ثم انتهى أمره إلى قضاة المذاهب الأربعة، فحكم عليه القاضي المالكي ابن مخلوف(1) سنة (722هـ=1321م) بالسجن والكفر(2).

محاولات القتل و الاعتداء على بيوت الله :

أوصل التعصب المذهبي كثيرا من المتمذهبين المتعصبين إلى قتل غيرهم من الطوائف الأخرى، انتصارا للمذهب و تعصبا على المخالفين، و حوادث القتل ذات الصبغة المذهبية كثيرة، منها محاولة قتل الحافظ الخطيب البغدادي(3) وذلك انه لما ارتحل إلى دمشق واستقربها ونشر فيها علمه، وتكلّم فيه بعض الناس، استغل أميرها، الرافضي المتعصب ذلك الظرف وأمر صاحب الشرطة، وكان سنيا بأخذ الخطيب ليلا و قتله فاتصل به صاحب الشرطة و أخبره بما أمره به الأمير، و قال له أنه لا يجد حيلة إلا أن يهرب منهم –أي من الشرطة- إلى دار الشريف ابن أبي الحسن العلوي، و عندما يطلبونه ولا يجدونه يُرجعون إلى الأمير ويُخبرونه بذلك، فلما نجحت الحيلة أرسل الأمير إلى العلوي يطلب منه تسليم الخطيب البغدادي، فقال له العلوي:" أيها الأمير أنت تعرف

=

رحمه الله سنة 728هـ=1327م، أنظر،الصفدي، الوافي بالوفيات، ج2، ص374، 375؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج24، ص231؛ سير أعلام النبلاء، ج17، ص236؛ الزركلي، الأعلام ،ج1، ص144.

(1) هو زين الدين بن مخلوف قاضي القضاة المالكي، تولى قضاء الديار المصرية في أواخر سنة 685هـ=1286م، عقيب وفاة القاضي ابن شاش. وكان السلطان الملك الناصر في سنة 711هـ=1311م قد عزله، ثم أعيد القاضي زين الدين بن مخلوف إلى مكانه، توفي سنة 725هـ=1324م. أنظر، الصفدي،أعيان العصر وأعوان النصر،ج2، ص108؛ ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة،ج1، ص104؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك،ج1،ص341؛ السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر و القاهرة،ج2، ص277.

(2) ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة،ج1، ص104؛ المقريزي،السلوك لمعرفة دول الملوك،ج1، 341؛ الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ،ج1، ص67.

(3) هو أحمد بن علي بن ثابت البغدادي، أبو بكر، المعروف بالخطيب: أحد الحفاظ المؤرخين المقدمين، ولد سنة 392هـ، في قرية غزية، رحل إلى مكة وسمع بالبصرة والكوفة وغيرها، وعاد إلى بغداد فقربه رئيس الرؤساء ابن مسلمة (وزير القائم العباسي) وعرف قدره. ثم حدثت شؤون خرج على أثرها مستترا إلى الشام فأقام مدة في دمشق وصور وطرابلس وحلب، سنة 462هـ=1069م. وكان فصيح اللهجة عارفا بالادب، كثير المطالعة والتأليف، له من المصنفات الكثير، من أفضلها،" تاريخ بغداد"، و" الفقيه والمتفقه"، و" الرحلة في طلب الحديث"، و" الجامع، لاخلاق الراوي وآداب السامع"، و" اقتضاء العلم والعمل" وغيره الكثير، ولما مرض مرضه الأخير وقف كتبه وفرق جميع ماله في وجوه البر وعلى أهل العلم والحديث. توفي سنة 463هـ=1070م. ابن خلكان، وفيات الأعيان،ج1،ص92،93؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج31، ص86،87؛ الزركلي، الأعلام، ج1، ص172.

اعتقادي فيه وفي أمثاله وليس في قتله مصلحة، وهو مشهور في العراق، وإن قتله يُـؤدي إلى قتل جماعة من الشيعة وتخريب المشاهد، فقال له الأمير: ما ذا ترى؟ فـاقترح عليـه إخراجه من البلد، فأخرجه منها وتوجه إلى مدينة في العراق"[1].

وما حدث للقاضي البهاء القِفطي[2] فإنه كان يسكن بمنطقة مـشحونة بـالروافض فلما ناصر السنة، وتاب على يده بعض الرافضة وألف كتابـه (النـصائح فـي فـضائح الرافضة)، "وهمت الرافضة بقتله فحماه الله – تعالى" [3]. وما فعله الـشيعة الإسـماعيلية الباطنية بأهل السنة في المشرق الإسـلامي، مـن قتـل واغتيـالات، مـا بـين سـني (475-654هـ =1082-1255م)، فقتلوا منهم كثيرا من العوام والعلمـاء والأمـراء[4]. فمن ذلك ما حدث للوزير السلجوقي نظام الملك (ت. 485هـــ=1092م) فقـد رُوي أن أحد الباطنية الملاحدة تقدم إليه في زى الصوفية ليكرمه فطعنه بسكين في قلبه فمات[5]. وما جرى للقاضي شيخ الشافعية أبي المحاسن عبد الواحد الروياني[6] فقد كان في مجلس

(1) الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج3، ص224؛ سير أعلام النبلاء، ج18، ص282 .
(2) هو أبو القسم القاضي بهاء الدين هبة الله بن عبد الله بن سيد الكل القفطي نسبة إلى قفط بلد بـصعيد مصر ولد في سنة 661هـ=1262م، وقيل في أواخر سنة 599هـ=1202م، وتفقه علـى مـذهب الشافعي وقرأ الأصول على الشمس الأصفهاني بقوص ودخل القاهرة ثم رجع إلى بلده وانتفـع بـه الناس وتخرجت به الطلبة وولى قضاء أسنا وتدريس المدرسة المعزية وترك القضاء أخيرا واسـتمر على العلم والعبادة، كان إماما عالما عاملا توفي سنة 698هـ=1298م. أنظـر، الـسبكي، طبقـات الشافعية الكبرى، ج8، ص223،222؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص440،439.
(3) حاجي خليفة،كشف الظنون عن أسـامي الكتـب والفنـون،ج2،ص1955؛ابـن العمـاد، شـذرات الذهب،ج5، ص440.
(4) الذهبي، سير أعلام النبلاء،ج19، ص404،403؛ الشيخ عيد،اثر الحركات الباطنية في عرقلة الجهاد ضد الصليبيين، ص197.
(5) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص9؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج 12، ص619 ؛ الـسبكي، طبقـات الشافعية الكبرى،ج7، ص297؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص364؛ الشيخ عيد، اثر الحركات الباطنية في عرقلة الجهاد ضد الصليبيين، ص198.
(6) هو عبد الواحد بن إسماعيل بن أحمد، أبو المحاسن، فخر الإسلام الروياني، فقيه شافعي، من أهـل رويان (بنواحي طبرستان) رحل إلى بخارى وغزنة ونيسابور. ولد سنة 415هـ=1024م، بنى بآمل طبرستان مدرسة.وانتقل إلى الري ثم إلى أصبهان. وعاد إلى آمل، فتعصب عليـه جماعـة فقتلـوه فيها.وكانت له حظوة عند الملوك. وبلغ من تمكنه في الفقه أن قال: لو احترقت كتب الشافعي لامليتها من حفظي، له تصانيف، منها " بحر المذهب " من أطول كتب الشافعيين، و الكافي،" حليـة المـؤمن وغيرها. توفي سنة 502هـ=1108م.أنظر،الـذهبي، تـاريخ الإسـلام، ج35، ص15؛ الزركلـي، الأعلام، ج4، ص175.

علم بجامع مدينة آمل[1]، فلما فرغ منه، قام إليه أحد الباطنية الإسماعيليين وقتلـه بـسبب التعصب في المذاهب[2]. ومن المحاولات الفاشلة بسبب التعصب المذهبي محاولـة قتـل صلاح الدين الأيوبي صلاح الدين الأيوبي(ت.589هـ=1192م) سنة(570هـ=1174م)، حين كان يسعى بكل جهوده في توحيد بلاد الشام تحت قيادة واحدة[3].

وأما محاولة أصحاب مذاهب أهل السنة في التكفير والقتل فيم بينها فقـد ذكـر السبكي أن طائفة من الحنابلة كانوا يكيدون للشيخ العز بن عبد السلام[4] لـدى الـسلطان الأشراف موسى بن العادل[5]، إذ بلغ تأثيرهم عليه أنه كان يعتقد أن غير الحنبلـي يعتبـر كافراً، فاتهموا الشيخ ابن عبد السلام أنه أشعري العقيدة وحدثت مراسلات بين الـسلطان والشيخ أثبت فيها الشيخ كذب وافتراء ما يدعيه الحنابلة، وتدخل بعض الفقهـاء لإصـلاح

---

(1) آمل مدينة من مدن طبرستان لها ذكر وشان تقع على شط نهر جيحون وطولها سبع وسبعون درجة وثلث وعرضها سبع وثلاثون درجة ونصف وربع، وبين آمل وسارية ثمانية عشر فرسخاً وبين آمل والرويان اثنا عشر فرسخاً وبين آمل وسالوس وهي من جهة الجـيلان عـشرون فرسـخاً يـاقوت الحموي، معجم البلدان،ج1، ص29؛ الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار،ج1، ص5.

(2) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى،ج8، ص 262؛ابن خلكان، وفيات الأعيان،ج3،ص199.

(3) أنظر، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج11، ص419؛ الشيخ عيد،اثر الحركات الباطنية في عرقلـة الجهاد ضد الصليبيين، ص213.

(4) هو العز بن عبد السلام، الملقب (بسلطان العلماء)، ولد بدمشق سنة 577هـ=1181م ونـشأ فيهـا وكان العز ناسكاً ورعا أمراً بالمعروف ناهيا عن المنكر، لا يخاف في الله لومة لائم، ولـي بدمـشق خطابة الجامع الأموي والإمامة فيه، ولما جاء إلى مصر ولي خطابة جامع عمـرو بـن العـاص، والقضاة والتدريس بالمدرسة الصالحية، نبغ العز بن عبد السلام في أصول الدين والتفسير، وبرع في الفقه حتى صار أعلم أهل عصره فيه، وانتهى به الأمر إلى مرتبة الاجتهاد. له مؤلفات عديـدة فـي الفقه والتفسير والحديث وعلم الكلام، والتصوف، منها القواعد الكبرى، وبحار القرآن، والفرق بـين الإيمان و الإسلام وغيرها. توفي سنة 660هـ=1261م.أنظر،أبو شامة، الـذيل علـى الروضـتين، ص207؛السبكي، طبقات الشافعية الكبرى،ج5، ص80؛ ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بنـي أيوب، ج 5،ص301؛ الكتبي، فوات الوفيات، ج1، ص287؛ ابن قاضي شهبة، طبقـات الـشافعية، ج2، ص51؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص235؛ ابـن تغـري بـردي، المنهـل الـصافي والمستوفى بعد الوافي،ج2 ، ص127؛ الزركلي، الأعلام، ج4، ص21.

(5) هو الملك مظفر الدين أبو الفتح موسى بن العادل ولد سنة 576هـ=1180م، بالقاهرة وتملك حران وخلاط وتلك الديار مدة ثم تملك دمشق تسع سنين فأحسن وعدل وخفف الجـور، كـان متواضـعا وصالحاً، وكان حلو الشمائل محببا إلى رعيته موصوفا بالشجاعة لم تكسر له راية قط. تـوفي يـوم الخميس رابع المحرم، سنة 635هـ=1237م، وعمره نحو من ستين سنة، ولم يترك سـوى ابنـة، تزوجها الملك الجواد يونس بن مودود بن الملك العادل. الذهبي،العبر فـي خبـر مـن غبـر،ج3، ص225؛ تاريخ الإسلام، ج13،321؛المقريزي، السلوك لمعرفـة دول الملـوك،ج1، ص81؛ ابـن العماد،شذرات الذهب،ج5، ص175.

ذات البين بين الشيخ والسلطان أمثال الشيخ جمال الدين الحصيري[1]، شيخ الحنفية الـذي تحدث مع السلطان في القلعة، وذلك في يوم عيد الفطر بخصوص الشيخ ابن عبد الـسلام وقال للسلطان: "وهذا رجلٌ لو كان في الهند أو في أقصى الدنيا كان ينبغـي للـسلطان أن يسعى في حلوله في بلاده لتتمَّ بركتُه عليه وعلى بلاده ويفتخر به على سـائر الملـوك"[2] واقتنع السلطان بكلامه، وتأكد أن الشيخ قد ظلم، فأمر السلطان بشنق عشرين من الحنابلة ليكونوا عبرة لغيرهم[3].

وقد وصل حد التعصب الأعمى بين المذاهب أن اعتدي على بيوت الله، فقد بنـي نظام الملك الوزير السلجوقي للشافعية جامعاً وكان هذا الجامع يشرف على جامع الأحناف فأزعجهم واعتبروه تحدياً لهم، فهاجموا المسجد وأحرقوه وثارت فتنة خطيرة قـال فيهـا السبكي:" إنها هائلة وكادت الجماجم تطير عن الغلاصم[4] والأعناق"[5]. ويذكر ابن كثيـر عبارة كان يرددها القاضي محمد بن موسى بن عبد الله[6] الدمشقي وكان حنفي المـذهب: " لو كانت الولاية لي لأخذت من أصحاب الشافعي الجزية"[7].

---

(1) هو جمال الدين الحصيري،محمود بن أحمد بن عبـد الـسيد بـن عثمـان البخـاري، ولـد سـنة 546هـ=1151م، بمدينة بخارى، إحدى مدن بلاد ما وراء النهر، في محلة يعمـل بهـا الحـصير، فنسب إليها ورحل إلى نيسابور والشام، ودرس في حلب، ثم رحل إلى دمشق سنة 611هـ=1214م، وحظي بمكانة عالية عند الملك المعظم عيسى، وابنه الناصر داود، وأخذا عنه الفقه والحـديث، وقـد انتهت إليه رياسة المذهب الحنفي بدمشق أيام الملك المعظم عيسى، ومن مصنفاته: المطلوب في العلم المرغوب وهو كتاب في الفتاوى، صنفه للملك الناصر داود، وشرح كتاب خير السير الكبيـر فـي الفقه، وله ينسب الطريقة الحصيرية فـي علـم الخـلاف بـين الـشافعية والحنفيـة.تـوفي سـنة 636هـ=1238م.أبو شامة، الذيل على الروضتين،ص167؛ ابـن كثيـر، البدايـة والنهايـة،ج13، ص178؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج2، ص221.

(2) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج4، ص313.

(3) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج4، ص314؛ عدوان، دور العلماء في إصلاح المجتمع، ص22

(4) الغلصمة، اللحم الذي بين الرأس والعنق وجمعها غلاصم. ابن منظور،لسان العرب،ج12،ص 441.

(5) طبقات الشافعية الكبرى، ج4، ص 134.

(6) هو محمد بن موسى بن عبد الله القاضي أبو عبد الله التركي البلاساغوني الحنفي، نزيل دمشق وولي قضاء القدس ودمشق، وعزم على نصب إمام حنفي بجامع دمشق من محبته في مذهبه وعين إماماً فامتنع الناس من الصلاة خلفه وصلوا بأجمعهم، توفي سنة 506هـ=1112م.أنظر، الصفدي، الوافي بالوفيات، ج2، ص120.

(7) البداية والنهاية، ج12، ص175.

الفتن بين الشافعية و الحنابلة

تحدثنا المصادر عما كان يحصل من فتن بين الشافعية والحنابلة وكم وصل الأمر إلى أن يمنعوا من خالفهم في المذهب من دخول المسجد وقد عرف عن، زكي الدين بن رواحة[1] الشافعي المذهب بأنه أنشأ مدرستين في دمشق وحلب وجعل من شروط الدراسة: "ألا يدخلها مسيحي أو يهودي أو حنبلي"[2]. يقول أبو شامة:" أنه في سنة(660هـ=1261م)، أمر والي الشرطة في دمشق وهو الافتخار إياز[3] "...وكان يخدمه شخص من أبناء الحنابلة يعرف بالفخر الصيرفي، وله مسجد بقية اللحم له فيه كل شهر ستون درهماً، وتركه بحاله ولم ينقصه من جامكيته مع نقص غيره فقال فيه بعض أئمة المساجد:

يا والياً متزهداً..... متحنبلا بتصلف

لم لا تساوي بالمساجد..... مسجد ابن الصيرفي

فأجابه آخر على لسان الوالي المتهم بمحاباة الحنابلة:

قال الأمير الحنبلي..... جواب من لم ينصف

أنا مبغض للشافعي.....والمالكي والحنفي

فلذاك اقصدهم.....وارعي جانب ابن الصيرفي[4].

---

(1) هو زكي الدين بن رواحة، هبة الله بن محمد بن عبد الواحد بن رواحة زكي الدين الأنصاري بن رواحة الحموي التاجر المعدّل، كان كثير الأموال مُحتشماً، أنشأ مدرسة بدمشق وأُخرى بحلب، توفي سنة 622هـ=1224م.أنظر، الصفدي، الوافي بالوفيات،ج7، ص408.

(2) أبو شامة الروضتين، ج1، ص10؛ الصفدي، الوافي بالوفيات،ج7، ص408.

(3) هو الأمير ناصر الدين الحراني محمد بن الافتخار اياز والي دمشق بعد أبيه ومشد الأوقاف كان من عقلاء الرجال وذي فضيلة وأخلاق،و مروة وله كلمة نافذة في الدولة استعفى من الولاية فاعفى ثم أكره على نيابة حمص فلم تطل مدته بها وتوفي في شعبان سنة 684هـ=1285م فنقل إلى دمشق في آخر الكهولة الذهبي، العبر في خبر من غبر،ج3، ص357؛ ابن العماد، شذرات الذهب،ج5، ص388.

(4) الذيل على الروضتين، ص218، 219.

وقد أثارت بعض المسائل الخلافية والأصولية و الفروعية، الكثير من الفتن بـين المذاهب السنية الأربعة، فقد حدثت فتنة بين الحنابلة والشافعية، كان مـن أسـبابها جهـر الشافعية بالبسملة في الصلاة، فانقسمت العامة بين مؤيد ومخالف لهم، ثـم انحـازت كـل طائفة إلى الطرف الذي مالت إليه، و لم تفلح المساعي في التوفيق بـين الفـريقين وبقـي الخلاف قائما، ثم توجه الحنابلة إلى أحد مساجد الشافعية، ونهوا إمامه عن الجهر بالبسملة فأخرج مصحفا و قال لهم:" أزيلوها من المصحف حتى لا أتلوها"؛ ثم تطور النـزاع إلـى الاقتتال، فتقوى جانب الحنابلة و تقهقر جانب الشافعية، حتى أُلزموا البيوت، و لم يقـدروا على حضور صلاة الجمعة ولا الجماعات، خوفا من الحنابلة [(1)]. وكذلك أثـارت قـراءة دعاء القنوت في صلاة الصبح، وهي أيضا اختلف فيها الفقهاء فقال المالكية والشافعية إنها سنة، وقال الحنابلة والحنفية أنها ليست سنة، فأحدث ذلك تعصبا مذهبيا بين السنيين وكذلك مسألة رفع اليدين عند الركوع والرفع منه في الصلاة[(2)].

ظاهرة تفاضل الأئمة و المذاهب :

اتصف الأئمة الأربعة بصفات حميدة كثيرة ، فأحبهم الناس وتمذهبوا لهم لأجلهـا لكن الناس بالغوا في التفضيل والتعظيم، والمدح والافتخار، وأصبحت كل طائفة تزعم أن إمامها هو أعظم الأئمة وأولى بالإتباع، و قال بعضهم بوجوب إتباعه و الالتـزام بمذهبـه تعصبا للإمام ومذهبه[(3)].

فالحنفية كثيرا ما يُبالغون في تعظيم إمامهم و مدحه، من ذلك إنهـم كثيـرا مـا يلتزمون بوصف إمامهم أبي حنيفة، بالإمام الأعظم، وقد كررها عبد القادر القرشـي[(4)].

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ج8، ص163؛ ابن الأثير، الكامل فـي التـاريخ ج11، ص73؛ ابن كثير، البداية و النهاية، ج12، ص66؛ أبو الفداء، المختصر في أخبـار البـشر ج4، ص77؛ علال، علماء حنابلة مارسوا الاجتهاد في عصر التقليد خلال القرنين(6- 7 الهجريين) ص123.

(2) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك،ج8، ص212؛ علال، الحركة العلميـة الحنبليـة و أثرها في المشرق الإسلامي خلال القرنين، السادس و السابع الهجريين، ص454.

(3) الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص31.

(4) هو عبد القادر بن محمد بن نصر الله القرشي، أبو محمد، محيي الدين، ولد سنة 696هـ=1296م عالم بالتراجم، من حفاظ الحديث، من فقهاء الحنفية.وله من المصنفات" العناية في تحريـر أحاديـث الهداية"و" شرح معاني الآثار للطحاوي " و" ترتيب تهذيب الأسماء واللغات "" الجواهر المُضية فـي طبقات الحنفية " وغيرها توفي سنة، 775هـ=1373م. الزركلي، الأعلام، ج4، ص42.

في طبقات الحنفية كثيرا، وقال في بعضها:"الإمام الأعظم، والهمام الأقدم، وتـاج الأئمـة وسراج الأمة أبو حنيفة النعمان"[(1)]، والمالكية هم أيضا فيهم من بالغ في مدح إمامهم وتعظيمه، منهم القاضي عياض[(2)] فإنه رجّح مذهب مالك على مذاهب الأئمة الآخرين وقرر وجوب تقليده و تفضيله على غيره مدعيا أنه هو الأفضل، والأعلم، وأنه سكن المدينة بناء على حديث يقول: " تضربون أكباد الإبل، و تطلبون العلم ، فلا تجدون عالما اعلم من عالم المدينة " وقال أيضا:" إن مالكا أولى الأئمة بالإتباع لجمعه أدوات الإمامة و تحصيله وجه الاجتهاد، وكونه أحق أهل وقته بذلك"[(3)].

والشافعية هم أيضا فيهم من بالغ في مدح الشافعي و تعظيمه، منهم إمام الحرمين الجويني[(4)] صنف رسالة في ترجيح مذهب الشافعي على سائر المذاهب وقرر فيها أنه يجب على كل مخلوق إتباع الشافعي وتقليده ما لم يكن مجتهدا[(5)]. ووصف الفقيه تاج الدين السبكي[(6)]، الشافعي بأنه " الإمام الأعظم المطلبي والعالم الأقوام ابن عم النبي"[(7)]

---

(1) الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية، ج1، ص451، 524، 526 ، 556؛ علال، التعصب المذهبي في التاريخ، ص215.

(2) القاضي هو عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض بن محمد بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي، قاضيها أحد مشايخ العلماء المالكية، وصاحب المصنفات الكثيرة المفيدة، منها الشفا، وشرح مسلم، ومشارق الأنوار، و ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب الإمام مالك وغير ذلك، وله شعر حسن، وكان إماما في علوم كثيرة، كالفقه واللغة والحديث والادب، وأيام الناس، ولد سنة 476هـ=1083م، ومات رحمه الله يوم الجمعة في جمادى الآخرة، وقيل في رمضان سنة 544هـ=1149م، بمدينة سبتة، وقيل توفي بمراكش مسموما، وقيل، سمه يهودي.أنظر، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج15، ص12؛ ابن كثير،البداية والنهاية،ج12، ص280؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج4، ص137 الزركلي، الأعلام،ج5، ص99.

(3) ترتيب المدارك وتقريب المسالك،ج1 ص19،18؛ ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، ص13 .

(4) هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن محمد ابن حيويه. إمام الحرمين، أبو المعالي ابن الإمام أبي محمد الجويني. الفقيه؛ الملقب ضياء الدين رئيس الشافعية. كان إمام الأئمة على الإطلاق، ولد سنة 419هـ=1027م، في المحرم، له مصنفات كثيرة، منها " غياث الأمم والتياث الظلم" و" العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية" و "البرهان" وغيره الكثير، توفي سنة 478هـ=1085م، ودفن في داره، ثم نقل بعد سنين إلى مقبرة الحسين، ودفن إلى جانب أبيه. أنظر، الصفدي،الوافي بالوفيات،ج6، ص250؛ الزركلي، الأعلام، ج4، ص160.

(5) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى،ج1، ص345.

(6) هو تاج الدين السبكي، عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي، أبو نصر، قاضي القضاة، المؤرخ، الباحث. وقيل السبكي نسبته إلى سبك (من أعمال المنوفية بمصر)، ولد في القاهرة، سنة 727هـ=1326م، وانتقل إلى دمشق مع والده، فسكنها، وكان طلق اللسان، قوي الحجة، انتهى إليه قضاء في الشام وعزل، وتعصب عليه شيوخ عصره فاتهموه بالكفر واستحلال شرب الخمر، وأتوا به مقيدا مغلولا من الشام إلى مصر.ثم أفرج عنه، وعاد إلى دمشق، من تصانيفه " طبقات الشافعية الكبرى و" معيد النعم ومبيد النقم " و" جمع الجوامع" توفي بالطاعون سنة 771هـ=1369م.أنظر، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج12، ص137 ابن كثير البداية والنهاية، ج12، ص221؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص54؛الزركلي، الأعلام، ج4، ص184.

(7) طبقات الشافعية الكبرى، ج1، ص 343 .

والحنابلة هم أيضا فيهم من بالغ في مدح أحمد بن حنبل و فضله على سائر الأئمة، مـــنهم الحافظ يحيى بن مندة الأصفهاني[1] قال: " إن أحمد بن حنبـــل إمـــام المـــسلمين، وســـيد المؤمنين، وبه نحيى وبه نموت، وبه نُبعث إن شاء الله تعالى، فمن قال غير هذا فهو مـــن الجاهلين "[2].

و قد ذكر المؤرخ أبو شامة المقدسي أن المقلدين المتعصبين في زمانه بلـــغ بهـــم الأمر إلى أن أصبحت أقوال الأئمة عندهم بمنزلة الكتاب و السنة، فـــصدق علـــيهم قولـــه تعالى: "اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْـــنَ مَـــرْيَمَ "[3]؛ ولغلبـــة التعصب عليهم كفروا بالرسول –صلى الله عليه وسلم- عندما أخبرنا أن الله تعالى يبعـــث في كل مائة سنة من ينفي تحريف الغالين و انتحال المبطلين، فحجروا علـــى الله تعـــالى كاليهود بأن لا يبعث بعد أئمتهم و ليا مجتهدا؛ و انتهى بهم التعصب إلـــى أن أحـــدهم إذا أُورد عليه دليل من القرآن و السنة اجتهد في دفعه بكل سبيل من التأويلات البعيدة نـــصرة لمذهبه. ثم انتهى بهم الأمر على إهمال علوم الكتاب والسنة، وتفضيل ما هم عليـــه الـــذي ينبغي المواظبة عليه، فبدلوا بالطيب خبيثا، وبالحق باطلا، وبالهدى ضلالا"[4].

ظاهرة المدارس و المساجد الطائفية:

تُعتبر المدارس والمساجد الطائفية من المظاهر المادية للتعصب المذهبي الذي كان سائدا بين المذاهب السنية الأربعة، فهي مؤسسات ظاهرة للعيان، و شاهدة على مدى تأثير التعصب المذهبي في تلك المذاهب، حتى أوصلها إلى اختصاص كل منهـــا بمدارســـها و مساجدها، تكريسا للفرقة، وانتصارا للمذهب، و تعصبا على المخالف، ونتيجة لذلك ضـــاق مفهوم المنهاج الدراسي فأقتصر على مباحث الفقه الخاصة بالعبادات والمعـــاملات التـــي تحددت بالأطر المذهبية[5].

---

(1) هو يحيى بن عبد الوهاب بن محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن منـــده العبـــدي الأصـــفهاني، المحدث ابن المحدث، ابن المحدث ابن المحـــدث، ابـــن المحـــدث، ابـــن المحـــدث: وُلـــد، ســـنة 434هـــ=1042م، بأصفهان. صنف التصانيف، وأملى، وخَرَّج التخاريج لنفسه، ولجماعة من شيوخ أصبهان. وله معرفة الحديث والفضل والعلم.توفي سنة 511هـــ=1117م. أنظر، ابن رجب، ذيـــل طبقات الحنابلة، ج1، ص51 وما بعدها.

(2) ابن رجب، ذيل على طبقات الحنابلة، ج1، ص101، 156 .

(3) سورة التوبة، الآية، 31.

(4) مختصر كتاب المؤمل للرد إلى الأمر الأول، ص، 217،218 .

(5) للمزيد عن تلك المدارس انظر، النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس؛ الكيلاني، هكذا ظهـــر جيـــل صلاح الدين، ص34،33.

ولا شك أنه قد كان لهذه المدارس الطائفية جوانب ايجابية لا يجب إغفالها، كخدمة المذاهب التي أنشئت لها، ونشر العلم و تكوين الطلبة، والمساهمة في تنشيط الحياة العلمية لكنها من جهة أخرى كانت لها سلبيات خطيرة جدا، كتكريس الفرقة المذهبية، و إيجاد أرضية خصبة للتشجيع على التعصب و رعايته، و تكوين الطالب المقلد المتمذهب المتعصب لمذهبه، الأحادي النظرة المدافع عن مذهبه المنتصر له، و هذا هو الهدف الأساسي من بناء تلك المدارس الطائفية المذهبية، ونتيجة لذلك أصبحت المصادمات وحوادث الشجار بين مجموعات الطلبة ظاهرة بارزة في المدارس، فكثيراً ما كان أتباع المذهب الواحد يستقدمون شيخاً من رجال المذهب نفسه لإلقاء درس أو محاضرة عامة ويجري التعريض بالمذاهب الأخرى فتنشب الفتن وتثور الخصومات[1].

ورغم أنه وُجدت مدارس مشتركة بين المذاهب السنية ببغداد و القاهرة و دمشق كالمدرستين المستنصرية و البشيرية ببغداد، و المدرستين الصالحية و المنصورية بالقاهرة[2] فإنها لم تكن مشتركة إلا في البناية و المرافق و الجرايات، و كان كل مذهب مستقل بجهته و قاعدته، وطلابه وأساتذته، ومذهبه وبرنامجه، فهو وإن خففت نوعا ما من التعصب والنزاع فإنه من جهة أخرى قد كرّس الفرقة و التمذهب والتعصب في بناية واحدة.[3].

و أما المساجد المذهبية فهي أيضا كانت كثيرة، بسبب الانقسام المذهبي بين الفرق الإسلامية فقد كانت مساجد دمشق مقسمة بين المذاهب السنية، فمعظم مساجدها –داخل السور- كانت للشافعية، ثم للحنفية، ثم للمالكية، ثم للحنابلة؛ وكانت معظم مساجد الصالحية-خارج سور دمشق- للحنابلة، و الباقي للشافعية والحنفية، وكان هذا الوضع سائدا بدمشق[4].

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص115،114؛ الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص34؛ علال، التعصب المذهبي في التاريخ، ص322.

(2) الذهبي، سير أعلام النبلاء،ج23، ص159،156؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار،ج2، ص374؛ السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة،ج2،ص263، 264؛ الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص35.

(3) السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ،ج2، ص263؛ علال، التعصب المذهبي في التاريخ الإسلامي، ص345، 346.

(4) ابن عبد الهادي، ثمار المقاصد في ذكر المساجد، ص145، 159.

والأغرب من ذلك أنه وُجدت محاريب متعددة داخل المسجد الواحد حسب المذاهب المذهبية، فتصلي كل جماعة في محرابها، ولا تصلي في المحاريب الأخرى؛ ففي الحرم المكي كانت فيه خمسة مقامات(محاريب)، للصلاة حسب الطوائف المكونة للمجتمع المكي، وهي: الشافعية والحنفية والمالكية والحنبلية والشيعة فكان لكل منها مقامها الذي تصلي فيه، وفي صلاة المغرب كانت كل المذاهب تصلي في وقت واحد لضيق الوقت فيحدث تشويش وخلط في الركوع والسجود والتسليم، وقد كانت هذه الظاهرة موجودة بالحرم المكي في القرن السادس الهجري وما بعده [1] والمسجد الأقصى هو ايضاً كان مقسما بين المذاهب السنية الأربعة فكان لكل منها محرابها الذي تصلي فيه، وتعقد فيه حلقاتها العلمية، ونفس الظاهرة كانت بمسجد مدينة الخليل فقد كان مقسما على المذاهب السنية، ماعدا الحنابلة الذين لم يكن لهم فيه إمام[2]. وكذلك الجامع الأموي بدمشق، فقد كانت بداخله أربعة محاريب حسب المذاهب السنية الأربعة لكل منها محرابها تصلي فيه و تعقد فيه أيضا حلقاتها العلمية[3].

تعصب السلاطين و الملوك لمذاهبهم :

تركت الأزمة العقيدية، والتعصب المذهبي الذي عصف بالمذهب السني تأثيرا كبيرا على كثير من السياسيين خلال القرنين الخامس والسادس الهجري، (الحادي عشر والثاني عشر الميلادي)، تجلّت مظاهرها في أن بعض السلاطين تعصب لمذهبه على حساب اضطهاد المذاهب الأخرى؛ فهذا الوزير السلجوقي نظام الملك، كان شافعيا أشعريا، مكّن للأشاعرة في دولته، و كان يتعصب لهم، و بنى لهم المدارس[4].

وكذلك السلطان العزيز بن صلاح الدين الأيوبي(ت.595هـ=1198م)، كان على طريقة والده في الانتصار للشافعية والأشعرية، و لما سمع بما حدث من خلاف بين جماعة من الأشاعرة والحافظ عبد الغني الحنبلي المقدسي، في مسألة صفات الله تعالى قال إنه إذا رجع من سفرته هذه وكان خارجاً للصيد، فإنه سيُخرج الحنابلة ومن قال بمقالتهم

---

(1) ابن جبير، رحلة، ص71.
(2) العليمي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج2، ص32.
(3) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج2، ص217؛ ابن كثير، البداية والنهاية،ج13، ص339.
(4) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج19، ص94، 96؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى،ج7، ص297،296.

من مصر والشام، لكن الموت لم يُمهله ليعود إلى القاهرة، فقد قتله فرسه عنـدما رمـاه و وقع عليه و خسف صدره[(1)]. وكذلك الملك قطب الدين[(2)] صاحب سنجار[(3)]، كان حنفيـا شديد التعصب على الشافعية كثير الذم لهم، فمن تعصّبه عليهم أنه بنى مدرسـة للحنفيـة بمدينة سنجار" و اشرط أن يكون النظر فيها للحنفية من أولاده دون الشافعية، وأن يكـون البواب والفراش على مذهب أبي حنيفة [(4)]، والملك المعظم عيسى بن العـادل الأيـوبي[(5)] كان فقيها أديبا شديد التعصب للمذهب الحنفي، و لم يكن في بني أيوب حنفي قبلـه سـواه وقد تبعه أبناؤه في تبنيهم للمذهب الحنفي[(6)].

تمذهب جهاز القضاء و تعصبه :

يُعد القضاء جهازا من أجهزة الدولة، ومظهرا من مظاهرها السياسية، وكان السلطان أو الملك يتولى تعيين القضاة وعزلهم. و قد أصبح، القضاء متمذهباً فيه كثير من التعصب بحكم تمذهب الدول الإسلامية و رجالها، وتعصبهم لمذاهبهم ومنها أن القضاء في الدولـة الأيوبية (569-648هـ=1173-1250م)، جعلتها بيد الشافعية، ومكنتهم في الدولة [(7)].

---

(1) الذهبي، سيّر أعلام النبلاء، ج 29 ص، 292 ؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج 13 ص، 18 .

(2) هو المنصور صاحب سنجار محمد بن زنكي بن مودور بن زنكي الملك المنصور قطب الدين بـن الملك عماد الدين هو صاحب سنجار، كان حسن السيرة فيه عدل وإنصاف وعقل وجود، توفي سـنة 610هـ=1213م.أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر،ج1،ص393؛ الذهبي، تاريخ الإسلام،ج 44، ص315، 316؛ الصفدي،الوافي بالوفيات،ج1، ص331؛ المقريزي،السلوك لمعرفة دول الملوك،ج1، ص59.

(3) مدينة مشهورة بأرض الجزيرة بالقرب من الموصل ونصيبين، كثيرة الفواكه والأشـجار والعيـون المطردة والأنهار، مبنية في سفح جبل، تشبه بدمشق في كثرة أنهارهـا وكثـرة مياهـا والبـساتين والعمارات الحسنة فيها. القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد،ج1، ص160؛ ابن بطوطة،رحلـة،ج1، ص111.

(4) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص331.

(5) هو الملك المعظم شرف الدين عيسى، ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بـن أيـوب صـاحب دمشق؛ ولد سنة 576هـ=1180م، كان عالي الهمة حازماً شجاعاً مهيباً فاضلاً جامعاً شمل أربـاب الفضائل محباً لهم، وكان حنفي المذهب متعصباً لمذهبه وله فيه مشاركة حسنة، ولم يكن فـي بنـي أيوب حنفي سواه، وتبعه أولاده، حفظ القرآن، وبرع في الفقه والشعر، وله شعر كثير، كان فيه خير وشر كثير، توفى سنة 624هـ=1226م.انظر،ابن خلكان،وفيات الأعيان،ج3،ص494؛ ابن العـديم، زبدة الحلب، ص467؛ الذهبي،العبر في خبر من غبر،ج3، ص194.

(6) ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص115.

(7) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملـوك مـصر والقـاهرة،ج7،ص134؛ المقريزي،المـواعظ والاعتبار، ج2، ص343.

ثم تغير الحال في دولة المماليك(648-923هـ=1250-1516م)، ففي سنة (663 هـ=1264م)، عين السلطان الظاهر بيبرس أربع قضاة بمصر يمثلون المذاهب السنية الأربعة، ثم طُبق نفس الأمر بالشام في سنة(664هـ =1265م) [1].

أما تمذهب القضاة فالقاضي الحنفي محمد بن موسى البلاساغوني[2] فإنه عندما كان قاضيا على دمشق استغل نفوذه في الدولة و أخذ محراب الشافعية بالجامع الأموي و أعطاه للحنفية، و جعل الإمامة لهم، فثار عليه العوام فلم يلتفت إليهم، وبقي المحراب بأيدي الحنفية إلى أن ملك السلطان صلاح الدين دمشق، فنزعه منهم وأعاده للشافعية سنة(570 هـ=1174م)[3].

تمذهب الدول و تعصبها لمذاهبها :

كانت معظم الدول الإسلامية- التي شهدها العصر الإسلامي- متمذهبة متعصبة للمذاهب التي تبنتّها، مع اختلاف درجة التعصب من دولة لأخرى، فالدولة الفاطمية في مصر و الشام- كانت شيعية إسماعيلية المذهب، شديدة الانتصار له والتعصب على أهل السنة، فارتكبت في حقهم جرائم بشعة، ومنعتهم من رواية السنة النبوية، وسبّت الصحابة علانية، وأحيت الرفض وأماتت السنة، فكان ظاهرها الرفض(أي التشيع)، وباطنها الضلال والانحلال، وفيها قال الذهبي:" قبّح الله دولة أماتت السنة ورواية الآثار النبوية وأحيت الرفض والضلال، وبثت دعاتها في النواحي تغوي الناس ويدعونهم إلى نحلة الإسماعيلية، فبهم ضلّت جبلية الشام و تعثّروا"[4].

---

(1) المقريزي، السلوك في معرفة دول الملوك، ج1، ص342، 539.

(2) هو القاضي أبو عبد الله محمد بن موسى البلاساغوني التركي، البلاساغوني، نسبة إلى بلاساغون، بلد في ثغور الترك وراء نهر سيحون، كان فقيهاً عالماً، متعصباً للمذهب الحنفي، تولى قضاء دمشق مدة من الزمن وعزل عنه ولازم منزله، توفي سنة 605هـ=1208م.أنظر،ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق،،ج1، ص111؛ ياقوت الحموي،معجم البلدان،ج9، ص136.

(3) أنظر، ابن كثير ،البداية والنهاية،ج12، ص215؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج5، ص87؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،ج2، ص52؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس،ج1، ص132.

(4) سير أعلام النبلاء،ج18، ص497؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج11، ص233.

ومنها أيضا الدولة الأيوبية بمصر والشام واليمن (569-648هـــ=1173-1250م) تمذهبت في الأصول بالمذهب الأشعري، وفي الفروع بالمذهب الشافعي وتعـصبت لهمـا علانية، و مكّنت لهما في الدولة، وضيّقت على مخالفيها من الحنابلة وأهل الحديث(1).

وكذلك الدولة المملوكية بمصر والشام(648-923هـــ=1250-1516م)، فقـد سارت على نهج الدولة الأيوبية، في التمذهب بالأشعرية، و تعصبت لها تعـصبا شـديدا حتى أنه لم يجرؤ على مخالفتها علانية (2).

الصراع بين السلاجقة والفاطميين:

ومما زاد على هذا التعصب المذهبي الذي أصاب المجتمع من سلاطين وملوك ودول فـي تلك الحقبة، النكبات التي أصابت المجتمع وأضعفته آنذاك الخلافات والانقسامات السياسية التي مزقت كيان الأمة وزرعت بذور الشك والريبة والطمع في نفوس الأمراء والسلاطين بعضهم ضد البعض الآخر في الوقت الذي بدأ فيه الكيان الصليبي يـشتد عـوده وينمـو ويتوسع على حسابهم، وأوصلت هذه الخلافات إلى حد الصراع المسلح والـذي أدى إلـى استنزاف الأرواح والأموال؛ فكان ظهور الدولة الفاطمية في حد ذاته حـدثاً فريـداً فـي التاريخ الإسلامي، إذ أن نجاح الشيعة الإسماعيلية(3)، في إقامة خلافـة لهـم فـي بـلاد المغرب(296 هـ= 908م)، جاء بعد محاولات طويلة فاشلة قام بها الـشيعة منـذ قيـام الدولة الأموية، للظفر بالخلافة وقد رأى الفاطميون ابتـداءً مـن أول خلفـائهم عبيـد الله

---

(1) أنظر، أبو شامة، الروضتين،ج2، ص382؛ ابن كثير، البداية والنهايـة،ج13، ص18؛ المقريـزي، المواعظ والاعتبار،ج2، ص343، 358.

(2) أنظر،المقريزي،المـواعظ والاعتبـار،ج2،ص343؛علال،التعـصب المـذهبي فـي الإسـلام، ص430،432.

(3) الشيعة الإسماعيلية، تنسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي كرم الله وجهه، وزعمت أن الإمام بعد جعفر هو ابنه إسماعيل التي أنكرت موته في حياة أبيه، وقالوا كان ذلك من جهة التلبيس من أبيه على الناس لأنه خاف مغيبهم عنهم، وزعموا أن إسماعيل لا يموت حتى يملك الأرض وهو القائم لأن أباه أشار إليه بالإمامة بعده، واعتقدوا أنه أحق بالإمامة من أخيه موسى الكاظم، واعتقدوا في سبعة أئمة آخرهم إسماعيل وأولهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه. ولذلك سموا بالسبعية، وأهم مبادئهم الإيمان بالإمامة، ومذهبهم قائم على أن العقيـدة لها ظاهر وباطن، وأن الشخص، الذي يدرك كنه الباطن ويتبعه لا يستحق العقاب، وقد أدى هذا إلى تدويل أحكام الشريعة فجعلوا لكل نوع من أنواع العبادة باطناً، وكـان هـذا سـبباً فـي تـسميتهم" بالباطنيـة".للمزيـد عـن هـذه الفرقـة انظـر، ابـن الجـوزي،المنتظم فـي تـاريخ الأمـم والملـوك،ج5،ص111،112؛ القلقـشندى،صبح الأعـشى،ج1، ص120،119؛ فرهـاد دفتـري، الاسماعيليون في العصر الوسيط، ص11-13؛ الشكعة، إسلام بـلا مـذاهب، ص234،233؛ أبـو النصر، السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري، ص101، هامش (2).

المهدي[1] حتى المعز لدين الله الفاطمي[2]، بعد أن امتد نفوذهم في بلاد المغرب أن هــذه البلاد لا تصلح لتكون مركزاً لدولتهم، ففضلا عــن ضــعف مواردهــا كانــت تــسودها الاضطرابات من حين لآخر؛ لذلك اتجهت أنظارهم إلى مصر لوفرة ثروتها وقربها مــن بلاد المشرق، مما يجعلها صالحة لإقامة دولة مستقلة تنافس العباسيين[3]. لقــد ســاعدت الأحوال التي سادت مصر على نجاح الفاطميين في عهد المعز لدين الله على تحقيق الأمل الذي راودهم طويلاً، فالدولة الإخشيدية[4]، المنهارة لم تعد تستطيع مقاومة أيــة محاولــة

---

(1) هو عبيد الله أبو محمد أول من قام من الخلفاء العُبيدية الباطنية الذين قلبوا الإسلام، وأعلنوا بالرفض، وأبطنو مذهب الإسماعيلية وبثوا الدُّعاة يستغلون الجبليَّة والجهلة ،و هو مؤسس الدولة العبيدية وأول حاكم فيها وهو عراقي الأصل، ولد في الكوفة سنة 260هـ=873م واختبأ في بلدة سلمَّية بؤرة الإسماعيلية الباطنية في شمال الشام. ومن يوم أن ولد إلى أن استقر في سلميَّة كان يعرف باسم سعيد بن أحمد بن محمد بن عبدا لله بن ميمون القداح، وفي منطقة سَلَمَّية مقر الإسماعيلية مات علي بن حسن بن أحمد بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وأقام له الإسماعيلية مزارات سرية، وقرروا نقل الإمامة من ذرية إسماعيل بن جعفر الصادق إلى أبنهم بالنكاح الروحي، ثم قال هذا أصل عبيد الله المهدي، وهذا أصل العبيديين المنسوبين إليه ويذكر أن عبيد الله الشيعي عندما دخل إفريقيا " يعني تونس أظهر التشيع القبيح وسب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأزواجه، وزعم أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ارتدوا بعده . وقيل أن أباه كان يهوديا ربيب مجوسي، فله نسبتان نسبة إلى اليهود، ونسبة إلى المجوس. وانقرض ملك هؤلاء في الديار المصرية سنة 568هـ=1172م، على يد صلاح الدين الأيوبي، فملكوها أكثر من مائتي سنة، وأخبارهم عن العلماء مشهورة بالإلحاد و المحادة لله ورسوله والردة والنفاق. أنظر، الذهبي، سير أعلام النبلاء،ج15،ص141؛ المقريزي،اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء،ج1، ص15ومابعدها؛ السيوطي، العرف الوردي في أخبار المهدي،ج1، ص22.

(2) هو المعز لدين الله، بن إسماعيل –المنصور- بن القائم بن المهدي عبيد الله الفاطمي العبيــدي، أبــو تميم،صاحب مصر وإفريقية، وأحد الخلفاء في العبيدية، ولد بالمهدية (في المغرب) وبويع له بالخلافة في (المنصورية) بعد وفاة أبيه ، سنة 341 هـ=1039م، وجاءت الإنبــاء للمعــز بمــوت كــافور الأخشيدى (صاحب مصر) فأشار المعز إلى القائد جوهر الصقلي بالسير إلــى مــصر، فقــصدها، ودخلها فاتحا، سنة 358هـ=968م، واختط مدينة (القاهرة) سنة، 359 -361 هـــ=969-971م. توفي، سنة 365هـ=975م، وكانت مدة حكمه ثلاث وعشرون سنة، وخمسة أشهر، وســبع عــشر يوماً. أنظر، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج4، ص54 وما بعدها؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج1، ص223؛ المقريزي،اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفــاء، ج1، ص26 ومــا بعدها؛ ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغــرب،ج1، ص95؛ الزركلــي،الأعلام، ج7، ص265.

(3) المقريزي، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء،ج1، ص46؛ سرور، الدولة الفاطمية في مصر، ص61.

(4) تنسب هذه الدولة،إلى محمد بن طغج بن جف، حيث كان أبوه آخر ولاة الطولونيين في الشام، وهــو ينتسب إلى أسرة تركية من فرغانة كانت قد احترفت الحياة العسكرية شأن بقية الأتراك الذين توافدوا على العراق في ذلك الحين، فعمل جده (جف) ضابطاً في جيش المعتصم، بينما التحق أبــوه طغــج بخدمة أحمد بن طولون، ورافق دولته حتى سقوطها. أما محمد بن طغح فقد تولى، مصر من جهــة الخليفة العباسي الراضي، وكان محمد بن طغح بن جف، قبل ذلك، قد تــولى مدينــة الرملــة ســنة 316هـ=928م، من جهة المقتدر، وأقام بها إلى سنة 318هـ=930م، فوردت إليه كتــب المقتــدر بولايته دمشق، فسار إليها وتولاها، وكان حينئذ المتولي على مصر أحمد بن كيغلــغ، فمــا تــولى الراضي، عزل أحمد بن كيغلغ، وولى محمد بن طفج بن جف مصر، وضم إليها الــبلاد الــشامية، فسار محمد بن طفج بن جف من الشام إلى مصر، واستقر بها. واستمر حكم هــذه الدولــة لمــصر والشام قرابة خمسة وثلاثين سنة 323-358هـ=934-968م. أنظر، أبو الفــداء، المختــصر فــي أخبار البشر، ج1، ص205؛ الــصفدي، الــوافي بالوفيــات،ج1، ص367؛ المقريــزي، المــواعظ =

جدية لغزوها من الغرب، وكان أن خرج جوهر الصقلي[1] قائد المعز لدين الله الفـــاطمي من القيروان[2]، على رأس جيش كثيف من البربر سنة(358هـــ= 969م)، ووصل إلـــى الإسكندرية فدخلها دون مقاومة، وتقدم جوهر الصقلي بجيشه نحو الفـــسطاط[3]، فاســـتعد الإخشيديون لقتاله، والتقى الجيشان بالقرب من الفسطاط في معركة انتهت بانتصار جوهر الصقلي، وبذلك زال نفوذ الإخشيديين والخلافة العباسية، من مصر ودخل جوهر الفسطاط سنة(358هـــ =969م) ونزل بعسكره إلى الشمال الشرقي من الفسطاط في الموضع الـــذي اختط فيه مدينة القاهرة وهناك وضع أساس تلك المدينة التـــي أصـــبحت مقـــر الخليفـــة الفاطمي[4] .

وكانت الضرورة السياسية والحربية تحتم على الفاطميين، بعد أن انتهوا من فـــتح مصر واستقروا بها، أن يولوا وجوههم شطر بلاد الشام، رغبة في تأمين حدود مصر مـــن

=

والاعتبار،ج1،ص413؛ الزر كلي، الأعلام، ج6، ص174؛ العاوور وسيـــسالم، تـــاريخ الـــدويلات الإسلامية، ص241.

(1) جوهر الصقلي، هو القائد أبو الحسن جوهر بن عبد الله، المعروف بالكاتب، الرومي؛ كان من موالي المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي صاحب إفريقية، وجهزه إلى الديار المصرية ليأخذها بعد موت الأستاذ كافور الإخشيدي، وسير معه العساكر، وهو المقدم، وكان رحيله من إفريقية يوم السبت رابع عشر شهر ربيع الأول سنة، 358هـــ=969م، وتسلم مصر يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شعبان من السنة المذكورة، وصعد المنبر خطيبا بها يوم الجمعة لعشر بقين من شعبان ودعا لمولاه المعز، فأقيمت الدعوة للمعز في الجامع. للمزيد عن أخبار هذا القائد، أنظر،ابن خلكان وفيات الأعيان، ج1، ص375؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص68؛ ابن تغري بردي،النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،ج4، ص124 المقريزي،اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج1، ص96 وما بعدها.

(2) القيروان، وتعني بالفارسية كارَوان، وهي في الإقليم الثالث من أقاليم المغرب، طولها إحدى وثلاثون درجة وعرضها ثلاثون درجة وأربعون دقيقة، وهذه مدينة عظيمة بإفريقية فتحت أيام معاوية بن أبي سفيان على يد عقبة بن نافع و اختط بها داراً للإمارة واختط الناس حوله، وبناء بها مسجداً، وأصبحت مدينة القيروان بعد ذلك منبراً للعلم ونشر الإسلام. ياقوت الحموي، معجم البلدان،ج3، ص454؛ القزويني،آثار البلاد وأخبار العباد، ج1 ، ص96.

(3) الفسطاط ويقال، فسطاط بضم أوله وفِسطاط بكسره وفُسطاط بضم أوله وإسقاط الطاء الأولى وفسَاط بإسقاطها وكسر أوله وفُسّتاط وفستاط بدل الطاء تاء ويضمون ويفتحون ويجمع فساطيط ، وأما معناه فإن الفسطاط الذي كانٍ لعمرو بن العاص فهو بيت من أدَم أو شَعْر، وقيل أن الفسطاط ضرب من الأبنية ، وقيل أن الفُسطاط أيضاً مجتمع أهل الكورة حوَالي مسجد جماعتهم يقال: هؤلاء أهل الفسطاط وفي الحديث عليكم بالجماعة فإن يد اللَه على الفسطاط يريد المدينة التي يجتمع فيها الناس وكل مدينة فسطاط قال: ومنه قيل لمدينة مصر التي بناها عمرو بن العاص الفسطاط، فمدينة مصر اليوم هي الفسطاط.أنظر، ياقوت الحموي،معجم البلدان،ج3، ص 332؛ الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ج1، ص441.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ،ج8، ص76؛ ابن تغري بردي،النجوم الزاهـــرة فـــي ملـــوك مـــصر والقاهرة،ج4، ص136؛ المقريزي،اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفـــاطميين الخلفـــاء، ج1، ص116؛ سرور، الدولة الفاطمية في مصر، ص66-68.

الناحية الشمالية الشرقية، خوفاً من ردة فعل من قبل العباسيين للانتقام. لهذا عمل جوهر الصقلي على أن تكون بلاد الشام خط الدفاع الأول عن مصر[1].

وعلى أية حال، استطاع الفاطميون بين سني(430-450هـ= 1038-1058م) أن يوطدوا نفوذهم في بلاد الشام، فبسطوا سلطانهم على جميع أنحائها، ماعدا أنطاكية[2] التي لازالت في حوزة البيزنطيين[3].

ولكن السلاجقة[4] المسيطرون على حكم بلاد الشام، وحماة الخلافة العباسية، لم يسلموا بهذا الواقع الجديد، ولذلك قاموا على الفور في استرداد المناطق التي سيطر عليها الفاطميون في بلاد الشام، وقد خاضوا معهم عدة معارك بالرغم مما كانت تعانيه دولة السلاجقة من تنازع بين أفراد البيت السلجوقي حول عرش السلطنة. فقد رأي السلطان ألب أرسلان[5]، ضرورة محاربة الفاطميين باعتباره من حماة الخلافة العباسية وأملاكها وحمل عبء الدفاع عنها ضد أعدائها، وكان الفاطميون يمثلون أحد أعداء الخلافة

---

(1) ابن تغري بردي،النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،ج4، ص165؛ المقريزي، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء،ج1، ص153؛ سرور،النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق، ص52.

(2) أنطاكية، قصبة العواصم من الثغور الشامية وهي من أعيان البلاد وأمهاتها موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء وعذوبة الماء وكثرة الفواكه وسعة الخير،تقع على ساحل البحر المتوسط. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص266-270.

(3) المقريزي،اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء،ج1،ص187؛ العريني،مصر في عصر الأيوبيين، ص7.

(4) ينحدر السلاجقة من قبيلة " قنق " التركمانية، وتمثل مع ثلاث وعشرين قبيلة أخرى مجموعة القبائل التركمانية المعروفة بـ " الغز " وفي منطقةٍ ما وراء النهر والتي اسمها اليوم "تركستان " والتي تمتد من هضبةٍ منغوليا وشمال الصين شرقاً إلى بحرٍ الخزر (بحر قزوين) غرباً، ومن السهول السيبيرية شمالاً إلى شبه القارة الهندية وفارس جنوباً، استوطنت عشائر الغز ، وقبائلها الكبرى تلك المناطق وعرفوا بالترك أو الأتراك ثم تحركت هذه القبائل في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي من موطنها الأصلي نحو آسيا الصغرى في هجرات ضخمة، فأصبحوا بالقرب من الأراضي الإسلامية والتي فتحها المسلمون بعد معركة نهاوند وسقوط الدولة الساسانية في بلاد فارس سنة 21هـ=641م، ودخلوا بغداد بطلب من الخليفة العباسي القائم، سنة 447هـ=1084مـ، وبهم زالت دولة بني بويه عن بغداد وأعمال الخلافة، وأول من ملك منهم طغرلبك بن ميكائيل بن سلجوق .أنظر، البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق، ص5؛ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ج8، ص151؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص474؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر،ج2، ص176؛ الذهبي، دول الإسلام، ج1، ص261؛ الصفدي، الوافي بالوفيات،ج4، ص157؛ القلقشندى، صبح الأعشى، ج4، ص417؛ الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص2،3.

(5) هو محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق،(أبى شجاع) توفى أبوه سنة،450هـ=1058م، وقام مقامه، وتسلم مقاليد السلطنة بعد وفاة عمه طغرلبك سنة، 455هـ=1063م، ولقب ألب ، كلمة تركية معناها البطل قلب الأسد، وهي شخصية كان لها شأن كبير في المجتمع التركي، وهي مرادفة لكلمة(باتور) وقد استعملت بين الشعوب التركية المختلفة منذ الأزمنة القديمة، وألب أرسلان السلجوقي لقب بهذا اللقب. توفي سنة465هـ=1072م. أنظر،البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق، ص27؛ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص10؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج1، ص180.

العباسية وكان ذلك إيذانا ببداية الصراع بين السلاجقة والفاطميين حول بلاد الشام، والذي انتهى بإضعاف القوتين ومهد الطريق فيما بعد لاستيلاء الصليبيين على كثير مـن مدنـه بدون عناء[1].

فكان أمام السلاجقة العمل على إعادة بلاد الشام ، مـن ناحيتـه الشمالية أولاً والمتمثلة في حلب فلذلك أرسل السلطان ألب أرسلان ابنه ملكشاه[2] على رأس جيش إلى حلب سنة (462هـ=1069م)، وكان محمود بن نصر بن صالح بـن مـرداس[3] والياً عليها من قبل الفاطميين، ويبدو أن محمودا هذا خشى من قوة السلاجقة خاصة وانـه لـم تكن لديه قوات كبيرة تمكنه من الصمود في وجههم، بالإضافة إلى أنه أحـس أن الدولـة الفاطمية تمر بمرحلة ضعف وفقد الأمل في الحصول على مساعدة منها، لـذا فـضل أن يعلن انضمامه للسلاجقة، وحذف اسم الخليفة الفاطمي من الخطبة وأحل محله اسم الخليفة العباسي القائم بأمر الله[4] [5].

---

(1) حسنين، سلاجقة إيران والعراق، ص56.

(2) هو أبو الفتح، بن عضد الدولة محمد ألب بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق، جـلال الدولـة، ويعرف بملكشاه الأول،وهو ثالث سلاطين السلاجقة، ولد سنة،447هـ=1055م، وتـولى الحكـم سنة465هـ=1073م توفي، سنة 485هـ=1092م، وقد قيل أنه قتل مسموماً أثناء رحلة صيد هـذا ما أورده ابن الأثير، ولكن البنداري قال: أنه مات ميتة طبيعية، وكان يلقب بجلال الـدنيا والـدين، والسلطان العادل. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص482-484؛ البنداري، تـاريخ دولـة آل سلجوق، ص65؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص283؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ص182-192.

(3) هو محمود بن نصر بن صالح بن مرداس الكلابي، عز الدولة ابن شبل الدولة، وكان يعرف بابن الروقلية، أحد الأمراء المرداسيين أصحاب حلب، تولى حلب سنة 452هـ=1060م، ووجهت إليه حكومة مصر عمه ثمال بن صالح فانتزعها منه سنة 453هـ=1061م وتوفى ثمال بعد عام، فوليها عطية بن صالح، فأغار عليه محمود فامتلكها ،سنة 454هـ= 1062م، مرة ثانية وقوي أمره، وصفا له جوها، فإستمر فيها إلى أن توفى، فكان شجاعا فيه حزم، وحسن الأخلاق، لين الجانب، كريم النفس، عفيفاً عن الفروج والأموال، وكانت مدة مملكته لحلب بعد أن تسلمها من عمه عطية عشر سنين. توفي سنة 469هـ=1076م.أنظر، ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ج8، ص200؛ ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب، ج1، ص65؛ الذهبي، تاريخ الإسلام،ج31، ص244؛ابن الوردي، تاريخ، ج1، ص314؛الصفدي،الوافي بالوفيات،ج7، ص330؛ ابن تغري بردي،النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،ج2،ص16؛ الزركلي، الأعلام ،ج7، ص189.

(4) هو عبد الله بن أحمد القادر بالله ابن الأمير إسحاق ابن المقتدر العباسي، أبو جعفر، القائم بأمر الله ، ولد سنة 391هـ=1000م، ولي الخلافة بعد وفاة أبيه سنة 422 هـ=1030م، بعهد منـه.وكـان ورعا، عادلا كثير الرفق بالرعية، له فضل، وعناية بالأدب والإنشاء. توفي ليلة الخميس ثالث عشر شعبان سنة 467هـ=1074م، فكانت دولته 45 سنة.أنظر،ابن الجوزي،المنتظم في تـاريخ الأمـم والملوك،ج8،ص57،58؛الكتبي، فوات الوفيات،ج2،ص157؛ ابـن كثير،البدايـة والنهايـة،ج12، ص39؛ الزركلي، الأعلام،ج4، ص66.

(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص98؛ ابن تغري بردي،النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج4، ص196؛ المقريزي، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء،ج1، ص187؛ سرور، الدولة الفاطمية في مصر، ص60؛ حسنين، سلاجقة إيران والعراق، ص56. ويذكر أن محموداً هذا خطب للقائم ومن بعده لألب أرسلان وذلك" لما رأي من قوة دولتهما وأدبار دولة المستنصر" أنظر، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص67؛ ابن الوردي، تاريخ، ج1، ص361،360.

غير أن محمود بن نصر أعاد مرة أخرى الخطبة للفاطميين في العام التالي (463 هـ=1070م) مما دفع السلطان ألب أرسلان إلى الزحف بنفسه إلى حلب[1]، وفرض عليها الحصار مدة حتى استسلم محمود؛ فأعاده ألب أرسلان إلى حكمها. ومنذ ذلك الحين دانت حلب والمدن الشمالية للنفوذ السلجوقي[2].

أما الجهة الثانية التي عمل عليها السلاجقة فهي جنوب بلاد الشام، فقد توجهت الجيوش السلجوقية إليه، وقد استطاع الأتابك[3] آتسز بن أوق الخوارزمي[4]، سنة (463هـ=1070م)، الاستيلاء على الرملة[5]، وبيت المقدس وغيرهما من مدن فلسطين ما عدا عسقلان[6]، وتابع فتوحاته في الجنوب واستولى على دمشق وما جاورها[7].

---

(1) حلب مدينة من مدن الشام، وهي عظيمة واسعة كثيرة الخيرات، وهي عامرة تقع في وسط البلد وفيها قلعة حصينة واسعة، شهيرة الامتناع، بائنة الارتفاع، معدومة الشبه والنظير في القلاع، ولها سبعة أبواب باب حمص باب الرقة باب قنسرين باب اليهود باب العراق باب دار البطيخ باب إنطاكية وباب الأربعين مسدود. ابن جبير، رحلة، ص94؛ ياقوت الحموي،معجم البلدان،ج2،ص101؛ المقدسي،أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص143.

(2) ابن الوردي، تاريخ، ج1، ص368؛ علي، خطط الشام، ج1، ص262.

(3) أتابك، كلمة تركية الأصل ومن بقايا عادات التركمان القديمة، وهي مركبة، من لفظين(أتا) أو "أطا" بمعنى مرب، وبك، بمنى أمير ومعناهما معا مربي الأميرة أو الأمير الوالد. وكانت لقباً يطلق على الأمراء والقواد العسكريين الذين يعهد إليهم بتربية أبناء سلاطين السلاجقة، وتعليمهم وتدريبهم على شؤون الحكم وفنون الحرب، وكان هذا اللقب من أرفع الألقاب في بداية التلقيب به، ثم أصبح بعد ذلك كثير الشيوع والذيوع حتى عرفت به دولة الأتابكة. أنظر، الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ص17؛ دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص11.

(4) آتسز، كلمة تركية معناها من لا اسم له وهي من شقين،" آت" بمعنى اسم، و"سِز" أداة تجريد، وهو لقب يطلقه الأتراك على أحد أبناء الشخص المتوفى، حتى تكتب له الحياة حسب اعتقادهم، ويعرف باسم آتسز من أوق وهو مقدم الأتراك الغز بالشام، وآتسز من أصل تركماني ولا يمت للأسرة الخوارزمية بصلة، وكان ضمن الجماعات التركمانية التي خلفتها حملة ألب أرسلان على بلاد الشام،وأصبح أحد قادة السلطان ألب أرسلان، وقصد في عهده فلسطين فافتتح الرملة وبيت المقدس، وطرد الفاطميين منها، ولقب بالملك المعظم، قتل على يد تاج الدولة تتش سنة،471هـ=1071م. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص410-418؛ ابن شداد الحلبي، الاعلاق الخطيرة، ج3، ص200؛ الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ص14.

(5) الرملة، إحدى مدن فلسطين شيدها سليمان بن عبد الملكِ وسميت كذلك لغلبة الرمل عليها تقع إلى الشمال من القدس وتبعد عنها حوالي خمسة عشر ميلاً، وبينها وبين قيسارية إلى الشرق حوالي 30كم، أطلق عليها الصليبيين اسم Ramla (Rama- al- Ramlah) انظر، المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص151؛ ريموندا جيل، تاريخ الفرنجة، ص220؛ الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق،ج1، ص356؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان،ج3، ص69.

(6) عسقلان، مدينة فلسطينية على ساحل البحر الأبيض المتوسط على بعد 12كم إلى الشمال من غزة، وقد زارها الإدريسي وهي خاضعة للاحتلال الصليبي ووصفها بأنها معدودة في أرض فلسطين.أنظر،الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق،ج1،ص356؛ اليعقوبي،البلدان،ص229؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص174. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص122.

(7) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص90؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص390؛ زكار، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، ص65.

وبعد أن أتم آتسز فتوحاته في الجنوب، أصبح الجنوب خاضعاً للنفوذ السلجوقي وتقلد آتسز الحكم بنفسه من قَبل السلطان السلجوقي(1).

اشتد الصراع بين السلاجقة والفاطميين بعد أن تولى السلطان ملكشاه السلطنة، إذ أخذ على عاتقه مهمة إتمام السيطرة على بلاد الشام وانتزاعها من يد الفاطميين، وقام بتشجيع القائد آتسز بالاستمرار في محاربة الفاطميين، ويبدو أن الانتصارات التي أحرزها آتسز على حساب الفاطميين واستيلائه على فلسطين ودمشق، شجعته على التفكير في السير صوب مصر لفتحها وانتزاعها من يد الفاطميين، غير أن الوزير بدر الجمالي(2) وزير الخليفة المستنصر بالله الفاطمي (ت.487هـ=1094م)، أنزل به هزيمة ساحقة سنة (469هـ=1076م)، فعاد آتسز بمن بقى معه من الجند إلى دمشق(3). وقد أدت هذه الهزيمة التي لحقت بآتسز إلى استهانة أهالي الشام به ودفعهم ذلك إلى إعادة الخطبة من جديد للفاطميين(4). فما كان من السلطان ملكشاه إلا أن قرر عزل آتسز عن حكم بلاد الشام بعد فشله في تصفية النفوذ الفاطمي، وعهد بالحكم إلى أخاه تاج الدولة

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص23-25؛ عاشور، الحركة الصليبية،ج1، ص102، 228.

(2) بدر الجمالي، أرمني الأصل ، وكان مملوكاً للأمير جمال الدين بن عمارة، ثم أخذ يترقى في المناصب حتى أظهر كفاءة في الحرب التي قامت في بلاد الشام حتى ولى إمارة دمشق من قبل الخليفة المستنصر بالله الفاطمي سنة، 456هـ=1063م، وأخذ يحارب الأتراك في تلك البلاد ولم يلبث أن أصبح من أقوى قوادها، ثم تولى نيابة عكا سنة،460هـ=1067م، وعندما حدثت الشدة المستنصرية في مصر سنة،457هـ=1064م، والتي استمرت سبع سنوات استدعى المستنصر بالله بدر الجمالي، وولاه الوزارة الفاطمية في مصر، وأعاد الأمر إلى طبيعته، ولعب دور كبير في تثبيت الفاطميين في مصر، وقاد جيوشهم خارج القاهرة، توفي سنة 487هـ=1093م، وكان لولده الأفضل بن بدر الجمالي، دوراً كبيراً في الدولة الفاطمية، حتى عرف عهدهم بعهد نفوذ الوزراء الفاطميين. أنظر، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8،ص497،496؛المقريزي،اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء،ج2،ص329-331؛ سرور،الدولة الفاطمية في مصر، ص107 وما بعدها.

(3) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص109-111؛ المقريزي، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ج2، ص318،317.

(4) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص111.

أبي سعيد تتش[1]، سنة (470هـ=1077م)، وسمح له بفتح ما يستطيع فتحه من الأقاليم المجاورة له وضمه إلى حوزة السلاجقة[2].

وهكذا استمر الصراع بين الفاطميين والسلاجقة قائماً في بلاد الشام، قبيل وبعد وصول الصليبيين ليجعل الشام مرتعاً خصباً للفرقة والانقسام، وليزيد من تفككها وضعفها، مما سهل بعد ذلك على الصليبيين مهمة الاستيلاء عليها. وهناك من الآراء ما يفيد أنه نتيجة لذلك الصراع الذي نشب بين الفاطميين والسلاجقة في بلاد الشام، وبسبب ضعف الخلافة الفاطمية وتخوفها من قوة السلاجقة ومحاولتهم السيطرة على مصر، اتصل الفاطميون بالغرب الأوروبي يستنجدون بهم، ويدعونهم للحضور إلى بلاد الشام ويأخذون بيت المقدس لكي يكونوا حاجزاً بينهم وبين السلاجقة[3].

وقد انعكست هذه العلاقة السيئة المليئة بالحقد والكراهية، على موقف الفاطميين من الغزو الصليبي، لبلاد الشام فكان موقف الفاطميين سلبياً، ولا أدل على ذلك ما قام به الأفضل بن بدر الجمالي (ت.488هـ=1094م)، من إرسال سفارة إلى الصليبيين أثناء محاصرتهم أنطاكية، وقد عرض عليهم الأفضل في تلك السفارة، أن يتحالف الطرفان- الفاطمي والصليبي- في القضاء على قوة السلاجقة واقتسام ممتلكاتهم بالشام فيما بينهم، على أن يكون القسم الشمالي للصليبيين، بينما يكون القسم الجنوبي للفاطميين[4].

إضافة إلى هذا الصراع المذهبي والسياسي، كانت الفتن والحروب الأهلية والتي كان أبرزها ما وقع بين أبناء الأسرة الأيوبية بعد رحيل السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى جوار ربه سنة(589هـ=1193م)، إذ أن الأعوام الستين التي عاشتها هذه الدولة بعد وفاته كانت مملوءة بالفتن والدسائس والمؤامرات والاقتتال بين أبناء الأسرة الواحدة، وقد

---

(1) أبى سعيد تتش(تاج الدولة) بن محمد ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق، من قادة وملوك السلاجقة، ولد سنة،458هـ=1065م، ويلقب إلى جانب تاج الدولة، بتاج الملوك، والملك المظفر،توفى سنة،488هـ=1094م. البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق، ص83،84؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص295؛ الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص72ومابعدها.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ،ج10، ص416؛عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص99.

(3) أنظر، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج11، ص186؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص679.

(4) للمزيد عن، هذا التحالف أنظر، عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص228-229؛ ريموند جيل، تاريخ الفرنجة، ص200.

عاني المسلمون في مصر والشام من هذه الحروب، واكتوت بنارهــا الطبقــات الفقيــرة وغيرهم من الطبقات الأخرى[1].

وقد أدى هذا الصراع إلى تدهور في الحياة الاقتصادية، والاجتماعية فــي مــصر وبلاد الشام، في تلك الحقبة، ومن ذلك غلاء الأســعار وانتــشار المجاعــات[2]، وكثــرة الضرائب على المواطنين وتفننت الدولة في طرق الابتزاز حتى أن الحجاج كانوا يدفعون الكثير من الضرائب للبلد الذي يمرون فيه، كما كان يفعل الفاطميون مع حجاج المغــرب في مصر وانتشر الوباء والقحط فــي مــصر والــشام وكــذلك ســائر أرجــاء العــالم الإسلامي[3]؛ وأدى ذلك إلى اضطراب الأمن وإهمال المصالح العامة وأصبحت الــصفة العامة للحياة الاجتماعية الشغب واضطراب حبل الأمن، وفــي غمــرة هــذه الفوضــى انصرف المجتمع إلى الانشغال بقضاياه اليومية الصغيرة، "فكان الناس كأهل الجاهلية همُّ أحدهم بطنه وفرجه لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً"[4].

---

(1) أنظــر، عــن تلــك الخلافــات والانقــسامات، ابــن الأثيــر، الكامــل فــي التــاريخ، ج10، ص562،497،303،294؛ ج11،ص290،274،131،68؛ ج12،ص200،160،83؛ ابن الجــوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، 16، ص84-99؛ ج17،ص4-83؛ الــسيوطي، تــاريخ الخلفــاء، ص429-466.

(2) المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص18-32.

(3) ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص121؛ الناصر، الجهاد والتجديد في القرن السادس، ص74.

(4) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص18.

المبحث الثالث:

الانحرافات العقائدية والفكرية.

- انتشار الفكر الباطني.
- انتشار الفلسفة والفلاسفة.
- البدع والخرافات.

انتشار الفكر الباطني:

عانت البلاد الإسلامية في تلك الحقبة من وجود بعض الفرق مثل الباطنيـــة التـــي انتشر دعاتها شرقاً وغرباً، نتيجة للصراع المذهبي والركـــود للفكـــر الإســـلامي الـــسني ونتيجة المظالم الاجتماعية والاقتصادية التي كانت تمارسها الـــسلطات القائمـــة. ويعـــود ظهور هذه الفرق في المشرق الإسلامي إلى شخص الحسن بن الصباح(1) الذي تمكن سنة (463هـــ=1090م)، من إنشاء الجناح العسكري للفكر الباطني، فجعل من قلعة ألمـــوت(2) مركزا لأعماله الإرهابية(3)، حيث ضمت بين صفوفها جماعات مختلفة، يجمعهـــا هـــدف مشترك هو إفساد العقيدة الإسلامية و إسقاط الخلافة العباسية السنية، فأخذ الحسن الصباح يبث دعائه من القلعة ليخدعوا الأحداث والبسطاء ويضموهم باسم الدين ونصرة آل البيـــت ويملأوا نفوسهم حقداً على المسلمين ويربوهم على الطاعة العمياء(4). وتـــذكر المـــصادر الإسلامية، أنهم كانوا يستعينون في التأثير على الأتباع بالمخدر أو الحشيش الذي يقدمونه لهم، فإذا أصابهم الدوار أمروهم بما يريدون ولذلك سموا بالحشاشين(5).

وقد انتشر دعاة الباطنية في غرب العالم الإسلامي وشرقه، وأخذوا يـــدعون إلـــى إسقاط الحكومات السنية وعلى رأسها الخلافة العباسية. فأخذوا ينشرون الرعب بين الناس بقطع الطريق والاعتداء على سكان القرى المجاورة لهم، فيذبحونهم ويستولون علـــى مـــا لديهم من مال ومتاع، ويأسرون أولادهم، إلى جانب ذلك لم تسلم القوافل المـــارة بجـــوار

---

(1) هو الحسن بن الصباح بن علي الاسماعيلي ولد سنة 428هـــ=1036م، في مرو، قيل إنـــه يمـــاني الأصل، من حمير، من أعيان الباطنية، ومقدم الإسماعيلية بأصفهان، كان داهية شجاع، عالم بالهندسة والحساب والنجوم. طاف البلاد، فدخل مصر وأكرمه المستنصر الفاطمي وأعطاه مالا وأمـــره بـــأن يدعو الناس إلى إمامته وكان من كبار الزنادقة ومن دهاة العالم، توفي سنة 518هـــ=1124م.أنظـــر، أبو الفداء،المختصر في أخبار البشر،ج1، ص295؛ الذهبي، تاريخ الإسلام ،ج34،ص29؛ الزركلي، الأعلام،ج2، ص193،194.

(2) قلعة الموت قلعة حصينة من نواحي قزوين. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص251.

(3) الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص52؛ الشيخ عيد،اثر الحركات الباطنية في عرقلة الجهاد ضد الصليبيين، ص50،

(4) للمزيد عن هذا التنظيم وتشكيلاته أنظر، الشيخ عيد،اثر الحركات الباطنية في عرقلة الجهـــاد ضـــد الصليبيين، ص50 وما بعدها؛ الشكعة، إسلام بلا مذاهب، ص249.

(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص261؛ الكيلاني، هكذا ظهر جيل صـــلاح الـــدين، ص52؛ الشكعة، إسلام بلا مذاهب، ص250.

قلاعهم وحصونهم من النهب والقتل، فأصبح الناس لا يأمنون على أنفسهم ولا على أولادهم ولا على أموالهم(1).

ويذكر ابن الجوزي(ت.597هـ= 1200م)، الذي عاصر هذه الفترة بقوله:" وكان الرفض{أي التشيع } في هذه الأيام قد كثر فكتب صاحب المخزن إلى أمير المؤمنين إن لم تقو يدي ابن الجوزي لم تطق على دفع البدع فكتب أمير المؤمنين بتقوية يدي فأخبرت الناس بذلك على المنبر وقلت إن أمير المؤمنين ... قد بلغه كثرة الرفض وقد خرج توقيعه بتقوية يدي في إزالة البدع"(2). فاشتد في مطاردتهم، بكل السُبل والوسائل؛ وطالت أيديهم الغادرة بقتل الكثير من الفقهاء والعلماء، ومن رموز المقاومة الإسلامية الذين كان لهم باع طويل في محاربة الصليبيين، ومن هؤلاء:

الواعظ أبو جعفر بن المشاط قتلته الباطنية سنة(498هـ=1095م)، عندما كان يدرس للناس في الجامع ولما نزل من على كرسيه وثب عليه باطني وقتله(3). وأيضاً القاضي عبيد الله بن علي الخطيبي سنة(502هـ=1108م)، قتله أحد الباطنية بالجامع وهو يؤدي صلاة الجمعة(4). وقُتل الأمير مودود سنة(507هـ= 1113م)، حيث وثب عليه أحد الباطنية بعد فراغة من أداء صلاة الجمعة في الجامع الكبير بدمشق وضربه بخنجر في فؤاده فقتله وكان رحمه الله صائماً(5). وكذلك الأمير قسيم الدولة آقسنقر البرسقي سنة(520هـ= 1125م)، حيث هجم عليه بضعة عشر نفراً من الباطنية في الجامع وهو يؤدي صلاة الجمعة فقتلوه(6).

وامتدت أيديهم الغاشمة إلى القائد صلاح الدين الأيوبي(ت.589هـ=1192م)، في محاولتين لقتله كانت الأولى سنة (570هـ=1174م)، حين كان يعمل مساعيه في توحيد

---

(1) الشيخ عيد،اثر الحركات الباطنية في عرقلة الجهاد ضد الصليبيين، ص219.
(2) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ج10، ص259.
(3) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ج10، ص164؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج34، ص67.
(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ،ج10، ص87؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج35، ص14؛ اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان،ج1، ص477؛ ابن العماد، شذارات الذهب، ج4، ص3.
(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص496؛الذهبي، تاريخ الإسلام،ج35، ص28؛ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص173.
(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص634.

بلاد الشام تحت قيادة واحدة لعمل جبهة موحدة في مواجهة الصليبيين، وخلال محاصـرته لحلب فهجم عليه بعض من الباطنية لقتله وجرحوه جراحات مثخنة[1].

أما المحاولة الثانية فكانت سنة(571هـ=1175م)، وهي الأخطر وقد نجا منها بأعجوبة ويروي تفاصيل تلك المحاولة الشريرة أبو شامة فيذكر أن مؤيدي الباطنية أرسلوا جماعة من أتباعهم، تنكروا بزي الجنود ودخلوا في جيش صلاح الدين أثناء محاصرته لحصن عزاز في شمال سوريا، فباشروا الحرب وأبلوا فيها أحسن بلاء مع المسلمين ضد الصليبيين. وبينما كان السلطان يدير الحرب من خيمته إذ وثب عليه أحد الباطنيين، وضربه بسكين في رأسه فأصابت خوذة الحديد، وانزلقت إلى خده فجرحته. ولما رأي الباطني فشل ضربته هجم على السلطان فجذب رأسه إلى الأرض وركنه لينحره، فسارع أحد مساعدي السلطان وهو سيف الدين بازكوج وضرب الباطني بسيفه فقتله. ثم انقض باطني آخر نحو السلطان فاعترضه الأمير داود بن منكلان الكردي وضربه بالسيف ضربة قاضية، لكن الباطني كان قد سبق الأمير داود بضربة جرحته في جبهته جرحا أماته بعد أيام. بعد ذلك انقض باطني ثالث على السلطان فاعترضه الأمير علي بن أبي الفوارس وجماعة فقتلوه، ثم ظهر باطني رابع منهزماً فلحقوا به وقتلوه[2].

وهكذا فقد استمر مؤيدو الباطنية يبثون الرعب ويحيكون مؤامرات الاغتيال واشتد خطرهم عندما احتل الصليبيون فلسطين وسواحل الشام، مما يؤكد التعاون الوثيق بينهم وبين القادة الصليبيين و يتضح لنا ذلك من سلسلة الاغتيالات وتوقيتها، ونوع شخصياتها، فإن الذين قتلوا على يد الباطنيين، كانوا يمثلون مراكز القيادة والتوجيه في ميادين السياسة والفكر والجهاد في سبيل الله. وأن تصفية هؤلاء، كان خدمة متعمدة للصليبيين من جهة ولقيادة المذهب الإلحادي الخبيث من جهة أخرى[3].

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج11، ص419؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر،ج3، ص57.
(2) الروضتين، ج1، 178؛ الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص76.
(3) للمزيد عن النشاط الإرهابي لفرقة الباطنية أنظر، الشيخ عيد، أثر الحركات الباطنية في عرقلة حركة الجهاد ضد الصليبيين.

انتشار الفلسفة[1] والفلاسفة:

سعى طائفة من الفلاسفة لإفساد دين الإسلام، بإدخال ضلالات اليونان وشركياتهم، وأباطيلهم في الفكر الإسلامي أولاً، ثم إلى الدين ثانياً، على غرار ما حدث للديانتين اليهودية والنصرانية. لكنهم خأبوا في مسعاهم، فهم وإن أثروا في بعض الطوائف الإسلامية المنحرفة فإنهم لم يصلوا إلى القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة؛ وقد حاولوا الجمع بين الشريعة الإسلامية والفلسفة اليونانية، مع إبداء إيمانهم بدين الإسلام الموروث، بالظاهر، وإبطان إيمانهم بفلسفة اليونان التي غزتهم، و بهرتهم، رغم كثرة أباطيلها، وخرافاتها وانحرافاتها[2]. ونسوا قول الله تعالى:"الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا"[3].

أدى انتشار الفلسفة اليونانية في المجتمع الإسلامي إلى الاضطراب الفكري بين طبقات المجتمع وأثر على التكوين المجتمعي لها، وعلى المبادئ والقيم التي كانت توجه علاقات الأفراد والجماعات، وتوجه سلوكهم ونشاطاتهم؛ وقد أثر ذلك كله على ميادين الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية، فأفسدها وأضعف مقومات المجتمع في الداخل ومناعة المقاومة فيه، وجعله عرضة للهزائم والنكسات[4].

---

(1) يعود بداية انتشار الفلسفة في البلاد الإسلامية في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري عن طريق ترجمة العلوم القديمة إلى اللغة العربية، وما بعده ، ثم انتشرت في مختلف الأقطار الإسلامية على أيدي الفلاسفة و أتباعهم ،و المتأثرين بهم ،و المحبين لهم، و تعود بدايات ترجمة الفلسفة اليونانية، إلى زمن الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور المتوفى،158هـ=774م، الذي أمر بترجمة بعض الكتب القديمة. ثم توسع مجال الترجمة زمن الخليفة هارون الرشيد المتوفى، 193هـ=808م، ثم توسعت أكثر في أيام الخليفة المأمون المعتزلي المتوفي،218هـ=832م، بشكل أكبر و منظم، فأرسل إلى ملوك بلاد الروم يطلب منهم الكتب القديمة ، ليترجمها إلى اللغة العربية، فأرسلوا إليه كتبا كثيرة، من مصنفات فلاسفة اليونان وغيرهم من العلماء، ومعظم الذين تولّوا ترجمة الكتب القديمة إلى اللغة العربية، هم من أهل الذمة، وقلة منهم من المسلمين، كالفيلسوف يعقوب الكندي، وأما الذميون فمنهم، يوحنا بن ماسويه، وحنين بن إسحاق. غيرهم، وقد ترجم الفلاسفة الأوائل أربعة علوم رئيسية من الفلسفة اليونانية ، أولها المنطق و ثانيها الطبيعيات كالحيوانات،و النباتات،و الأجسام والمحسوسات.و ثالثها الإلهيات –الميتافيزيقا- وهي خاصة بغيبيات ما وراء الطبيعة .ورابعها المقادير، وتسمى أيضا : التعاليم، وتشمل عدة علوم،كالهندسة، والموسيقى، والهيئة، وعلم الفلك.أنظر،ابن النديم، الفهرست،ج1،ص440،416،415،414،399؛ ابن أبي أصيبعة،عيون الأنباء في طبقات الأطباء،ج1، ص247.

(2) علال، مقاومة أهل السنة للفلسفة اليونانية، ص7.

(3) المائدة، أية،3.

(4) الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص61.

وقد اعتنق هذا الفكر -الفلسفي- رجال كبار من المسلمين ممن لهم مكانة عريقة في المجتمع الإسلامي، وبين الناس على مستوى أقطار العالم الإسلامي من مشرقه إلى مغربه، في تلك الحقبة التاريخية الخاصة بالدراسة؛ مما جعل انتشار أفكاره بين طبقات المجتمع خطراً على عقيدة المسلمين، من تبني لتلك الأفكار، ومن سلوكيات في حياتهم الطبيعية؛ حيث أن الفلسفة اليونانية أوصلت بعض معتنقيها إلى الإلحاد في الخالق وإنكار الشرائع، بسبب جهلهم وانجذابهم تجاه تلك الفلسفة. ومن عمالقة هذا الفكر -الفلسفي- ابن سينا[1] عالم الطب المشهور الذي يعتبر أعظم فلاسفة المسلمين. فهو موسوعة عصره بسبب ما أوتى من ذاكرة فذة وسعةٍ في التخصص والاطلاع وعمقٍ في التفكير، وإن كانت شهرته كطبيب قد غطت على بقية مهاراته[2]، فقال عنه ابن تيمية: "أن عمل ابن سينا في جمعه وتخليطه بين الشريعة والفلسفة اليونانية، هو تدليس و تلبيس وأنه أخذ مخ الفلسفة و كساه بلحاء الشريعة مما أدى إلى كثرة المتناقضات في فلسفته المشائية المعدلة، وإلى تضليل كثير من أهل العلم في المطالب الإيمانية العالية، والمقاصد القرآنية السامية، وإخراجهم من حقيقة العلم والإيمان ، فصاروا بذلك كثيرا ما لا يسمعون ولا يعقلون، ويسفسطون في العقليات و يُقرمطون في السمعيات"[3].

بمعنى أنهم يستخدمون السفسطة الجدلية في المسائل العقلية، ويستعملون التأويل الباطني في القضايا الشرعية[4]. وقال عنه الذهبي: " ما أعلمه روى شيئا من العلم ولو روى لما حلت الرواية عنه لأنه فلسفي النحلة ضال"[5]؛ إلا أن ابن تغري بردي يرد على ما قال عنه الذهبي بقوله:"قال أبو عبد الله الذهبي: كان ابن سينا آية في الذكاء، وهو رأس

---

(1) هو أبو علي بن سينا الرئيس الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا ولد سنة 370هـ=980م، أصله من بلخ، ونشأ وتعلم في بخارى، وطاف البلاد، وناظر العلماء، واتسعت شهرته، وتقلد الوزارة في همذان، وثار عليه عسكرها ونهبوا بيته، فتوارى.ثم صار إلى أصفهان، وصنف بها أكثر كتبه.وعاد في أواخر أيامه إلى همذان وله التصانيف في الطب والمنطق والطبيعيات والإلهيات، وله من الذكاء الخارق والذهن الثاقب ما فاق به غيره ومن تصانيفه "المعاد"و"رسالة في الحكمة"، و"الشفاء"، و"السياسة" وغيرها، توفي سنة 428هـ=1036م. أنظر، الذهبي، تاريخ الإسلام،ج42، ص197؛ الصفدي، الوافي بالوفيات،ج4، ص255؛ابن العماد، شذرات الذهب،ج 3، ص233؛ الزركلي، الأعلام،ج2، ص241، 242.

(2) الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص55.

(3) مجموع الفتاوى، ج9، ص135-136 ؛ج10، ص402 ؛ج17 ص329.

(4) علال، مقاومة أهل السنة للفلسفة اليونانية، ص51.

(5) ميزان الاعتدال في نقد الرجال، ج2، ص294.

الفلاسفة الإسلاميين الذين مشوا خلف العقول، وخالفوا الرسول– قلت: {والكلام لابن تغري بردي}لم يكن ابن سينا بهذه المثابة بل كان حنفي المذهب، تفقه على الإمام أبي بكر بن أبي عبد الله الزاهد الحنفي- وتاب في مرض موته، وتصدق بما كان معه، وأعتق مماليكه، ورد المظالم على من عرفه، وجعل يختم في كل ثلاثة أيام ختمة إلى أن توفي يوم الجمعة في شهر رمضان. قلت: ومن يمشي خلف العقول، ويخالف الرسول، لا يقلد الأحكام الشرعية، ولا يتقرب بتلاوة القرآن العظيم"[(1)].

ولابن سينا مصنفات في الفلسفة اليونانية كثيرة ذائعة الصيت، منها : كتاب الشفاء، جمع فيه كل علوم الفلسفة السبعة، ثم لخّصه في كتاب النجاة، ومنها أيضا : كتاب الإشارات و التنبيهات في المنطق والفلسفة، وكتاب الموجز الكبير في المنطق، والموجز الصغير في المنطق[(2)].

ومن عمالقة الفلسفة في القرن السابع الهجري، (الثالث عشر ميلادي)، المتكلم المفسر فخر الدين بن الخطيب الرازي[(3)] قال عنه ابن تيمية:" وتجد أئمة أهل العلم من أهل البدعة والفرقة من أهل الإيمان والنفاق يصنفون لأهل السيف والمال من الملوك والوزراء في ذلك ويتقربون إليهم بالتصنيف فيما يوافقهم من ذلك كتاب الملخّص في الفلسفة ، كتبه لأحد وزراء زمانه يُعرف بزهير، و كتاب أحكام النجوم صنفه لملك وقته علاء الدين بن محمد بن جلال الدين"[(4)]. وذكر ابن تيمية أن في كتب الفخر الرازي كثير من الضلال و الجهل ما لم يكن يُظن أنه يقع في ذلك، ومثاله أنه صنف كتابا في معراج رسول الله"صلى الله عليه وسلم" سار فيه على طريقة الفيلسوف أبي علي بن سينا، وفسره

---

(1) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،ج5، ص28،29.

(2) حاجي خليفة ، كشف الظنون عن أسامي الكتب و الفنون، ج2، ص 1862،1876؛ ابن خلدون، تاريخ، ج1، ص482،486.

(3) هو محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، أبو عبد الله، فخر الدين الرازي، ولد سنة 544هـ=1149م، أصله من طبرستان، ومولده في الري وإليها نسبته، وهو قرشي النسب. الإمام المفسر، وأوحد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل، رحل إلى خوارزم وما وراء النهر وخراسان، وكان يحسن الفارسية.ويقال له ابن خطيب من تصانيفه"مفاتيح الغيب"ثماني مجلدات في تفسير القرآن الكريم، و"لوامع البينات في شرح أسماء الله تعالى والصفات"، و" معالم أصول الدين"، و"محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين" وغيرها، توفي سنة 606هـ=1209م. أنظر، ابن خلكان، وفيات الأعيان،ج1، ص486؛ ابن الوردي، تاريخ، ج2، ص95؛ السبكي،طبقات الشافعية الكبرى، ج4، ص90؛ الزركلي، الأعلام،ج 6، ص313.

(4) أنظر،ابن تيمية الاستقامة،ج1، ص43 وما بعدها.

بتفسيرات الصابئة الضالين المنجمين، وجعل معراجه ترقيا بالفكر إلى الأفــلاك، والــذين رآهم من الأنبياء هم كواكب، فآدم هو القمر، وإدريس هو الشمس، وزعم أن ما قاله هــو من الأسرار يجب صونه عن إفهام المؤمنين وعلمائهم. فعل كل ذلك دون أن يرجع إلــى كتب العلوم الإسلامية، من حديث وفقه وتفــسير وســيرة، وحتــى الأحاديــث الــضعيفة والموضوعة لم يرجع إليها[1].

لكن مع ذلك فقد رُوي أن الرجل قد تاب عما كان فيه، فذكر الحــافظ الــذهبي أن الفخر الرازي تاب في آخر حياته، ورجع إلى طريقة القــرآن و فــضّلها علــى طريقــة المتكلمين و الفلاسفة، فقال أنه:" تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلــسفية، فمــا رأيتهــا تشفي عليلا و لا تروي غليلا،و رأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقــرأ فــي الإثبــات، الرحمن على العرش استوى، و أقرأ في النفي، ليس كمثله شيء، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي"[2]. و ذكر الحافظ ابن حجر أن الرازي تاب في آخر حياته،" أوصــى وصية تدل على حسن اعتقاده"[3].

وختاما لما ذكرناه، يتبين أن الفلسفة اليونانية كان لها رجال كثيــرون نــشطون، نشروها في مختلف الأمصار الإسلامية، وصنفوا فيها كتبا كثيرة، مما جعلها خطرا داهما يهدد الإسلام و المسلمين، لما تحمله في باطنها من انحرافات اليونان وضــلالاتهم، ومــا أضافه إليها أتباعها من أخطاء وأباطيل، خلال العصر الإسلامي؛ الأمر الذي حمل العلماء للتصدي لهؤلاء- الفلاسفة- للحيلولة دون نشر أفكارهم بين أبناء المجتمع الإسلامي، وهذا ما سنطرحه في الفصل الثالث.

البدع والخرافات:

منذ النصف الثاني من القرن الخامس الهجري،(الحادي عشر المــيلادي)، بــزر الانقسام واشتد بين فرق الصوفية[4]، واستقل كل شيخ بأتباعــه وانتــشرت الخــصومات

---

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج4، ص62،63

(2) سير أعلام النبلاء، ج21، ص501.

(3) لسان الميزان، ج4، ص228 .

(4) التصوف طريقة كان ابتداؤها الزهد الكلي ثم ترخص المنتسبون أليها بالسماع والرقص فمال إلــيهم طلاب الآخرة من العوام لما يظهرونه من التزهد ومال إليهم طلاب الدنيا لما يرون عندهم من الراحة واللعب ولا يعرف على وجه التحديد من بدأ التصوف في الأمة الإسلامية ومن هو أول متصوف وإن =

والمنافسات بينهم ويذكر الإمام ابن الجوزي أنه تأمل أحوال الصوفية فوجد أكثرها منحرفاً عن الشريعة بين جهل بالشرع، وابتداع بالرأي، يستدلون بآيات لا يفهمون معناها، وبأحاديث لها أسباب وجمهورها لا يثبت[1]. ووصفهم ابن خلدون بقوله:"إن هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين في الكشف وفيما وراء الحس توغلوا في ذلك فذهب الكثير منهم إلى الحلول[2] والوحدة[3] ... وكان سلفهم مخالطين للإسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضا بالحلول وإلهية الأئمة[4] مذهبا لم يعرف لأولهم فاشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر واختلط"[5].

=

كان الإمام الشافعي ــ رضي الله عنه ــ عندما دخل مصر قال :" تركت بغداد وقد أحدث الزنادقة فيها شيئاً يسمونه السماع . ." والزنادقة الذين عناهم الشافعي هنا هم المتصوفة (والسماع) هو الغناء د والمواويل التي ينشدونها ومعلوم أن الشافعي دخل مصر سنة 199هـ=814م، وكلمة الشافعي توحي بأن قضية السماع هذه قضية جديدة ولكن أمر هؤلاء الزنادقة يبدو أنه كان معلومًا قبل ذلك . بدليل أن الشافعي قال كلامًا كثيرًا عنهم كقوله مثلًا " لو أن رجلًا تصوف أول النهار لا يأتي الظهر حتى يكون أحمق "وقال أيضًا : ما لزم أحد الصوفية أربعين يومًا فعاد إليه عقله أبدًا ، وكل هذا يدل على أنه قد كان هناك قبل نهاية القرن الثاني الهجري فرقة معلومة عند علماء الإسلام يسمونهم أحياناً بالزنادقة وأحياناً بالمتصوفة.وأما الإمام أحمد فقد كان معاصرًا للشافعي وتلميذاً له في أول الأمر فقد أثر عنه أقوال كثيرة في التنفير من أفراد معينين نسبوا إلى التصوف . كقوله في رجل جاء يستفتيه في كلام الحارث المحاسبي : قال أحمد بن حنبل : " لا أرى لك أن تجالسهم " وذلك بعد أن اطلع أحمد بن حنبل على مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها للبكاء ــ ومحاسبة النفس كما يزعمون ــ والكلام على الوساوس وخطرات القلوب . فلما اطلع الإمام أحمد على ذلك قال لسائله محذرًا إياه من مجالستهم وكتبهم " إياك وهذه الكتب، هذه كتب بدع وضلالات " . والذي يبدو أن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه قال هذا الكلام في مطلع القرن الثالث، ولكن هذا القرن ما كاد يكتمل حتى ظهر التصوف على حقيقته، وانتشر في الأمة انتشارًا ذريعًا، واستطاع المتصوفة أن يظهروا ما كانوا يخفونه سابقاً.وبلغ التصوف غايته وذروته من حيث العقيدة والتشريع في نهاية القرن الثالث حيث استطاع الحسين بن منصور الحلاج أن يظهر معتقده على الملأ ولذلك أفتى علماء العصر بكفره وقتله فقتل سنة 309هـ=921م، وصلب على جسر بغداد، وسئل الصوفية الآخرون فلم يظهروا ما أظهر الحلاج.أللمزيد عن هذا الموضوع أنظر، ابن الجوزي، تلبيس إبليس، ص199وما بعدها؛ حشيش، الحركة الصوفية في بلاد الشام، رسالة ماجستير غير منشورة، ص30 وما بعدها.

(1) صيد الخاطر، ص54.

(2) الحلول، الحلولية، هي فرقة من الصوفية المبطلة، زعموا أن الحق اصطفى أجساماً حل فيها معاني الربوبية وأزال عنها معاني البشرية والأجسام التي اصطفاها الله تعالى هي أجسام أوليائه وأصفيائه، وكان منهم أتباع الحلاج. الرازي، اعتقادات فرق المسلمين، ص 82.

(3) الوحدة، هي وحدة الشيء وقائمة بذاته، ووحدة الوجود والحلولية، ترى أن الله يحل في كل شيء، وكل شيء يتحد بالله. صائغ، وآخرون، الموسوعة الفلسطينية، ج 3، ص 15.

(4) ألوهية الأئمة، هناك فرق من غلاة الشيعة، قالوا بإلوهية الأئمة، وأباحوا محرمات الشريعة، كالبيانية، والمنصورية، والحلولية. انظر، البغدادي، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية،ص23.

(5) تاريخ، ج1، ص473.

وقد بينت المصادر الإسلامية عنهم الكثير من المخالفات لأمور الشريعة، وأكـــدت أن الصوفية والمتصوفة سلكوا طرقاً أكثرها ينافي الشريعة، فمنهم من فسح لنفسه في كـــل ما يجب من النعم واللذات، واقتنع من التصوف بـــالقميص والفوطـــة والعمامـــة اللطيفـــة وخالط الأمراء من أرباب الدنيا وشرب الخمور، ولباس الحرير حفظاً لماله وجاهه ومنهم أقوام عملوا سنتاً لهم تلقوها من كلمات أكثرها لا يثبت، ومنهم من أُكب على سماع الغنـــاء والرقص واللعب[(1)].

وقد شكا أهل السنة إلي الإمام ابن الجوزي من أهل البدع والصوفية والمتكلمـــين فقال لهم: "اصبروا فلا بد للشبهات أن ترفع رأسها في بعض الأوقات وأن كانت مدفوعـــة وللباطل جولة وللحق صولة، والدجالون كثير"[(2)]؛ وقد أظهر الإمام تبرمـــه مـــن تغلـــب العادات على الشرع فيذكر أن الناس "يستوحشون من فعل الشئ لعدم جريـــان العـــادة لا لنهي الشرع"[(3)].

وظهرت كذلك في المجتمع بعض الضلالات وأصبح لها أتباع في المجتمع، مثـــل الطريقـــة الحريريـــة المنـــسوبة إلـــى علـــي بـــن أبـــي الحـــسن بـــن منـــصور الحريري(ت.645هـــ=1247م)، حيث أظهر الاستخفاف بـــأوامر الـــشرع، والـــصلوات وانتهاك الحرمات وقذف الأنبياء، فطالب الفقهاء بقتله وقتل[(4)]. ويذكر أنه أغـــوى بعـــض أبناء علية القوم في دمشق فأصبحوا من أتباعه وترددوا على مجلسه، وقد سماهم أبو شامة "بأصحاب الزي المنافي للشريعة...وصاروا على زى أصحابه وتبعـــوه بـــسبب أن كـــان خليع....فاضل خلقاً كثيراً وأفسد جماً غفيراً"[(5)].

وظهر شخص آخر اسمه أحمد الرويس الأقباعي(ت.715هـــــ= 1315م)، فـــي دمشق فاستحل المحارم وتعرض للنبوة وادعى العلم بالغيب، وأدعى أن النبي كان يجتمـــع به، وكان يأكل الحشيشة ويترك الصلاة[(6)]، كما عرفت الطريقة اليونسية نسبه إلي يـــونس

(1) أنظر،ابن الجوزي، صيد الخاطر، ص122، 203؛الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص47؛ حشيش، الحركة الصوفية في بلاد الشام، رسالة ماجستير غير منشورة، ص54 وما بعدها.
(2) صيد الخاطر، ص174.
(3) صيد الخاطر، ص210،209.
(4) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص180.
(5) الذيل على الروضتين، ص180.
(6) الذهبي، العبر في خبر من غبر،ج4،ص401.

بن يوسف ابن مساعد(ت.619هـ=1222م)، وكان أصحابه من ذوي الشطح وقلة العقل وكثرة الجهل[1].

ومن مؤشرات انتشار الجهل بين العامة، تصديق المنجمين والمشعوذين، فقد أشاعوا بين الناس سنة(489هـ=1095م) بوقوع طوفان أشبه بطوفان نوح[2]، كما أنهم أشاعوا أن رياحاً ستهب وتكون هناك غيوم قاتلة وكان ذلك في سنة(582هـ=1186م)[3]. وكذلك خوفوا صلاح الدين بذهاب أحد عينيه عند دخوله إلى بيت المقدس[4].

وفشت في طبقات المجتمع ظاهرة في التوسل بالأولياء والمشايخ لتحقيق المآرب والغايات، فيذكر المؤرخ ابن الساعي أن الكثير من الناس كانوا يعتقدون في شخص أبله كان يمشي عرياناً مكشوف السوءة اسمه حميد الزيزي ويظنون أنه ولي من أولياء الله، وعندما توفي سنة(595هـ=1198م)، تبع جنازته خلق كثير من العوام وظل قبره يزار وتنذر له النذور[5].

وقد أمعن الناس في تلك الحقبة في الاعتقاد في هؤلاء الأولياء، حتى نسبوا إليهم خرافات كثيرة خارقة للعادة، أسموها(كرامات)، فقد حكى الشعرانى بأن بعض كرامات الأولياء التي أمن بها الناس في زمانه، فذكر قصة امرأة تشتهي جوز الهند ولا يجدونه لها بمصر فتذهب إلى الشيخ فإذا بشجرة تنبت فجأة في خلوته تأخذ منها المرأة ما تشتهيه ثم تختفي الشجرة بعد ذلك![6]؛ ومن الأولياء من يضع التراب على الرصاص فيصبح ذهبا ! ومنهم من يطير في الهواء من غير أجنحة! وغير ذلك من الخرافات[7].

وشاعت هذه الظاهرة في عصر دولة المماليك بين طبقات المجتمع، فقد بلغ في الاعتقاد بهم أن قصدوهم جميع فئات الشعب، كما وصفهم ابن تغري بردي" وكان الناس

---

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج7، ص256؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص86.
(2) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ،ج9، ص97.
(3) ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص319.
(4) أبو شامة، الروضتين،ج2، ص92.
(5) الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير،ج9، ص14،15.
(6) لوا قح الأنوار في طبقات السادة الأخير، ج2، ص283.
(7) الشعراني، لوا قح الأنوار في طبقات السادة الأخير، ج2، ص283.

يترددون إليه فوجاً فوجاً، ما بين قاض وعالم وأمير ورئيس، وهو لا يلتفــت إلـــى أحــد منهم"[1]. وتمسك الناس في ذلك العصر بكثير من المعتقدات والأوهام الباطلة، حتى غدت عندهم بمثابة السنن الثابتة. ومن هذه تمسكهم بعدم زيارة المريض يــوم الـــسبت، وعـــدم دخول الحمام أو شراء الصابون أو غسل الملابس أو شراء السمك أو أكله في ذلك اليــوم بالذات ...وغير ذلك من التطير[2]، وكذلك احتل التنجيم مكانة كبيرة في الحياة الاجتماعية بين السلاطين والأمراء وعامة الناس، وقد عرف عدة طرق للتنجيم ومعرفة الطالع، منهـــا مراقبة النجوم وأبراجها، وفتح المندل وضرب الرمل... وغير ذلـــك[3]، فكـــان الملـــك الظاهر بيبرس(ت.665هـــ=1266م) "مولعاً بالنجوم وما يقوله أربـــاب التقـــاويم، كثيـــر البحث عن ذلك"[4]، كذلك الأمراء اعتادوا دائماً الالتجاء إلى المنجمـــين ليطلعـــوا علـــى النجوم أو يضربوا الرمل ويخبروهم من سيلى السلطنة بعد السلطان القائم بالأمر[5].

وظهرت ظاهرة إحياء الموالد السنوية لهؤلاء (الأولياء)، وحظيت بعنايـــة فائقـــة وخاصة في مصر، من قبل السلطنة والناس، وكان الغرض الأساسي من إقامة هذه الموالد هو تكريم أصحابها وإحياء ذكراهم أمثال السيد البدوي، ومولد السيد عماد الدين إســـماعيل بن يوسف الإنبابي[6]؛ وتعتبر إقامة هذه الموالد من اكبر الخرافات التي ابتلى بها المجتمع نظرا لما يحدث فيها من مظالم وتهتك وفضائح خلقية. ذلك أن القائمين على أمرها اعتادوا على جمع الأموال اللازمة لها من الأغنياء وفرضها عليهم فرضا[7]؛ والأدهى من ذلك أن هذه الموالد كان يجتمع فيها النساء والرجال فتنصب لهم الخيام الكثيـــرة حيـــث يحتـــسون الخمر ويرتكبون مختلف أنواع المنكر، وقد ذكر أنه عثر في صـــبيحة الاحتفـــال بموالـــد

---

(1) النجوم الزاهرة، ج5، ص225.
(2) ابن الحاج، المدخل، ج1، ص379،237؛ للمزيد عن هذه البدع، أنظر، كتاب المدخل، لإبن الحاج بأجزائه الأربعة.
(3) ابن الحاج، المدخل، ج2، ص211؛عاشور، المجتمع المصري في عهد المماليك، ص266.
(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،ج7، ص164.
(5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،ج7،ص94؛ الكتبي، فوات الوفيات،ج2، ص133.
(6) ابن إياس، بدائع الزهو في وقائع الدهور،ج2، ص221.
(7) عاشور، المجتمع المصري في عهد المماليك، ص262.

الشيخ إسماعيل بن يوسف الأنبابي على مائة وخمسين جرة من جرار الخمر فارغات عدا ما كان " في تلك الليلة من الفساد من الزناء واللواط والتجاهر بذلك"[1].

ومن بين البدع المنكرة آنذاك، ليلة النصف من شعبان (الألفية) والمقصود بالألفية هنا أنه في هذه الليلة يصلي المصلي مائة ركعة وفي كل ركعة تقرأ الفاتحة مرة والإخلاص عشر مرات[2]؛ وكذلك صلاة الرغائب[3] وهي الصلاة التي تصلي بين العشائين ليلة أول جمعة من شهر رجب[4].

وأود قبل أن اختتم هذا الفصل أن استشهد بموقف الإمام والمؤرخ ابن الجوزي في كتابه "صيد الخاطر" والذي رصد فيه أحوال المجتمع بكل طبقاته وبوصف دقيق لما كان يحصل من مخالفات ومنكرات وسلوك مخالف للشرع: " ونظرت إلى الناس فرأيتهم ينقسمون بين عالم وجاهل، فأما الجهال فمنهم سلطان قد ربي في الجهل ولبس الحرير وشرب الخمر وظلم الناس وله عمال على مثل حاله....ومنهم تجار همهم الاكتساب وجمع الأموال، وأكثرهم لا يؤدي الزكاة، ولا يتحاشى الربا... ومنهم أرباب معاش يطففون المكيال ويخسرون الميزان ويبخسون الناس ويتعاملون بالربا... ومن الناس ذو رذالة في جميع أحوالهم... ومنهم من يطلب اللذات ولا يساعده المعاش فيخرج إلى قطع الطريق وهؤلاء أحمق الجماعة... ومنهم أرباب قرى قد عمهم الجهل وأكثرهم لا يتحاشى من نجاسة... {وقال ابن الجوزي عن النساء}:.. ومنهن الخائنة لزوجها في ماله، و منهن من لا تصلي ولا يعرفن شيئاً من الدين... فإذ سمعن موعظة فإنها كما مرت على حجر. وإذا قرىء عندهن القرآن فكأنهن يسمعن السمر... وأما العلماء فالمبتدئون منهم ينقسمون إلى ذي نية خبيثة يقصدون بالعلم المباهاة لا العمل، ويميل إلى الفسق ظناً أن العلم يدفع عنه... أما المتوسطون والمشهورون فأكثرهم يغشي السلاطين ويسكت عن إنكار المنكر"[5].

---

(1) ابن حجر، أنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ،ج1، ص130؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج2، ص391.

(2) أبو شامة، الباعث على إنكار البدع والحوادث، ص34.

(3) الرغائب، جمع رغيبة وهي العطايا الكثيرة، والرغائب، ما يرغب فيه الثواب العظيم وسعة الأمل وطلب الكثير ومن ذلك صلاة الرغائب.الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس،ج1، ص530.

(4) أبو شامة، الباعث على إنكار البدع والحوادث، ص42،41.

(5) ص295، 296.

الفصل الثاني:

مكانة العلماء

المبحث الأول: مكانة العلماء الاجتماعية.

المبحث الثاني: أحوال العلماء الاجتماعية.

المبحث الأول:

مكانة العلماء الاجتماعية.

- مكانة العلماء في الكتاب والسنة.
- مهمة العلماء.
- مكانة العلماء في المجتمع.

أولاً: مكانة العلماء عند عامة الناس.

ثانياً: مكانة العلماء عند السلاطين والأمراء.

مكانة العلماء في الكتاب والسنة:

المفهوم الشرعي للعلماء: هم الذين يعرفون شرع الله ويفقهونه ويعملون به المتبعون لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، والسلف الصالح على هدى وبصيرة[1].

لقد تبوأ العلماء مكانةً عظيمة، ودرجة عالية في القرآن الكريم و السنة النبوية الشريفة ولعظيم مكانتهم ورفعة قدرهم وعلو درجتهم وجب على الناس أن يوفوهم حقهم من الإحترام، والتقدير والإجلال وحفظ الحرمات، وقد وردت آيات وأحاديث نبوية كثيرة تعظم مكانة العلم والعلماء فإن الله عز وجل اختص من خلقه من أحب فهداهم للإيمان، ثم اختص من سائر المؤمنين من أحب فتفضل عليهم فعلمهم الكتاب والحكمة وفقههم في الدين، وعلمهم التأويل وفضلهم على سائر المؤمنين، وذلك في كل زمان وأوان، وقد رفعهم بالعلم وزينهم بالحلم، بهم يعرف الحلال من الحرام، والحق من الباطل، والضار من النافع، والحسن من القبيح[2].

وقد بين الحق تبارك وتعالى منزلة العلماء وقدرهم فقرنهم بالملائكة في الشهادة بالتوحيد فقال تعالى:" شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ"[3]، وبين أن العلماء هم أخشى الناس لله، فقال تعالى:"إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ"[4]، وجعلهم مرجع الأمة، فقال تعالى: "فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ"[5]، وقوله تعالى:"وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ"[6]، وجعلهم من أولي الأمر الذين تجب طاعتهم، فقال تعالى: "أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ"[7]، قال ابن عباس وجابر بن عبد الله وأبو العالية ومجاهد وعطاء والحسن البصري: "هم أولو

---

(1) عقل، أثر العلماء في تحقيق رسالة المسجد، ص9.
(2) الآجري، أخلاق العلماء، ص1.
(3) سورة آل عمران، آية، 18.
(4) سورة فاطر، آية، 28.
(5) سورة النحل، آية، 43.
(6) سورة النساء، آية، 83.
(7) سورة النساء، آية، 59.

العلم والفقه"[1]، وجعلهم الأئمة الذين يُقتدى بهم، فقال تعالى:"وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ"[2].

وقد رفعهم الله تعالى بالعلم درجات، فقال تعالى:"يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ"[3]،وقال الله تعالى:"قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ"[4] وهم أهل الحكمة والفقه في الدين" يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ "[5].

وأما ما ورد في السنة النبوية الشريفة حول مكانة ومنزلة العلماء فمنه ما روى البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"من يرد الله به خيرا يفقه في الدين"[6] وروى أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال:"فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم إن العلماء هم ورثة الأنبياء إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظه أو بحظ وافر"[7].

وبناءً عليه فإن رفعة الدرجات والمكانة العالية تدل على الفضل إذ المراد به كثرة الثواب وبه ترتفع الدرجات، ورفعتها تشمل المعنوية في الدنيا بعلو المنزلة وحسن الصيت والفوز في الآخرة بعلو المنزلة في الجنة. وإن المتتبع لتاريخ الأديان لا يعرف دينا كرم العلم والعلماء كما كرمه الإسلام، ورفع من منزلة العلماء كما رفعها الإسلام ولعل أكبر دليل على ذلك هو بدء نزول القرآن الكريم بهذه الآيات حيث يقول الله تبارك وتعالى:"اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ.عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ"[8].

---

(1) العقل، أثر العلماء في تحقيق رسالة المسجد، ص10.
(2) سورة السجدة، آية 24.
(3) سورة المجادلة، آية، 11.
(4) سورة الزمر، آية، 19.
(5) سورة البقرة، آية، 269.
(6) ابن حجر، فتح الباري، ج13، ص293.
(7) الدارمي، سنن،ج 1 ،ص 110.
(8) سورة العلق، الآيات،1-5.

فأول ما من الله على عباده بعد أن خلقهم هو العلم الذي حمله الأنبياء ومن بعدهم العلماء ورثة الأنبياء[1]. فالعلماء هم الواسطة بين الله وبين عباده في تبليغ الشريعة، فهــم خلفاء الرسل في أممهم وورثوهم في علمهم يحتاج إلــيهم الــصغير والكبيــر، والــذكر والأنثى، والحاكم والمحكوم فالواجب عليهم عظيم بقدر ما تبوؤوه في الكتاب والسنة مــن المكانة والمنزلة، وقد قال سفيان بن عيينة:" أرفع الناس عند الله منزلة من كــان بــين الله وبين عباده، وهم الأنبياء والعلماء"[2]، ولهذا قيل" إن زلة العالم كالسفينة تغــرق ويغــرق معها خلق كثير"[3].

ولقد أخذ الله على العلماء ميثاق البيان وعدم الكتمان، فيما أوتوا من العلم، فقال الله تعالى في ذلك:" وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ"[4].

نعم إن كثيراً من الناس موتى لأنهم يموتون ولا يتركون خلفهم شيئاً يحيون به ولكن العلماء يرثون ميراث النبوة فهم أحياء بأعمالهم التي قاموا بها، وإنجازاتهم في سبيل الدعوة وبنائهم المشيد في حقل الشرع الزاخر بالعلوم الشرعية، وهم أحياء في القلوب لحب الموحدين لهم، لأنهم نقلوا هذا الميراث، وها نحن نقلب في ارثهم الضخم وندقق النظر في فهم وتحليل مرادهم وتذوقهم الفقهي في التفسير والحديث أو الفروع أو التوحيد والعقيدة[5].

وخير العلوم التي حث عليها الله تعالى ونبيه الكريم هو العلم الشرعي والفقه في الدين حيث يقول صلى الله عليه وسلم:" من يرد الله به خيرا يفقه في الدين"، إن تفسير هذا الحديث متعلق بجهة إثبات الخير لمن تفقه في دين الله، وإن ذلك لا يكون بالاكتساب فقط (يعني بالطلب والتحصيل)، بل لمن يفتح عليه به، وأنه متى يفتح الله عليه بذلك يكون ممن خصهم الحديث[6].

---

(1) جمال الدين، العلم والعلماء في ميزان الشريعة الغراء، مجلة الإسراء، العدد، الثامن، ص69.

(2) الخطيب البغدادي،الفقيه والمتفقه، ج1، ص150.

(3) المصلح، العلماء بين الدور المنشود والدور المفقود، مجلة البيان، العدد،191، ص109.

(4) سورة آل عمران، آية،187.

(5) صباح، العلم والعلماء في ضوء الكتاب والسنة، مجلة الاستقامة، العدد، الثاني والثالث، ص74.

(6) ابن حجر، فتح الباري، ج13، ص293، 294، 295.

وأما عن فضل من صار عالماً ونشر ما أفاء الله عليه من هذا العلم، فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم:" إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلم، مثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به"[1].

وفي هذا الحديث دليل على أن من فقه في دين الله وعلم من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يعلم فإنه خير الأقسام لأنه علم وفقه لينتفع وينفع الناس ويليه من علم ولكن لم يفقه يعني روى الحديث وحمله لكن لم يفقه منه شيئا وإنما هو رواية فقط هذا يأتي في المرتبة الثانية في الفضل بالنسبة لأهل العلم والإيمان. وأما القسم الثالث لا خير فيه رجل أصابه ما أصابه من العلم والهدى الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام ولكنه لم يرفع به رأسا ولم ينتفع به ولم يعلمه الناس فكان - والعياذ بالله - كمثل الأرض السبخة التي ابتلعت الماء ولم تنبت شيئا للناس ولم يبق الماء على سطحها حتى ينتفع الناس به وفي هذا الحديث دليل على حسن تعليم الرسول عليه الصلاة والسلام وذلك بضرب الأمثال لأن ضرب الأمثال الحسية يقرب المعاني العقلية أي ما يدرك بالعقل يقربه ما يدرك بالحس وهذا مشاهد فإن كثيرا من الناس لا يفهم فإذا ضربت له مثلا محسوسا فهم وانتفع[2].

إن الدعوة إلى الله أشرف عمل، وأفضل مهمة، وأنبل سبيل، وأحسن كلمة، تقال على وجه الأرض لتصعد بها الملائكة إلى رب السماوات والأرض، بها قام الأنبياء وكانت إرثهم إلى العلماء،"وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ"[3]، واقترانها بالعمل من علم واعٍ ورأي حصيف، وإطلاع شامل في التقديم والتفضيل، وأن تكون خالصة لله رب العالمين فليس فيها لنفس الداعية شيء ولا لحزبه

(1) مسلم، صحيح، ج11، ص395.
(2) العثيمين، شرح رياض الصالحين، ج1، ص184،
(3) سورة فصلت، آية، 33.

ولا لقيادته، ولا لمعادلاته الشخصية" وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا"[1].

ولم يقتصر الإسلام على العلم الشرعي وحده، ولكنه وجه الأنظار إلى كل أنواع العلوم التي تساهم في تقدم المسلمين وترفع مكانتهم بين الأمم، إلا أن العلم على حد تعبير حجة الإسلام الإمام الغزالي[2]، نوعان: فرض عين، وفرض كفاية؛ أما فرض العين فهو العلم الذي يهدي إلى الله ويعرف به، ويعني به علم المعاملة الذي يحرر للمسلم عقيدته ويوضح له ما يأتمر، وما ينتهي عنه. وأما فرض الكفاية فهو العلم الذي لا يستغني عنه المسلمون في قوام أمر الدنيا كالطب والحساب والهندسة والكيمياء والفلك وغيرها[3] ومعنى أنه فرض كفاية أنه إذا قام به البعض سقط عن الباقين وإذا قصر فيه الجميع أثموا[4]؛ وهذا ما أكده قول الله تعالى:" سَنُرِيهِمْ آَيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ"[5].

إذن فضل العلماء عظيم،"هم ورثة الأنبياء، وقرة عين الأولياء الحيتان في البحار لهم تستغفر، والملائكة بأجنحتها لهم تخضع، والعلماء في القيامة بعد الأنبياء تشفع، مجالسهم تفيد الحكمة، وبأعمالهم ينزجر أهل الغفلة، هم أفضل من العباد وأعلى درجة من الزهاد، حياتهم غنيمة، وموتهم مصيبة، يذكرون الغافل، ويعلمون الجاهل، لا يتوقع لهم بائقة، ولا يخاف منهم غائلة، بحسن تأديبهم يتنازع المطيعون وبجميل موعظتهم يرجع المقصرون، جميع الخلق إلى علمهم محتاج، الطاعة لهم من جميع الخلق واجبة،

---

(1) سورة الأحزاب، آية،67؛ أبو شخيدم، بين الأمراء وبين الدعاة والرعاة، مجلة الاستقامة، العدد، 11، ص47،46.

(2) هو أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالي، لقبه حجة الإسلام، زين الدين الطوسي الفقيه الشافعي، لم يكن في الطائفة الشافعية في آخر عصره مثله جامع لأ شتات العلوم، والمبرز في المنقول منها والمفهوم ولد سنة 450 هـ=1058م وتفقه على أبي المعالي الجويني وصنف الكتب الكثيرة و تعددت جوانب معرفته، فشملت علوم عصره من فقه وأصول ومنطق، وفلسفة، وعلم كلام، وتصوف وأخلاق، وصنف في كل منها تصانيف تشهد له بالعمق والأصالة وطول الباع. وتنقل من نيسابور ثم إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام فمصر، وعاد إلى بلدته في الطابران (قصبة طوس، بخراسان). توفى سنة 505هـ=1111م. ابن خلكان،وفيات الأعيان،ج 4،ص216؛ الذهبي، تاريخ الإسلام،ج 35،ص115؛ الصفدي، الوافي بالوفيات،ج1، ص119؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج6، ص161؛ الزركلي،الأعلام، ج7، ص22.

(3) إحياء علوم الدين، ج1، ص17،16

(4) القرني، مسئولية العلماء، مجلة الوعي الإسلامي، العدد 254، ص104.

(5) سورة فصلت، آية،53.

والمعصية لهم محرمة، من أطاعهم رشد، ومن عصاهم عند، ما ورد على إمام المسلمين من أمر اشتبه عليه حتى وقف فيه فبقول العلماء يعمل، وعن رأيهم يصدر"[1].

مهمة العلماء:

لقد أفاض علماء الإسلام ومفكروه في بيان مهمة العلماء، ومن ذلك ما قيل: "وجب على العلماء العمل بما في الشريعة كما علمها الله ورسوله والعلماء الثقات من بعده دون زيادة أو نقصان أو تخفيف أو تثقيل، ودون خشية أو خجل إلا من الله مع رعايته للمجتمع الإسلامي توصيلاً لحكم الله وحده عز وجل، وليس لإرضاء حكومة أو قوة أو حزب أو شهرة علمية بحتة، على أن الاجتهاد له شروط معروفة لابد أن يستوفيها العالم يأتي في مقدمتها الورع والذكاء والقدرة والفهم للاستنباط من الموارد الأساسية كما يقرر ذلك الأصوليون"[2].

إذن العلماء مسئوليتهم كبيرة وخطيرة تجاه دينهم وأوطانهم ومجتمعاتهم، بل تجاه العالم أجمع الذي ينظر إليهم على أنهم مخلصوه من متاعبه وآلامه ومعالجوه من جراحاته وأمراضه فبقدر إيمانهم واقتناعهم بأهمية مسئوليتهم نحو دينهم ومجتمعهم وأوطانهم وبسمو الأمانة الملقاة على عواتقهم، وبيقظة وجدانهم الديني وضميرهم الحي وشعورهم بالخوف من التقصير إن قصروا وبالرغبة في نيل الثواب والرضا من الله إن أحسنوا، من كل ذلك يأتي دورهم في إنقاذ المجتمع وهدايته والأخذ بيده مما يتردى فيه من شر وفساد ويبرز هذا الدور في أن يهدي بقوة محبته لدينه وربه غيره من الناس ويرشدهم إلى طريق السلامة ويجتهد لهم فيما ينفعهم وييسر لهم سبل الفهم في دينهم ويقرب لهم وسائل المعرفة ويأخذ بأيديهم إلى طريق النور[3].

ولا تقف مهمة العلماء عند هذا الحد، ولكن تمتد إلى أبعد من ذلك فهي تبصر الناس بحقائق الدين وتكشف أمامهم مجاهل الدنيا، فالعلماء رواد مستكشفون وتبعتهم تحتم عليهم الايجابية مع المجتمع والتفاعل مع الناس والصدق مع النفس بالتطبيق العملي لما يعلم من حقائق هذا الدين وأحكامه، لأنهم أهل الذكر والله تعالى يقول:" فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ

---

(1) الآجري، أخلاق العلماء، ص2.

(2) القرني،مسئولية العلماء، مجلة الوعي الإسلامي، العدد 254، ص105.

(3) المقوسي، الوعظ وأثره في المجتمع، مجلة المنبر، العدد السابع، ص60، 61؛ القرني،مسئولية العلماء، مجلة الوعي الإسلامي، العدد 254، ص104،105.

لَا تَعْلَمُونَ"[1] والفتوى يجب أن يتصدى لها العلماء وطلاب العلم المتمكنون، ولا يترك الناس للأحداث والمتعالمين وقليلي الفقه في الدين، وربما أهل الأهواء أحيانا[2].

وبذلك يصبح العالم صورة حية للدين تتحرك في هالة من النور تهدي الحائر وترشد الضال وتأخذ بأيدي الناس إلى طريق الهدى والصواب؛ وإذا كان علماء الدنيا عليهم عبء واحد فعلماء الدين عليهم أعباء متعددة، عليهم أن يعرفوا صور الفكر الإسلامي ويؤلفوا بينها في إطار متناسق حتى لا تتصادم وتتعادى ويتعادى من ورائها المسلمون ويقع بأسهم بينهم، ولا يتم ذلك إلا إذا وقف علماء الدين في الأقطار الإسلامية كلها صفاً واحداً، بعيداً عن العصبية والتعصب وتناقشوا في هدوء وإيجابية فيما يعترضهم من قضايا، حتى يتقاربوا أمامها على رأي يذهب عن المسلمين خلافاتهم الحادة وصراعاتهم الشديدة، ولقد حذر الله من الفرقة ودعا إلى الوحدة في مواطن كثيرة من القرآن الكريم حسبنا منها قوله تعالى:" وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ"[3]، كما دعا إلى التبرؤ من دعاة الفرقة حيث قال:" إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ"[4]،[5].

وكذلك من أوجب الواجبات على علمائنا الأجلاء أن تتصافى نفوسهم في لقاء رحب موضوعي يتكشف عن تقارب فكري وروحي ومذهبي، يذهب الجفوة القاسية من بين المسلمين ويبدد هذه الغربة الجافية عن صفوفهم، ويزيل الغشاوة عن العيون والأفهام الخاطئة الموجودة في أذهان أتباع المذاهب المختلفة والفرق المتباعدة، حتى يأذن الله بجمع الشمل وتوحيد الصف و يتغير حال المسلمين من الفرقة إلى الوحدة، كما قال الله تعالى:" إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ"[6]. وعلى العلماء أن يتصدوا إلى النزاعات والأفكار بالحوار المنطقي والنقاش الهادف والدليل القاطع والحجة الواعية التي تكشف أمام الأشهاد ما تبطنه هذه النزاعات من مساوئ وما تخفيه من آثام، وعليهم أن

---

(1) سورة الأنبياء، آية،7.
(2) العقل، أثر العلماء في تحقيق رسالة المسجد، ص21.
(3) سورة آل عمران، آية، 105.
(4) سورة الأنعام، آية، 159.
(5) القرني،مسئولية العلماء، مجلة الوعي الإسلامي، العدد 254، ص105، 106.
(6) سورة الرعد، آية،11.

يظهروا أمام الأعين ذلك الزيف الذي تحاول التيارات والحركات أن تغلف به فسادها ليبدو في نظر الناس صلاحا[1].

مكانة العلماء عند عامة الناس:

لقد كان للعلماء مكانة اجتماعية مرموقة، وموضع محبة واحترام لدى أغلب فئات المجتمع في حدود الدراسة التاريخية لهذا البحث، فاعتبروهم القادة لهم ونخبتهم، فهم وحدهم ملكوا القدرة على التفسير والإفتاء والبت في القضايا، دون أن ينازعهم منازع لذلك كان ينظر لهم نظرة إجلال وتقدير، إذ حرص الخاصة قبل العامة في الغالب على ملازمة طائفة منهم، بل وتنافسوا في استقطاب أفرادها، لما كان لهم من دور بالغ في التأثير بمختلف نواحي الحياة، وبما كانوا يتمتعون به من العديد من الصفات الدينية والخلقية إذ عرفوا بالتقوى والورع والنزاهة والعفة والأمانة، والنزاهة، والهيبة والوقار، والتواضع والعدالة، ونحوها من الصفات الحميدة[2].

حظي العلماء بهذه المكانة المرموقة؛ بسبب اهتمام العلماء بمصالح الأمة ودفاعهم عن حقوقها، فكان بعضهم لا يخشى في ذلك إلا الله، بل توجه بالنقد لكل من انتهك أو فرط في مصالح الأمة، فعندما سلم الملك الكامل الأيوبي[3] القدس للفرنج سنة(626هـ= 1228م)، عقد سبط بن الجوزي[4]، مجلس وعظ شنع فيه هذه الفعلة[5].

---

(1) المصلح، العلماء بين الدور المنشود والدور المفقود، مجلة البيان، العدد،191، ص109.
(2) المصري، التعليم في بلاد الشام في العهد الأيوبي، رسالة ماجستير غير منشورة، ص156.
(3) هو محمد بن محمد (الملك العادل)، ابن أيوب، أبو المعالي، ناصر الدين الملقب بالملك الكامل، من سلاطين الدولة الأيوبية. ولد بمصر سنة 576هـ=1180م، وأعطاه أبوه الديار المصرية، فتولاها مستقلا بعد وفاته،سنة 615هـ=1218م، وحسنت سياسته فيها، كان عارفا بالأدب، له شعر، وسمع الحديث ورواه.واتجه إلى توسيع نطاق ملكه، وله مواقف مشهورة في الجهاد بدمياط، وكان ذكيا مهيبا ذا بأس شديد، عادل منصف له حرمة وافرة، وسطوة قوية، ملك مصر ثلاثين سنة يباشر أمور الملك بنفسه،كان فيه جبروت، لما مات لم يحزن عليه الناس بسبب تنازله عن بيت المقدس للصليبيين. توفي سنة 635هـ=1237م ،بدمشق، ودفن بقلعتها.الصفدي، الوافي بالوفيات، ج4، ص123؛ ابن كثير البداية والنهاية،ج 13 ، ص 173، 174؛ الزركلي، الأعلام،ج7 ، ص28.
(4) هو سبط بن الجوزي، يوسف بن قزأوغلي بن عبد الله، ولد في بغداد سنة581هـ=1185م، سمع من جده لأمه أبي الفرج بن الجوزي صاحب كتاب(المنتظم في تاريخ الملوك والأمم)، وسمع من جماعة آخرين من العلماء البارزين بالموصل ودمشق، حتى صار فقيها وعلامة في الوعظ والتاريخ. وقد حظي عند الأيوبيين بمكانة مرموقة، نظرا لمكانته العلمية، فقد كان أوحد زمانه في الوعظ. ودرس سبط بن الجوزي في عدة مدارس بدمشق، وله تصانيف عديدة في علوم شتى تدل على ثقافته الواسعة منها: مرآة الزمان، شرح الجامع الكبير، تفسير القرآن، الجامع الكبير وغيرها. توفي في دمشق سنة 654هـ=1255م. الكتبي، فوات الوفيات،ج4،ص356؛ ابن كثير، البداية والنهاية،ج13،ص69، 70؛ الزركلي، الأعلام، ج8، ص246.
(5) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص241-246؛ العليمي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج1، ص406، 407.

ومن اهتمام العلماء بمصالح الأمة ما قام به الشيخ عز الدين بن عبد السلام(ت.600هـ=1261م)، عندما سلم الصالح عماد الدين إسماعيل الأيوبي[1] قلعة صفد[2] وقلعة الشقيف[3] وسائر المناطق الساحلية للصليبيين سنة (639هـ=1241م)، ثم عزم على مهاجمة مصر، "وأذن للفرنج في دخول دمشق وشراء السلاح، فأكثروا من ابتياع الأسلحة وآلات الحرب من أهل دمشق، فأنكر المسلمون ذلك ومشى أهل الدين منهم إلى العلماء واستفتوهم، فأفتى الشيخ عز الدين بن عبد السلام بتحريم بيع السلاح للفرنج وقطع من الخطبة بجامع دمشق الدعاء للصالح إسماعيل وصار يدعو في الخطبة بدعاء: "اللهم أبرم لهذه الأمة إبرام رشد تعز فيه أولياءك، وتذل فيه أعداءك، ويعمل فيه بطاعتك، وينهي عن معصيتك والناس يضجون بالدعاء"[4] الأمر الذي أغضب الملك الصالح إسماعيل، ودفعه إلى عزل العز بن عبد السلام من الخطابة، وحبسه، ولكن سرعان ما أفرج عنه خوفاً من نقمة الناس عليه نظراً لما كان يتمتع به من مكانة بين أبناء المجتمع[5].

كما تصدى بعض العلماء للسلطات الحاكمة أثناء فرضها بعض الضرائب أوسعيها لمصادرة بعض أموال الأوقاف والتجار، ولم يرضوا عما لحق بالعامة من جنايات ومغارم ومصادرات خاصة الفئة العريضة منهم التي طحنها الفقر؛ ومن المواقف المضيئة للعلماء في هذا الجانب ما قام به الشيخ عز الدين بن عبد السلام، والذي رفض افتاء السلطان

---

(1) لملك الصالح إسماعيل (الأول) هو عماد الدين، أبو الجيش، وقيل أبو الجيش بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد (الأول) بن الملك الأفضل نجم الدين أيوب بن شاذي، سادس ملوك الأيوبيين في دمشق وبصرى، وخامسهم في بعلبك قتل بمصر سنة،648هـ=1250م ،كان في البداية حاكم لبعلبك وبصرى ثم حكم دمشق خلفاً لأخيه المتوفى الملك الأشراف في سنة 635هـ=1237م، وقد رفض الكامل صاحب دمشق تولي الصالح إسماعيل لدمشق، فهاجمها وأخذها منه ثم رحل الصالح إسماعيل إلى بعلبك وعاد متحالفا مع المجاهد صاحب حمص ليأخذ دمشق من الكامل سنة 637هـ=1239م، وحتى يضمن الاحتفاظ بدمشق لنفسه قام بالتحالف مع الصليبيين وعقد معهم اتفاقاً. انظر، ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص275؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص210؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك،ج1، ص407. ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص241.

(2) صفد، مدينة في جبال عاملة المطلة على حمص بالشام وهي من جبال لبنان. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص412.

(3) قلعة حصينة جداً في كهف من الجبل قرب بانياس من أرض دمشق بينها وبين الساحل. ياقوت الحموي،معجم البلدان،ج 3، ص55.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج5، ص302،303؛ السبكي ،طبقات الشافعية الكبرى،ج8، ص243؛ ابن كثير، البداية والنهاية،ج13،ص236؛العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان،ج1، ص339؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك،ج1، ص407.

(5) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص235؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي،ج2، ص127؛ الزفزاف، شجاعة العلماء في إسداء النصيحة إلى الخلفاء والأمراء، مجلة الأزهر، الجزء الرابع، ص599.

سيف الدين قطز[1]، سنة(657هـ=1259م)، بجواز أخذ مال الرعية لمحاربة التتار إلا بعد خواء بيت المال وبيع المماليك للأحزمة الذهبية التي يتزينون بها، ومساواتهم في الملبس بالعامة عدا آلات الحرب والخيل. وبعد تنفيذ هذه الشروط أسفر الأمر عن أخذ دينار واحد عن كل رأس، وأجرة شهرين من الأملاك، فبلغت الجملة (600,000 دينار)[2].

وكذلك في عهد السلطان بيبرس(ت.676هـ=1277م)، عندما أراد أخذ فتوى العلماء والفقهاء بجواز أخذ أموال من الرعية ليتقوى بها في قتاله مع العدو، فوافقه فقهاء وعلماء الشام جميعاً عدا الشيخ محيى الدين النووي[3]،إذ امتنع عن كتابة خطه على الفتوى فقال له بيبرس ما سبب امتناعك. فقال: "أنا أعرف أنك كنت في الرق للأمير بندقدار، وليس لك مال. ثم من الله عليك، وجعلك ملكاً. وسمعت أن عندك ألف مملوك كل مملوك له حياصة من ذهب، وعندك مائتا جارية، لكل جارية حق من الحلي، فإذا أنفقت ذلك كله، وبقي مماليكك بالبنود الصوف بدلاً عن الحوائص وبقيت جواريك بثيابهن دون الحلي أفتيتك بأخذ المال من الرعية"، وكل ذلك أغضب الظاهر بيبرس وجعله يطرد النووي من دمشق إلى بلدته نوى[4].

هذه المواقف أكسبت العلماء الشعبية وحسن السمعة، فكانت كلمتهم مسموعة لدى الفئات الشعبية ولدى القبائل، فكان لهم دور في حفظ الأمن الداخلي،وضمان وحدة الجبهة

---

(1) سيف الدين قطز، كان أحد مماليك المعز أيبك التركماني. وكان بطلاً وشجاعاً. هزم التتار في معركة عين جالوت، ولم يخلف ولداً. أصله من خوارزم، ويقال أنه كان ابن أخت سلطان خوارزم. ثم أسر وبيع، وأصبح مملوكاً لتاجر في مصر. تولى حكم سلطنة المماليك ثم قتل على يد الظاهر بيبرس البندقداري سنة 658هـ=1259م.أنظر،الكتبي، فوات الوفيات،ج3، ص201، 202، 203؛ ابن العماد، شذرات الذهب،ج5، ص292.

(2) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك،ج1،ص416؛ السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ،ج2،ص36،35؛ الشربيني، مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية، ج1، ص314.

(3) محيى الدين النووي، ولد في المحرم سنة 631هـ=1233م، بنوى أو نوا إحدى قرى حوران بسوريا ، تعلم بها وجد في طلب العلم وعندما بلغ 19 عاما قدم به والده إلى دمشق فتعلم بها على ايدى مشاهير العلماء، كان لا يدخل الحمام ولا يأكل من فواكه دمشق لما في ضمانها من الحيلة والشبهة، وكان زاهدا ورعا، وقورا مهيبا، لا يبالى أن يواجه بيبرس بالإنكار عليه، إن رأي سبباً يدعو إلى ذلك، وكان يكثر المكاتبات إليه، ويعظه في أمور المسلمين، وكان السلطان يقبل أحيانا بعض نصائحه، وأحيانا يرفضها مهددا، ولم يتزوج في حياته ، وحج مرتين وله عدة تصانيف منها: المنهاج، رياض الصالحين، المبهمات، والأربعين حديثا، الإرشاد في علوم الحديث، منهاج الطالبين، عاد إلى قريته ومرض عند أبويه وتوفي في 14 رجب سنة 676هـ=1277م، ودفن ببلدته.الذهبي، تذكرة الحفاظ،ج4، ص75؛السبكي، طبقات الشافعية الكبرى،ج8، ص395؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ص258؛ السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج2، ص75؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص354.

(4) السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ،ج2، ص71.

الداخلية، أثناء غياب السلاطين فترات الحروب الخارجية، حيث ضغطوا على الفئات الشعبية وهدءوا الفئات المتنازعة والصراعات بين الأحياء، والقرى[1].

كما كان هناك من العلماء من دفع ثمناً غالياً، نتيجة تمسكه بإقامة الحق والعدل في الدفاع عن قضايا الناس، فهذا قاضي قوص[2]، نور الدين إبراهيم بن هبة الله الأسنائي[3] كان حريصاً على هذا المبدأ، فلما قدم الناصر محمد بن قلاوون[4] إلى قوص للزيارة كان معه ناظر الخاص[5]، كريم الدين الكبير[6]، الذي طلب من قاضي قوص تسليم مال

---

(1) زعرور، الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي، رسالة دكتوراه غير منشورة، ص135.

(2) قُوصُ، مدينةً كبيرة عظيمة واسعة تقع في صعيد مصر بينها وبين الفسطاط اثنا عشر يوماً وأهلها أرباب ثروَة واسعة، وهي محط التجار القادمين من عدنَ، وأكثرهم من هذه المدينة، وهي شديدة الحرّ لقربها من البلاد الجنوبية. ياقوت الحموي،معجم البلدان،ج3، ص448.

(3) إبراهيم بن هبة الله الحميري بن علي الحميري نور الدين الإسنائي الفقيه الشافعي ولد بأسنا من بلاد الصعيد وتفقه على البهاء القفطي وأخذ عن شمس الدين الأصفهاني وبهاء الدين بن النحاس وناب في الحكم بقوص وبأخميم وبأسيوط وغيرها وكان حسن السيرة ، ثم تولى قضاء قوص إلى أن عزل فعاش في القاهرة، بدون عمل حتى توفى سنة 721هـ=1320م.أنظر، ابن حجر،الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة،ج1 ، ص83.

(4) السلطان الأعظم الملك الناصر محمد بن قلاوون السلطان الأعظم الملك الناصر ناصر الدين أبو الفتح محمد بان السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي.ولد الملك الناصر سنة 684هـ=1285م ، توفي سنة 741هـ1340م،ودفن بالمدرسة المنصورية بين القصرين،كان ملكاً عظيماً دانت له العباد وملوك الأطراف بالطاعة.تسلطن في المرة الأولى، لما قتل أخوه الملك الأشرف خليل سنة 693هـ=1293م وعمره 9 سنوات وكان تحت وصاية أمه وبعض السلاطين زين الدين كتبغا هو النائب والأمير علم الدين الشجاعي هو الوزير وأستاذ الدار، والمرة الثانية كان عمره إذ ذاك اثنتا عشرة سنة وأشهرا، ومدبر الممالك وأتابك العساكر الأمير زين الدين كتبغا، ونائب الشام الأمير عز الدين أيبك الحموي، والوزير بدمشق تقي الدين توبة التكريتي، وشاد الدواوين شمس الدين الأعسر.أنظر ترجمته، الصفدي،الوافي بالوفيات،ج2، ص76 وما بعدها؛ابن كثير،البداية والنهاية،ج 13، ص 399.

(5) ناظر الخاص" هي وظيفة محدثة أحدثها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون حين أبطل الوزارة وأصل موضوعها التحدث فيما هو خاص بمال السلطان وقد صار متوليها كالوزير لقربه من السلطان وتصرفه، وصار إليه تدبير جملة الأمور، وتعيين المباشرين، ولناظر الخاص أتباع من كتاب ديوان الخاص كمستوفي الخاص وناظر خزانة الخاص ونحو ذلك.أنظر، القلقشندى، صبح الأعشى ،ج4، ص30.

(6) هو أكرم بن هبة الله القبطي كريم الدين الكبير عمل عند بيبرس الجاشنكير لفترة طويلة. ثم نال رضي الناصر محمد بعد عودته إلى السلطنة سنة 709هـ=1309م، عندما صادر كل ما كان يملكه بيبرس لصالح الناصر محمد. وتولى وظيفة" نظر الخاص" فأصبح مسئولا عن كل ما يملكه الناصر من عقار ونقد . واجتهد في إرضاء الناصر محمد فبلغ منزلة عظيمة عنده حتى صار كبار الأمراء يهادونه ويقصدونه. ونجح كثيراً في استثمار الأموال السلطانية، وبالتالي حقق الرفاهية للسلطان وحريمه. ولكن السلطان لم يلبث أن خشي من سطوته ومكانته، فقبض عليه؛ ونفاه إلى أسوان حيث =

الزكاة. ولكن القاضي نور الدين الأسنائي رفض ذلك على أساس أن مال الزكاة يفرق في الفقراء. فلم تقنع تلك الإجابة "ناظر الخاص" الذي واصل إلحاحه ولم يكف عن ذلك إلا عندما تدخل السلطان الناصر محمد[1].

وقد سعى العلماء في قضاء حوائج الناس، نظراً لنفوذ بعضهم بحكم قربهم من السلطة وقدرة آخرين منهم على التأثير في كثير من الأحيان، فكان المحتاجون وطلبة العلم يقصدون بيت بهاء الدين بن شداد[2]، وقد قيل عنه أنه اجتمعن فيه ثلاث صفات: العلم والمال والجاه، وهو لا يبخل بشيء منها[3]، وروى اليونيني في ترجمته للشيخ صدر الدين البعلبكي أنه كان "جواداً ممدوحاً لا يقدم بعلبك قادم إلا ويكرمه ويضيفه وكان كثير البر والصدقة وإطعام الفقراء والمساكين مقتصراً في ملبسه... فكان إذا أضاف أحداً من أرباب الدنيا جعل من ذلك الطعام جزءاً وافراً يتصدق به على الفقراء فإن ضاق الطعام عن ذلك استأنف طعاماً للفقراء"[4].

ويتضح من المكانة التي تمتع بها العلماء عند عامة الناس أنهم لم يكونوا معزولين عن قضايا الناس، بل كانت لبعضهم مواقف حاسمة في الدفاع عن الحقوق العامة للناس "فهم سراج العباد، ومنار البلاد، وقوام الأمة، وينابيع الحكمة، هم غيظ الشيطان، بهم تحيا قلوب أهل الحق، وتموت قلوب أهل الزيغ، مثلهم في الأرض كمثل النجوم في السماء يهتدي بها في ظلمات البر والبحر، إذا انطمست النجوم تحيروا، وإذا أسفر عنها الظلام

=

شنق سنة 724هـ=1323م، بعد أن صادر الناصر كل ما كان يملك.أنظر، ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ،ج1، ص477.

(1) ابن حجر،الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة،ج1 ، ص83، 84؛ الحجي، صور من الحضارة العربية في سلطنة المماليك، ص112.

(2) هو قاضي القضاة أبو المحاسن بهاء الدين بن رافع بن تميم الأسدي، ولد بالموصل سنة 539هـ=1144م، ونشأ فيها ودرس القراءات السبع وروى الحديث وقرأ الفقه والتفسير، عُين معيداً بالمدرسة النظامية ببغداد في سنة 569هـ=1173م، وفي سنة 584هـ=1188م اتصل بخدمة السلطان صلاح الدين الأيوبي، فولاه قضاة حلب فأعتنى بها وعمرت في أيامه المدارس، ومن مؤلفاته: النوادر السلطانية، تناول فيه سيرة السلطان صلاح الدين، والأعلاق الخطيرة في تاريخ الشام والجزيرة، وألف في الفقه كتاب الموجز الباهر. توفي سنة 632هـ=1234م،في حلب.ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج7، ص85، 86؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى،ج8، ص360، 361؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص160.

(3) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى،ج8، ص360.

(4) ذيل مرآة الزمان،ج2، ص93.

أبصروا، فإن قال قائل : ما دل على ما قلت ؟ قيل له : الكتاب، ثم السنة. فإن قال: فاذكر منه، إذا ما سمعه المؤمن، سارع في طلب العلم، ورغب فيما رغبه الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم"[1].

ويمكن أن تلمس ما حظيت به فئة العلماء من منزلة اجتماعية عالية في تلك الحقبة من خلال الوقوف على مشاهد جنائز بعضهم، وكثرة الخلق الذين كانوا يتوافدون من أجل تشييعهم في مثواهم الأخير، فعندما توفي فخر الدين بن عساكر[2] سنة (620هـ=1223م)، حضر جمع لا حصر له من الكثرة[3] كما ازدحم الخلق في جنازة جمال الدين الحصيري(ت.636هـ=1238م) شيخ الحنفية وحمل نعشه على الأصابع[4] ولما توفى سبط بن الجوزي في دمشق سنة (654هـ= 1256م)، حضر جنازته خلق عظيم، كما حضرها السلطان الملك الناصر صاحب دمشق[5].

ولهذه المكانة المرموقة التي تتوج بها العلماء بين الناس، فكان موت العالم يحدث خللاً في المجتمع كما وضح ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله:"موت العالم ثلمة في الإسلام لا يسدها شيء ما اختلف الليل والنهار"[6].

مكانة العلماء عند السلاطين والأمراء:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إذا أراد الله بالأمير خيرا جعل له وزير صدق إن نسى ذكره وان ذكر أعانه، وإذا أراد غير ذلك جعل له وزير سوء إن نسى لم

---

(1) الآجري، أخلاق العلماء، ص3.

(2) هو الشيخ الإمام عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن عساكر الدمشقي الشافعي، شيخ الشافعية بالشام، وإمام وقته في علمه ودينه، ولد بدمشق سنة 499هـ=1105م،وتلقى ثقافته الأولى في الفقه والحديث بدمشق، فأخذ فيها عن جماعة منهم والده وأخوه ضياء الدين، ثم رحل على بغداد وغيرها من البلدان الإسلامية بحثاً للعلم. كان زاهداً في المناصب، وقد امتنع عن القضاء وغيره من المناصب، وكان يدرس في المدرسة الصلاحية بالقدس وبعدة مدارس بدمشق.توفي سنة620هـ=1223م.أنظر،أبو شامة،الذيل على الروضتين،ص137،136؛ السبكي طبقات الشافعية الكبرى،ج8، ص171، - 173؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص92، 93.

(3) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص202؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص86.

(4) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص477.

(5) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص71؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص201.

(6) الدارمي، سنن،ج1، ص106.

يذكره وان ذكر لم يعنه"[1]، فالخير كل الخير في بطانة الخير الذين يلتزمون بالحق ويعينون عليه والويل كل الويل في بطانة السوء الذين يغدرون السلطان بعدم نقل الخبر الصادق الذي يقوم به المعوج ويحسن إلى المحسن؛ إما أن يرشح للسلطان أشخاص فسقة ومفسدون على أنهم أهل الصلاح وأهل الاضطلاع بالمسؤولية وبهم يسعد الناس وسرعان ما ينكشف زيفهم وفسادهم فهم المسئولون أمام الله عن هذه المفاسد[2].

لقد جهد أغلب الخلفاء، والسلاطين، في تلك الحقبة التاريخية في استقطاب نخبة من العلماء والفقهاء والمثقفين، ومنحوهم الضمانات المالية والاجتماعية، وفتحوا أمامهم السُبل لاحتلال أعلى المناصب في الوظائف الإدارية والسياسية والعلمية، مقدرين كم هي عظيمة تلك التدابير التي يمتلكها بعضهم في حال توظيفها أثناء خطواتهم الهادفة إلى ترسيخ نفوذهم السياسي وإحياء فكرهم المذهبي؛ وكان للفاطميين في ذلك نصيب وافر، يروى أن المهذب بن النقاش لما وصل إلى الشام من بغداد، وكان فاضلاً في صناعة الطب، أقام بدمشق مدة، ولم يحصل له بها ما يقوم بكفايته، وسمع بالديار المصرية وإنعام الخلفاء فيها وكرمهم وإحسانهم إلى من يقصدهم ولا سيما من أرباب العلم والفضل وتاقت نفسه إلى السفر، وتوجهت أمانيه إلى الديار المصرية فوجد فيها ما كان يرجوه من احترام وتقدير ورفاعة الشأن[3]، واشتهر من وزرائهم في تلك الحقبة بحب العلم وتقريب العلماء وتشجيعهم الوزير الأفضل بن بدر الجمالي(ت.488هـ=1094م)، وكان مغرماً بجمع الكتب[4].

أما مكانتهم في الدولة الزنكية، فقد كان لهم التقدير والاحترام ونالوا حظاً وفيراً من المكانة العالية لدى مؤسس الدولة عماد الدين زنكي[5]، وخاصة الأسرة الشهرزورية

---

(1) البيهقي، السنن الكبرى وفي ذيله الجوهر النقي، ج10، ص111.

(2) أبو شخيدم، بين الأمراء وبين الدعاة والرعاة، مجلة الاستقامة، العدد، 11، ص49.

(3) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء،ج 2 ، ص 279.

(4) بدوي، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ص5.

(5) هو عماد الدين زنكي،أبو الجود بن آق سنقر بن عبد الله الملقب بالملك المنصور المعروف والده بالحاجب؛ صاحب الموصل ولد سنة 477هـ=1084م، وكان أبوه من كبار قادة ملكشاه حتى لقب بقسيم الدولة وكان الابن الوحيد لهذا القائد العظيم في الدولة السلجوقية وتولى والده آق سنقر حلب سنة 479هـ=1086م أي بعد سنتين من مولده، فكانت حلب مهد طفولته وقضى بها أيامه الأولى قد تميز بالشجاعة، وورث عن أبيه آق سنقر القوة التي تعرف العطف والتي لا تبقى على عدو خطر، وورث عنه التخطيط،وهو ذو دهاء ومكر وحيلة، وذكاء نافذ في مجابهة المشاكل الحربية والسياسية، وقد مكنه ذلك من اجتياز كثير من الصعوبات ، وكان من الأمراء المقدمين، فوض إليه السلطان =

التي تنتسب إلى القاسم بن الشهرزوري جد الشهرزوريين[1]، وقد برز دور بعض أبناء تلك الأسرة في فترة الدولة الزنكية، واستمروا يتصدرون المكانة العالية لدى السلاطين والأمراء خلال الدولة الأيوبية وكانوا يتمتعون بالبصيرة النافذة وبعد النظر في مواجهة الأخطار التي تهدد الإسلام والمسلمين فسعوا جاهدين لدى الحكام وأولي الأمر يبصرونهم بما يجب أن يكون عليه الحال، ولم يكن تقدير عماد الدين زنكي للفقهاء والعلماء، ولهذه الأسرة قد جاء من فراغ إلا بعد ما شعر بقيمة العلماء في تثبيت كيانه وكيان دولته وخاصة أن الظروف التي تسلم فيها القيادة كانت مشحونة بالأخطار الداخلية من تنازع أفراد البيت السلجوقي، ومن الأخطار الخارجية الاحتلال الصليبي للمنطقة فكان للعالم والفقيه تاج الدين أبو طاهر يحيى بن الشهرزوري[2] دور في تثبيت ملكه عندما كان منشغلاً، في جهاده ضد الصليبيين في منطقة البيرة[3]، سنة (539هـ=1196م) وكانت هذه المدينة قد أوشكت على التحرر من يد الصليبيين، فورد إلى عماد الدين نبأ مقتل نائبه

=

محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي ولاية بغداد في سنة 521هـ=1126م، وتزوج عدة زوجات، فأنجب عدد من الأولاد هم: سيف الدين غازي وهو الأكبر، نور الدين محمود، قطب الدين مودود، نصرة الدين أمير أفيران. وجميع أولاده ظهرت عليهم النجابة مما ورثوه من والدهم وكانوا ذوي أخلاق حميدة، وشجاعة فائقة، وخاصة نور الدين محمود، وسيف الدين غازي، وقطب الدين مودود فأخبار شجاعتهم مشهورة.وله يد بيضاء في قتال الصليبيين، قتل سنة 541هـ=1146م، وهو يحاصر قلعة جعبر قتله نفر من مماليكه غيلة وهو نائم ثم هربوا وختم له بالشهادة رحمه الله تعالى.ابن خلكان، وفيات الأعيان،ج2، ص328؛ابن الأثير،الكامل في التاريخ ،ج5، ص29؛ ابن واصل مفرج الكروب،ج1، ص26؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر،ج1، ص373؛ ابن كثير،البداية والنهاية،ج12، ص275؛ النعيمي،الدارس في تاريخ المدارس ،ج2، ص138.

(1) هو أبو أحمد القاسم بن المظفر بن علي بن القاسم الشهرزوري، والد قاضي الخافقين أبي بكر محمد والمرتضى أبي محمد عبد الله وأبي منصور المظفر، وهو جد بيت الشهرزوري قضاة الشام والموصل والجزيرة، وكلهم إليه ينتسبون، كان حاكما بمدينة إربل مدة ومدينة سنجار مدة، وكان من أولاده وحفدته علماء نجباء كرماء نالوا المراتب العلية وتقدموا عند الملوك وتحكموا وقضوا ونفقت أسواقهم، خصوصا حفيده القاضي كمال الدين محمد ومحيي الدين بن كمال الدين. توفي سنة 489هـ=1095م، بالموصل رحمه الله تعالى. أنظر، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص68،69.

(2) هو يحيى بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري أبو طاهر القاضي تاج الدين،ولد يوم الجمعة ثاني عشر شهر رجب سنة 495هـ=1101م،وتفقه وبرع في الفقه، وكان له مكانة لدى عماد الدين زنكي، وابنه نور الدين توفي ليلة الإثنين تاسع عشر شهر رمضان سنة 556هـ=1160م، رحمه الله. ابن خلكان،وفيات الأعيان ،ج4، ص241؛ السبكي،طبقات الشافعية الكبرى،ج7، ص178.

(3) البيرَةُ، بلد بالقرب من سُميساط وهي قلعة حصينة و سُميساط مدينة على شاطئ الفرات في طرف بلاد الروم غربي الفرات. ياقوت الحموي، معجم البلدان،ج1، ص383، ص524.

بالموصل نصير الدين جقر[1] فانزعج كثيراً واضطر عماد الدين إلى الرحيل عن البيـــرة وأرسل نائباً عنه إلى الموصل لاستطلاع حقيقة الأمر وهو القاضي تاج الدين بن يحيي بن الشهرزوري(ت.556هـ=1160م)، الذي كان ملازماً لعماد الدين أثناء محاصرته للبيـــرة فلما وصل تاج الدين إلى الموصل علم أن الملك السلجوقي ابن السلطان محمود بن محمـــد بن ملكشاه كان وراء مقتل نصير الدين جقر ليملك الموصل فـــي غيـــاب عمـــاد الـــدين عنها[2]؛ ولذلك قام القاضي تاج الدين بن الشهرزوري بخدعة كـــي يفـــسد علـــى الملـــك السلجوقي زعيم الانقلاب بالموصل مخططه، فدخل في الدار التي كـــان يحاصـــره فيهـــا أصحاب جقر وأصحاب عماد الدين زنكي، وظل يخادعه بمعسول الكلام ويحسن لـــه مـــا فعله مع جقر ويشجعه على الصعود إلى قلعة الموصل حتى يملكها ويكون في مأمن حيث يوجد بها الأموال والسلاح فيستطيع بعد ذلك تملك الموصل، فاقتنع الملك الـــسلجوقي بـــن محمود وخرج في صحبة القاضي تاج الدين وصعدا معاً إلى القلعة، وهناك قـــبض عليـــه وعلى من معه من أتباعه الذين قتلوا نصير الدين جقر، وبعد ذلك توجه القاضي تاج الدين إلى عماد الدين زنكي وبلغه بكل ما فعله "فسكن جأشه وأطمأن قلبه"[3].

ولعل أفضل ما قيل عن تعظيم عماد الدين زنكي للعلماء، ما قيل عن مكانة الفقيـــه كمال الدين الشهرزوري[4]، والذي حظي بمكانة عالية في الدولة الزنكية والأيوبيـــة: "إن هذا كمال الدين يحصل له كل سنة منك ما يزيد على عشرة آلاف دينار أميريـــة، وغيـــره

---

(1) هو أبو سعيد جقر بن يعقوب الهمذاني الملقب نصير الدين؛ كان نائب عماد الدين زنكـــي صـــاحب الجزيرة -الفراتية- والموصل والشام، استنابه عنه بالموصل، وكان جباراً عـــسوفاً ســـفاكاً للـــدماء مستحلاً للأموال. قتل بالموصل سنة 539هـ=1144م، بتحريض من فروج شاه ابن السلطان محمود السلجوقي المعروف بالخفاجي. أنظر ابـــن خلكـــان، وفيـــات الأعيـــان،ج1، ص364؛ أبـــو شـــامة الروضتين، ج1، ص41.

(2) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص271؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص53،52؛ أبـــو شامة، الروضتين، ج1، ص41؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص95،94.

(3) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص72؛ نقلي، دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الـــشرق الأدنـــى فـــي الجهاد ضد الصليبيين، ص113.

(4) هو أبو الفضل محمد بن أبي محمد عبد الله بن أبي أحمد القاسم الشهرزوري الملقب كمـــال الـــدين الفقيه الشافعي، ولد سنة 491هـ=1097م بالموصل،و تفقه كمال الدين ببغداد وسمع الحـــديث مـــن شيوخ المدينة، وتولى القضاء بالموصل وبنى بها مدرسة للشافعية، ورباطا بمدينة الرسول صـــلى الله عليه وسلم، وكانت له مكانة عظيمة في الدولة الزنكية، والأيوبية، فلما قتل عماد الدين علـــى قلعـــة جعبر، كان كمال الدين حاضرا في العسكر هو وأخوه تاج الدين أبو طاهر يحيى والد القاضي ضياء الدين. توفي سنة 572هـ=1176م. أنظر، ابـــن خلكـــان، وفيـــات الأعيـــان، ج4، ص241-242؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج6، ص117-122.

يقنع منك بخمسمائة دينار، فقال لهم: بهذا العقل والرأي تدبرون دولتي؟ إن كمـــال الـــدين يقل له القدر وغيره يكثر له خمسمائة دينار، فإن شغلاً واحداً يقوم فيه كمال الدين خير من مائة ألف دينار"[1].

واستمرت بل وزادت هذه المكانة لعلمـــاء وفقهـــاء الأمـــة زمـــن نـــور الـــدين محمود(ت.569هــ= 1173م)، الذي أيقن أن التقرب منهم ســـبب رئيـــسي مـــن أســـباب النهوض وبهم يستطيع أن ينتقل بفضل الله وتوفيقه بالأمـــة نحـــو أهـــدافها المرســـومة بخطوات ثابتة، وكان على قناعة تامة بأهمية وجود العلماء الربانيين علـــى رأس القيـــادة الربانية فهم قلب القيادة الربانية وعقلها المفكر فنور الدين زنكي يعرف أن تحرير الأرض وتوحيدها ليس عملاً سياسياً أو عسكرياً فحسب، بل أنه أوسع من ذلك بكثير، وقـــد كـــان نور الدين نفسه عالماً قبل أن يكون حاكماً وكانت هذه نقطة البدء وحجر الزاوية، فقد كان يعشق العلم ويسعى وهو في قمة السلطة إلى التشبه بالعلماء والصالحين والاقتداء بـــسيرة من سلف منهم [2].

وكان العلماء عنده في المنزلة الأولى والمحلّ العظيم [3]، "إذا أقبل أحدهم إليه، يقوم له مذ تقع عينه عليه، ويعتنقه ويجلس معه على سجادته، ويقبل عليه بحديثه. وكذلك كان أيضا يفعل بالعلماء من التعظيم والتوقير والاحترام، ويجمعهم عند البحث والنظر فقصدوه من البلاد الشاسعة، من خراسان[4] وغيرها"[5].

ومما يؤثر عن نور الدين محمود ومدى اهتمامه بأمر الفقهاء والعلماء ومجالسته لهم للاستفادة من علمهم ولا ستشارتهم في أمور دولته خاصة فيما يتعلق بالأموال وأوجه التصرف فيها " وكان مع سعة ملكه، وكثرة ذخائر بلاده وأموالها لا يأكل ولا يلبس ولا

---

(1) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص63.
(2) أبو شامة،الروضتين ،ج1،ص23.
(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص2831.
(4) خراسان، بلاد واسعة أول حدودها مما يلي العراق وهي قصبة جوين وبيهق وآخر حدودها مما يلي الهند طخارستان وغزنة وسجستان وكرمان وليس ذلك منها إنما هو أطراف حدودها وتشتمل على أمهات من البلاد منها نيسابور وهراة ومرو وهي كانت قصبتها وبلخ وطالقـــان ونـــسا وأبيـــورد وسرخس وما يتخلل ذلك من المدن التي دون نهر جيحون ومن الناس من يدخل أعمـــال خـــوارزم فيها ويعد ما وراء النهر منها. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص350.
(5) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص171؛ أبو شامة،الروضتين ،ج1، ص12؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص347.

يتصرف فيما يخصه إلا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الأموال المرصودة لمصالح المسلمين. وقد أحضر الفقهاء واستفتاهم في أخذ ما يحل له من ذلك فأخذ ما أفتوه بحله، ولم يتعده"[1].

وكان مجلسه ندوة كبيرة يجتمع إليها العلماء والفقهاء للبحث والنظر [2] وكان نور الدين عارفاً بمذهب أبي حنيفة، ملتزماً به، من غير تعصب منه ولا تحيّز فالمذاهب عنده، كما أجمع المؤرخون كلها سواء والإنصاف سجيته في كل شيء [3]. وقد قيل للسلطان نور الدين: إن الصدقات والصلات والهبات التي يقدمها للفقهاء والصوفية كثيرة، ويمكن توفير جزء منها وتخصيصه لإعداد العدة لمحاربة الصليبيين، وكان السلطان في ذلك الوقت في حاجة إلى المال فغضب السلطان من محدثيه، قائلاً لهم: إني لا أرجو النصر إلا بأولئك فإنما ترزقون بضعفائكم، وكيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم على فراشي بسهام لا تخطئ، وأصرفها إلى من لا يقاتل عني بسهام قد تصيب وقد تخطئ. وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال، فكيف يحل أن أعطيه غيرهم؟[4].

وكان أمراء نور الدين يحسدون العلماء والفقهاء على مكانتهم عنده، فكان إذا أعطى أحداً منهم شيئاً مستكثراً يقول لأصحابه: " هؤلاء جند الله وبدعائهم ننتصر على الأعداء ولهم في بيت المال حق أضعاف ما أعطيهم، فإذا رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنة علينا"[5].

وكان هؤلاء الأمراء يحاولون أن "يوقعوا عنده فيهم فينهاهم، وإذا نقلوا عن إنسان عيباً يقول: ومن المعصوم؟! وإنما الكامل من تُعد ذنوبه"[6]؛ وحاول أحد أكابر الأمراء زمن نور الدين محمود النيل من الفقيه الشافعي قطب الدين النيسابوري

(1) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص171؛ أبو شامة، الروضتين،ج1، ص6؛ ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص23، 24؛ نقلي،، دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى في الجهاد ضد الصليبيين، ص122.

(2) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص171– 173.

(3) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص 165؛ أبو شامة الروضتين، ج1، ص8.

(4) ابن خلكان، وفيات الأعيان،ج5، ص188.

(5) ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص347؛ نقلي،، دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى في الجهاد ضد الصليبيين، ص122.

(6) أبو شامة،الروضتين،ج1، ص 12.

(ت.578هـ=1182م)، وكان قد استقدمه من خراسان، وبالغ في إكرامه والإحسان إليه فقال له نور الدين:" يا هذا إن صح ما تقول فله حسنة تغفر كل زلة تذكرها وهي العلم والدين. وأما أنت وأصحابك ففيكم أضعاف ما ذكرت وليست لكم حسنة تغفرها، ولو عقلت لشغلك عيبك عن غيرك؛ وأنا احتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم، أفلا أحتمل سيئة هذا، إن صحت، مع وجود حسنته على؟! إنني والله لا أصدقك فيما تقول، وإن عدت ذكرته أو غيره بسوء لأؤدبنك فكف عنه"[1].

لقد أنزل بنو أيوب العلماء منزلة عالية، والحقيقة أن هذا الاهتمام هو امتداد طبيعي لعهد نور الدين محمود، وقد برزت مكانة وأهمية العلماء والفقهاء منذ تولي صلاح الدين الأيوبي لوزارة الخليفة الفاطمي العاضد في مصر سنة(564هـ= 1169م)، فبعد أن تولى صلاح الدين الوزارة بتقليد من الخليفة العاضد، اعترض بعض الأمراء النورية الذين طمعوا في الوزارة لأنفسهم على هذا الوضع ورفضوا طاعة صلاح الدين وخدمته[2]، فقد كان للفقيه عيسى الهكاري[3]، دورً بارزً في التوفيق بين هؤلاء الأمراء وصلاح الدين واستطاع بقوة شخصيته وذكائه أن يوطد الأمور لصلاح الدين في بداية توليه الوزارة وعمل على تثبيت دعائم الدولة الأيوبية في مهدها، ولذلك كان صلاح الدين يعتمد عليه في كثير من الأمور حتى أصبح الفقيه عيسى واحداً من كبار الأمراء

---

(1) ابن الأثير،التاريخ الباهر،ص171؛ أبو شامة، الروضتين، ج1، ص12.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص17؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص169.

(3) هو الفقيه ضياء الدين أبو محمد عيسى بن محمد بن عيسى بن محمد بن أحمد وينتهي نسبه إلى الإمام علي بن أبي طالب، ويقال له الهكاري، كان في مبدأ أمره مدرساً للفقه بالمدرسة الزجاجية بحلب ثم اتصل بأسد الدين شيركوه وأصبح إمامه في الصلاة، وبعد وفاة الأخير، نجح الفقيه عيسى بإقناع الأمراء بتوليه صلاح الدين الوزارة في مصر، وأصبح بعدها من المقربين لصلاح الدين "وكثير الإدلال عليه يخاطبه بما لا يقدر عليه غيره من الكلام، وكان واسطة خير للناس نفع بجاهه كثير من الناس" وقد توفي في التاسع من ذي القعدة سنة 585هـ=1189م، خلال مشاركته صلاح الدين في حصار الصليبيين المحاصرين لعكا، ثم نقلت جثته إلى القدس حيث دفن فيها. للمزيد حول الفقيه عيسى انظر، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص497؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص257،190،140،86؛ أبو شامة، الروضتين، ج2، ص58 ، 71، 102، 105، 280-281، 428؛السبكي، طبقات الشافعية الكبرى،ج7،ص365؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص42،43؛. ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص309؛ البنداري، سنا البرق الشامي،ج3، ص167،166؛ أبو الفداء، المختصر، ج2، ص163؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص314، 326، 334؛المقريزي، السلوك لمعرفة دولة الملوك،ج1، ص209، 216؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،ج5، ص352، ج6، ص17، 27، 110؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص173.

الصلاحية، وكان صلاح الدين يحترم عقله وآراءه ويستشيره كثيراً في أمور الحكم ولم يكن يخرج عن رأيه[1].

ومما يدل على المكانة العظيمة التي كانت للفقيه عيسى الهكاري عند صلاح الدين أن صلاح الدين افتداه من الأسر بعد سنتين بمبلغ ستين ألف دينار[2].

فالنشاط العلمي في عهد صلاح الدين والاهتمام بالعلماء أساساً في التأصيل العقائدي وقد احتفظ صلاح الدين بعلماء العهد الزنكي وأكرمهم وتعاون معهم وكان الوزراء والأمراء في دولته من كبار العلماء ومن أشهرهم وزيره وكاتبه ومستشاره القاضي الفاضل البيساني[3] والمتحدث بلسان السلطان صلاح الدين، وكان صلاح الدين يشيد بفضله فيقول:" لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل"[4]، وكان على حد قول ابن كثير:" أعز عليه من أهله وولده"[5]، فكان ساعده الأيمن إذ"جعله وزيره ومشيره، بحيث كان لا يصدر أمراً إلا عن مشورته، ولا ينفذ شيئاً إلا عن رأيه، ولا يحكم في قضية إلا بتدبيره"[6].

لم يقف اهتمام صلاح الدين بهذين العالمين، بل سخر كل اهتمامه بكل العلماء والفقهاء المخلصين للدين والوطن، وأشركهم في إدارة الدولة بشتى جوانبها، لثقته بهم وبقدراتهم العلمية والعقدية، أمثال الفقيه شرف الدين بن أبي عصرون[7]، الذي كان له

---

(1) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص142؛ أبو شامة، الروضتين، ج1، ص161،160.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ،ج10، ص86؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص61.

(3) هو عبد الرحيم بن علي بن الحسن بن الحسن بن أحمد بن المفرج بن أحمد، القاضي الفاضل محيي الدين أبو علي ابن القاضي الأشرف أبي الحسن اللخمي البيساني الأصل، العسقلاني المولد، المصري الدار، ولد سنة 529هـ=1134م، صاحب ديوان الإنشاء ووزير السلطان الملك الناصر صلاح الدين ، اشتغل بصناعة الإنشاء لخلفاء مصر، ثم خدم بالإسكندرية في صباه، وكان سريع الخاطر في الإنشاء، كثير الرسائل، وتوفي سنة 596هـ=1199م.رحمه الله.أنظر،أبو شامة، الروضتين،ج1، ص117؛ الصفدي، الوافي بالوفيات،ج6، ص126، 127، 128؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج2، ص355؛ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص408؛السبكي، طبقات الشافعية الكبرى،ج7،ص167؛المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج3،ص26؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج2، ص 145؛ الزركلي، الأعلام، ج3، ص346.

(4) الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص27؛ ابن تغري بردي،النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج6، ص157.

(5) البداية والنهاية، ج13، ص31.

(6) المقريزي،المواعظ والاعتبار،ج3، ص113.

(7) هو عبد الله بن محمد بن هبة الله بن مطهر بن علي بن أبي عصرون، الفقيه الشافعي، الملقب شرف الدين. كان من أعيان الفقهاء وفضلاء عصره، ولد سنة 492هـ=1098م، بالموصل ودرس بها، ثم =

دور في الحياة السياسية حيث كان سفيراً لصلاح الدين إلى الخلافة العباسية، ومشاركاً له في القتال في معركة حطين[1].

لقد نال العلماء والفقهاء حظاً وافراً عند صلاح الدين، فكان مجلسه حافلاً بأهل العلم والفضل ويذكر العماد الأصفهاني في هذا الشأن أنه " كان يؤثر سماع الحديث بالأسانيد، وتكلم العلماء عنده بالعلم الشرعي المفيد. وكان لمداومة الكلام مع الفقهاء ومشاركة القضاة في القضاء أعلم منهم بالأحكام الشرعية والأسباب المرضية والأدلة المرعية، وكان من جالسه لا يعلم انه جليس السلطان، بل يعتقد أنه جليس أخ من الإخوان"[2].

واستمرت مكانة العلماء والفقهاء مرموقة في عهد خلفاء صلاح الدين، فقد بلغ من شغف الملك الكامل محمد بن العادل(ت.635هـ=1237م)، صاحب مصر بالعلم وتقديره ومحبته للعلماء أنه كان يبيت عنده بالقلعة جماعة من أهل العلم، ينصب لهم أسرة ينامون عليها بجانب سريره ليسامروه[3].كما كان عند الملك المعظم عيسى(ت.624هـ=1226م)، جماعة من الفضلاء لا يفارقونه في سفر ولا حضر[4] وبلغ من حرصه على اجتذاب العلماء إلى بلاطه أن كان يراسلهم ويطلب منهم القدوم إليه[5]، وقد عاش في بلاط المعظم طائفة كبيرة من العلماء والأدباء، وكانوا لا يفارقونه حتى في أسفاره[6]، كما كان في بلاط الملك الناصر بن داود بن الملك المعظم عيسى[7]

=

رحل إلى حلب سنة 545هـ=1150م، ودرس بها، ثم قدم دمشق لما ملكها الملك العادل نور الدين محمود سنة 549هـ=1154م، وكان له الفضل في بناء المدارس بحلب وحماة وحمص وبعلبك وغيرها، وتولى القضاء بسنجار ونصيبين وحران وغيرها من ديار بكر. توفي سنة 585هـ=1189م، بدمشق.أنظر، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص53-57؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى،ج7، ص132-136؛ابن العماد، شذرات الذهب، ج4، ص283.

(1) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص82.

(2) الفتح القسي في الفتح القدسي، ص342.

(3) الحنبلي، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص75؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج3، ص28.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص210.

(5) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص210؛ شاهين، الملك المعظم عيسى، سياسته الداخلية والخارجية، رسالة دكتوراة غير منشورة، ص227.

(6) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص211؛ شاهين، الملك المعظم عيسى، سياسته الداخلية والخارجية، رسالة دكتوراة غير منشورة، ص227.

(7) هو الملك الناصر داود بن الملك المعظم عيسى بن السلطان الملك العادل أبي بكر ابن أيوب، ولد سنة 603هـ=1206م،كان فاضلاً، ناظماً، ناثراً، وقرأ العلوم العقلية وكان حنفي المذهب مثل

=

صاحب الكرك[1] عدداً كبيراً من العلماء والأدباء، وخاصة المشتغلين منهم بالعلوم العقلية كالسيف الآمدي[2] وشمس الدين الخسروشاهي[3][4].

وأيضاً كان بلاط الملك الظاهر غازي بن السلطان صلاح الدين الأيوبي[5] في حلب مجمعاً لأهل العلم والفضل[6].

واقتدى المماليك بأساتذتهم الأيوبيين، وتشبهوا بهم بتقربهم إلى العلمـــاء والفقهـــاء لعظم مكانتهم لدى طبقات المجتمع، وكان الـــسلاطين يحترمـــون العلمـــاء، ويـــوقرونهم وينزلون عند آرائهم ،ولا يقضون الأمور المهمة إلا في حضرتهم ،مما كان له أكبر الأثر

=

والده،وله أشعار جيدة، توفى في سنة 656هـــ=1160م، بظاهر دمشق في قرية يقال لها البُوَيـــضاء، وكان عمره نحو ثلاث وخمسين سنة.ابن واصل، مفرج الكروب، ج5، ص142؛ العيني،عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان،ج 1، ص 48.

(1) الكرك، كلمة أعجمية وهي اسم لقلعة حصينة جدا في طرف الشام من نواحي البلقاء في جبالها بـــين أيلة وبحر القلزم وبيت المقدس وهي على سن جبل عال تحيط بها أودية إلا من جهة الربض بناهـــا الصليبيون على مرتفع يشرف على المنطقة الواقعة في شرق الأردن حتى البحر الميت جنوباً علـــى بعد 35ميلاً من القدس، وثمانين مـــيلاً شـــمال البحـــر الأحمـــر. انظـــر، يـــاقوت الحمـــوي،معجم البلدان،ج4،ص453؛ ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج2، ص69،70؛ ابن جبير، رحلة، ص201؛ ابن بطوطة، ص129.

(2) هو سيف الدين أبو الحسن بن أبي علي بن محمد بن سالم التغلبي الآمدي، كان أوحد الفضلاء وسيد العلماء وأذكى أهل زمانه، وأكثرهم معرفة بالعلوم الكمية، اشتهر بدراسة الأصول والعلوم العقليـــة، وتولى التدريس بالمدرسة العزيزية بدمشق في دولة المعظم عيسى، وبعد وفاة المعظم حظى الآمـــدي بمكانة عالية عند ابنه الملك الناصر داود. للآمدي مؤلفات كثيرة منه: ايكار الأفكار فـــي الأصـــول، وخلاصة الأبريز، ودقائق الحقـــائق، وغايـــة الأمـــل فـــي علـــم الجـــدل، وغيرهـــا تـــوفى ســـنة 631هـــ=1233م.سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ص221؛ ابن واصـــل، مفـــرج الكـــروب، ج5،ص35، 40؛ ابن أبي أصبيعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج1، ص143.

(3) هو عبد الحميد بن عيسى بن أمويه بن يونس بن خليل الخسروشاهي، نسبة إلى خسرو شـــاه فـــي تبريز، ولد سنة 580هـــ=1184م، وكان فقيهاً عالماً متكلماً أصولياً بارعاً في المقولات متميزاً فـــي العلوم الحكيمة، عالماً بالأصول الطبية، متقنا للعلوم الشرعية، قدم من الـــشام وأقـــام بـــالكرك عنـــد صاحبها الملك الناصر داود عزيز الجانب رفيع المنزلة،وله عدة مصنفات أهمها: مختـــصر الـــشفاء لابن سينا، متمم الآيات البينات للإمام فخر الدين الرازي. توفي سنة 652هـــــ=1254م، بدمـــشق. اليونيني، ذيل مرآة الزمان،ج1، ص57؛العيني،عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان،ج 1، ص48؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص648، 649.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج5،ص40،39.

(5) غازي بن يوسُف بن أيوب بن شاذي ابن الأمير يعقوب السلطان الملك الظاهر غيّـــاث الـــدين أبـــو منصور ابن السلطان صلاح الدين، التكريتي،ثم المصري، صاحب حلب. ولد بمصر في رمضان سنة 508هـــ=1114م. كان جميل الصورة، رائع الملاحة، موصوفاً بالجَمال في صِغره وفي كِبَره، وكان له غورٌ ودهاءٌ ومكرٌ وأعظم دليل على دهائه مقاومته لعمّه الملك العادل، وكان لا يُخْليه يومـــاً مـــن خوفٍ، وكان محسناً إلى الرعية وإلى الوافدين إليه. توفي سنة 613هـــ=1216م. أبو شامة، الـــذيل على الروضتين، ص145 ؛الذهبي، تاريخ الإسلام، ج44، ص158؛
الحموي، التاريخ المنصوري، ص71.

(6) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص178.

في قيام العلماء بدور مهم في تلك الحقبة ، وكانت فئة العلمـــاء والفقهـــاء تـــسمى فئـــة المتعممين، وهي أجل وأرقى طبقة في العصر المملوكي، وقد ولأهم الـــسلاطين النـــواحي الثقافية والعلمية والدينية اعترافاً بفضلهم وخطورة مرتبتهم ، ودورهم فـــي حيـــاة الدولـــة والمجتمع[1].

لقد كان بعض سلاطين المماليك يحضرون ندوات ومجالس العلماء، ويـــشاركون في الاحتفالات الدينية التي يقيمها العلماء، ومما لاشك فيـــه أن توجـــه مئـــات العلمـــاء والفقهاء من مختلف أرجاء المعمورة إلى مصر والشام مـــا كـــان إلا لاحتـــرام وتـــوقير السلاطين والأمراء لهم[2].

ومن جوانـــب المكانـــة العظيمـــة للعلمـــاء والفقهـــاء لـــدى الـــسلطان المظفـــر قطز(ت.657هـــ= 1259م)، أنه عندما جمع العلماء والفقهاء والأعيان لمـــشاورتهم فـــي كيفية الرد على رسالة هولاكو[3] ومحاربته للتتار[4]. وعنـــدما تـــولى الظـــاهر بيبـــرس السلطنة (658-676هـــ=1260-1277م)، أخذ يقرب إليه النابغين في كل علـــم وفـــن، واستجاب لبعض من نصائح العلماء، وكان يميل إلى التاريخ وأهله ميلاً شديداً، ويقـــول: " سماع التاريخ أعظم من التجارب"[5].

وأما السلطان المنصور قلاوون[6] فمع أنه كان معجم اللسان، لا يكـــاد يفـــصح بالعربية، لأنه جاء وعمره كبير من الترك، لكنه اهتم بالعلم والعلماء وأنشأ إحدى المدارس

---

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج4، ص4-6.
(2) الحجي، صور من الحضارة العربية الإسلامية في سلطنة المماليك، ص148، 149.
(3) هو هولاكو بن طلو بن جنكيز خان ملك التتر الذي اجتاح بلاد العراق، وقتل فيها الكثير من البشر، وقتل الخليفة العباسي المستعصم واجتاح بلاد الشام وأشاع فيهـــا، الخـــراب والـــدمار. تـــوفى ســـنة 664هـــ=1265م . أنظر، أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج2، ص332.
(4) العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ،ج1، ص61؛ ابن تغري، النجوم،ج2، ص269.
(5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،ج5، ص307.
(6) الملك المنصور قلاوون ،سيف الدين، أبو المعالي، الألفي العلائي الصالحي النجمـــي، ســـابع مـــن تسلطن بمصر والشام من المماليك البحرية الأتراك، اشتري بـــألف دينـــار ولهـــذا كـــان يقـــال لـــه "الألفي"،ولد سنة،620هـــــ=1223م،وتـــولى الـــسلطنة بعـــد خلـــع الـــصبي ســـلامش، وعزلـــه، سنة678هـــ=1279م، وقام بتدبير المملكة أحسن قيام، وأقام منار العدل، وأحسن سياسة الملك، وكان ملكاً مهيباً حليماً قليل سفك الدماء كثير العفو شجاعاً ؛إلا أنه كان يحب جمع الأموال، وكان للـــسلطان الملك المنصور الفتوحات الجليلة توفي سنة689هـــــ=1289م. انظـــر، أبـــى الفـــداء ،تـــاريخ،ج3، ص72،89؛ الصفدي،الوافي بالوفيات ،ج7، ص253؛ الكتبي، فوات الوفيـــات،ج3، ص203؛ ابـــن =

الكبرى بمصر[1] كذلك الأشرف خليل بن المنصور قلاوون[2] كان مثقفاً ثقافة أدبية ممتازة، استطاع بها أن ينتقد ما يعرض عليه من المراسيم وأن يصلحها. ويطارح الأدباء بذهن رائق وذكاء مفرط وبنى المدرسة الأشرفية[3]. واعتبر السيوطي أن مصر والشام كانت في عهد المماليك "محل سكن العلماء ومحط رحال الفضلاء"[4].

وخلاصة القول أن معظم ملوك وسلاطين تلك الحقبة التاريخية، حرصوا على احتواء فئة العلماء والفقهاء، لما كان لها دور فعال في مظاهر الحياة المختلفة، بل لقد أصبح لهؤلاء العلماء والفقهاء السيطرة الروحية على أذهان الناس جميعاً، لذلك كان أغلب السلاطين ينزلون عند رأيهم أحياناً خشية من قدرتهم على تحريك القاعدة الاجتماعية الواسعة بكل سهولة، لأنهم كانوا يتربعون على قمة الطبقة التي تمثل عامة الناس.

=

كثير، البداية والنهاية، ج13،ص 317؛ابن إياس،بدائع الزهور في وقائع الدهور،ج1، ص347؛ الشهابي، معجم ألقاب أرباب السلطان في الدول الإسلامية، ص164.

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ،ج5، ص354؛ بدوي، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية، ص10.

(2) هو الملك الأشرف خليل بن قلاوون،صلاح الدين،بن الملك المنصور قلاوون ثامن سلاطين مصر والشام من المماليك البحرية الأتراك ولد سنة،666هـ=1267م، وتولى السلطنة سنة 689هـ=1289م، واستفتح الملك بالجهاد، ونظف الشام كله من الصليبيين، وكان شجاعاً مقداماً مهيباً عالي الهمة يملأ العين ويرجف القلب، وكان إلى جوده وبذله الأموال في أغراضه المنتهى، تخافه الملوك في أقطارها. قتل سنة،693هـ=1293م.انظر، الكتبي، فوات الوفيات،ج1، ص406؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13،ص334؛ الشهابي، معجم ألقاب أرباب السلطان في الدول الإسلامية، ص119.

(3) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك،ج1، ص343؛ بدوي، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية، ص10.

(4) حُسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ،ج2، ص86

المبحث الثاني:

أحوال العلماء الاجتماعية.

- ألقاب وزي العلماء.
- مستوى العلماء المعيشي وأحوالهم المالية.
- ممارسة العلماء للأعمال غير الدينية.

ألقاب وزي العلماء:

لم يكن للعلماء ألقاب رسمية تمنح لهم، كتلك الألقاب التي تمنح لهم في أيامنا هذه، وإنما كان أفراد المجتمع آنذاك، بمن فيهم العلماء وطالبوا العلم، هم الذين يطلقون الألقاب على العلماء تشريفاً وتقديراً لهم لمكانتهم العلمية التي وصلوا إليها، والتي ليس لها علاقة بالمراتب العلمية ولا تخضع لأسس علمية متفق عليها. كما أنها كانت تعكس وتترجم مكانتهم الاجتماعية. وقد أوردت المصادر التاريخية ألقاباً مختلفة للعلماء، منها: الحافظ، وهو لقب أطلق على كبار علماء الحديث، واختص بهم لاحتياجهم إلى كثرة الحفظ لمتون الأحاديث وأسماء الرجال ونحو ذلك[1] كذلك لقب الشيخ وقد أطلق على أهل العلم والصلاح توقيراً لهم، كما يوقر الشيخ الكبير[2].

وقد أورد القلقشندى إضافة إلى ما ذكر ألقاباً متعددة للعلماء منها: العالم، والفاضل والفقيه والقدوة والمجتهد، والمحقق وربما استعمل في ألقاب الصوفية، والمدقق، والمفيد، وإمام الأئمة وإمام المتكلمين أطلق على علم الكلام على أصول الدين وإنما سمي بذلك لأنه لما وقع القول بخلق القرآن في صدر الإسلام ممن وقع كثر الكلام والخوض في ذلك فأطلق على أصول الدين علم الكلام، وأوحد الأمة، وأوحد الأئمة العلماء في العالمين وأوحد العلماء الأعلام، وأوحد المحققين، وأوحد المتكلمين، وأوحد المفيدين، وبقية السلف وربما قيل بقية السلف الصالح أو بقية السلف الكرام والمراد بالسلف الآباء المتقدمون أخذا من قولهم، وجمال الإسلام، وجمال الأئمة أو جمال الأئمة العارفين، ودليل المريدين إلى أوضح الطرائق وهو من ألقاب مشايخ الصوفية والمراد بالمريدين طلاب الطريق إلى الله تعالى، و رحلة المحصلين والمراد به من يرحل لتحصيل العلم، ورحلة الوقت والمراد به من انفرد في الوقت بالرحيل إليه لأخذ العلم عنه،وزين الأئمة أو زين الأئمة العلماء وسيف الحق، وسيف المناظرين والمراد بالمناظرين أهل البحث والجدل أخذا من النظر وهو الفكر المؤدي إلى الدليل، وشمس العصر أو الصلحاء ونحوهم، وشمس المذاهب وهو من ألقاب العلماء الأكابر، وشيخ المشايخ أو شيخ شيوخ الإسلام، وصدر المدرسين وصلاح الملة، وضياء الإسلام، وفخر المدرسين، وفخر المفيدين وفرد الزمان، وفرد الوجود، وكنز الطالبين، وكنز العلماء أو كنز المفسرين أو كنز المتفقهين ونحو ذلك

---

(1) القلقشندى، صبح الأعشى، ج6، ص10.
(2) القلقشندى، صبح الأعشى، ج6، ص17.

ولسان المتكلمين، ومحيي السنة، ومذل حزب الشيطان، ومظهر أنباء الشريعة ومعز السنة، ومفتي المسلمين، ومفيد الطالبين، وملاذ الطالبين، ومؤيد الملة، وناصر السنة وناصر الشريعة[1].

وكان للعلماء زي خاص يميزهم عن غيرهم، وزيهم يختلف باختلاف مراتبهم فالقضاة والعلماء منهم من يلبسون العمائم من الشاشات الكبار للغاية، ثم منهم من يلقي الطيلسان[2] على كتفيه الفائق ويلبس فوق ثيابه روب متسع الأكمام مفتوحاً من عند كتفيه غير مزررة سابلا على قدميه[3]، وكان بعض القضاة يضع القلنسوة[4]، فوق رأسه وكانت القلنسوة تعتبر مظهراً من مظاهر الرجولة عند العرب، وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: جمال الرجل في كمته{أي قلنسوته} وجمال المرأة في خفها"[5].

وتميز قضاة الشافعية بلبس طرحة تستر عمامته وتنسدل على ظهره دون غيره من القضاة[6]، وفي زمن حكم الظاهر بيبرس(ت. 676هـ=1277م)، لبس القضاة الثلاثة الآخرون (الحنفي والمالكي والحنبلي)، الطرحة ولم يلبس العلماء الحرير ولا ما غلب فيه الحرير ولا يلبسون الملون إلا في بيوتهم[7].

وفي الشتاء كان ملبس العلماء من الصوف الفوقاني الأبيض المطلي، وكانوا يلبسون الخفاف من الأديم الطائفي بغير مهاميز[8]، أما علماء الصوفية، فهم مضاهون

---

(1) أنظر، صبح الأعشى،ج6،ص20،22،23،26،27،29،38،56،53،51،50،49،43،41،40،39، 74،73،72،71،70،69،67،65،64،59،58.

(2) الطيلسان وهو كساء يلقى على الكتف واستعمل حديثا بمعنى غطاء يطرح على الرأس والكتفين.مصطفى وآخرون،المعجم الوسيط،ج 2، ص7.

(3) القلقشندى، صبح الأعشى، ج4، ص44،43.

(4) القلنسوة، تشبه العمامة يلقون الطيلسان فوقها ليتدلى على الكتفين ويقي الرقبة من حرارة الشمس. وهي لباس الرأس عند العرب منذ الجاهلية وفي عهد الخليفة المنصور العباسي أمر بلبس القلنسوة الطويلة، وقد نقل أهل أوروبا في زمن الحروب الصليبية زي القلانس وجعلوها لباس النساء في الغرب. ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج2، ص49؛ شبارو، قاضي القضاة في الإسلام، ص128.

(5) الجاحظ، البيان والتبيين،ص257؛ شبارو، قاضي القضاة في الإسلام، ص128.

(6) القلقشندى، صبح الأعشى،ج4، ص45؛ السيوطي،حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة،ج2، ص170.

(7) القلقشندى، صبح الأعشى،ج4، ص45.

(8) القلقشندى، صبح الأعشى،ج4، ص44.

لطائفة العلماء في لبس الدلق إلا أنه يكون غير سابل(أي غير مزرر)، ولا طويل الكم ويرخون ذؤابة لطيفة على الأذن اليسرى لا تكاد تلحق الكتف[1].

أما مركوبهم، فكانوا يركبون البغال النفيسة المساوية في الأثمان لمسومات الخيول بلجم ثقال وسروج مدهونة غير محلاة بشيء من الفضة ويجعلون حول السرج فرجية من جوخ[2]. وكان قاضي القضاة في الدولة الفاطمية يقدم له من اصطبلات الخليفة بغلة شهباء يركبها دائماً وهو مختص بهذا اللون من البغال دون أرباب الدولة. وزمن المماليك كان السلطان يخلع على قاضي القضاة، خلعه صوف ويعطيه بغلة لركوبه يصل ثمنها أحياناً إلى ثلاثة آلاف درهم[3].

مستوى العلماء المعيشي وأحوالهم المالية:

تمتعت فئة العلماء والفقهاء في الحقبة التاريخية الخاصة بهذا البحث بوضع معيشي يليق بمكانتهم الاجتماعية، وذلك بما كانوا يحصلون عليه من رواتب ومخصصات عينية من الدولة، وبما كان يُغدق عليهم من أعطيات وخلع وهبات وهدايا، أفاضها عليهم الملوك و السلاطين، وبما تكسبوا من أعمال أخرى بجانب العمل الديني، وعلى الرغم من المستوى الرفيع الذي كانت تتمتع به فئة العلماء والفقهاء، إلا أن ذلك المستوى كان يتفاوت ويتباين من فئة إلى أخرى تبعاً لعدة اعتبارات منها: تفاوت رواتب العلماء الذين يعملون كمدرسين أو قضاة، وهذا مرتبط بريع الوقف المخصص للمدرسة التي يعمل بها المدرس، أو ما تخصصه الدولة من رواتب معينة للقضاة، وهذا مرتبط بمكانة القاضي العلمية والاجتماعية[4].

فقد ورد في كتاب المدرسة الشامية الجوانية بدمشق أن المدرس له راتب كل شهر "من الحنطة غراره[5] ومن الشعير غراره ومن الفضة مائة وثلاثون درهما فضة ناصرية

---

(1) القلقشندى، صبح الأعشى، ج4، ص45.

(2) القلقشندى، صبح الأعشى،ج4،ص45؛ السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج2، ص170.

(3) ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص21؛ شبارو، قاضي القضاة في الإسلام، ص129، 130.

(4) المصري، التعليم في بلاد الشام في العهد المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة، ص154،153.

(5) غرارة، معناها الكِفّةُ، مَنَ الميزانِ، وهــي مكيــال شــامي، تعــادل ثلاثــة إردب مــن المكيــال المصري.القلقشندى، صبح الأعشى،ج4، ص188؛ الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس،ج24، ص324.

والباقي مصروف إلى الفقهاء والمتفقهة والمؤذن والقيم على قدر استحقاقهم على ما يراه الناظر في أمر هذا الوقف"[1].

أما ما كانت الدولة تخصصه من رواتب للقضاة والفقهاء، فكان متفاوتاً حسب ما يقرره السلطان وهو مرتبط بمكانة العالم أو الفقيه بقربه من السلطان أو بغزارة علمه ومكانته الاجتماعية؛ فكان عماد الدين زنكي(ت.541هـ=1146م)، يقول مقابل الأعطيات السخية التي كان يمنحها لهم: "إن شغلاً واحداً يقوم به كمال الدين{ الشهرزوري}خيرمن مائة ألف دينار"[2]. كذلك نور الدين محمود زنكي(ت.569هـ=1173م)،كان يمنحهم الأموال والأعطيات بسخاء مقدراً الدور الذي تقوم به هذه الفئة لتظل عزيزة الجانب، فقد عاتبه المقربون منه على السخاء الذي يمنحه للعلماء والفقهاء، ذات المكانة العالية بقولهم: "إن هذا كمال الدين يحصل له كل سنة منك ما يزيد على عشرة آلاف دينار أميرية وغيره يقنع منك بخمسمائة دينار فقال لهم: بهذا العقل والرأي تدبرون دولتي"[3].

ولم يبخل نور الدين زنكي في أعطيته للعلماء من بيت المال، وكذلك خصص لهم أوقاف ضخمة للمدارس وعلمائها حتى يحفظ لهم حياة كريمة، ويتفرغوا لمهامهم الدينية والعلمية، وكان نتيجة هذا السخاء في رواتب العلماء أن شهدت بلاد الشام في عصر نور الدين نشاطاً عالمياً لم تشهد له مثيلاً من قبل، وتدفق العلماء على حواضر الدولة وبخاصة حلب ودمشق من أطراف الأرض، "وقصدوا الرجال من البلاد الشاسعة"[4]، حتى أن بلاد الشام كانت كما يصفها أبو شامة: "خالية من العلم وأهله، وفي زمانه صارت مقراً للعلماء والفقهاء والصوفية"[5].

فالدولة هي التي تهيئ الأرضية الأكثر صلاحية للعطاء العلمي، وتمنح المال الأكثر للبحث والدراسة والتفرغ، وتنشئ المؤسسات اللازمة لإبداع العلماء والباحثين وهي التي تستقطب العقول الكبيرة في كل زمان ومكان. ولقد أدرك نور الدين أهمية هذه

---

(1) النعيمي، الدارس في، تاريخ المدارس،ج 1، ص 228.
(2) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص63.
(3) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص63.
(4) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص172،171.
(5) الروضتين،ج1، ص18.

الهجرة العلمية فعمل بنفسه على توسيع نطاقها وراح يكاتب العلماء من شتى البلاد البعيدة والقريبة، ويستقدمهم إليه ويبالغ في إكرامهم والإحسان إليهم[1].

ومن العلماء الذين قدموا إلى بلاد الشام، بسبب التقدير والتعظيم من قبل نور الدين لهم برهان الدين أبو الحسن علي بن محمد البلخي[2] فقد استقدمه من دمشق وأكثر عليه الأعطيات والهبات لغزارة علمه وعظم مكانته[3]، واستقدم أيضاً سعيد بن سهل أبو المظفر المعروف بالفلكي النيسابوري[4] فكاتبه نور الدين مراراً، حتى قدم بزيارة بيت المقدس ولم يسمح له نور الدين بالعودة إلى بلده وأمسك به وأنزله منزلة عظيمة فأقام بدمشق للوعظ والتدريس حتى وفاته[5].

ولقد تمتعت فئة العلماء والفقهاء في عصر الدولة الأيوبية بوضع معيشي يليق بمكانتها الدينية والاجتماعية، فقد كان صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية يفيض عليهم بالأعطيات والهبات والهدايا، ولم يترك صلاح الدين" قارئاً إلا قراه ولا راوياً إلا أشبعه وأرواه، ولا حافظ حديث إلا حفظه من الحدثان، ولا محسن صنعة إلا اصطنعه بالإحسان ولا ناظم مدائح إلا نظم له المدائح، ولا موافياً بقريض إلا وفى قريضه، وأعجز عن القيام بحمل حمده نهوضه"[6].

---

(1) ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص293، 294؛ ابن واصل مفرج الكروب، ج1، ص283؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص286.

(2) هو برهان الدين أبو الحسن علي بن محمد البلخي ولد سنة 486هـ=1092م، وهو من علماء الأحناف، وقد تفقه فيما وراء النهر، وبغداد، والحجاز، ثم قدم دمشق سنة 519هـ=1125م، وجلس للوعظ وكان يتميز بصدق كلماته فلقيت قبولاً حسناً في قلوب الناس، وكان حسن الاعتقاد زاهداً في الدنيا، وقفت عليه الأوقاف الكثيرة، وكثرت الأعطيات فلم يلتفت إليها توفي سنة،548هـ=1153م. أنظر،ابن العديم، زبدة حلب، ج2، ص293،294؛ ابن واصل، مفرج الكروب،ج1، ص283، 284.

(3) ابن العديم، زبدة حلب،ج2،ص293،294؛أبو شامة،الروضتين،ج1،ص99؛ابن واصل، مفرج الكروب،ج1، ص283،284.

(4) هو أبو المظفّر،سعيد بن سهل بن محمد بن عبد الله أبو المظفّر المعروف بالفلكي النيسابوري شيخ الشمشاطيّة، كان ذا رأي وشهامة وكفاية وحسن سيرة وسخاء ومكارم. سافر إلى خوارزم، ووزر لصاحبها، ثم إنه خاف من صاحب خوارزم فحج وتصدق بأموال كثيرة، وتزهد، وتعبد. وحدث ببغداد ثم قدم دمشق في سنة 553هـ=1158م واستوطن، وسكن بخانقاه السميساطي، وجدد بها الصفةٍ الغربيةٍ والبركة والقناة التي بها من ماله. وتولى النظر في وقف الخانقاه. وكان ثقة، متواضعاً، صالحا، حسن الاعتقاد. أثنى عليه ابن عساكر وغيره. توفي سنة 448هـ=1056م، ودفن بمقابر الصوفية.أنظر، ابن العديم، بغية الطلب،ج4،ص278؛الذهبي، تاريخ الإسلام،ج 38،ص303؛ الصفدي، الوافي بالوفيات،ج5، ص70؛ النعيمي،الدارس في تاريخ المدارس،ج2، ص120.

(5) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج5، ص70؛ ابن الجوزي، المنتظم،ج10، ص249؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج2، ص153.

(6) الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص182.

لقد اهتم صلاح الدين بفئة العلماء والفقهاء اهتماماً كبيراً، وحرص على الارتقاء بهم إلى مستوى معيشي يليق بمكانتهم العلمية والاجتماعية، ومما يؤكد هذا ما ورد في كتاب القاضي الفاضل الموجه إلى صلاح الدين" وما يجب أن يعلم المولى أن أرزاق أرباب العمائم في دولته إقطاعاً وراتباً يتجاوز مائتي ألف دينار، وربما كانت ثلاثمائة ألف دينار" هذا المبلغ كان ينفق على فقهاء دمشق فقط وكانوا ستمائة فقيه[1].

ومن الشواهد التاريخية الأخرى التي تعكس مدى حرص صلاح الدين على إكرام العلماء والفقهاء ما ذكره ابن شداد:" وكان يكرم من يرد عليه من المشايخ وأرباب العلم والفضل وذوي الأقدار وكان يوصينا بأن لا نغفل عمن يجتاز بالخيم من المشايخ المعروفين حتى يحضرهم عنده وينالهم من إحسانه"[2].

ومع هذا السخاء المالي اللامحدود الذي حظيت به فئة العلماء والفقهاء من قبل سلاطين الدولة الأيوبية، فقد أفادتنا المصادر التاريخية ببعض ما قرره السلاطين من رواتب شهرية للعلماء مقابل عملهم، فقد ذكر أن صلاح الدين قرر لنجم الدين الخبوشاني (ت.587هـ1190م)، راتباً معلوماً كل شهر" أربعين دينار... ورتب له من الخبز في كل يوم ستين رطلا وراويتين من ماء النيل"[3]. وقيل أن أكبر مرتب عُين للعالم أو للمدرس في تلك الأزمان هو المرتب الذي فرضه العزيز عثمان بن صلاح الدين(ت.595هـ=1198م)، للفقيه الحسن بن الخطير[4]، فقد قرر له في الشهر" ستين دينارا ومائة رطل خبز وخروفا وشمعة كل يوم"[5].

---

(1) علي، خطط الشام، ج4، ص34، 39.

(2) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص31؛ المصري، التعليم في بلاد الشام في العهد الأيوبي، رسالة ماجستير غير منشورة، ص154.

(3) السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ،ج2، ص257.

(4) هو الحسن بن الخطير بن أبي الحسن النعماني نسبة إلى النعمانية، قرية بين بغداد وواسط وإلى جده النعمان بن المنذر، ويقال له الفارسي، لأنه تفقه بشيراز. ولد سنة 547هـ= 1152م، وكان مبرزا في النحو واللغة والعروض والقوافي والشعر والأخبار ، وعالما بتفسير القرآن والفقه والخلاف والكلام والحساب والمنطق والهيئة والطب، قارئا بالعشر الشواذ، حنفيا، عالما باللغة العبرانية ويناظر أهلها، وكان يحفظ في كل فن كتابا. دخل الشام، وأقام بالقدس مدة. وله من التصانيف : تفسير كبير ، وشرح الجمع بين الصحيحين للحميدي، وتنبيه البارعين على المنحوت من كلام العرب؛ وغير ذلك. توفي سنة598هـ=1201م.أنظر، السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة،ج1، ص502، 503.

(5) السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة،ج1، ص502، 503؛ بدوي، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية، ص80.

وجعل الظاهر بيبرس للعالم الأشرف بن الأعز[1] "كل يوم ديناراً صورياً وعشرة مكاكيك[2] حنطة ولحماً"[3]. وكان مدرس المدرسة المنصورية يتقاضى خمسة عشر ديناراً والمعيد زهاء خمسة دنانير ونصف دينار[4].وكان مرتب مجد الدين الختني[5]، أحد عشر ديناراً في الشهر[6].

وقد وجد من العلماء والقضاة من نزهوا أنفسهم عن أخذ الأجر أو الأعطيات أو الهدايا لقاء عملهم. فعندما تقلد شرف الدين السبكي[7] قضاء قضاة المالكية في مصر سنة (663هـ=1265م)، شرط أن لا يأخذ على القضاء أجراً[8]، وكذلك فعل شمس الدين المقدسي[9] عندما تقلد قضاة الحنابلة في مصر سنة (663هـ=1265م)[10]، ورفض

---

(1) هو الأشرف بن الأعز بن هاشم بن القاسم بن أبي الفضل أحمد بن أبي البركات الحسني الكوفي ثم الرملي كان بآمد، ولد بالرملة في غرة سنة 482هـ=1089م، كان فاضلا، فصيحا، عارفا بالتواريخ وأيام العرب، حسن المذاكرة، جيد الشعر، عالما بالأنساب، قدم حلب في جمادى الآخرة سنة 600هـ=1203م، فأكرمه الملك الظاهر بيبرس، عاش الأشرف بن الأعز 128 سنة. توفي سنة 610هـ=1213م.أنظر، ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب،ج2، ص198؛ الذهبي،تاريخ الإسلام، ج43، ص363؛ الصفدي، الوافي بالوفيات،ج 3،ص 454.

(2) المكوك، مكيال لأهل العراق، وجمعه مكاكيك، وهو صاع ونصف. ابن منظور، لسان العرب، ج10، ص490.

(3) الصفدي، الوافي بالوفيات،ج 3،ص 454.

(4) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك،ج2، ص365؛ بدوي، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية، ص80.

(5) هو محمد بن محمد بن محمد أبو عبد الله مجد الدين الختني أحد علماء ما وراء النهر وخراسان كان أبوه ملك بلاده فترك الملك لأخيه الأصغر وهاجر فى طلب العلم إلى سمرقند وبخارى وخراسان فتفقه ثم ورد إلى البلاد الشامية لطلب المرابطة فحضر. ثم ورد إلى الديار المصرية فلم يزل به الملك الناصر حتى ولاه المدرسة السيوفية التى بالقاهرة وهو أول من درس بها وانتفع به جماعة ورحل إلى الأندلس توفي سنة 576هـ=1180م. القرشي،الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية،ج 2، ص 125، 126.

(6) المقريزي، المواعظ والاعتبار،ج4، ص218.

(7) هو شرف الدين أبو حفص عمر بن عبد الله بن صالح بن عيسى السبكي المالكي، قاضي القضاة ولد سنة 585هـ=1189م، وسمع الحديث وتفقه وأفتى بالصلاحية، ودرَّس المالكيَّة بالصالحيَّة، وأشغل وأفتى، وانتهت إليه معرفة المذهب، وولي حسبة القاهرة ثم ولي القضاء لما ولوا من كل مذهب قاضيا، وقد امتنع أشد الامتناع أن لا يأخذ على القضاء جامكية، وكان مشهورا بالعلم والدين. توفي سنة 669هـ=1270م. الصفدي، الوافي بالوفيات،ج 7،ص 156؛ ابن كثير، البداية والنهاية،ج 13، ص 303.

(8) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص303.

(9) هو قاضي القضاة شمس الدين الحنبلي محمد بن الشيخ العماد أبي إسحاق إبراهيم بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي، الحنبلي، نزيل مصر، ولد سنة 603هـ=1206م، وهو أول من ولي قضاء قضاة الحنابلة بالديار المصرية، وكان شيخا مهيبا حسن الشيبة كثير التواضع والبر والصدقة، وقد اشترط في قبول الولاية أن لا يكون له عليها جامكية ليقوم في الناس بالحق في حكمه، ويحكى عنه كرامات ومكاشفات، وعزل عن القضاء وحبس بالقلعة سنتين وأطلق ولزم بيته يدرس ويفتى ويروى الحديث. توفي سنة 676هـ=1277م.الصفدي،الوافي بالوفيات،ج 1، ص156؛ ابن كثير، البداية والنهاية،ج 13، ص325؛ الزر كلي، الأعلام،ج 5، ص296.

(10) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص325.

القاضي شمس الدين بن الحريري[1] عندما تولى قضاء قضاة مصر أي هدية أو أعطية مقابل عمله[2].

كما ذكر أن القاسم بن علي[3] "لم يتناول من معلومه شيئا بل جعله مرصدا لمن يرد عليه من الطلبة"[4].

وعندما يترك العالم أو الفقيه منصبه بسبب عجزه وكبر سنه، يرتب له معاشاً شهرياً فعندما ترك بدر الدين بن جماعة[5] قضاء قضاة الشافعية في مصر بسبب كبر سنه وضرر عينيه " جبروا خاطره فرتب له ألف درهم وعشرة أرادب قمح في الشهر"[6] وإذا "مات فقيهٌ أو معيد أو مدرِّس وله زوجة وأولاد فإنهم يعطون من معلوم تلك الوظيفة التي كانت له ما تقوم به كفايتُهم ثم إن فضلَ من المعلوم شيءٌ عن قدرِ الكفاية فلا بأسَ بإعطائه لمن يقوم بالوظيفة"[7].

---

(1) هو شمس الدين محمد بن صفي الدين عثمان بن عبد الوهاب الأنصاري، ابن الحريري الحنفي، ولد سنة 653هـ=1255م، وكان فقيها جيدا، ودرس بأماكن كثيرة بدمشق، ثم ولي القضاء بها، ثم خطب إلى قضاء الديار المصرية فاستمر بها مدة طويلة محفوظ العرض،لا يقبل من أحد هدية ولا تأخذه في الحكم لومة لائم، توفي رحمه الله يوم السبت رابع جمادى الآخرة سنة 728هـ=1327م، ودفن بالقرافة. ابن كثير، البداية والنهاية،ج 14،ص 163.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية،ج 14،ص163.

(3) هو القاسم بن علي بن الحسن بن هبة الله الحافظ أبو محمد بن الحافظ أبي القاسم بن عساكر ولد سنة 527هـ=1132م، وسمع الحديث بدمشق وكان محدثا حسن المعرفة شديد الورع ومع ذلك كان كثير المزاح صنف كتاب المستقصى في فضائل المسجد الأقصى وكتاب الجهاد وتولى مشيخة دار الحديث النورية بعد والده فلم يتناول من معلومها شيئا بل كان يرصده للواردين من الطلبة حتى قيل لم يشرب من مائها ولا توضأ. توفي سنة 600هـ=1203م. السبكي،طبقات الشافعية الكبرى،ج 8،ص 353،352؛ ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية،ج 2، ص34.

(4) ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية،ج 2، ص34؛ النعيمي الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص76.

(5) هو قاضي القضاة الأمام العالم بدر الدين أبو عبد الله الكناني الحموي الشافعي، ولد في ربيع الآخر سنة 639هـ=1241م، بحماة وكان قوي المشاركة في علوم الحديث والفقه والأصول والتفسير خطيبا تام الشكل ذا تعبد واوراد وحج، وله تصانيف درس وافتى واشغل مناصب كبيرة، نقل إلى خطابة القدس ثم طلبه الوزير ابن السلعوس فولاه قضاء مصر ورفع شأنه ثم حضر إلى الشام قاضيا وولي خطابة دمشق أيضا مع القضاء ثم طلب لقضاء مصر بعد ابن دقيق العيد وامتدت أيامه إلى أن شاخ واضر وثقل سمعه فعزل. توفي سنة 733هـ=1332م،ودفن بالقرافة بمصر. أنظر ترجمته،الكتبي، فوات الوفيات،ج3، ص297؛ الصفدي، الوافي بالوفيات،ج1،ص161؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى،ج9،ص80؛ ابن العماد، شذرات الذهب،ج6، ص104.

(6) ابن كثير، البداية والنهاية،ج14، ص147، 148.

(7) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج8، ص87.

ممارسة العلماء للأعمال غير الدينية:

مارس الكثير من العلماء أعمالاً مختلفة، غير الوظائف الدينية التي كانوا يتقلدونها من قبل الدولة، كالنسخ بالأجرة، وممارسة التجارة، ومهن أخرى، فقد مارس حجة الإسلام أبو حامد الغزالي(ت.505هـ=1111م)،النسخ كمصدر يرتزق منه[1] والمقرئ أبو العباس بن الحطيئ[2] نسخ للناس بالأجرة، وخطه جيد مضبوط وقد علم زوجته وابنته الكتابة وتقليد خطه، فإذا شرع في نسخ كتاب ما أشركهما معه في النسخ، فلا يفرق بين خطوطهم إلا الحاذق المدقق[3]،والفقيه ابن عبد الدائم المقدسي[4] تخصص في النسخ ومارسه خمسين سنة، وكان يكتب في اليوم إذا تفرغ تسعة كراريس أو أكثر، ويقال أنه كان ينظر في الصفحة نظرة واحدة ثم يكتبها، وروي أنه نسخ في ظرف خمسين سنة ألفي مجلدة، وقيل اقل أو أكثر من ذلك، ونقل عنه أنه انشد عندما عجز :

عجــزت عــن حمل قــرطاس وعن قــلم.....مــن بــعد إلــفي بالــقرطــاس والقــلم

كــتــبت ألــفــا وألــفــا مــن مــجلــدةٍ.....فــيها عــلوم الــورى مــن غير ما ألم

مــا العــلم فخر امــرئ إلاّ لعاملــه.....إن لــم يــكــن عــمل فالــعلم كــالعــدم[5].

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية،ج 12،ص 214.

(2) هو أحمد بن عبد الله بن أحمد بن هشام أبو العباس بن الحطيئة اللخمي الفارسي المقرئ ولد بفــأس وحج ودخل الشام فلقي الكبار واستوطن جامع مصر المعروف بجامع راشدة خارج الفسطاط. وكــان إمام صالح كبير القدر عدلاً، عُين قاضياً سنة 535هـ=1140م،واشترط أن لا يقضي بمذهب الدولة. توفي سنة 560هـ=1114م،وقبره بالقرافة الــصغرى بمــصر. الــصفدي، الــوافي بالوفيــات،ج 2،ص417.

(3) الصفدي، الوافي بالوفيات،ج 2،ص417.

(4) هو أحمد بن عبد الدايم بن أحمد بن نعمة بن إبراهيم بن أحمد بن بكير، المعمر العالم مسند الوقــت، زين الدين أبو العباس المقدسي الفندقي الحنبلي الناسخ؛ ولد بنابلس ســنة 575هــــ=1179م، وأدرك الإجازة، رحل إلى بغداد لتلقي العلم والتفقه بالمذهب الحنفي، وسمع من ابن كليب وطبقته، وتفقه على الشيخ الموفق،وكان تام القامة، حسن الأخلاق والشكل، وولي خطابة كفر بطنا، وأنشأ خطباً كثيــرة، وحدث ستين سنة.وروى عنه خلق كثير بمصر والشام، وتفرد بالكثير، وكف بصره في آخر عمــره. توفي سنة 668هـ=1269م.أنظــر، الــصفدي،الوافي بالوفيــات،ج 2،ص 383؛ الكتبــي، فــوات الوفيات،ج 1،ص 81،82؛ الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج3، ص319؛ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص275.

(5) الصفدي، الوافي بالوفيات،ج 2، ص383؛ الكتبي، فوات الوفيات،ج1، ص81،82.

فالكثير من العلماء مارسوا النسخ كمصدر رزق يرتزقون منه وهو يندرج ضمن نشاطهم اليومي كعلماء، كما أنهم مارسوا وظائف وحرف متنوعة حسب قدراتهم وظروفهم لإدراكهم أنه لابد لأهل العلم من عمل يتكسبون منه، لينفقوا على أسرهم وليحافظوا على كرامتهم و علمهم. وقد مارس بعضهم التجارة فمن هؤلاء: الفقيه ابن باقا[1]، والمحدث فخر الدين بن البخاري[2].

ومنهم من تكسبوا من مهنة الخياطة، كالمقرئ أبو العباس الدمشقي الذي جمع بين الخياطة والدلالة في الأسواق[3]، وجمع الفقيه أبو الخير مكي[4] بين الاشتغال في البناء والإمامة في المسجد الذي يعرف به بمدينة مصر[5].

---

(1) هو الشيخ الأمين المرتضى المسند صفي الدين أبو بكر عبد العزيز بن أبي الفتح أحمد بن عمر بن سالم بن محمد بن باقا البغدادي السيبي نسبة إلى قرية السيب من قرى بغداد الأصل الحنبلي التاجر ولد سنة 555هـ=1159م، ثم رحل إلى مصر، وسمع من أبي زرعة المقدسي وجماعة من العلماء، وشهد عند القضاة، وكان تاليا لكتاب الله صدوقا جليلا، قرأ في الفقه على أبي الفتح بن المني، و حدث عنه جمع من العلماء. توفي فجاءة سنة 630هـ=1232م.أنظر،الذهبي، سير أعلام النبلاء،ج 22، ص351، 352؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص134.

(2) هو علي بن أحمد بن عبد الواحد بن أحمد بن عبد الرحمن السعدي، المقدسي الصالحي، المعمر، فخر الدين أبو الحسن، ابن الشيخ شمس الدين البخاري، الفقيه المحدث، ولد في آخر سنة 576هـ=1180م، كان فاضل، كريم النفس، كيس الأخلاق، حسن الوجه، قاضٍ للحاجة، كثير التعصب، محمود السيرة،سمع بدمشق والقدس ومصر من كبار العلماء، وتفرد بالرواية عن جماعة منهمْ، وصار محدث الإسلام وراويته، روى الحديث فوق ستين سنة وسمع منه الأئمة الحفاظ المتقدمون، وسمع كثيراً من الكتب الكبار والأجزاء. وكان الشيخ فخر الدين في أول أمره يتعاطى السفر للتجارة، فلما أسَن لزم بيته متوفراً على العبادة والرواية.توفى سنة 690هـ=1290م.أنظر،الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج22، ص323؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج2، ص326، 327؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص314.

(3) هو أبو العباس أحمد بن أبي الخير سلامة بن إبراهيم الدمشقي الحداد الحنبلي ولد سنة 589هـ=1192م وكان أبوه إماما بحلقه الحنابلة فمات وهو صغير سمع سنة 600هـ=1203م، من الكندي وأجاز له خليل البرزالي وابن كليب والبوصيري وروى الكثير وكان خياطا ودلالا ثم قرر بالرباط الناصري وأضر بآخره وكان يحفظ القرآن توفي سنة 678هـ=1279م.النعيمي،الدارس في تاريخ المدارس،ج2، ص96؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص 359.

(4) هو مكي بن عمر بن نعمة بن يوسف بن عساكر بن عسكر بن شبيب بن صالح، الروَبتي المقدسي الأصل، المصري الفقيه الزاهد، أبو الخير بن أبي حفص: ولد في شهر رمضان سنة 548هـ=1153م، بمصر،وسمع من والده أبي حفص، ومن أبي محمد بن بري النحوي، وجماعة كثيرة من أهل البلد والقادمين عليها،واشتهر بمعرفة المذهب الحنبلي، وجمع مجاميع في الفقه وغيره، وانتفع به جماعة. وحدث، وكان امام بالمسجد المعروف به بمصر، وكان يبني ويأكل من كسب يده. توفي سنة 634هـ=1236م، بمصر. ودفن إلى جانب والده الذهبي، تاريخ الإسلام،ج 46، ص222؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة،ج1، ص270، 271.

(5) الذهبي، تاريخ الإسلام،ج 46، ص222؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة،ج1، ص270، 271

ونتيجة لجمعهم بين العلم والمال، وُجد من العلماء من امتلك ثروات طائلة وأصبح من الأغنياء من هؤلاء: أسرة بني المنجا الدمشقية، فالفقيه عثمان بن أسعد بن المنجا له ثروة طائلة، من محلات وعقارات، وبساتين وممتلكات أخرى[1] وصدر الدين أسعد بن المنجا صاحب الأموال استثمر أموالا كثيرة وأصبح من الأغنياء[2] والفقيه زين الدين أبو البركات بن المنجا جمع بين العلم والعمل وصحة الذهن[3].

ووجد من العلماء الأغنياء الذين بالغوا في التنعم بالدنيا من كثرة الأموال، منهم المفسر الواعظ زين الدين بن نجية[4] الذي "اقتنى أموالاً عظيمة كان يعيش عيشا أطيب

---

(1) هو عثمان بن أسعد بن المنجا ابن أبي البركات الأجل، عز الدين أبو عمرو وأبو الفتح، التنوخي، الدمشقي، الحنبلي، واقف المدرسة الصدرية بدمشق. ولد بمصر وسمع من البوصيري وغيره وكان ذا مال وثروة كبيرة ومتنوعة. توفي سنة 641هـ=1243م.أنظر، الصفدي، الوافي بالوفيات،ج 6، ص334؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج1، ص491؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج5،ص211، 212؛ علال، الحركة العلمية الحنبلية، ص36.

(2) هو صدر الدين، أبو الفتح أسعد بن عثمان بن أسعد بن المنجا. التنوخي الدمشقي ولد سنة 598هـ=1201م بدمشق، وسمع بها من حنبل، وحدث، وكان أحد المعدلين ذوي الأموال والثروة والصدقات. وولي نظر الجامع مدة. واستثمر له أموالاً كثيرة، واستجد في ولايته أموراً. وهو الذي استجد الدكاكين التي بسوق باب الزيادة بين العواميد من الجهتين وبنى في حائط الجامع القبلي حوانيت النحاسين وله آثار حسنة واوقف المدرسة الصدرية بدمشق. توفي سنة657هـ=1258م، ودفن بالمدرسة الصدرية.أنظر،ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة،ج1، ص291؛ النعيمي،الدارس في تاريخ المدارس،ج2،ص94؛ ابن العماد، شذرات الذهب،ج6، ص175.

(3) المنجا بن عثمان بن أسعد بن المنجا بن بركات بن المؤمل التنوخي، المعري الأصل، الدمشقي، الفقيه الأصولي، المفسر النحوي، زين الدين أبو البركات بن عز الدين أبي عمر بن القاضي وجيه الدين أبي المعالي ، ولد سنة 631هـ=1233م، كان عالماً بفنون شتى، من الفقه، والأصلين، والنحو. وله يد في التفسير، ودرس وأفتى، وناظر وصنف، وانتهت إليه رئاسة المذهب الحنفي بالشام في وقته، ومن تصانيفه " شرح المقنع " في أربع مجلدات " وتفسير القرآن الكريم " وغير ذلك.وكان له في الجامع حلقة للاشتغال والفتوى نحو ثلاثين سنة، متبرعاً لا يتناول على ذلك معلوماً. وكان حسن الأخلاق،كان معروفاً بالذكاء، وصحة الذهن، وجودة المناظرة، وطول النفس في البحث.واجتمع له العلم والدين، والمال والجاه وحسن الهيئة.توفي يوم الخميس رابع شعبان سنة 695هـ=1295م.وتوفيت معه زوجته، بجامع دمشق، ودفنا بتربة بيت المنجا بسفح قاسيون.رحمهما الله تعالى.أنظر،ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة،ج1، ص316،317؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص335؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس،ج 2، ص57؛ ابن العماد، شذرات الذهب،ج 5، ص432.

(4) هو علي بن إبراهيم بن نجا بن غنائم الأنصاري الدمشقي، الفقيه الواعظ المفسر زين الدين أبو الحسن بن رضي الدين أبي طاهر، المعروف بابن نجية نزيل مصر، ولد بدمشق سنة 508هـ=1114م، أيقن التفسير، وأحب الوعظ وغلب عليه، واشتغل به. كانت له مكانة عظيمة عند نور الدين محمود بن زنكي، فبعثه رسولاً إلى بغداد سنة 564هـ=1168م، وخلع عليه هناك أهبة سوداء، فكانت عنده يلبسها في الأعياد. وسمع هناك الحديث،واجتمع هناك بالشيخ عبد القادر الجيلاني وغيره من الأكابر، ووعظ بجامع المنصور، وكان ذا رأي صائب عند صلاح الدين الأيوبي وكان يسميه عمرو بن العاص، ويعمل برأيه، وكان صلاح الدين يكاتبه، ويحضر مجلسه هو وأولاده وكان له جاه عظيم، وحرمة زائدة، وكان زين الدين كريمًا وكان ابن نجية قد اقتنى أموالاً عظيمة كان يعيش عيشا أطيب من عيش الملوك في الأطعمة والملابس ومع هذا مات فقيرًا، كفنه بعض =

من عيش الملوك في الأطعمة والملابس، وكان عنده في داره عشرون جارية للفراش، كل جارية تساوي ألف دينار وأما الأطعمة فكان يعمل في داره ما لا يعمل في دور الملوك والخلفاء وافتقر في أخر حياته وضاق صدره في آخر عمره من دين عليه، وأن الملك العزيز عثمان لما عرف ذلك أعطاه ما يزيد على أربعة آلاف دينار مصرية"(1).

لا شك أن ما جمعه بعض العلماء المقربين من السلاطين والملوك وممن يسيرون في فلكهم من ثروات طائلة، انعكس سلباً على طلبة المدارس وصغار العلماء، حتى وُجدت طائفة منهم لم تكن لها وظائف وحرف ترتزق منها، لتفرغها للعلم والعبادة واعتمادها على طرق أخرى تطلب بها الرزق، كالإحسان كمورد للعيش، والتمسوا دوماً الهبات من الأغنياء، وأجروا أنفسهم لأعمال التعازي آثر وفاة كل إنسان أو لأعمال الأفراح في مناسبات الختان، والزواج والرجوع من الحج وغير ذلك من المناسبات الدينية ذات المحتوى الاجتماعي(2).

من هؤلاء العلماء الذين عانوا الفقر وقلة الدخل، عبد الرحمن بن الجوزي، لم يكن له عمل يتقوت منه لأن العلم شغله عن التكسب(3)،وشيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية (ت.728هـ=1327م)، أمضى حياته في الاشتغال بالعلم والعبادات، ولم تكن له وظيفة يتكسب منها وليس له من الدنيا إلا الضروريات، يُوفرها له أخوه لأمه أبو القاسم بن تيمية الحراني(4).

=

أصحابه..توفي سنة599هـ=1202م،بالقاهرة.أنظر، أبو شامة الروضتين،ج2،ص33،32؛ابن كثير،البداية والنهاية،ج 13،ص43؛ ابن رجب،ذيل طبقات الحنابلة،ج1، ص178،180،179؛ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص224.

(1)أبوشامة،الروضتين،ج2،ص33،32؛ابن كثير،البدايةوالنهاية،ج13،ص43؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة،ج1، ص178،180،179.

(2) زعرور،الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي، ص134.

(3) ابن الجوزي، صيد الخاطر، ص48؛ علال، الحركة العلمية الحنبلية، ص95.

(4) هو عبد الله بن عبد الحليم بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الخضر بن محمد بن تيمية الحراني الحنبلي أخو الشيخ تقي الدين ،عالم عظيم ولد سنة 666هـ=1267م، بحران، ومناقبه جمة وعلومه كثيرة، بارع في فنون عديدة من الفقه والنحو والأصول حسن العبارة قوي في دينه مليح البحث صحيح الذهن مستحضر لتراجم السلف عالم بالتواريخ ملازم لأنواع الخير وتعليم العلم عارف بالحساب زاهد شريف النفس قانع بالقليل شجاع مقدام مجاهد، كثير الصدقات والإيثار بالذهب والفضة في حضره وسفره مع فقره وقلة ذات يده وكان رفيقه في المحمل في الحج يفتش رحله فلا يجد فيه شيئا ثم يراه يتصدق بذهب كثير جدا وهذا أمر مشهور معروف عنه وحج مرات متعددة. توفي سنة 717هـ=1317م، بدمشق.أنظر، ابن الوردي، تاريخ،ج2، ص272؛ ابن العماد، شذرات الذهب،ج 6، ص75،76.

كذلك الفقيه ضياء الدين بن عبد الملك الحموي[1] اعتزل المجتمع وخلا بنفسه للعبادة، وكان يأكل من مزروعات تصله من بلدة حوران[2] إلى دمشق والمفسر الصوفي إبراهيم بن احمد الرقي عاش " زاهداً في الدنيا، صابراً على مرِّ العيش، عظيم السكون ملازماً للخشوع والانقطاع"[3][4].

ونظراً لأهمية المال للمشتغلين بالعلم، فقد نصحهم عبد الرحمن بن الجوزي بالقناعة باليسير و قلة النفقة، و تقليل أفراد الأسرة ومزاولة عمل ما كالنسخ بالأجرة وحث من له مال منهم، على الاجتهاد في تنميته وحفظه، وهذا أفضل من التشاغل بفضول العلم فما بقي من يؤثر ولا من يقرض، فالناس قد صاروا عبيداً للمال، ونصح طالب العلم" بالاجتهاد في جمع المال للغنى عن الناس فإنه يجمع لك دينك... ولا يداري ظالماً، ولا يداهن جاهلا، وأن لم يفعل ذلك و لم يقنع باليسير أفسد دينه بمخالطته للسلاطين والعوام"[5].

---

(1) هو ضياء الدين أبو إبراهيم محاسن بن عبد الملك بن علي بن نجا التنوخي الحموي ثم الصالحي تفقه على يد الشيخ موفق الدين حتى برع وكان عارفا بالمذاهب، زاهدا ما نافس في منصب قط ولا دنيا ولا أكل من وقف بل كان يتقوت من مزروعات تزرع له بحوران وما آذى مسلما قط ولا دخل حماما ولا تنعم في ملبس ولا مأكل ولا زاد على ثوب وعمامة في طول عمره وكان على خير كثير. توفي سنة 643هـ=1245م بدمشق. ابن العماد،شذرات الذهب،ج 5، ص223، 224.

(2) حوران، كورة واسعة من أعمال دمشق. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2،ص317.

(3) هو إبراهيم بن أحمد بن محمد بن معالي بن محمد بن عبد الكريم الرقي، الزاهد العالم، القدوة الرباني، أبو إسحاق، ولد سنة 646هـ=1248م ،بالرقة، اعتني بتفسير القرآن، وبالفقه، وفي علم الطب، وشارك في علوم الإسلام، فبرع في التذكير. وله المواعظ المحركة إلى اللــه، وكان إماماً زاهداً، عارفاً قدوة، قانعاً باليسير في المطعم والملبس.وله التصانيف الكثيرة في الوعظ والطريق إلى الله تعالى منها " أحاسن المحاسن " في الوعظ. اختصره من صفوة الصفوة. قاله في " كشف الظنون " والآثار والخطب.وغيرها. توفي سنة 703هـ=1303م بدمشق. ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة،ج1،ص322، 323 ؛ ابن العماد، شذرات الذهب،ج6 ،ص7،8.

(4) ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة،ج1،ص322، 323 ؛ ابن العماد، شذرات الذهب،ج6 ،ص7،8.

(5) صيد الخاطر، ص92،79،52.

الفصل الثالث:

دور العلماء في محاربة الفساد في المجتمع.

المبحث الأول: دور العلماء الدعوي والتربوي.

المبحث الثاني: دور العلماء الرسمي من خلال إدارة شؤون الدولة.

المبحث الثالث: دور العلماء في محاربة التيارات الفكرية المنحرفة.

المبحث الأول:

دور العلماء الدعوي والتربوي

- مجالس الوعظ والإرشاد.
- إنشاء المدارس وتأليف الكتب.
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الحمد الله القائل:"كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ"[1]، فالحمد الله الذي جعل خيرية هذه الأمة وتميزها، وقوامها وكيانها، وخلودها واستمراريتها منوطا بقيامها بالحق والدعوة إليه ونشره له واستمرار حراسته، والدفاع عنه حيث لم يرض الله لها ــ وهي أمة الرسالة الخاتمة ــ أن تكون صالحة بذاتها بل لا بد أن تكون صالحة بذاتها مصلحة لغيرها، مضحية في سبيل تمكين الحق، مصارعة للباطل، حتى تستحق صفة الخيرية، والتميز والفضل. إن التدافع بين الخير والشر، والمعروف والمنكر من سنن الله الاجتماعية في الخلق قال الله تعالى:"كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ"[2]، وقال أيضاً:"وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا"[3].

لقد نهض علماء وفقهاء مصر والشام لتحمل هذه الأمانة العظيمة، بعدما تفشت ظواهر عديدة ومتعددة، من شيوع للمنكرات، والفساد الأخلاقي، والانحرافات العقائدية، وغير ذلك من المفاسد والتي ذكرنها في الفصل الأول، والتي أصابت أغلب فئات المجتمع من حكام ومحكومين فهم يعلمون أنهم مطالبون ببذل قصارى جهدهم لوصف الدواء الناجع لهذه الأمراض، وهذا مما ائتمنهم الله تعالى عليه ليكونوا ورثة الأنبياء. فهذه مهمة ترمي بثقل المسؤولية الهائلة على أعناق العلماء والفقهاء.

مجالس الوعظ والإرشاد:

وكان أول الطرق التي اتبعها العلماء وهي من أيسر الطرق لمخاطبة العامة وبشكل مباشر في عقد مجالس الوعظ التي بدأ بها العلماء كخطوة لإعادة الناس الضالين إلى هداهم وكانت مجالس الوعظ أشبه بمدارس شعبية، تحملت عبء تثقيف العامة، ومن أبرز تلك المجالس التي كان يعقدها عبد الرحمن بن الجوزي (ت.597هــ=1200م) والتي حضر بعضٍ منها الرحالة ابن جبير(ت.580هــ= 1148م)،بقوله: "وشاهدنا مجلساً ثانياً له بكره يوم الخميس بباب بدر في ساحة قصر الخليفة، ومناظرة مشرفة عليه وقد

(1) سورة آل عمران،آية، 110.
(2) سورة الرعد، آية، 17.
(3) سورة الحج، آية، 40.

خص ابن الجوزي بالوصول إليه والتكلم فيه ليسمعه من تلك المناظر{النوافذ والشرفات}الخليفة وكذلك والدته ومن حضر من الحريم، وقد بسط بالحصر، وجلوس ابن الجوزي بهذا الموضع كل يوم خميس. فبكرنا لمشاهدته، وقد تسطر قراء القرآن أمامه على كراسي موضوعة، فابتدروا بالقراءة على الترتيب ... وشرع ابن الجوزي في الوعظ بديهة لا روية{ أي ارتجالاً لا إعداداً} ويصل كلامه في ذلك بالآيات التي كان قرأها القراء في المجلس، فأرسلت وابلها العيون، وأبدت النفوس سر شوقها المكنون وتطارح الناس عليه بذنوبهم معترفين وكثر الوله والذهول... وقد نزل عن المنبر متغفراً بالتراب، فياله من مشهد ما أهول مرآه وما أسعد من رآه وما كنا نحسب أن متكلماً في الدنيا يعطي من ملكة النفوس والتلاعب بها ما أعطي هذا الرجل"[(1)].

وقد كانت مجالس الوعظ تشد الناس إليها وتستولي على ألبابهم، فقد علق ابن رجب على مجالس الوعظ التي كان يعقدها ابن الجوزي بقوله:" أن مجالسه الوعظية لم يكن لها نظير، ولم يسمع بمثلها. وكانت عظيمة النفع، يتذكر بها الغافلون، ويتعلم منها الجاهلون، ويتوب فيها المذنبون، ويسلم فيها المشركون"[(2)]، ويقال أنه تاب على يديه مائة ألف وأسلم على يديه عشرة آلاف يهودي ونصراني[(3)].

ومن مجالس الوعظ المعروفة في تلك الحقبة التي كان يعقدها سبط بن الجوزي(ت.654هــ= 1256م)، والتي كانت " ترق له القلوب، وتذرف لسماع كلامه العيون وكان يحضر مجالسه الصلحاء والعلماء والملوك والأمراء والوزراء، ولا يخلو مجلس من مجالسه من أناس يتوبون، وفي مجالسه يُسلم أهل الذمة، فكان الناس يبيتون في مسجد دمشق لسماع وعظه، ويتذاكرون ذلك في أعمالهم"[(4)]، وقد قيل للشيخ سبط بن الجوزي: " صلاح الدين يوسف فتح الساحل، واظهر الإسلام، وأنت يوسف أحييت السُّنّة بالشام.. وقمعت البدعة، وهذه البلاد فتوحك كما فتح القدس سميك يوسف..."[(5)]، وفي سنة

(1) رحلة، ص83.
(2) ذيل طبقات الحنابلة،ج1،ص167.
(3) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص21.
(4) الكتبي، فوات الوفيات، ج4، ص351؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان،ج1، ص15؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج8، ص239؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص226.
(5) ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج1، ص224؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج 44، ص190.

(603هـ=1206م) جلس سبط بن الجوزي للوعظ في الجامع بدمشق ويقال إنه في ذلك اليوم تاب على يديه ما يزيد على خمسمائة شاب[1].

فكانت مجالس سبط بن الجوزي مؤثرة في نفوس السامعين، "حتى أنه كان يتكلم في المجلس الكلمات اليسيرة المعدودة أو ينشد البيت الواحد من الشعر فيحصل لأهل المجلس من الخشوع والاضطراب والبكاء ما لا مزيد عليه فيقتصر على ذلك القدر اليسير وينزل فكانت مجالسه نزهة القلوب والأبصار"[2].

وهناك الكثير من نماذج مجالس الوعظ والإرشاد لعدد من الشيوخ أمثال، أبو النجيب السهروردى[3] الذي عقد له مجالس في بيت المقدس ودمشق وغيرها ورجع بسببه خلق كثير إلى الله[4]، وكذلك مجالس الفقيه فخر الدين الرازي(ت.606هـ=1209م)، وكانت له يد طولى في الوعظ بلسان العربي والفارسي وكان يلحقه الوجد في حال الوعظ ويكثر البكاء، ورجع بسببه خلق كثير إلى مذهب السنة وقد مدحه الشاعر ابن عنين :

ماتت به بدع تمادى عمرها..... دهرا وكاد ظلامها لا ينجلي

وعلا به الإسلام أرفع هضبة..... ورسا سواه في الحضيض الأسفل

غَلط امرؤٌ بأبي علي قاسه..... هيهات قصر عن هداه أبو على

لو أن رسطاليس يسمع لفظة..... من لفظه لعرته هزة أفكَل

ولحار بطليموس لو لاقاه من..... برهانه في كل شكل مشكِل

---

(1) اليونيني، ذيل مرآة الزمان،ج1، ص15.

(2) اليونيني، ذيل مرآة الزمان،ج2، ص16.

(3) هو عبد القاهر بن عبد الله بن محمد بن عمويه، الصوفي القدوة، الواعظ العارف الفقيه الشافعي، أحد الأعلام، من مواليد سهرورد قدم بغداد وهو شاب، سمع بها الحديث، واشتغل بدراسة الفقه بالمدرسة النظامية، سلك طريق الصوفية، كان إماماً في الشافعية وعلماً في الصوفية،، واشتغل بالوعظ والتذكير والدعاء، سكن رباطه جماعة من أصحابه الصالحين، وصار هذا الرباط ملاذاً يعتصم به الخائف من الخليفة فما دونه، ثم ندب إلى التدريس بالمدرسة النظامية توفى، سنة 563هـ=1167م. للمزيد عن ترجمته، انظر،بن خلكان، وفيات الأعيان،ج3، ص204؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص10؛ الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج3، ص40؛ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص254.

(4) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص203، 204؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج6، ص211.

ولــو أنـــهم جــمعوا لـــديه تـــيقنوا..... أن الفــضيلـــة لـــم تـــكن للأول[1].

لم تقتصر مجالس الوعظ والإرشاد التي كان يعقدها العلماء والفقهاء على اتعاظ وإرشاد عامة الناس، بل شملت السلاطين والملوك، فقد أنشد الواعظ أبا عثمان المنتخب بن أبي محمد الواسطي[2] وكان من الصالحين الكبار، وكان هذا الرجل ليس له شئ ولا يقبل من أحد شيئا، وكان يجتمع في مجلس وعظه الألوف من الناس أنشد لنور الدين أبياتا تتضمن ما هو متلبس به في ملكه، وفيها تخويف وتحذير شديد له:

مثـــل وقـــوفـــك أيهـــا المغـــرور..... يـــوم القيـــامة والسماء تمـــور

إن قـــلت نور الدين رحت مسلمـــاً..... فـــأحذر بأن تبقي ومالك نـــور

أنهيت عن شرب الخمور وأنت من..... كـــأس المظالم طائـــش مخمور

ماذا تقـــول إذا نـــقلت إلي البـــلى..... فـــرداً وجـــاءك منـــكر ونكـــير

ماذا تقـــول إذا وقـــفت بموقـــف..... فـــرداً ذليـــلاً والحساب عســـير

فلما سمع نور الدين هذه الأبيات بكى بكاء شديدا، وأمر بوضع المكوس والضرائب في سائر البلاد[3].

وكذلك وعظ بل وعاتب القاضي الفاضل(ت.596هـــ=1199م)، السلطان صلاح الدين عندما طال حصار الصليبيين لمدينة عكا[4] سنة(586هـــ= 1190م)، إذ أرجع القاضي الفاضل "سبب هذا التطويل في الحصار كثرة الذنوب، وارتكاب المحارم بين الناس، فإن الله لا ينال ما عنده إلا بطاعته، ولا يفرج الشدائد إلا بالرجوع إليه، وامتثال أمره، فكيف لا يطول الحصار والمعاصي في كل مكان فاشية، وقد صعد إلى الله منها ما

---

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان،ج 4، ص249؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى،ج 8، ص46،45،44.
(2) هو الواعظ أبو عثمان بن أبي محمد الواسطي، كان من الصالحين الكبار كان يجتمع في مجلس وعظه الآلاف من الناس ، توفي سنة 570هـــ=1174م. ابن كثير، البداية والنهاية، ج12 ، ص347.
(3) أبو شامة، الروضتين،ج 1،ص15؛ ابن كثير، البداية والنهاية،ج 12،ص347، 348.
(4) عكا، وتكتب عكاء أو عكة، وهي من مدن الساحل الفلسطيني، وتبعد عن قيـــسارية مـــسافة ســـتة وثلاثون ميلا، انظر، المقدسي، أحسن التقاسيم، ص162،163؛ الإدريسي، نزهة المـــشتاق ص365، ابن جبير، رحلة، ص212؛ ياقوت الحموي ،معجم البلدان،ج4، ص143؛ ابن بطوطة، رحلـــة، ج1، ص81.

يتوقع بعده الاستعاذة منه....ولو صدقنا لعجل الله لنا عواقب صدقنا، ولو أطعناه لما عاقبنا بعدونا، ولو فعلنا ما نقدر عليه من أمره لفعل لنا ما لا نقدر عليه إلا به، فلا يختصم أحد إلا نفسه وعمله، ولا يرج إلا ربه ولا يغتر بكثرة العساكر والأعوان، ولا فلان الذي يعتمد عليه أن يقاتل ولا فلان، فكل هذه مشاغل عن الله ليس النصر بها، وإنما النصر من عند الله، ولا نأمل أن يكلنا الله إليها، والنصر به واللطف منه، ونستغفر الله تعالى من ذنوبنا فلولا أنها تسد طريق دعائنا لكان جواب دعائنا قد نزل، وفيض دموع الخاشعين قد غسل ولكن في الطريق عائق، خار الله لمولانا في القضاء السابق واللاحق"[(1)]، كما نصحه بعدم الذهاب لأداء فريضة الحج سنة(588هـ=1192م)، خوفا على البلاد من استيلاء الفرنج عليها، ومن كثرة المظالم بها، وفساد الناس والعسكر وقلة نصحهم وأن النظر في أحوال المسلمين خير من هذا، والعدو مخيم بعد بالشام، وأنت تعلم أنهم يهادنون ليتقووا ويكثروا ثم يمكروا ويغدروا فسمع السلطان منه وشكر نصحه وترك ما عزم عليه[(2)].

ووعظ الفقيه كرة المجد إسماعيل الو اسطي[(3)] سنة(656هـ=1257م)، أثناء خطبته في المسجد السلطان الظاهر بيبرس(ت.676هـ=1277م)، فخاطبه: "أيها السلطان إنك لن تدعى يوم القيامة بأيها السلطان لكن تدعى باسمك وكل منهم يومئذ يسأل عن نفسه إلا أنت فأنك تسأل عن رعاياك فاجعل كبيرهم أبا وأوسطهم أخا وصغيرهم ولداً"[(4)].

ولم تقتصر مجالس الوعظ على الرجال فقط، في تلك الحقبة التاريخية، بل كان للنساء مجالس وعظ تعقد خصيصاً لهن، يقوم فيها واعظات كن على درجة كبيرة من العلم والاقتدار. ومنهن المحدثة والفقيهة أمنة بنت أبي عمر بن قدامة المقدسية (ت.631 هـ=1233م)، حفظت القران الكريم، ولقنته للنساء في دير الحنابلة بصالحية دمشق، وروى عنها الحديث أخوها شمس الدين، والفخر بن البخاري[(5)].

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية،ج 12، ص413.
(2) أبو شامة، الروضتين،ج 1،ص75؛ ابن كثير، البداية والنهاية،ج12، ص426.
(3) لم أعثر له على ترجمة.
(4) ابن الوردي، تاريخ، ج 2، ص218.
(5) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج46، ص56.

وكذا الفقيهة العالمة، أمة اللطيف بنت ناصح عبد الرحمن بن الحنبلي الدمشقية (ت.653هـ=1255م)، كانت عالمة ثرية، أنشأت مدرسة للحنابلة بدمشق، وهي التي أشارت على ربيعة خاتون[1] ببناء مدرسة للحنابلة بصالحية دمشق، ويروى أنها كانت مؤلفة ولها مصنفات، وموعظة للنساء[2].

والواعظة أسماء بنت الفخر إبراهيم بن عرصة(ت.708هـ= 1308م)، التي كانت تلقن النسوة القرآن الكريم وتعلمهن العلم، وكانت تجهد نفسها فيما يقربها إلى الله[3]، والفقيهة المقرئة الواعظة أم زينب فاطمة بنت عباس (ت.714هـ= 1314م)، فقد أقرأت النساء القران الكريم وحفظت أكثر كتاب المغني للموفق بن قدامة، وحضرت مجالس الشيخ تقي الدين بن تيمية واستفادت منه كثيراً، وكان هو يثني عليها، ويصفها بالفضل والعلم وقد انتفع بها نساء أهل دمشق لصدقها في وعظها وقناعتها، وعندما تحولت إلى القاهرة حصل بها النفع وارتفع قدرها[4].

وكذا ست الوزراء وزيرة بنت عمر بن أسعد بن المنجا الدمشقية(ت.716هـ=1316م) روت صحيح البخاري ومسند الشافعي عدة مرات بدمشق ومصر، وحدثت بدمشق ومصر وكانت طويلة النفس على سماع الحديث[5]، والمحدثة زينب بنت الكمال احمد بن عبد الرحيم المقدسية(ت.740هـ=1339م) سمعت كثيراً من الحديث

---

(1)هي ربيعة خاتون بنت نجم الدين أيوب بن شادي ولدت سنة 561هـ=1165م، وهي أخت الناصر صلاح الدين، الملك العادل، كانت فاضلة تقية. تزوجت أولاً بالأمير سعد الدين مسعود بن الأمير معين الدين أنر، فلما مات تزوجت بالملك المظفر صاحب إربل فبقيت بإربل دهراً معه. فلما مات قدمت إلى دمشق. وخدمتها العالمة أمة اللطيف بنت الناصح بن الحنبلي. فأحبتها وحصل لها من جهتها أموال عظيمة وأشارت عليها ببناء المدرسة بسفح قاسيون. فبنتها ووقفها على الناصح والحنابلة. وتوفيت بدمشق سنة 643هـ=1245م، في دار العقيقي التي صيرت المدرسة الظاهرية ودفنت بمدرستها تحت القبو.الذهبي، تاريخ الإسلام، ج47، ص162؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج4، ص449؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص391؛ الزركلي، الأعلام،ج3، ص16.

(2) الذهبي،تاريخ الإسلام، ج48، ص145؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص199.

(3) ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، ج1، ص120.

(4) ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، 82؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج6، ص33

(5) الذهبي،سير أعلام النبلاء، ج23، ص80؛ ابن كثير، البداية والنهاية،ج14، ص90؛ابن رجب ذيل طبقات الحنابلة،ج2، ص226؛ ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة،ج2، ص263؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج6، ص39.

وروت كتبا لكبار الشيوخ و تفردت بقدر من الأجزاء والإجازات، وتكاثر عليها طلبة العلم والحديث، وقرؤوا عليها أكثر النهار[1].

إنشاء المدارس وتأليف الكتب:

كان لإنشاء المدارس في تلك الحقبة التاريخية الأثر الكبير في التربية الإسلامية، التي انطلق منها العلماء والفقهاء لنشر الفضيلة ومحاربة الرذيلة وإعداد الأجيال المسلمة، حيث يعود انتشار هذه المدارس في مصر وبلاد الشام إلى عهد السلطان السلجوقي نظام الملك(ت.485هـ=1092م)، فقد اعتبره ابن خلكان وتاج الدين السبكي، بأنه أول من بنى مدرسة في الإسلام، و"أول من قدر المعاليم للطلبة فإنه لم يتضح لي هل كانت المدارس قبله بمعاليم للطلبة أو لا والأظهر أنه لم يكن لهم معلوم"[2]؛ وإن كانت هذه المدارس قد أُنشئت على أسس مذهبية إلا أنها أدت دورها الدعوي والإرشادي والقيادي على مدار العصور، وخرجت العلماء والفقهاء والقادة العسكريين والسياسيين الذين كان لهم الدور البارز في قيادة الأمة، عندما احتلوا مواقعهم في مؤسسات السياسة والجيش والتربية والاجتماع والاقتصاد، وبرزت آثار سياساتهم وممارساتهم في مجابهة المشكلات والتحديات التي برزت على مسرح الحياة الإسلامية في الداخل، وفي مواجهة الأخطار التي أرهقت الأمة من الخارج[3].

وكانت مؤسسات هذا التعليم تنقسم إلى قسمين: الأول: المدارس ودور القرآن والحديث ووظيفتها الرئيسية إخراج جيل جديد من الناشئة الذين تصفو عقيدتهم وتعلو مقدرتهم العقلية والنفسية إلى المرتبة التي يجب أن يحتلها المسلم. أما القسم الثاني: هو المساجد حيث أقيم في مدينة دمشق وحدها في عصر الحروب الصليبية، ما يزيد على مائة مسجد[4]، وقد بلغ الاهتمام بالتعليم أوجَهُ زمن نور الدين محمود، ويصف لنا أبو شامة هذا الاهتمام بقوله: " نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم ودحض البدع من

---

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج23، ص153؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج2، ص165؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج6، ص125.

(2) وفيات الأعيان، ج2، ص129؛ طبقات الشافعية الكبرى،ج 4، ص178.

(3) الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص57، 251.

(4) بدوي، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ص60؛الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص257، 258.

هذه البلدة و إظهار الدين"[1]، واستمر النشاط التعليمي والتربوي ينتشر وينمو بإشراف الدولة الزنكية حتى بدل البنية القديمة لبلاد الشام وللجيل الذي نشأ فيها، وأحل محل ذلك كله طابعاً إسلامياً تجلت خلاله الروح الإسلامية لدى طبقات المجتمع وأفراده ووجهت نشاطهم في جميع ميادين الحياة القائمة[2].

ولقد استهدفت هذه المدارس في توجيه وإرشاد جماهير عامة المسلمين من العمال والمزارعين والتجار وفي تهذيب الأخلاق والقيم وبث روح الجهاد والقتال، وتصفية العقيدة من الشوائب الفلسفية والخرافات المبتدعة، وشارك بجانب العلماء في هذه التربية شيوخ التصوف بعد أن جرى إصلاح التصوف على يد الشيخ عبد القادر الجيلاني[3] وأصحابه من الشيوخ المعاصرين[4].

وكانت المدرسة في أغلب الأحيان تسمى باسم منشئها، وقلما تعرف باسم مدرسها أو مكان وجودها، وكان بانيها يقف عليها من الأوقاف ما يكفي للإنفاق على مدرسيها وطلبتها وباقي مستخدميها، وعلى إصلاحها[5]. ومن الأمور الواجبة الذكر أن البعض من هؤلاء العلماء الأجلاء كانت لديهم إمكانات مادية كبيرة ساعدتهم أحياناً في تأسيس مدرسة أو أكثر لنفسه يلقي فيها الدروس والمواعظ[6]، كما فعل أبو عمر بن قدامة المقدسي[7]

---

(1) الروضتين،ج1،ص17.

(2) الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص260.

(3) هو الشيخ عبد القادر بن أبي صالح موسى جنكي دوست بن عبد الله بن يحيى الجيلني، الزاهد، شيخ العصر وقدوة العارفين، ولد سنة 470هـ=1077م، في جيلان وتقع جنوب بحر قزوين ويقال لها أيضا كيلان، ويتصل نسبه من جهة والده بالحسن بن علي بن أبي طالب صاحب المدرسة القدرية، توفي سنة 561 هـ=1165م .للمزيد عن ترجمته، انظر، الذهبي، العبر في خبر من غبر،ج3، ص36 اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، ج3، ص266 ؛ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج1، ص298.

(4) الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص259.

(5) بدوي، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ص75.

(6) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص71؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى،ج6، ص265؛ عدوان، دور العلماء، ص56.

(7) هو الشيخ الزاهد محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة، أخو العلامة موفق الدين، ولد بجماعيل، وهاجر إلى دمشق، بسبب احتلال فلسطين من قبل الصليبيين، كتب الكثير بخطه، وحفظ القرآن والفقه والحديث، وكان إماماً فاضلاً عابداً قانتاً، كثير النفع لخلق الله، توفي سنة 607هـ=1210م. للمزيد عن ترجمته، انظر ، الذهبي، العبر، ج 3، ص147 ؛ اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، ج4 ، ص13.

ومنهم من شارك في بناء المساجد والبيمارستانات والأبراج والخانات والأربطة يجعلونها وقفاً لكافة المسلمين وفي خدمتهم[1].

ولا ريب أننا لا نستطيع أن نذكر أسماء المدارس التي أنشئت في مصر والشام، لأن المجال لا يتسع لذكر هذه المدارس؛ ولكن ما يهمنا في هذا المقام ما أثمرت عنه هذه المدارس في تخريج جيل من القادة الأتقياء الورعين الذين قادوا الأمة بكل إخلاص وإيمان بالله، أمثال نور الدين محمود زنكي، وصلاح الدين الأيوبي، والقائد المظفر قطز والظاهر بيبرس، وكان بجانب هؤلاء القادة مستشارين ومعاونين لهم من العلماء والفقهاء أمثال عبد الله بن أبي عصرون، والقاضي الفاضل، وعيسى الهكاري وغيرهم، والذين أخرجوا الأمة من الظلمات إلى النور، ومن الذل إلى العزة. وللإطلاع على أسماء المدارس التي أنشئت في تلك الحقبة في مصر وبلاد الشام يتطلب ذلك الرجوع إلى كتاب الدارس في تاريخ المدارس، للنعيمي، والمواعظ والاعتبار للمقريزي حيث خصص فصل عن تاريخ إنشاء المدارس في مصر.

وبجانب مجالس الوعظ الإرشاد، وتشييد المدارس التي كانت منارة لإنارة الطريق إلى الله؛ وضع العلماء مؤلفاتهم ليكتمل الدور الدعوي لهم في إصلاح المجتمع من الفساد والانحرافات العقائدية والفكرية، فوضعوا مؤلفات مختلفة الموضوعات والأهداف، حتى تكون منارة يهتدي بها العامة والخاصة نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: فقد ألف حجة الإسلام أبو حامد الغزالي(ت.505هـ= 1111م) الكثير من المؤلفات ومن أبرزها (إحياء علوم الدين) والذي شخص فيه كل أمراض المجتمع، ووضع فيه العلاج لكل هذه المفاسد، وكذلك وضع فيه مناهج جديدة للتربية والتعليم، وانتقد العلماء بمواقفهم ومداهنتهم لأولي الأمر ونهاهم عن ذلك وكذلك مؤلفه (المنقذ من الضلال)، وجاء فيه بالرد على أهل البدع والأهواء والزنادقة والملحدين ومؤلف أخر خصصه للرد على الباطنية، سماه (المستظهري أو فضائح الباطنية)، وتصدى للفلاسفة في كتاب سماه (تهافت الفلاسفة)،

---

(1) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص17؛ عدوان، دور العلماء في إصلاح المجتمع زمن الحروب الصليبية، ص56.

الواقع أنه يصعب الإحاطة بالآثار التي أحدثها الغزالي، فهي متعددة شملت مختلف الحيـــاة العلمية والاجتماعية[1].

ووضع العالم والمؤرخ عبد الرحمن بن الجوزي(ت.597هـــ=1200م)، الكثيــر من المؤلفات والتي كان لها الأثر الكبير في نفوس وسلوك كل طبقات المجتمع، فمن أشهر مؤلفاته (صيد الخاطر)، و(تلبيس إبليس)، و(التذكرة في الوعظ وذم الهوى)، و(لفتة الكبــد إلى نصيحة الولد)، و(المنتظم في تاريخ الملوك والأمم)، و(تاريخ بيت المقدس)، وغيرها. وجميعها كانت تهدف إلى التوعية والإرشاد، وإن كان منها ما يغلب عليه علــم التــاريخ مثل(المنتظم في تاريخ الملوك والأمم)، و(تاريخ بيت المقدس)[2].

كما صنف العماد الأصفهاني[3]،الكثير من الكتب منها: (الفتح القسي فـــي الفــتح القدسي) وهو تسجيل تاريخي منتظم للنشاط الحربي الذي قام به صلاح الدين وفترة جهاده ضد الصليبيين وكتاب (البرق الشامي)، وفيه بين التحاقه بالــسلطان نـــور الـــدين وبعـــده بالسلطان صلاح الدين، وله كتاب (خريدة القصر وجريدة العصر)[4].

---

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص216؛ الذهبي، تــاريخ الإســلام، ج35، ص115؛ الــصفدي ،الوافي بالوفيات،ج1، ص119؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى،ج6، ص161؛ الكيلانـــي، هكــذا ظهر جيل صلاح الدين، ص172.

(2) الصفدي الوافي بالوفيات،ج6، ص81؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج8، ص231، 232؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج1، ص399؛ ابن العماد، شذرات الذهب،ج2، ص143.

(3) هو أبو عبد الله محمد بن صفي الدين أبو الفرج محمد بن نفيس الدين أو الرجاء حامد بن محمد بــن عبد الله بن علي بن محمود بن هبة الله القرشي الأصفهاني. ولد بأصبهان ســنة 519هـــ=1125م، ونشأ بها ثم قدم إلى بغداد في حداثته فأقام بها مدة وانتظم فيها في سلك المدرســة النظاميــة، وكــان العماد فقيهاً شافعياً، تفقه على يد الشيخ أبي منصور سعيد بن محمد بن الوزان، ترحل بين اصــبهان وبغداد مرات عديدة، وتقلد عدة مناصب عندما انتقل إلى دمشق سنة 562هـ=1166م ونــزل عنــد القاضي كمال الدين محمد بن الشهرزوري، وعلت منزلته عند نور الدين محمود فرتبه فــي ديــوان الإنشاء سنة 563هـ=1167م وكذلك علت مكانته عند صلاح الدين ، وبعد وفاة صلاح الدين لــزم بيته وأقبل على الاشتغال بالتصانيف حتى وفاته سنة 597هـ=1200م. ومن مصنفاته كتاب" خريــدة القصر وجريدة العصر" وكتاب" البرق الشامي" وكتاب" الفتح القسي في الفتح القدسي" وكتاب" السيل على الذيل" وكتاب "نصرة الفترة وعصره الفطرة في أخبار الدولة السلجوقية" ولــه ديــوان رســائل وديوان شعر. أنظر ترجمته، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص147-153؛ يــاقوت الحمــوي، معجم الأدباء، ج18، ص11؛ أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص27؛ ابن كثير، البداية والنهايــة، ج13، ص33، 34؛ابن العماد، شذرات الذهب، ج4، ص332.

(4) حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج6، ص105.

أما الشيخ عبد القادر الجيلاني(ت.561هـ=1165م) فقد كان مدرسة في الإصلاح الاجتماعي أسوة بما قام به الإمام أبو حامد الغزالي، فقد كانت المدرسة القادرية في بغداد والتي كان يترأسها الشيخ عبد القادر تستقبل أبناء النازحين الذين فروا من وجه الاحتلال الصليبي، ثم يقوم الشيخ بإعدادهم ثم إعادتهم إلى مناطق المواجهة الدائرة تحت القيادة الزنكية، وقد تخرج على يديه عدد كبير من الطلاب نبغ منهم الكثير، ووصل بعضهم إلى مراكز حساسة في الدولة الزنكية والأيوبية أمثال الواعظ علي بن نجا الذي أصبح مستشاراً لنور الدين وكذلك للسلطان صلاح الدين من بعده، والحافظ الرهاوي وموسى ابن الشيخ عبد القادر الذي انتقل إلى بلاد الشام ليساهم في النشاط الفكري. ومن أعظم مؤلفاته (الفتح الرباني)، والذي وضع فيه مناهج التعليم وتصحيح الكثير من الشوائب التي كانت عالقة بالعقيدة، وانتقد الكثير من العلماء والسلاطين لسوء تصرفاتهم وبعدهم عن حقيقة الرسالة الدعوية[1]، كما صنف الحافظ عبد الغني المقدسي(ت.600هـ=1203م)، (الكمال في أسماء الرجال)، و(الأحكام الكبرى والصغرى)[2].

وصنف فخر الدين الرازي أبو عبدا لله المعروف بابن الخطيب(ت.606هـ=1209م)،(مفاتيح الغيب)، و(درة الترتيل وغرة التأويل)، و(غريب القرآن)[3]، وصنف سلطان العلماء العز بن عبد السلام(ت.660هـ=1261م)، عدد كبير من المؤلفات نذكر منها:(القواعد الكبرى)، و (القواعد الصغرى)، و(مجاز القرآن) و(شجرة المعارف)، و(الغاية في اختصار النهاية)، و(بيان أحوال الناس يوم القيامة)،و (الفرق بين الإيمان والإسلام)[4].

أما شيخ الإسلام ابن تيمية(ت.728هـ= 1327م)، فقد وضع العديد من المؤلفات منها: (مناهج الاستقامة)، و(الفتاوى)، و(جواب في نقض قول الفلاسفة إن معجزات الأنبياء قوى نفسانية)، و(إثبات المعاد والرد على ابن سينا)، وغيرها من المؤلفات التي رد فيها على

---

(1) الجيلاني، الفتح الرباني، ص198-201.
(2) ابن كثير،البداية والنهاية،ج13،ص46.
(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان،ج 4، ص249؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى،ج 8، ص46،45،44.
(4) السبكي طبقات الشافعية الكبرى،ج5،ص80؛الكتبي، فوات الوفيات،ج1، ص287؛ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص235؛ ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، ج2، ص51.

المعتزلة والقدرية والرافضة والمرجئة والفلاسفة، كما ورد على النصاري في كتاب خــاص سماه(الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)[1].

كذلك صنف ابن القيم الجوزية (ت.751هـ= 1350م)، ســتة وتــسعين مــصنفاً متنوعة نذكر منها ما كتبه في السنة والعقيدة على سبيل المثال لا الحصر،(اجتماع الجيــوش الإسلامية على غزو الجهمية والمعطلة) و(الروح)، و (الروح والنفس)، و(السنة والبدعــة) و(شرح الأسماء الحسنى)، و(هداية الحيارى في الرد على اليهود والنصارى)[2].

هذا غيض من فيض لفئة قليلة من العلماء والفقهاء الذين عاشوا في تلــك الفتــرة وقدموا من فكرهم ما أناروا به الطريق لجماهير أمتهم التي استفادت مــن عطــائهم فــي حياتهم وبعد مماتهم، وأنجبت أجيالاً واعية تمكنت من رد العدوان الخــارجي والــداخلي ودحره؛ وإن المتصفح للمؤلفات التي كتبت في القرن السادس الهجــري،(الثــاني عــشر ميلادي)، والذي شهد غزو الصليبيين لبلاد المسلمين واحتلال أراضيهم، يلاحظ أنها كانت في أغلبها تحمل سمة الجد والوقار، وهذا أمر طبيعي فالحياة في تلك الفترة كانت جادة لما ألم بالمسلمين من الكوارث والمصائب، كذلك يلمس أن مادتها سيطرت عليها الدعوة إلــى الله والتحدي للأفكار والبدع والخرافات التي سادت في تلــك الحقبــة، ونقــد للــسلاطين والعلماء، ووضع المناهج الصحيحة للتربية والتعليم، كذلك سيطرة عليها فكــرة الجهــاد والدعوة إليه، وان روح العصر أثرت على طبيعة هذه المؤلفات السابقة الذكر، فإذا وضع أحدهم كتاباً في الأدب أو غيره نراه يخصص فيه فصلاً خاصاً للشجاعة والــشجعان فــي عهد رسول الله والصحابة والتابعين وبابا أخر للجهاد وثوابه وهكذا[3].

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

قال الله تعالى: "وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"[4]، من هذه الآية انطلق العلمــاء بــدءً بالــدعوة يــأمرون النــاس

---

(1) الذهبي، تذكرة الحفاظ ،ج4، ص192؛الصفدي،الوافي بالوفيات،ج2، ص375؛ ابــن رجــب، ذيــل طبقات الحنابلة،ج2، ص392 403؛ ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة،ج1، ص176.

(2) ابن القيم الجوزية، الصواعق المرسلة،ج1، ص149،148؛ حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ،ج1، ص81.

(3) عدوان، دور العلماء في إصلاح المجتمع زمن الحروب الصليبية، ص58.

(4) سورة آل عمران، آية، 104.

بالمعروف وينهونهم عن المنكر، فقد طلب الفقيه الواعظ برهان الدين أبو الحسن علي بن حمد البلخي(ت.548هـ=1153م)، من نور الدين محمود زنكي بأن يمنع الفواحش ويبطل الضرائب ولم يخيفه في هذا الأمر هيبة السلطان فقال له: " كيف تنصرون وفي عساكركم الخمور والطبول والزمور؟"[1]. مع أن السلطان نور الدين محمود كان يستعين بأموال المكوس في حروبه ضد الصليبيين؛ إلا أنه تأثر بكلام برهان الدين البلخي، وأمر بالتحقيق في أمر جمع أموال المكوس، كما أمر بإبطال الضرائب وحذر من ارتكاب الفواحش في بلاده[2].

ومن العلماء المشهود لهم في مواقفهم عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي(ت.600هـ=1203م) إذ كان لا يري منكراً إلا غيره بيده أو لسانه، وكثيراً ما كان بدمشق ينكر المنكر، ويكسر الطنابير والشبابات، حتى ولو كانت لأبناء الأمراء والسلاطين، وكان له مواقف عديدة مع أولاد صلاح الدين، ففي عهد الأفضل بن صلاح الدين[3]، وكان حاكماً لدمشق كانت بدمشق عند درج جيرون الملاهي، فجاء الحافظ فكسر شيئاً كثيراً منها، فصعد المنبر يقرأ الحديث، من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان، فجاء إليه رسول من القاضي يأمره بالمشي إليه، يقول حتى يناظره في الدفّ والشبابة، فقال الحافظ: ذلك عندي حرام وقال: أنا لا أمشي إليه، إن كان له حاجة، فيجيء هو ثم قرأ الحديث، فعاد الرسول فقال: قد قال: لا بد من المشي إليه، أنت قد بطلت هذه الأشياء على السلطان، فقال الحافظ: ضرب الله رقبته، ورقبة السلطان. قال: فمضى الرسول، وخفنا أن تجري فتنة. قال: فما جاء أحد بعد ذلك[4]. وكانت له هيبة وعظمة لدى الملوك والسلاطين فقد قال الملك العادل الأيوبي[5]:" ما خفت من أحد، ما خفت من هذا، فقلنا: أيها الملك، هذا رجل فقيه إيش

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص347.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص21؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص348؛ عدوان، دور العلماء،ص35.

(3) هو علي بن السلطان صلاح الدين الأيوبي وهو شاعر وكاتب، ذو فطنة وعلم لكنه كان ضعيف الرأي قليل العزم، كثير الغفلة عما يجب للدول وتدبير الممالك .تسلطن بدمشق ثم حارب أخاه العزيز صاحب مصر على الملك .ثم زال ملكه وملك أخيه، توفى سنة 622هـ=1224م، للمزيد عن ترجمته، انظر، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص207 ؛ الذهبي،العبر، ج3، ص188 ؛ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج6 ، ص232 .

(4) ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة،ج2، ص4،3.

(5) هو أبو بكر بن أبي الشكر أيوب بن شادي، الملقب بالملك العادل، أخو صلاح الدين الأيوبي، تنقل في الممالك في حياة أخيه، حيث كان ينوب، عن صلاح الدين في بلاد الشام في حال غيابه، تملك حلب ثم =

خفت من هذا؟ قال: لما دخل ما خيل إلي إلا أنه سبع يريد أن يأكلني، فقلنا: هـــذه كرامـــة الحافظ."[1].

وطالب الفقيه عبد الرحيم المعروف بابن زويتينة[2] من الملك الصالح إسماعيل بن الملك العادل الأيوبي(ت.648هـ=1250م)، حاكم دمشق، أن يطرد خطيب مسجد التوبة بدمشق ويدعى العماد الواسطي وكان متهماً بالشراب فأنشده ابن زويتينة ينتقد هذا الخطيب ويطلب إبعاده:

يا مليكاً أوضح الحـــق لـــدينا وأبـــانه.....جـــامـــع التـــوبة قـــد قـــلدني منـــه أمـــانـــة

قال قل للملك الصالح أعلى الله شـــأنه....يـــا عـــماد الدين يـــا من حمد النـــاس زمـــانه

كم إلى كـــم أنا في ضر وبـــؤس وإهـــانة.....لـــي خطيب واسطي يعشق الشرب ديـــانه

والذي كـــان مـــن قـــبل يـــغني بجفائـــه....... فـــكما نحن فـــما زلنا ومـــا نبرح حانة

ردنـــــي للـــنـــمـــط الأولـــ واســـتـــبـــق ضـــمـــانـــه[3].

كما أنكر الإمام فخر الدين بن عساكر(ت.620هـــــ= 1223م)،علـــى الـــسلطان المعظم عيسى(ت.624هـــ= 1226م)، إظهار وإباحة الخمور[4]، كما دخل الـــشيخ أحمـــد الزرعي[5] على السلطان الملك الصالح إسماعيل فطلب منه أشياء كثيرة لتغييـــر بعـــض

=

قلعة الكرك، وآخر الأمر استقل بالديار المصرية سنة 596هـــ=1199م، وملك معها بلاد الشام وبـــلاد اليمن سنة 612 هـــ=1215م ، وكان ملكاً عظيماً ذو رأي ومعرفة، وافر العقل حازماً في الأمور، توفى سنة 615 هـــ=1218م ، للمزيد عن ترجمته، انظر ، ابن خلكـــان، وفيـــات الأعيـــان،ج5، ص 74؛ اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، ج4، ص25 ؛ ابن تغـــري بـــردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج6، ص196.

(1) ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة،ج2، ص4.

(2) هو عبد الرحيم بن علي جمال الدين بن زويتينة، كان قد وصل إلى مصر رســـولاً عنـــد صـــاحب حمص، كان حسن الأخلاق وعاشر العلماء وأهل الصلاح، تولى من قبل الملك الأشـــرف خطابـــة جامع التوبة توفي سنة 604هـــ=1207م، ابن خلكان، وفيات الأعيـــان، ج5، ص334؛ الـــصفدي، الوافي بالوفيات،ج6، ص149، 150.

(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص335.

(4) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص138.

(5) لم أعثر له على ترجمة.

الأوضاع الاجتماعية السائدة في البلاد، وإزالة بعض المفاسد وإطلاق بعض المحبوسين في قلعة دمشق وغيرها من المطالب، فأجابه إلى جميع ذلك[1].

ووقف سلطان العلماء الشيخ العز بن عبد السلام(ت.660هـ=1261م)، بكل ثقة وجرأة أمام السلطان الصالح نجم الدين أيوب(ت.647هـ=1249م)، وهو في زينته وبين جنوده وأمرائه ولم يخيفه جبروت ذلك السلطان، فناداه الشيخ باسمه:" يا أيوب ما حجتك عند الله إذ قال لك: ألم أبوئ لك ملك مصر ثم تبيح الخمور؟ فسأل السلطان: هل جري هذا فأجاب الشيخ نعم الحانة الفلانية تباع فيها الخمور وغيرها من المنكرات، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة. فأجاب السلطان: يا سيدي هذا أنا ما فعلته، هذا زمان أبي، رد الشيخ عليه: أنت من الذين يقولون:"إنا وجدنا آباءنا على أمة، فأمر السلطان بإبطال تلك الحانة، وقد شاع خبر تلك الحادثة واستغرب الناس من جرأة الشيخ، لأن هذا السلطان كان جباراً مستبداً برأيه، وعندما سئل الشيخ: أما خفته؟ فرد على السائل: يا بني رأيته في تلك العظمة، فأردت أن أهينه لئلا تكبر نفسه فتؤذيه[2].

وقبل رحيله إلى مصر، علم الشيخ وهو في دمشق أن نواب السلطان الأشرف بن العادل[3] يرتكبون الزنا ويدمنون الخمور ويتفننون في ظلم الناس، فتقدم الشيخ إلى السلطان الأشرف وطلب منه إبطال هذه المنكرات فأبطلها، وقال له الأشرف:" جزأك الله عن دينك وعن نصائحك وعن المسلمين خيرا وجمع بيني وبينك في الجنة بمنِّه وكرمه وأطلق له ألف دينارٍ مصرية فردها عليه"[4]. وفي مصر سمع أن الوزير عثمان بن شيخ الشيوخ أستاذ دار السلطان الصالح نجم الدين أقام على سطح المسجد بناءً للطبل والغناء فلما ثبت هذا عند الشيخ العز بن عبد السلام، ذهب مع أنصاره وهدم البناء، فغضب الوزير من فعل العز بن عبد السلام، واتهمه بالفسق، ورداً على هذا التصرف عزل الشيخ

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية ،ج 14، ص247.
(2) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج8، ص107،106
(3) هو مظفر الدين موسى بن الملك العادل أبو بكر بن أيوب، كان مفرط السخاء، ميمون النقية، لم تنهزم له راية، كان سعيداً، يتفق له أشياء خارقة للعقل، كان حسن العقيدة في آخر عمره، حيث أقبل على العبادة والاستغفار،توفي سنة 635 هـ=1237م. للمزيد عن ترجمته، انظر، أبي شامة، الذيل على الروضتين، ص253؛ أبي الفداء، المختصر، ج 2، ص.262.
(4) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج8، ص135؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص241.

نفسه عن القضاء الذي كان قد تولاه بعد وصوله إلى مصر ومع ذلك لم تسقط منزلةُ الشيخ عند السلطان[1].

وقد أبطل الشيخ العز بن عبد السلام كثيراً من البدع التي اعتاد عليها الخطباء فهو لم يلبس السواد، واجتنب الثناء على الملوك، وأبطل صلاة الرغائب وصلاة ليلة النصف من شعبان(الألفية)[2]، كذلك رفض العز بن عبد السلام، إصدار فتوى يعترف للمماليك بالسلطنة كونهم أرقاء ولا يصح لهم بيعُ ولا شراء ولا نِكاحُ وتعطّلت مصالحهم بذلك وكان من جملتهم نائب السلطنة فاستشاط غضبا فاجتمعوا وأرسلوا إليه فقال نعقد لكم مجلسا وينادى عليكم لبيت مال المسلمين ويحصل عِتقُكم بطريق شرعي وبعد تردد وتهديد ووعيد ظل الشيخ على موقفه رغم تعرض حياته للخطر، وفي نهاية المطاف نزل هؤلاء عند رغبة الشيخ ونودي عليهم بالبيع وتم تحريرهم[3].

كذلك سعى العلماء والفقهاء إلى إصدار الفتاوى لمحاربة بعض المفاهيم الخاطئة المعلقة المتعلقة بالشريعة أو المعاملات وتوضيحها للناس[4]، وكان الورعون من رجال الحكم يستفتون الفقهاء في بعض الأمور المتعلقة بإدارة الدولة فقد جمع السلطان نور الدين القضاة والفقهاء وطلب منهم أن يفتوه في أخذ ما يحل له من بيت مال المسلمين " فأخذ ما أفتوه"[5]. وطلب الملك المعظم عيسى، من الشيخ شرف الدين إسماعيل[6]، أن يصدر فتوى بإباحة النبيذ وما يتصل بها فرفض الشيخ[7].

---

(1) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج8، ص105؛ السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج2، ص194.
(2) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج8، ص143،142،8.
(3) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج8، ص110.
(4) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج10، ص142؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج2، ص96.
(5) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص164؛ عدوان، دور العلماء في إصلاح المجتمع، ص51.
(6) هو القاضي شرف الدين إسماعيل بن إبراهيم بن الموصلي الشيباني الحنفي أحد مشايخ الحنفية، وله مصنفات في الفرائض وغيرها، وهو ابن خالة القاضي شمس الدين بن الشيرازي الشافعي، و كان ينوب عن القاضي ابن الزكي وابن الحرستاني، وكان يدرس بالمدرسة الطرخانية وكان حسن الأخلاق والعقيدة عزله الملك المعظم عيسى عن القضاء بسبب مواقفه وأقام الشيخ بمنزله حتى مات رحمه الله تعالى .توفي سنة 630هـ=1232م.الذهبي،سير أعلام النبلاء،ج22،ص320؛ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص159؛النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس،ج 1 ،ص 415، 416.
(7) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص159؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس،ج 1 ،ص 415، 416.

الفصل الثالث:

دور العلماء في محاربة الفساد في المجتمع.

المبحث الأول: دور العلماء الدعوي والتربوي.

المبحث الثاني: دور العلماء الرسمي من خلال إدارة شؤون الدولة.

المبحث الثالث: دور العلماء في محاربة التيارات الفكرية المنحرفة.

المبحث الأول:

دور العلماء الدعوي والتربوي

- مجالس الوعظ والإرشاد.
- إنشاء المدارس وتأليف الكتب.
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الحمد الله القائل:"كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ"(1)، فالحمد الله الذي جعل خيرية هذه الأمة وتميزها، وقوامها وكيانها، وخلودها واستمراريتها منوطا بقيامها بالحق والدعوة إليه ونشره له واستمرار حراسته، والدفاع عنه حيث لم يرض الله لها ــ وهي أمة الرسالة الخاتمة ــ أن تكون صالحة بذاتها بل لا بد أن تكون صالحة بذاتها مصلحة لغيرها، مضحية في سبيل تمكين الحق، مصارعة للباطل، حتى تستحق صفة الخيرية، والتميز والفضل. إن التدافع بين الخير والشر، والمعروف والمنكر من سنن الله الاجتماعية في الخلق قال الله تعالى:"كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ"(2)، وقال أيضاً:"وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا"(3).

لقد نهض علماء وفقهاء مصر والشام لتحمل هذه الأمانة العظيمة، بعدما تفشت ظواهر عديدة ومتعددة، من شيوع للمنكرات، والفساد الأخلاقي، والانحرافات العقائدية، وغير ذلك من المفاسد والتي ذكرنها في الفصل الأول، والتي أصابت أغلب فئات المجتمع من حكام ومحكومين فهم يعلمون أنهم مطالبون ببذل قصارى جهدهم لوصف الدواء الناجع لهذه الأمراض، وهذا مما ائتمنهم الله تعالى عليه ليكونوا ورثة الأنبياء. فهذه مهمة ترمي بثقل المسؤولية الهائلة على أعناق العلماء والفقهاء.

مجالس الوعظ والإرشاد:

وكان أول الطرق التي اتبعها العلماء وهي من أيسر الطرق لمخاطبة العامة وبشكل مباشر في عقد مجالس الوعظ التي بدأ بها العلماء كخطوة لإعادة الناس الضالين إلى هداهم وكانت مجالس الوعظ أشبه بمدارس شعبية، تحملت عبء تثقيف العامة، ومن أبرز تلك المجالس التي كان يعقدها عبد الرحمن بن الجوزي (ت.597هـ=1200م) والتي حضر بعضٍ منها الرحالة ابن جبير(ت.580هـ= 1148م)،بقوله: "وشاهدنا مجلساً ثانياً له بكره يوم الخميس بباب بدر في ساحة قصر الخليقة، ومناظرة مشرفة عليه وقد

(1) سورة آل عمران،آية، 110.
(2) سورة الرعد، آية، 17.
(3) سورة الحج، آية، 40.

خص ابن الجوزي بالوصول إليه والتكلم فيه ليسمعه من تلك المناظر{النوافذ والشرفات}الخليفة وكذلك والدته ومن حضر من الحريم، وقد بسط بالحصر، وجلوس ابن الجوزي بهذا الموضع كل يوم خميس. فبكرنا لمشاهدته، وقد تسطر قراء القرآن أمامه على كراسي موضوعة، فابتدروا بالقراءة على الترتيب ... وشرع ابن الجوزي في الوعظ بديهة لا روية{ أي ارتجالاً لا إعداداً} ويصل كلامه في ذلك بالآيات التي كان قرأها القراء في المجلس، فأرسلت وابلها العيون، وأبدت النفوس سر شوقها المكنون وتطارح الناس عليه بذنوبهم معترفين وكثر الوله والذهول... وقد نزل عن المنبر متغفراً بالتراب، فياله من مشهد ما أهول مرآه وما أسعد من رآه وما كنا نحسب أن متكلماً في الدنيا يعطي من ملكة النفوس والتلاعب بها ما أعطي هذا الرجل"[(1)].

وقد كانت مجالس الوعظ تشد الناس إليها وتستولي على ألبابهم، فقد علق ابن رجب على مجالس الوعظ التي كان يعقدها ابن الجوزي بقوله:" أن مجالسه الوعظية لم يكن لها نظير، ولم يسمع بمثلها. وكانت عظيمة النفع، يتذكر بها الغافلون، ويتعلم منها الجاهلون، ويتوب فيها المذنبون، ويسلم فيها المشركون"[(2)]، ويقال أنه تاب على يديه مائة ألف وأسلم على يديه عشرة آلاف يهودي ونصراني[(3)].

ومن مجالس الوعظ المعروفة في تلك الحقبة التي كان يعقدها سبط بن الجوزي(ت.654هـ= 1256م)، والتي كانت " ترق له القلوب، وتذرف لسماع كلامه العيون وكان يحضر مجالسه الصلحاء والعلماء والملوك والأمراء والوزراء، ولا يخلو مجلس من مجالسه من أناس يتوبون، وفي مجالسه يُسلم أهل الذمة، فكان الناس يبيتون في مسجد دمشق لسماع وعظه، ويتذاكرون ذلك في أعمالهم"[(4)]، وقد قيل للشيخ سبط بن الجوزي: " صلاح الدين يوسف فتح الساحل، واظهر الإسلام، وأنت يوسف أحييت السُّنّة بالشام.. وقمعت البدعة، وهذه البلاد فتوحك كما فتح القدس سميك يوسف..."[(5)]، وفي سنة

---

(1) رحلة، ص83.
(2) ذيل طبقات الحنابلة،ج1،ص167.
(3) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص21.
(4) الكتبي، فوات الوفيات، ج4، ص351؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان،ج1، ص15؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج8، ص239؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص226.
(5) ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج1، ص224؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج 44، ص190.

(603هـ=1206م) جلس سبط بن الجوزي للوعظ في الجامع بدمشق ويقال إنه في ذلك اليوم تاب على يديه ما يزيد على خمسمائة شاب[1].

فكانت مجالس سبط بن الجوزي مؤثرة في نفوس السامعين، "حتى أنه كان يتكلم في المجلس الكلمات اليسيرة المعدودة أو ينشد البيت الواحد من الشعر فيحصل لأهل المجلس من الخشوع والاضطراب والبكاء ما لا مزيد عليه فيقتصر على ذلك القدر اليسير وينزل فكانت مجالسه نزهة القلوب والأبصار"[2].

وهناك الكثير من نماذج مجالس الوعظ والإرشاد لعدد من الشيوخ أمثال، أبو النجيب السهروردى[3] الذي عقد له مجالس في بيت المقدس ودمشق وغيرها ورجع بسببه خلق كثير إلى الله[4]، وكذلك مجالس الفقيه فخر الدين الرازي(ت.606هـ=1209م)، وكانت له يد طولى في الوعظ بلسان العربي والفارسي وكان يلحقه الوجد في حال الوعظ ويكثر البكاء، ورجع بسببه خلق كثير إلى مذهب السنة وقد مدحه الشاعر ابن عنين :

ماتت به بدع تمادى عمرها..... دهرا وكاد ظلامها لا ينجلي

وعلا به الإسلام أرفع هضبة..... ورسا سواه في الحضيض الأسفل

غَلط امرؤٌ بأبي علي قاسه..... هيهات قصر عن هداه أبو على

لو أن رسطاليس يسمع لفظة..... من لفظه لعرته هزة أفكَل

ولحار بطليموس لو لاقاه من..... برهانه في كل شكل مشكِل

---

(1) اليونيني، ذيل مرآة الزمان،ج1، ص15.

(2) اليونيني، ذيل مرآة الزمان،ج2، ص16.

(3) هو عبد القاهر بن عبد الله بن محمد بن عمويه، الصوفي القدوة، الواعظ العارف الفقيه الشافعي، أحد الأعلام، من مواليد سهرورد قدم بغداد وهو شاب، سمع بها الحديث، واشتغل بدراسة الفقه بالمدرسة النظامية، سلك طريق الصوفية، كان إماماً في الشافعية وعلماً في الصوفية،، واشتغل بالوعظ والتذكير والدعاء، سكن رباطه جماعة من أصحابه الصالحين، وصار هذا الرباط ملاذاً يعتصم به الخائف من الخليفة فما دونه، ثم ندب إلى التدريس بالمدرسة النظامية توفى، سنة 563هـ=1167م. للمزيد عن ترجمته، انظر،ابن خلكان، وفيات الأعيان،ج3، ص204؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص10؛ الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج3، ص40؛ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص254.

(4) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص203، 204؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج6، ص211.

ولــو أنـــهم جــمعوا لــديه تــيقنوا..... أن الفــضيلــة لــم تــكن للأول[1].

لم تقتصر مجالس الوعظ والإرشاد التي كان يعقدها العلماء والفقهاء على اتعاظ وإرشاد عامة الناس، بل شملت السلاطين والملوك، فقد أنشد الواعظ أبا عثمان المنتخب بن أبي محمد الواسطي[2] وكان من الصالحين الكبار، وكان هذا الرجل ليس له شئ ولا يقبل من أحد شيئا، وكان يجتمع في مجلس وعظه الألوف من الناس أنشد لنور الدين أبياتا تتضمن ما هو متلبس به في ملكه، وفيها تخويف وتحذير شديد له:

مثــل وقــوفــك أيهــا المغــرور..... يــوم القيــامة والسماء تمــور

إن قــلت نور الدين رحت مسلمــاً..... فــأحذر بأن تبقي ومالك نـــور

أنهيت عن شرب الخمور وأنت من..... كـــأس المظالم طائـــش مخمور

ماذا تقــول إذا نـــقلت إلي البــلى..... فــرداً وجــاءك منــكر ونكــير

ماذا تقــول إذا وقــفت بموقــف..... فــرداً ذليــلاً والحساب عســير

فلما سمع نور الدين هذه الأبيات بكى بكاء شديدا، وأمر بوضع المكوس والضرائب في سائر البلاد[3].

وكذلك وعظ بل وعاتب القاضي الفاضل(ت.596هــ=1199م)، السلطان صلاح الدين عندما طال حصار الصليبيين لمدينة عكا[4] سنة(586هــ= 1190م)، إذ أرجع القاضي الفاضل "سبب هذا التطويل في الحصار كثرة الذنوب، وارتكاب المحارم بين الناس، فإن الله لا ينال ما عنده إلا بطاعته، ولا يفرج الشدائد إلا بالرجوع إليه، وامتثال أمره، فكيف لا يطول الحصار والمعاصي في كل مكان فاشية، وقد صعد إلى الله منها ما

---

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان،ج 4، ص249؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى،ج 8، ص46،45،44.
(2) هو الواعظ أبو عثمان بن أبي محمد الواسطي، كان من الصالحين الكبار كان يجتمع في مجلس وعظه الآلاف من الناس ، توفي سنة 570هــ=1174م. ابن كثير، البداية والنهاية، ج12 ، ص347.
(3) أبو شامة، الروضتين،ج 1،ص15؛ ابن كثير، البداية والنهاية،ج 12،ص347، 348.
(4) عكا، وتكتب عكاء أو عكة، وهي من مدن الساحل الفلسطيني، وتبعد عن قيــسارية مــسافة ســتة وثلاثون ميلا، انظر، المقدسي، أحسن التقاسيم، ص162،163؛ الإدريسي، نزهة المــشتاق ص365، ابن جبير، رحلة، ص212؛ ياقوت الحموي ،معجم البلدان،ج4، ص143؛ ابن بطوطة، رحلــة، ج1، ص81.

يتوقع بعده الاستعاذة منه....ولو صدقنا لعجل الله لنا عواقب صدقنا، ولو أطعناه لما عاقبنا بعدونا، ولو فعلنا ما نقدر عليه من أمره لفعل لنا ما لا نقدر عليه إلا به، فلا يختصم أحد إلا نفسه وعمله، ولا يرج إلا ربه ولا يغتر بكثرة العساكر والأعوان، ولا فلان الذي يعتمد عليه أن يقاتل ولا فلان، فكل هذه مشاغل عن الله ليس النصر بها، وإنما النصر من عند الله، ولا نأمل أن يكلنا الله إليها، والنصر به واللطف منه، ونستغفر الله تعالى من ذنوبنا فلولا أنها تسد طريق دعائنا لكان جواب دعائنا قد نزل، وفيض دموع الخاشعين قد غسل ولكن في الطريق عائق، خار الله لمولانا في القضاء السابق واللاحق"[(1)]، كما نصحه بعدم الذهاب لأداء فريضة الحج سنة(588هـ=1192م)، خوفا على البلاد من استيلاء الفرنج عليها، ومن كثرة المظالم بها، وفساد الناس والعسكر وقلة نصحهم وأن النظر في أحوال المسلمين خير من هذا، والعدو مخيم بعد بالشام، وأنت تعلم أنهم يهادنون ليتقووا ويكثروا ثم يمكروا ويغدروا فسمع السلطان منه وشكر نصحه وترك ما عزم عليه[(2)].

ووعظ الفقيه كرة المجد إسماعيل الو اسطي[(3)] سنة(656هـ=1257م)، أثناء خطبته في المسجد السلطان الظاهر بيبرس(ت.676هـ=1277م)، فخاطبه: "أيها السلطان إنك لن تدعى يوم القيامة بأيها السلطان لكن تدعى باسمك وكل منهم يومئذ يسأل عن نفسه إلا أنت فأنك تسأل عن رعاياك فاجعل كبيرهم أبا وأوسطهم أخا وصغيرهم ولداً"[(4)].

ولم تقتصر مجالس الوعظ على الرجال فقط، في تلك الحقبة التاريخية، بل كان للنساء مجالس وعظ تعقد خصيصاً لهن، يقوم فيها واعظات كن على درجة كبيرة من العلم والاقتدار. ومنهن المحدثة والفقيهة أمنة بنت أبي عمر بن قدامة المقدسية (ت.631 هـ=1233م)، حفظت القران الكريم، ولقنته للنساء في دير الحنابلة بصالحية دمشق، وروى عنها الحديث أخوها شمس الدين، والفخر بن البخاري[(5)].

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية،ج 12، ص413.
(2) أبو شامة، الروضتين،ج 1،ص75؛ ابن كثير، البداية والنهاية،ج12، ص426.
(3) لم أعثر له على ترجمة.
(4) ابن الوردي، تاريخ، ج 2، ص218.
(5) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج46، ص56.

وكذا الفقيهة العالمة، أمة اللطيف بنت ناصح عبد الرحمن بن الحنبلي الدمشقية (ت.653هـ=1255م)، كانت عالمة ثرية، أنشأت مدرسة للحنابلة بدمشق، وهي التي أشارت على ربيعة خاتون[1] ببناء مدرسة للحنابلة بصالحية دمشق، ويروى أنها كانت مؤلفة ولها مصنفات، وموعظة للنساء[2].

والواعظة أسماء بنت الفخر إبراهيم بن عرصة(ت.708هـ= 1308م)، التي كانت تلقن النسوة القرآن الكريم وتعلمهن العلم، وكانت تجهد نفسها فيما يقربها إلى الله[3]، والفقيهة المقرئة الواعظة أم زينب فاطمة بنت عباس (ت.714هـ= 1314م)، فقد أقرأت النساء القران الكريم وحفظت أكثر كتاب المغني للموفق بن قدامة، وحضرت مجالس الشيخ تقي الدين بن تيمية واستفادت منه كثيراً، وكان هو يثني عليها، ويصفها بالفضل والعلم وقد انتفع بها نساء أهل دمشق لصدقها في وعظها وقناعتها، وعندما تحولت إلى القاهرة حصل بها النفع وارتفع قدرها[4].

وكذا ست الوزراء وزيرة بنت عمر بن أسعد بن المنجا الدمشقية(ت.716هـ=1316م) روت صحيح البخاري ومسند الشافعي عدة مرات بدمشق ومصر، وحدثت بدمشق ومصر وكانت طويلة النفس على سماع الحديث[5]، والمحدثة زينب بنت الكمال احمد بن عبد الرحيم المقدسية(ت.740هـ=1339م) سمعت كثيراً من الحديث

---

(1)هي ربيعة خاتون بنت نجم الدين أيوب بن شادي ولدت سنة 561هـ=1165م، وهي أخت الناصر صلاح الدين، الملك العادل، كانت فاضلة تقية. تزوجت أولاً بالأمير سعد الدين مسعود بن الأمير معين الدين أنر، فلما مات تزوجت بالملك المظفر صاحب إربل فبقيت بإربل دهراً معه. فلما مات قدمت إلى دمشق. وخدمتها العالمة أمة اللطيف بنت الناصح بن الحنبلي. فأحبتها وحصل لها من جهتها أموال عظيمة وأشارت عليها ببناء المدرسة بسفح قاسيون. فبنتها ووقفها على الناصح والحنابلة. وتوفيت بدمشق سنة 643هـ=1245م، في دار العقيقي التي صيرت المدرسة الظاهرية ودفنت بمدرستها تحت القبو.الذهبي، تاريخ الإسلام، ج47، ص162؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج4، ص449؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص391؛ الزركلي، الأعلام،ج3، ص16.

(2) الذهبي،تاريخ الإسلام، ج48، ص145؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص199.

(3) ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، ج1، ص120.

(4) ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، 82؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج6، ص33

(5) الذهبي،سير أعلام النبلاء، ج23، ص80؛ ابن كثير، البداية والنهاية،ج14، ص90؛ابن رجب ذيل طبقات الحنابلة،ج2، ص226؛ ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة،ج2، ص263؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج6، ص39.

وروت كتبا لكبار الشيوخ و تفردت بقدر من الأجزاء والإجازات، وتكاثر عليها طلبة العلم والحديث، وقرؤوا عليها أكثر النهار[1].

إنشاء المدارس وتأليف الكتب:

كان لإنشاء المدارس في تلك الحقبة التاريخية الأثر الكبير في التربية الإسلامية، التي انطلق منها العلماء والفقهاء لنشر الفضيلة ومحاربة الرذيلة وإعداد الأجيال المسلمة، حيث يعود انتشار هذه المدارس في مصر وبلاد الشام إلى عهد السلطان السلجوقي نظام الملك(ت.485هـ=1092م)، فقد اعتبره ابن خلكان وتاج الدين السبكي، بأنه أول من بنى مدرسة في الإسلام، و"أول من قدر المعاليم للطلبة فإنه لم يتضح لي هل كانت المدارس قبله بمعاليم للطلبة أو لا والأظهر أنه لم يكن لهم معلوم"[2]؛ وإن كانت هذه المدارس قد أُنشئت على أسس مذهبية إلا أنها أدت دورها الدعوي والإرشادي والقيادي على مدار العصور، وخرجت العلماء والفقهاء والقادة العسكريين والسياسيين الذين كان لهم الدور البارز في قيادة الأمة، عندما احتلوا مواقعهم في مؤسسات السياسة والجيش والتربية والاجتماع والاقتصاد، وبرزت آثار سياساتهم وممارساتهم في مجابهة المشكلات والتحديات التي برزت على مسرح الحياة الإسلامية في الداخل، وفي مواجهة الأخطار التي أرهقت الأمة من الخارج[3].

وكانت مؤسسات هذا التعليم تنقسم إلى قسمين: الأول: المدارس ودور القرآن والحديث ووظيفتها الرئيسية إخراج جيل جديد من الناشئة الذين تصفو عقيدتهم وتعلو مقدرتهم العقلية والنفسية إلى المرتبة التي يجب أن يحتلها المسلم. أما القسم الثاني: هو المساجد حيث أقيم في مدينة دمشق وحدها في عصر الحروب الصليبية، ما يزيد على مائة مسجد[4]، وقد بلغ الاهتمام بالتعليم أوجَهُ زمن نور الدين محمود، ويصف لنا أبو شامة هذا الاهتمام بقوله: " نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم ودحض البدع من

---

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج23، ص153؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج2، ص165؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج6، ص125.

(2) وفيات الأعيان، ج2، ص129؛ طبقات الشافعية الكبرى،ج 4، ص178.

(3) الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص57، 251.

(4) بدوي، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ص60؛الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص257، 258.

هذه البلدة و إظهار الدين"[1]، واستمر النشاط التعليمي والتربوي ينتشر وينمو بإشراف الدولة الزنكية حتى بدل البنية القديمة لبلاد الشام وللجيل الذي نشأ فيها، وأحل محل ذلك كله طابعاً إسلامياً تجلت خلاله الروح الإسلامية لدى طبقات المجتمع وأفراده ووجهت نشاطهم في جميع ميادين الحياة القائمة[2].

ولقد استهدفت هذه المدارس في توجيه وإرشاد جماهير عامة المسلمين من العمال والمزارعين والتجار وفي تهذيب الأخلاق والقيم وبث روح الجهاد والقتال، وتصفية العقيدة من الشوائب الفلسفية والخرافات المبتدعة، وشارك بجانب العلماء في هذه التربية شيوخ التصوف بعد أن جرى إصلاح التصوف على يد الشيخ عبد القادر الجيلاني[3] وأصحابه من الشيوخ المعاصرين[4].

وكانت المدرسة في أغلب الأحيان تسمى باسم منشئها، وقلما تعرف باسم مدرسها أو مكان وجودها، وكان بانيها يقف عليها من الأوقاف ما يكفي للإنفاق على مدرسيها وطلبتها وباقي مستخدميها، وعلى إصلاحها[5]. ومن الأمور الواجبة الذكر أن البعض من هؤلاء العلماء الأجلاء كانت لديهم إمكانات مادية كبيرة ساعدتهم أحياناً في تأسيس مدرسة أو أكثر لنفسه يلقي فيها الدروس والمواعظ[6]، كما فعل أبو عمر بن قدامة المقدسي[7]

---

(1) الروضتين،ج1،ص17.

(2) الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص260.

(3) هو الشيخ عبد القادر بن أبي صالح موسى جنكي دوست بن عبد الله بن يحيى الجيلني، الزاهد، شيخ العصر وقدوة العارفين، ولد سنة 470هـ=1077م، في جيلان وتقع جنوب بحر قزوين ويقال لها أيضا كيلان، ويتصل نسبه من جهة والده بالحسن بن علي بن أبي طالب صاحب المدرسة القدرية، توفي سنة 561 هـ=1165م .للمزيد عن ترجمته، انظر، الذهبي، العبر في خبر من غبر،ج3، ص36 اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، ج3، ص266 ؛ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج1، ص298.

(4) الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص259.

(5) بدوي، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ص75.

(6) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص71؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى،ج6، ص265؛ عدوان، دور العلماء، ص56.

(7) هو الشيخ الزاهد محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة، أخو العلامة موفق الدين، ولد بجماعيل، وهاجر إلى دمشق، بسبب احتلال فلسطين من قبل الصليبيين، كتب الكثير بخطه، وحفظ القرآن والفقه والحديث، وكان إماماً فاضلاً عابداً قانتاً، كثير النفع لخلق الله، توفي سنة 607هـ=1210م. للمزيد عن ترجمته، انظر ، الذهبي، العبر، ج 3، ص147 ؛ اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، ج4 ، ص13.

ومنهم من شارك في بناء المساجد والبيمارستانات والأبراج والخانات والأربطة يجعلونها وقفاً لكافة المسلمين وفي خدمتهم[1].

ولا ريب أننا لا نستطيع أن نذكر أسماء المدارس التي أنشئت في مصر والشام، لأن المجال لا يتسع لذكر هذه المدارس؛ ولكن ما يهمنا في هذا المقام ما أثمرت عنه هذه المدارس في تخريج جيل من القادة الأتقياء الورعين الذين قادوا الأمة بكل إخلاص وإيمان بالله، أمثال نور الدين محمود زنكي، وصلاح الدين الأيوبي، والقائد المظفر قطز والظاهر بيبرس، وكان بجانب هؤلاء القادة مستشارين ومعاونين لهم من العلماء والفقهاء أمثال عبد الله بن أبي عصرون، والقاضي الفاضل، وعيسى الهكاري وغيرهم، والذين أخرجوا الأمة من الظلمات إلى النور، ومن الذل إلى العزة. وللإطلاع على أسماء المدارس التي أنشئت في تلك الحقبة في مصر وبلاد الشام يتطلب ذلك الرجوع إلى كتاب الدارس في تاريخ المدارس، للنعيمي، والمواعظ والاعتبار للمقريزي حيث خصص فصل عن تاريخ إنشاء المدارس في مصر.

وبجانب مجالس الوعظ الإرشاد، وتشييد المدارس التي كانت منارة لإنارة الطريق إلى الله؛ وضع العلماء مؤلفاتهم ليكتمل الدور الدعوي لهم في إصلاح المجتمع من الفساد والانحرافات العقائدية والفكرية، فوضعوا مؤلفات مختلفة الموضوعات والأهداف، حتى تكون منارة يهتدي بها العامة والخاصة نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: فقد ألف حجة الإسلام أبو حامد الغزالي(ت.505هـ= 1111م) الكثير من المؤلفات ومن أبرزها (إحياء علوم الدين) والذي شخص فيه كل أمراض المجتمع، ووضع فيه العلاج لكل هذه المفاسد، وكذلك وضع فيه مناهج جديدة للتربية والتعليم، وانتقد العلماء بمواقفهم ومداهنتهم لأولي الأمر ونهاهم عن ذلك وكذلك مؤلفه (المنقذ من الضلال)، وجاء فيه بالرد على أهل البدع والأهواء والزنادقة والملحدين ومؤلف أخر خصصه للرد على الباطنية، سماه (المستظهري أو فضائح الباطنية)، وتصدى للفلاسفة في كتاب سماه (تهافت الفلاسفة)،

---

(1) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص17؛ عدوان، دور العلماء في إصلاح المجتمع زمن الحروب الصليبية، ص56.

الواقع أنه يصعب الإحاطة بالآثار التي أحدثها الغزالي، فهي متعددة شملت مختلف الحياة العلمية والاجتماعية[1].

ووضع العالم والمؤرخ عبد الرحمن بن الجوزي(ت.597هـ=1200م)، الكثير من المؤلفات والتي كان لها الأثر الكبير في نفوس وسلوك كل طبقات المجتمع، فمن أشهر مؤلفاته (صيد الخاطر)، و(تلبيس إبليس)، و(التذكرة في الوعظ وذم الهوى)، و(لفتة الكبد إلى نصيحة الولد)، و(المنتظم في تاريخ الملوك والأمم)، و(تاريخ بيت المقدس)، وغيرها. وجميعها كانت تهدف إلى التوعية والإرشاد، وإن كان منها ما يغلب عليه علم التاريخ مثل(المنتظم في تاريخ الملوك والأمم)، و(تاريخ بيت المقدس)[2].

كما صنف العماد الأصفهاني[3]،الكثير من الكتب منها: (الفتح القسي في الفتح القدسي) وهو تسجيل تاريخي منتظم للنشاط الحربي الذي قام به صلاح الدين وفترة جهاده ضد الصليبيين وكتاب (البرق الشامي)، وفيه بين التحاقه بالسلطان نور الدين وبعده بالسلطان صلاح الدين، وله كتاب (خريدة القصر وجريدة العصر)[4].

---

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص216؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج35، ص115؛ الصفدي ،الوافي بالوفيات،ج1، ص119؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى،ج6، ص161؛ الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص172.

(2) الصفدي الوافي بالوفيات،ج6، ص81؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج8، ص231، 232؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج1، ص399؛ ابن العماد، شذرات الذهب،ج2، ص143.

(3) هو أبو عبد الله محمد بن صفي الدين أبو الفرج محمد بن نفيس الدين أو الرجاء حامد بن محمد بن عبد الله بن علي بن محمود بن هبة الله القرشي الأصفهاني. ولد بأصبهان سنة 519هـ=1125م، ونشأ بها ثم قدم إلى بغداد في حداثته فأقام بها مدة وانتظم فيها في سلك المدرسة النظامية، وكان العماد فقيهاً شافعياً، تفقه على يد الشيخ أبي منصور سعيد بن محمد بن الوزان، ترحل بين اصبهان وبغداد مرات عديدة، وتقلد عدة مناصب عندما انتقل إلى دمشق سنة 562هـ=1166م ونزل عند القاضي كمال الدين محمد بن الشهرزوري، وعلت منزلته عند نور الدين محمود فرتبه في ديوان الإنشاء سنة 563هـ=1167م وكذلك علت مكانته عند صلاح الدين ، وبعد وفاة صلاح الدين لزم بيته وأقبل على الاشتغال بالتصانيف حتى وفاته سنة 597هـ=1200م. ومن مصنفاته كتاب" خريدة القصر وجريدة العصر" وكتاب" البرق الشامي" وكتاب" الفتح القسي في الفتح القدسي" وكتاب" السيل على الذيل" وكتاب "نصرة الفترة وعصره الفطرة في أخبار الدولة السلجوقية" وله ديوان رسائل وديوان شعر. أنظر ترجمته، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص147-153؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج18، ص11؛ أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص27؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص33، 34؛ابن العماد، شذرات الذهب، ج4، ص332.

(4) حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج6، ص105.

أما الشيخ عبد القادر الجيلاني(ت.561هـ=1165م) فقد كان مدرسة في الإصلاح الاجتماعي أسوة بما قام به الإمام أبو حامد الغزالي، فقد كانت المدرسة القادرية في بغداد والتي كان يترأسها الشيخ عبد القادر تستقبل أبناء النازحين الذين فروا من وجه الاحتلال الصليبي، ثم يقوم الشيخ بإعدادهم ثم إعادتهم إلى مناطق المواجهة الدائرة تحت القيادة الزنكية، وقد تخرج على يديه عدد كبير من الطلاب نبغ منهم الكثير، ووصل بعضهم إلى مراكز حساسة في الدولة الزنكية والأيوبية أمثال الواعظ علي بن نجا الذي أصبح مستشاراً لنور الدين وكذلك للسلطان صلاح الدين من بعده، والحافظ الرهاوي وموسى ابن الشيخ عبد القادر الذي انتقل إلى بلاد الشام ليساهم في النشاط الفكري. ومن أعظم مؤلفاته (الفتح الرباني)، والذي وضع فيه مناهج التعليم وتصحيح الكثير من الشوائب التي كانت عالقة بالعقيدة، وانتقد الكثير من العلماء والسلاطين لسوء تصرفاتهم وبعدهم عن حقيقة الرسالة الدعوية[1]، كما صنف الحافظ عبد الغني المقدسي(ت.600هـ=1203م)، (الكمال في أسماء الرجال)، و(الأحكام الكبرى والصغرى)[2].

وصنف فخر الدين الرازي أبو عبدا لله المعروف بابن الخطيب(ت.606هـ=1209م)،(مفاتيح الغيب)، و(درة الترتيل وغرة التأويل)، و(غريب القرآن)[3]، وصنف سلطان العلماء العز بن عبد السلام(ت.660هـ=1261م)، عدد كبير من المؤلفات نذكر منها:(القواعد الكبرى)، و (القواعد الصغرى)، و(مجاز القرآن) و(شجرة المعارف)، و(الغاية في اختصار النهاية)، و(بيان أحوال الناس يوم القيامة)،و (الفرق بين الإيمان والإسلام)[4].

أما شيخ الإسلام ابن تيمية(ت.728هـ= 1327م)، فقد وضع العديد من المؤلفات منها: (مناهج الاستقامة)، و(الفتاوى)، و(جواب في نقض قول الفلاسفة إن معجزات الأنبياء قوى نفسانية)، و(إثبات المعاد والرد على ابن سينا)، وغيرها من المؤلفات التي رد فيها على

---

(1) الجيلاني، الفتح الرباني، ص198-201.
(2) ابن كثير،البداية والنهاية،ج13،ص46.
(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان،ج 4، ص249؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى،ج 8، ص46،45،44.
(4) السبكي طبقات الشافعية الكبرى،ج5،ص80؛الكتبي، فوات الوفيات،ج1، ص287؛ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص235؛ ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، ج2، ص51.

المعتزلة والقدرية والرافضة والمرجئة والفلاسفة، كما ورد على النصاري في كتاب خـــاص سماه(الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)[1].

كذلك صنف ابن القيم الجوزية (ت.751هـــ= 1350م)، ســـتة وتـــسعين مـــصنفاً متنوعة نذكر منها ما كتبه في السنة والعقيدة على سبيل المثال لا الحصر،(اجتماع الجيـــوش الإسلامية على غزو الجهمية والمعطلة) و(الروح)، و (الروح والنفس)، و(السنة والبدعـــة) و(شرح الأسماء الحسنى)، و(هداية الحيارى في الرد على اليهود والنصارى)[2].

هذا غيض من فيض لفئة قليلة من العلماء والفقهاء الذين عاشوا في تلـــك الفتـــرة وقدموا من فكرهم ما أناروا به الطريق لجماهير أمتهم التي استفادت مـــن عطـــائهم فـــي حياتهم وبعد مماتهم، وأنجبت أجيالاً واعية تمكنت من رد العدوان الخـــارجي والـــداخلي ودحره؛ وإن المتصفح للمؤلفات التي كتبت في القرن السادس الهجـــري،(الثـــاني عـــشر ميلادي)، والذي شهد غزو الصليبيين لبلاد المسلمين واحتلال أراضيهم، يلاحظ أنها كانت في أغلبها تحمل سمة الجد والوقار، وهذا أمر طبيعي فالحياة في تلك الفترة كانت جادة لما ألم بالمسلمين من الكوارث والمصائب، كذلك يلمس أن مادتها سيطرت عليها الدعوة إلـــى الله والتحدي للأفكار والبدع والخرافات التي سادت في تلـــك الحقبـــة، ونقـــد للـــسلاطين والعلماء، ووضع المناهج الصحيحة للتربية والتعليم، كذلك سيطرة عليها فكـــرة الجهـــاد والدعوة إليه، وان روح العصر أثرت على طبيعة هذه المؤلفات السابقة الذكر، فإذا وضع أحدهم كتاباً في الأدب أو غيره نراه يخصص فيه فصلاً خاصاً للشجاعة والـــشجعان فـــي عهد رسول الله والصحابة والتابعين وبابا أخر للجهاد وثوابه وهكذا[3].

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

قال الله تعالى: "وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"[4]، من هذه الآية انطلق العلمـــاء بـــدءً بالـــدعوة يـــأمرون النـــاس

(1) الذهبي، تذكرة الحفاظ ،ج4، ص192؛الصفدي،الوافي بالوفيات،ج2، ص375؛ ابـــن رجـــب، ذيـــل طبقات الحنابلة،ج2، ص392 403؛ ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة،ج1، ص176.

(2) ابن القيم الجوزية، الصواعق المرسلة،ج1، ص149،148؛ حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ،ج1، ص81.

(3) عدوان، دور العلماء في إصلاح المجتمع زمن الحروب الصليبية، ص58.

(4) سورة آل عمران، آية، 104.

بالمعروف وينهونهم عن المنكر، فقد طلب الفقيه الواعظ برهان الدين أبو الحسن علي بـــن حمد البلخي(ت.548هــ=1153م)، من نور الدين محمود زنكي بأن يمنع الفواحش ويبطل الضرائب ولم يخيفه في هذا الأمر هيبة السلطان فقال له: " كيف تنصرون وفي عساكركم الخمور والطبول والزمور؟"[(1)]. مع أن السلطان نور الدين محمود كان يـــستعين بـــأموال المكوس في حروبه ضد الصليبيين؛ إلا أنه تأثر بكلام برهـــان الـــدين البلخـــي، وأمـــر بالتحقيق في أمر جمع أموال المكوس، كما أمر بإبطال الضرائب وحـــذر مـــن ارتكـــاب الفواحش في بلاده[(2)].

ومن العلماء المـــشهود لهـــم فـــي مـــواقفهم عبـــد الغنـــي بـــن عبـــد الواحـــد المقدسي(ت.600هــ=1203م) إذ كان لا يري منكراً إلا غيره بيده أو لسانه، وكثيراً مـــا كان بدمشق ينكر المنكر، ويكسر الطنابير والشبابات، حتى ولو كانـــت لأبنـــاء الأمـــراء والسلاطين، وكان له مواقف عديدة مع أولاد صلاح الدين، ففي عهد الأفضل بن صـــلاح الدين[(3)]، وكان حاكماً لدمشق كانت بدمشق عند درج جيرون الملاهي، فجاء الحافظ فكسر شيئاً كثيراً منها، فصعد المنبر يقرأ الحديث، من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فـــإن لـــم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان، فجاء إليه رسول من القاضي يأمره بالمشي إليه، يقول حتى يناظره في الدفّ والشبابة، فقال الحافظ: ذلك عندي حـــرام وقال: أنا لا أمشي إليه، إن كان له حاجة، فيجيء هو ثم قرأ الحديث، فعاد الرسول فقـــال: قد قال: لا بد من المشي إليه، أنت قد بطلت هذه الأشياء على الـــسلطان، فقـــال الحـــافظ: ضرب الله رقبته، ورقبة السلطان. قال: فمضى الرسول، وخفنا أن تجري فتنة. قال: فمـــا جاء أحد بعد ذلك[(4)]. وكانت له هيبة وعظمة لدى الملوك والسلاطين فقد قال الملك العادل الأيوبي[(5)]:" ما خفت من أحد، ما خفت من هذا، فقلنا: أيها الملك، هذا رجـــل فقيـــه إيـــش

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص347.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص21؛ ابن كثير، البدايـــة والنهايـــة، ج12، ص348؛ عـــدوان، دور العلماء،ص35.

(3) هو علي بن السلطان صلاح الدين الأيوبي وهو شاعر وكاتب، ذو فطنة وعلم لكنه كان ضعيف الرأي قليل العزم، كثير الغفلة عما يجب للدول وتدبير الممالك .تسلطن بدمشق ثم حارب أخاه العزيز صاحب مصر على الملك .ثم زال ملكه وملك أخيه، توفى سنة 622هــ=1224م، للمزيد عن ترجمته، انظـــر، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص207 ؛ الذهبي،العبر، ج3، ص188 ؛ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج6 ، ص232 .

(4) ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة،ج2، ص4،3.

(5) هو أبو بكر بن أبي الشكر أيوب بن شادي، الملقب بالملك العادل، أخو صلاح الدين الأيوبي، تنقل فـــي الممالك في حياة أخيه، حيث كان ينوب، عن صلاح الدين في بلاد الشام في حال غيابه، تملك حلب ثـــم =

خفت من هذا؟ قال: لما دخل ما خيل إلي إلا أنه سبع يريد أن يأكلني، فقلنا: هــذه كرامــة الحافظ."[1].

وطالب الفقيه عبد الرحيم المعروف بابن زويتينة[2] من الملك الصالح إسماعيل بن الملك العادل الأيوبي(ت.648هـ=1250م)، حاكم دمشق، أن يطرد خطيب مسجد التوبة بدمشق ويدعى العماد الواسطي وكان متهماً بالشراب فأنشده ابن زويتينة ينتقد هذا الخطيب ويطلب إبعاده:

يا مليكاً أوضح الحــق لــدينا وأبــانه.....جــامــع التــوبة قــد قــلدني منــه أمــانــة

قال قل للملك الصالح أعلى الله شــأنه....يــا عــماد الدين يــا من حمد النــاس زمــانه

كم إلى كــم أنا في ضر وبــؤس وإهــانة....لــي خطيب واسطي يعشق الشرب ديــانه

والذي كــان مــن قــبل يــغني بجفائــه....... فــكما نحن فــما زلنا ومــا نبرح حانة

ردنــــي للــنــمــط الأولــ واســتــبــق ضــمــانــه[3].

كما أنكر الإمام فخر الدين بن عساكر(ت.620هــــ= 1223م)،علــى الــسلطان المعظم عيسى(ت.624هـ= 1226م)، إظهار وإباحة الخمور[4]، كما دخل الــشيخ أحمــد الزرعي[5] على السلطان الملك الصالح إسماعيل فطلب منه أشياء كثيرة لتغييــر بعــض

=

قلعة الكرك، وآخر الأمر استقل بالديار المصرية سنة 596هـ=1199م، وملك معها بلاد الشام وبــلاد اليمن سنة 612 هـ=1215م ، وكان ملكاً عظيماً ذو رأي ومعرفة، وافر العقل حازماً في الأمور، توفى سنة 615 هـ=1218م ، للمزيد عن ترجمته، انظر ، ابن خلكــان، وفيــات الأعيــان،ج5، ص 74؛ اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، ج4، ص25 ؛ ابن تغــري بــردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج6، ص196.

(1) ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة،ج2، ص4.

(2) هو عبد الرحيم بن علي جمال الدين بن زويتينة، كان قد وصل إلى مصر رســولاً عنــد صــاحب حمص، كان حسن الأخلاق وعاشر العلماء وأهل الصلاح، تولى من قبل الملك الأشــرف خطابــة جامع التوبة توفي سنة 604هـ=1207م، ابن خلكان، وفيات الأعيــان، ج5، ص334؛ الــصفدي، الوافي بالوفيات،ج6، ص149، 150.

(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص335.

(4) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص138.

(5) لم أعثر له على ترجمة.

الأوضاع الاجتماعية السائدة في البلاد، وإزالة بعض المفاسد وإطلاق بعض المحبوسـين في قلعة دمشق وغيرها من المطالب، فأجابه إلى جميع ذلك[1].

ووقف سلطان العلماء الشيخ العز بن عبد السلام(ت.660هـ=1261م)، بكل ثقة وجرأة أمام السلطان الصالح نجم الدين أيوب(ت.647هـ=1249م)، وهو في زينته وبين جنوده وأمرائه ولم يخيفه جبروت ذلك السلطان، فناداه الشيخ باسمه:" يا أيوب ما حجتك عند الله إذ قال لك: ألم أبوئ لك ملك مصر ثم تبيح الخمور؟ فسأل السلطان: هل جري هذا فأجاب الشيخ نعم الحانة الفلانية تباع فيها الخمور وغيرها من المنكرات، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة. فأجاب السلطان: يا سيدي هذا أنا ما فعلته، هذا زمان أبي، رد الشيخ عليه: أنت من الذين يقولون:"إنا وجدنا آباءنا على أمة، فأمر السلطان بإبطال تلك الحانة، وقد شاع خبر تلك الحادثة واستغرب الناس من جرأة الشيخ، لأن هذا السلطان كان جباراً مستبداً برأيه، وعندما سئل الشيخ: أما خفته؟ فرد على السائل: يا بني رأيته في تلك العظمة، فأردت أن أهينه لئلا تكبر نفسه فتؤذيه[2].

وقبل رحيله إلى مصر، علم الشيخ وهو في دمشق أن نواب السلطان الأشرف بن العادل[3] يرتكبون الزنا ويدمنون الخمور ويتفننون في ظلم النـاس، فتقـدم الـشيخ إلـى السلطان الأشرف وطلب منه إبطال هذه المنكرات فأبطلها، وقال له الأشرف:" جـزأك الله عن دينك وعن نصائحك وعن المسلمين خيرا وجمع بيني وبينك في الجنة بمنِّـه وكرمـه وأطلق له ألف دينارٍ مصرية فردها عليه"[4]. وفي مصر سمع أن الوزير عثمان بن شـيخ الشيوخ أستاذ دار السلطان الصالح نجم الدين أقام على سطح المسجد بناءً للطبل والغنـاء فلما ثبت هذا عند الشيخ العز بن عبد السلام، ذهب مع أنصاره وهـدم البنـاء، فغـضب الوزير من فعل العز بن عبد السلام، واتهمه بالفسق، ورداً على هذا التصرف عزل الشيخ

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية ،ج 14، ص247.
(2) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج8، ص107،106
(3) هو مظفر الدين موسى بن الملك العادل أبو بكر بن أيوب، كان مفرط السخاء، ميمون النقية، لم تنهزم له راية، كان سعيداً، يتفق له أشياء خارقة للعقل، كان حسن العقيدة في آخر عمره، حيث أقبل على العبادة والاستغفار،توفي سنة 635 هـ=1237م. للمزيد عن ترجمته، انظـر، أبـي شـامة، الـذيل علـى الروضتين، ص253؛ أبي الفداء، المختصر، ج 2، ص.262.
(4) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج8، ص135؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص241.

نفسه عن القضاء الذي كان قد تولاه بعد وصوله إلى مصر ومع ذلك لم تسقط منزلةُ الشيخ عند السلطان[1].

وقد أبطل الشيخ العز بن عبد السلام كثيراً من البدع التي اعتاد عليها الخطباء فهو لم يلبس السواد، واجتنب الثناء على الملوك، وأبطل صلاة الرغائب وصلاة ليلة النصف من شعبان(الألفية)[2]، كذلك رفض العز بن عبد السلام، إصدار فتوى يعترف للمماليك بالسلطنة كونهم أرقاء ولا يصح لهم بيعُ ولا شراء ولا نِكاحُ وتعطّلت مصالحهم بذلك وكان من جملتهم نائب السلطنة فاستشاط غضبا فاجتمعوا وأرسلوا إليه فقال نعقد لكم مجلسا وينادى عليكم لبيت مال المسلمين ويحصل عِتقُكم بطريق شرعي وبعد تردد وتهديد ووعيد ظل الشيخ على موقفه رغم تعرض حياته للخطر، وفي نهاية المطاف نزل هؤلاء عند رغبة الشيخ ونودي عليهم بالبيع وتم تحريرهم[3].

كذلك سعى العلماء والفقهاء إلى إصدار الفتاوى لمحاربة بعض المفاهيم الخاطئة المعلقة المتعلقة بالشريعة أو المعاملات وتوضيحها للناس[4]، وكان الورعون من رجال الحكم يستفتون الفقهاء في بعض الأمور المتعلقة بإدارة الدولة فقد جمع السلطان نور الدين القضاة والفقهاء وطلب منهم أن يفتوه في أخذ ما يحل له من بيت مال المسلمين " فأخذ ما أفتوه"[5]. وطلب الملك المعظم عيسى، من الشيخ شرف الدين إسماعيل[6]، أن يصدر فتوى بإباحة النبيذ وما يتصل بها فرفض الشيخ[7].

---

(1) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج8، ص105؛ السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج2، ص194.

(2) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج8، ص143،142،8.

(3) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج8، ص110.

(4) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج10، ص142؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج2، ص96.

(5) ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص164؛ عدوان، دور العلماء في إصلاح المجتمع، ص51.

(6) هو القاضي شرف الدين إسماعيل بن إبراهيم بن الموصلي الشيباني الحنفي أحد مشايخ الحنفية، وله مصنفات في الفرائض وغيرها، وهو ابن خالة القاضي شمس الدين بن الشيرازي الشافعي، و كان ينوب عن القاضي ابن الزكي وابن الحرستاني، وكان يدرس بالمدرسة الطرخانية وكان حسن الأخلاق والعقيدة عزله الملك المعظم عيسى عن القضاء بسبب مواقفه وأقام الشيخ بمنزله حتى مات رحمه الله تعالى .توفي سنة 630هـ=1232م.الذهبي،سير أعلام النبلاء،ج22،ص320؛ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص159؛النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس،ج 1 ،ص 415، 416.

(7) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص159؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس،ج 1 ،ص 415، 416.

المبحث الثاني:

دور العلماء الرسمي من خلال إدارة شؤون الدولة.

- الوظائف الإدارية.
- دور العلماء في فض النزاعات وتوحيد الأمة.
- تعاون السلاطين مع العلماء في محاربة الفساد.

الوظائف الإدارية:

إن من عوامل نهوض الأمة أن تكون القيادة السياسية مبدعة في التفكير، وفي تحديد الأهداف الصادقة في الانتماء لعقيدة الأمة ودينها وتاريخها وقادرة على توظيف الطاقات العلمية والفكرية وكافة الإمكانات وتحويلها من أعمال فردية إلى أعمال جماعية، عاملة على وحدة الصف ومحاربة الانشقاق، كما أن قدرة العلماء على النزول بأفكارهم وعلمهم للجمهور الإسلامي العريض من عوامل نهوض الأمة. لذلك لم يتردد العلماء في قبول الوظائف الإدارية والمراكز الدينية والإدارية؛ لا طمعاً فيها ولا جرياً وراء زخرف الحياة ومباهجها، ولكن لمنع تسرب المتسلقين وذوي النفوس الضعيفة لشغل هذه الوظائف، ومن ثم ينزلون بالناس ألوان العذاب بتصرفاتهم، فيكون ابتعاد العلماء عن مثل هذه الوظائف هروباً من أداء واجبهم بل هروباً من الوقوف إلى جانب أبناء الأمة وقفة عز يستظلون بظلالها، لذلك أقبلوا وقبلوا تعيينهم في وظائف القضاء والتدريس والاستشارة وولاية الدواوين والوزارة وإدارة الأوقاف والخطابة والكتابة، وكانوا يختارون من بين من تتوافر فيهم شروط الاستقامة بصفة عامة[1].

لذلك أدرك الحكام المخلصين لدينهم ووطنهم بأن الخلاص من كل الآفات التي أصابت المجتمع في تلك الحقبة التاريخية، من فساد أخلاقي، وفساد فكري وآخرها احتلال الأرض وذبح وطرد أهلها من قبل الصليبيين، هو بالعودة إلى الدين الإسلامي وتعليماته وتطبيق كل أركانه فقد قال الله تعالى: "وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى"[2]، وهذا لا يتم إلا بالتعاون بين القيادة السياسية والعلماء أصحاب العلم والفقه وهم ممن لهم القدرة والكفاءة على إعادة الناس إلى رشدهم، وممن لهم القدرة على حمل الأمانة بكل إخلاص.فهذا الشهيد عماد الدين زنكي(ت.541هـ=1146م)، أدرك حاجة دولته لهؤلاء العلماء المخلصين للوقوف بجهودهم وعلمهم إلى جانب قدرته وحنكته العسكرية، في وجه كل آفات المجتمع والاحتلال الصليبي، فقد عين القاضي بهاء الدين الشهرزوري[3] قاضي القضاة في جميع

---

(1) عدوان، دور العلماء في إصلاح المجتمع، ص71.

(2) سورة طه، آية،124.

(3) بهاء الدين أبو الحسن علي بن القاسم الشهرزوري قاضي الممالك الأتابكية، كان عظيم المكانة، حُسن السيرة، تولى قاضي القضاة في الدولة الأتابكية، وكان أعظم الناس منزلة عماد الدين زنكي.
=

بلاده وما يفتحه من البـــلاد وكذلك زاده أملاكاً وإقطاعاً وكان يثق فيه وفي آرائه، وكـــان عماد الدين يستشيره في معظم الأمور الهامة في دولته حتى صرح ابن الأثير بذلك قائلاً: "وكان لا يصدر إلا عن رأيه"(1).

إن استشارة العلماء وتقدير آراءهم، من عوامل وأسباب نجاح القـــادة الـــسياسيين والعسكريين. فكثير من القضاة قاموا بدورهم خير قيام واستقر الأمن والعدالة على أيـــديهم والبعض الآخر وصل إلى منصب الوزارة، وصاحب سر السلطان وكاتبه، ويـــذكر عـــن الشيخ عماد الدين بن يونس(2)، أنه كان كثير المباطنة للسلطان نور الدين يرجع إليه فـــي الفتاوى والمشاورات(3). وتولى الفقيه القاضي ابن عصرون(4) أوقاف دمـــشق للـــسلطان نور الدين حتى أصبح عظيم المكانة والرئاسة بين يديه(5).

=

توفى سنة 532هـ=1137م.أنظر،ابن الأثير،الكامل في التـــاريخ ،ج4، ص464، 465؛أبـــو شـــامة الروضتين،ج1، ص40؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج5، ص215.

(1) الكامل في التاريخ، ج10، ص243.

(2) هو الشيخ أبو حامد محمد بن يونس بن محمد بن منعة بن مالك بن محمد، الملقب عماد الدين، الفقيه الشافعي؛ كان إمام وقته في المذهب والأصول والخلاف، وكان له صيت عظيم في زمانه، وقـــصده الفقهاء من البلاد الشاسعة الاشتغال، وتخرج عليه خلق كثير صاروا كلهم أئمة مدرسين، وكان شديد الورع والتقشف لا يلبس الثوب الجديد حتى يغسله، ولا يمس القلم للكتابة إلا ويغسل يده، وكان دمث الأخلاق لطيف الخلوة ملاطفا بحكايات وأشعار، ولد سنة 535هـ=1140م بقلعة إربل، وصنف كتبا في المذهب الشافعي منها كتاب المحيط في الجمع بين المهذب والوسيط وشـــرح الـــوجيز للغزالـــي، وصنف جدلا وعقيدة وتعليقه في الخلاف، لكنه لم يتمها، وكانت إليه الخطابة في الجامع المجاهـــدي مع التدريس في المدرسة النورية والعزية والزينية والبقشية والعلانية، وتقدم في دولة نور الـــدين. توفى سنة 608هـ=1211م.ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص253، 254؛ أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص80؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج23، ص124؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبـــرى، ج8، ص109.

(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص253، 254

(4) هو القاضي ابن عصرون عبد الله بن محمد بن هبة الله بن المطهر بن علي بن أبي عصرون ابـــن أبي السري قاضي القضاة شرف الدين أبو سعد التميمي الموصلي الفقيه الشافعي أحد الأئمة الأعلام. دخل حلب ودرس بها وأقبل عليه صاحبها نور الدين. ولما أخـــذ دمـــشق ورد معـــه إليهـــا ودرس بالغزالية، ثم عاد إلى حلب، وولي قضاء سنجار وحران وديار ربيعة، ثم عاد إلى دمشق فـــولي بهـــا القضاء وبنى له نور الدين المدارس بحلب وحماة وحمص وبعلبك، وبنى هو لنفسه مدرســـة بحلـــب وأخرى بدمشق، ومن تصانيفه صفوة المذهب في نهاية المطلب سبع مجلدات، والانتصار في أربـــع مجلدات، والمرشد في مجلدين، والذريعة في معرفة الشريعة، والتيسير في الخلاف، أربع مجلـــدات، ومآخذ النظر، ومختصر في الفرائض، والإرشاد في نصرة المذهب ومـــاتم، والتنبيـــه فـــي معرفـــة الأحكام، وفوائد المهذب في مجلدين وغير ذلك. وأضر آخـــر عمـــره وهـــو قـــاضٍ. تـــوفى ســـنة 591هـــ=1194م. الصفدي، الوافي بالوفيات،ج5، ص494.

(5) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص479؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص333.

وقد أسند وفوض الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين زنكي(ت.577هـ=1181م)، صاحب حلب إلى القاضي محيي الدين بن الشهرزوري(ت.586هـ=1190م)، أمر تدبير مملكة حلب سنة(573هـ=1177م)، وكان حسن التدبير لهذا المنصب[1]، كذلك أصبح الفقيه عيسى الهكاري(ت.585هـ=1189م) أميراً من أمراء الدولة الأيوبية[2]، وتقلد القاضي الفاضل(ت.596هـ= 1199م)،عدة مناصب إدارية في دولة صلاح الدين(ت.589هـ=1192م)، حتى وصفه السبكي بأنه كان بالنسبة لصلاح الدين " صديقه وعضده ووزيره وصاحب ديوان إنشائه ومشيره وخليطه وسميره"[3].

كذلك تولي الفقيه إسماعيل بن عبد الجبار المقدسي[4] ديوان الجيش للسلطان صلاح الدين وظلت مكانته عالية عند أولاده العزيز ثم الأفضل، وأيضاً ولي للملك العادل إلى أن عزله[5].

وقد راعى العلماء في عملهم تطبيق شرع الله وإرجاع الحقوق لأهلها دون الخوف من جبروت السلاطين وأصحاب النفوذ فالقاضي جمال الدين أبو القاسم[6] لم يلتفت إلى عظمة الملك المعظم(ت.624هـ=1226م)، عندما عرضت عليه قضية حقوق، أراد فيها الملك المعظم أن يأخذ تركة رجل كان يتاجر بماله وتوفي هذا التاجر فأراد الملك المعظم أخذ تركته فطلب القاضي جمال الدين أبو القاسم من المعظم أن يحلف أنه يستحق ماله

---

(1) ابن خلكان،وفيات الأعيان،ج4، ص246.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص86؛ أبو شامة، الروضتين، ج2، ص 58؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج7، ص375.

(3) طبقات الشافعية الكبرى،ج7، ص86.

(4) هو إسماعيل بن عبد الجبار بن يوسف بن عبد الجبار بن شبل، القاضي أبو الطاهر بن القاضي الأكرم أبي الحجاج الجذامي، الصويتي، المقدسي الأصل، المصري، علم الدين. ولد سنة 549هـ=1154م. وقرأ الأدب وكان شاعراً مترسلاً، وعاش هو ووالده عمراً واحداً كل واحدٍ منهما إحدى وستين سنة وماتا في ذي القعدة، وولي كل منهما ديوان الجيش عشرين سنة، وهذا اتفاق غريب. وكانت وفاته في سنة 610هـ=1213م. الذهبي، تاريخ الإسلام ،ج43 ، ص359؛ الصفدي، الوافي بالوفيات،ج3، ص219.

(5) الذهبي، تاريخ الإسلام ،ج43، ص359؛ الصفدي، الوافي بالوفيات،ج3، ص219.

(6) هو القاضي جمال الدين أبو القاسم عبد الصمد بن محمد بن أبي الفضل الأنصاري، شيخ القضاة العالم العادل المعمر الزاهد. ولد بدمشق سنة 520هـ=1125م، وكان بارعاً في الفقه، تولى القضاة في الدولة الأيوبية فترة وكان في مدة ولايته للقضاء صارماً عادلاً حاكماً بالشريعة المطهرة لا تأخذه في الله لومة لائم. توفي سنة 614هـ=1217م، وله من العمر خمس وتسعون سنة.أنظر، أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص107،106، 108.

فرفض المعظم أن يحلف ورفض القاضي تسليمه المال. ونقل عنه زمن الملك العادل سيف الدين(ت.615هـ=1218م) أن الملك العادل كتب له كتاباً يوصيه ببعض خواصه، وكان له خصومة بينه وبين رجل، لكن القاضي جمال الدين أبو القاسم لم يفتح الكتاب إلا بعد أن أصدر الحكم، فكان لصالح الرجل فلما فتح القاضي الكتاب رده إلى حامله قائلاً له " كتاب الله قد حكم على هذا الكتاب. فمضى الرجل {صاحب الكتاب} إلى العادل وبكى بين يديه وأخبره بما قال فقال العادل: صدق. كتاب الله أولى من كتابي"(1).

واستخدم سلاطين المماليك العلماء والفقهاء في منصب الوزارة كما فعل الأيوبيون، فقد وزر للسلطان عز الدين أيبك(2)، الفقيه تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز(3) قاضي القضاة وقد قبلها بعد تردد منه، ولم تطل وزارته(4).

وفي عهد السلطان سيف الدين قطز(ت.657هـ=1258م)، تولى الوزارة قاضي القضاة بدر الدين السنجاري(5)،ثم أعيد إلى الوزارة الفقيه قاضي القضاة من بعده تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز،في عهد السلطان بيبرس(ت.676هـ=1277م)، بعد

---

(1) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص107، 108.

(2) هو أيبك بن عبد الله الصالحي الملك المعز عز الدين المعروف بالتركماني، كان مملوك الملك الصالح نجم الدين أيوب اشتراه في حياة أبيه الكامل، وتنقلت به الأحوال عنده ولازمه في الشرق وغيره وجعله جاشنكيره، فلما قتل المعظم توران شاه ابن الملك الصالح وبقيت الديار المصرية بلا ملك تشوف إلى السلطنة أعيان الأمراء فخيف من شرهم، وكان عز الدين أيبك معروفاً بالسداد وملازمة الصلاة ولا يشرب خمراً وعنده كرم وسعة صدر ولين جانب وهو من أوسط الأمراء، فاتفقوا وسلطنوه سنة 648هـ=1250م، وتزوج من شجر الدر زوجة الملك الصالح نجم الدين الأيوبي. وقتل سنة 655هـ=1159م. الوافي بالوفيات،ج3، ص324؛ أبو الفداء،المختصر في أخبار البشر،ج2، ص497؛ العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج1، ص254.

(3) هو القاضي تاج الدين بن بنت الأعز ولد سنة 614هـ=1217م، ودرس وتفقه على المذهب الشافعي وأخذ عنه جماعة وتخرج به المصريون وقيل أن ابن دقيق العيد كان يحضر درسه بقوص، كان مهيبا قائما في الحق وقورا في درسه، توفي سنة 686هـ=1287م، وله اثنتان وسبعون سنة.النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج30،ص91؛السيوطي،حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة،ج2،ص287؛ابن العماد، شذرات الذهب،ج5، ص406.

(4) الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر، ج8، ص30؛ ابن حجر،رفع الإصر عن قضاة مصر، ج2، ص162؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ص156.

(5) هو يوسف بن الحسن بن علي بن عبد الله الزّرزاري الكردي المعروف بالسِّنْجاري بدر الدين أبو المحاسن شافعي، ولد سنة 590هـ=1193م، وكَانَ من أعيان بلاده رياسة وحِشمة وجوداً، واتصل بالأشرف موسى، فلما ولي مملكة دمشق ولاه بعلبك وغيرها، وَكَانَ كثير التَّجَمُّل فِي مَجلسه ومَلْبَسه وَمَرْكبه بِحيث يضاهي فِي ذَلِكَ أكابر الوزراء. وعظم قَدْر البدر عند الصالح أيوب. فلما ولي السلطنة بمصر وَفَدَ عَلَيْهِ البدر فبالغ فِي إكرامه وولاه قضاء مصر. توفي سنة 663هـ=1264م. النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج29، ص138؛ ابن حجر،رفع الإصر عن قضاة مصر،ج 1،ص210.

إلحاح من السلطان[1]. وتولى الوزارة قاضي القضاة برهان الدين الخضر بن الحسن السنجاري[2]، في عهد أولاد الظاهر بيبرس، الملك السعيد محمد بركة خان(ت.678هـ=1288م)،والملك العادل سلامش[3][4].

وتولى الوزارة في عهد السلطان المنصور قلاوون(ت.689هـ= 1289م)، الفقيه فخر الدين إبراهيم بن لقمان[5]، وتقي الدين عبد الرحمن بن بنت الأعز[6].

وهكذا كان حرص سلاطين المماليك أن يتولي الفقهاء هذا المنصب الخطير فاستقامت بهم أمور البلاد والعباد؛ لكن هذا لم يمنع أن يخرج بعض من العلماء عن جادة الصواب فيعزل أو يبعد، فالنفس أمارة بالسوء. كما حدث مع الشيخ نجم الدين بن سني الدولة[7] عزل عن قضاء دمشق بسبب جوره وفجوره وتعديه على الناس، واتهمه أبو

---

(1) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب،ج30،ص7؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ص201.

(2) هو الخَضِر بن الحسن بن علي بن عبد الله الزَّرْزَارِي الكردي، برهان الدين السِّنْجَاري شافعي المذهب،ولد سنة 616هـ=1219م، وأول ما ولي القَضاء بمصر خاصة، في شوال سنة 659هـ=1260م وولي الوزارة بعد موت الصاحب بهاء الدين ابن حِنا، في سنة 677هـ=1278م، فلم يزل يتولى الوزارة إلى أن عزل في أيام المنصور قلاوون. توفي سنة 686هـ.=1287م ابن حجر،رفع الإصر عن قضاة مصر،ج1،ص62.

(3) هو السلطان الملك العادل بدر الدين سلامش ابن السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري الصالحي النجمي السادس من ملوك الترك بمصر. ولد سنة 670هـ=1271م، وتسلطن بعد خلع أخيه الملك السعيد أبي المعالي ناصر الدين محمد بركة خان باتفاق الأمراء على سلطنته، وجلس على سرير الملك في يوم الأحد سابع عشر شهر ربيع الأخر سنة 678هـ=1279م، وعمره يوم تسلطن سبع سنين. وضربت السكة على أحد الوجهين باسم الملك العادل، وكان شاباً مليحاً جميلاً تام الشكل رشيق القد طويل الشعر ذا حياء ووقار وعقل تام، وكان الواصي عليه الأمير قلاوون، توفي سنة 690هـ=1290م، وله من العمر قريب من عشرين سنة. أنظر،ابن كثير،البداية والنهاية، ج13، ص337؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ،ج2، ص339، 340؛المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك،ج1، ص221.

(4) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج31، ص5؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج2، ص340.

(5) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب،ج31، ص101؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،ج2، ص354؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ص219.

(6) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج31، ص279؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج3، ص63.

(7) هو الشيخ نجم الدين بن سني الدولة، أبو بكر بن قاضي القضاة صدر الدين احمد بن قاضي القضاة شمس الدين يحيى بن هبة الله بن الحسن بن يحيى بن محمد بن علي الشافعي، بن سني الدولة، ولد سنة 616هـ=1219م، سمع الحديث وبرع في المذهب الشافعي، وناب عن أبيه فشكرت سيرته، واستقل بقضاء قضاة الشافعية في الدولة المظفرية. كان شديداً في الأحكام متحرياً باشر قضاء حلب، وعاد إلى دمشق وولاه سنجر قضاء قضاة الشافعية بدمشق ، ثم عزل بابن خلكان. توفي سنة 680هـ=1281م. الذهبي، تاريخ الإسلام،ج48، ص333،334؛ الصفدي،الوافي بالوفيات،ج3،ص108؛ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص297،239؛ ابن تغري بردي، المنهل =

شامة بأنه كان مراعياً لأرباب الجاهات، واستشهد ذات مرة بأحد الـشهود المقـدوح فـي شهادتهم واسمه الشقيشقة[1] وكافأه ابن السني بأن جعله عاقداً للأنكحة في دمشق، فعجـب الناس من تصرف القاضي وأنكروه، فقال أحد الشعراء:

جـلس الشـقيشـقة الشـقي ليشـهدا ..... بـأبيكـما مـاذا عـدا فيـما بـدا

هـل زلـزل الزلـزال أم قد أخـرج.....الـدجال أم عُدِم الرجال ذَوُو الهـدى

عـجباً لمحـلول العـقيدة جـاهِـلٍ..... بالشـرع قـد أذنـوا لـه أن يعـقدا[2].

واستبدل ابن السني بالشيخ شمس الدين بن خلكان[3] من قبل السلطان بيبـرس، إذ أسند إليه القضاء في جميع بلاد الشام وفوض إليه أمـر النظـر فـي أوقـاف المـساجد والبيمارستان والمدارس وغيرها كما فوض إليه التدريس في سبع مدارس[4].

=

الصافي والمستوفى بعد الوافي،ج1،ص139؛ العيني،عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان،ج1، ص69؛ ابن العماد، شذرات الذهب،ج5، ص290.

(1) هو النجيب نصر الله بن أبي العز مظفر بن أبي طالب عقيل بن حمزة، نجيب الدين أبـن شُقَيـشقة الدمشقى المحدث. مشهورا بالكذب ورقة الدين وغير ذلك، وهو أحد الشهود المقدوح، فيهم، ولم يكن بحال أن يؤخذ عنه. توفي سنة 657هـ=1258م. أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص202؛الذهبي، تاريخ الإسلام،ج48، ص243؛الصفدي،الوافي بالوفيات،ج 3،ص254؛ النعيمي، الدارس في تـاريخ المدارس، ج1، ص60؛ ابن العماد، شذرات الذهب،ج5، ص135.

(2) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص202؛ العيني،عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان،ج1، ص47؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص60

(3) هو أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان بن باول بن عبد الله بن شاكل بن الحسين بـن مالك بن جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك البرمكي، الاربلي، الشافعي(شمس الدين أبو العباس) فقيه ومؤرخ وأديب وشاعر، ولد بإربل وتفقه في علوم الدين وانتقل إلى حلب حيث اخذ عن القاضي بهاء الدين بن شداد، ثم قدم دمشق، ثم القاهرة التي سكنها وتأهل بها وناب بها في القضاء عن القاضي بدر الدين السنجاري، ثم قدم دمشق حيث تقلد قضاءها سنة 659هـ=1260م، بعد عـزل قاضـيها ابـن السني، ثم أصبح ابن خلكان قاضي قضاة الشافعية في دمشق عندما جعـل الظـاهر بيبـرس سـنة 664هـ=1265م قاضي قضاة لكل مذهب من المذاهب الأربعة. توفي سنة 608هـ=1211م.أنظـر ترجمته، أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج4، ص17؛ الكتبي، فوات الوفيات، ج1، ص110-118؛ اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان،ج4،ص193-197؛ الصفدي، الوافي بالوفيـات،ج7، ص308-316؛ الـسبكي،طبقات الـشافعية الكبـرى،ج5، ص15،14؛ابـن كثير،البداية والنهاية،ج13، ص239، 259، 260؛ الزركلي، الأعلام، ج1، ص213،212.

(4) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج7، ص41؛ الكتبي، فوات الوفيات، ج1، ص111؛ الصفدي، الـوافي بالوفيات، ج7، ص310؛ السبكي،طبقات الشافعية الكبرى، ج5، ص15؛ ابن كثير، البداية والنهايـة، ج13، ص259.

دور العلماء في فض النزاعات وتوحيد الأمة:

لم يقتصر دور العلماء والفقهاء على محاربة البدع والمنكرات والمخالفات وتولي الوظائف الإدارية، بل تعداه إلى الانخراط في فض النزاعات التي نشبت بين السلاطين والأمراء وفي إصلاح ذات البين بين أصحاب القرار على الساحة الإسلامية وجنبوا البلاد الكثير من المشاكل والصعوبات التي كانت ستحدث لولا تدخلهم، كذلك أنكروا التهاون أو التعامل مع الأعداء بشكل أو آخر، وقام العلماء بمساعي حميدة في توحيد الأمة والعمل على تماسك جبهتها الداخلية والخارجية. ولقد كان لجهود القاضي برهان الدين البلخي(ت.548هـ=1153م)، أثر واضح في مصالحة نور الدين محمود مع أهالي دمشق وضمها إلى ممتلكاته سنة(549هـ=1154م)[1].

وكان للعلماء دور عظيم، عند ظهور بوادر الفتن الخطيرة وعندما أسند أمر الوزارة في مصر إلى صلاح الدين الأيوبي من قبل الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله سنة(564هـ=1169م)، وعندها ثارت القيادات في الجيش النوري لتولي صلاح الدين قيادة الجيش والوزارة معاً، وكادت الفتنة تشتعل والزمام يفلت لولا تدخل الفقيه عيسي الهكاري لدى هؤلاء القادة و نجح في تهدئة بعض القادة الساخطين وفيهم خال صلاح الدين، وأقنع البقية التي أبت الخضوع لقيادة القائد الوزير الشاب بالعودة إلى الشام[2].

وما أن بدأت الأمور تستقر لصلاح الدين بصفته وزيراً للخليفة الفاطمي حتى تعرض لمؤامرة كبيرة كانت تهدف إلى إبعاده ورجاله عن البلاد وإعادة الحكم للأسرة الفاطمية التي كانت خلافتها قد أسقطت سنة(567=1171م)، وكان المتآمرون قد اتصلوا بالصليبيين والباطنية في بلاد الشام ليكونوا إلى جانبهم، فلما علم الفقيه علي بن نجا "حضر عند صلاح الدين، وأعلمه حقيقة الأمر، فأمر بملازمتهم، ومخالطتهم، ومواطأتهم على ما يريدون أن يفعلوه، وتعريفه ما يتجدد أولاً بأول، ففعل ذلك وصار يطالعه بكل ما عزموا عليه"[3]، و تمكن الفقيه علي بن نجا وصلاح الدين من إفشال المؤامرة والقبض

---

(1) ابن كثير، البداية النهاية، ج12، ص229.
(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج11، ص246، 247؛ ابن كثير البداية والنهاية،ج12، ص273.
(3) ابن الأثير،الكامل في التاريخ،ج11، ص287؛ أبو شامة الروضتين، ج1، ص198.

على المتآمرين، وسلمت البلاد من كارثة كادت أن تقع[1]. وكان للفقيه عيسى الهكاري دور جليل في إصلاح الموقف بين صلاح الدين والسلطان نور الدين محمود عندما اعتذر صلاح الدين عن الزحف إلى حصن الكرك كما طلب قائده نور الدين الذي قبل وساطة الهكاري وحمله رسالة إلى صلاح الدين مفادها أن حفظ مصر أهم عنده من غيرها[2].

لقد أدت وفاة نور الدين محمود سنة(569هـ=1173م)، إلى اضطراب الأوضاع السياسية في المنطقة؛ وخاصة عندما تسلم صلاح الدين زمام القيادة في مصر، وفي بلاد الشام تسلمها ابن نور الدين الطفل الملك الصالح إسماعيل(ت.577هـ=1181م)، فمن الطبيعي أن تؤول السلطة الفعلية في الشام إلى القادة الذين كانوا في خدمة أبيه، والذين أصبحوا أوصياء على هذا الطفل، وفيهم عدد من أولئك الذين أبوا من قبل أن يعملوا في مصر تحت قيادة صلاح الدين[3]؛ وفي ظل هذه الأحوال المضطربة، بدأ صلاح الدين مساعيه في توحيد مصر والشام تحت قيادة واحدة، فكان للعلماء دور بارز وجليل في هذا الجانب، وخاصة الفقيه عيسى الهكاري، والقاضي الفاضل[4]، فقد أوفد السلطان صلاح الدين الفقيه عيسى الهكاري نائباً عنه لمفاوضة وزير خلاط مجد الدين بن الموفق بن رشيق[5] التي تسلمها، بعد وفاة أميرها شاه أرمن[6]، حيث كثر الطامعون في حكمها وكان من بينهم هذا الوزير، وبدأ الهكاري بالاتصال مع مختلف الأطراف ونجح في مصالحتهم وهدأت الأمور في خلاط لصالح الوزير المذكور مجد الدين بن الموفق بن رشيق، فأبدى الفقيه عيسى الهكاري براعته وحنكته وحكمته في احتواء هذا الوضع[7].

---

(1) ابن الأثير،الكامل في التاريخ،ج11،ص288؛ أبو شامة الروضتين،ج1،ص235؛ابن كثير البداية والنهاية،ج 12، ص275.

(2) ابن الأثير،الكامل في التاريخ، ج11، ص376؛ أبو شامة الروضتين، ج1، ص235.

(3) أحمد، مصر والشام والصليبيون، ص120.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص168

(5) لم اعثر له على ترجمة.

(6) هو ناصر الدين محمد بن إبراهيم بن سكمان القطبي شاه أرمن صاحب خلاط، اتصف بالشجاعة والكرم والمكر،وتسلم مملوكه بكتمر الأمر من بعده. توفي سنة 581هـ=1185م، أنظر، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص206؛ ابن شداد، النوادر السلطانية،ص26؛ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب،ج2، ص70؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء،ج21، ص239؛ ابن الوردي، تاريخ،ج2، ص93؛ الصفدي،الوافي بالوفيات،ج5، ص189؛ ابن خلدون، تاريخ، ج5، ص179.

(7) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص168، 169؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج41، ص7،6.

كذلك كان له دور بارز وجليل، عندما علم صلاح الدين بأن ابن أخيه تقي الدين عمر[1] الذي أنابه عنه في مصر أثناء مرضه وقام ببعض الأعمال التي تدل على رغبته في الاستبداد بالحكم في مصر فقام عيسى الهكاري بالذهاب إلى مصر ومنع تقي الدين عمر من الاستقلال بحكم مصر بعيداً عن قيادة صلاح الدين[2].

وكان للفقيه أبو المحاسن ابن شداد[3] دور بارز في ضم الموصل تحت قيادة صلاح الدين، عندما رفض أميرها شرف الدين التعاون مع صلاح الدين، فما كان من صلاح الدين إلا أن يأخذها عنوة، بعدما مهد له ابن شداد الطريق، حيث ذكر ابن شداد:" فسيرت رسولاً إلى بغداد وأتيت بغداد في يومين وساعتين مستنجداً بهم[4]، وتارة أخرى يعهد إليه بالسفارة إلى صلاح الدين فيقول:" سرنا حتى أتينا دمشق ... وأقمنا أياماً في أفضل حال، فلم نوفق في الصلح تلك الدفعة وخرجنا راجعين إلى الموصل[5].

وتدخل بعض العلماء في الصراعات الداخلية بين أبناء البيت الأيوبي فقد شارك الفقيه عماد الدين عمر[6]عقب وفاة الملك الكامل محمد سنة(635هـ=1237م)، في تقرير

---

(1) هو السلطان محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، صاحب حماه، و ابن أخ السلطان صلاح الدين، ولد سنة 567هـ=1171م، كان شجاعا يحب العلماء ، وورد إليه منهم جماعة مثل السيف الآمدي، وصنف له مصنفات مثل المضمار في التاريخ وطبقات الشعراء، وله شعر، وبنى الجسر بحماه خارج باب حمص، وله مع الفرنج حروب كثيرة، توفي سنة 617هـ=1220م رحمه الله تعالى. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج12، ص362؛ أبو شامة، الروضتين، ج1، ص221؛ ابن الوردي، تاريخ،ج2، ص137؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص335.

(2) أنظر،ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج11، ص146.

(3) هو بهاء الدين، قاضي القضاة أبو المحاسن بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم الأسدي، ولد سنة 539هـ=1144م، بالموصل ونشأ فيها ودرس القراءات السبع وروى الحديث وقرأ الفقه والتفسير واشتغل بالخلاف والأدب عُين معيدا بالمدرسة النظامية ببغداد سنة 569هـ=1173م، وفي سنة 584هـ=1188 اتصل بخدمة صلاح الدين الأيوبي فولاه قضاء القدس وقضاء العسكر، كما فوض إليه الإشراف على المدرسة الصلاحية في بيت المقدس والتدريس فيها، وجعل النظر فيها وفي أوقافها إليه، وبعد وفاة صلاح الدين رحل ابن شداد إلى حلب واتصل بخدمة ملكها الظاهر غازي الذي ولاه قضاء حلب، فاعتنى بها . وقد وضع ابن شداد كتاب (النوادر السلطانية) تناول فيه سيرة السلطان صلاح الدين الأيوبي توفي سنة 632هـ=1234م.أنظر ترجمته، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج7، ص84-91؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج8، ص360، 361؛ العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص102؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص158، 159.

(4) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص102.

(5) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص112.

(6) هو عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ بن حمويه، ولد سنة 581هـ=1185م، وكان تمام العقل والفضل والكرم والرئاسة، ومعدوم المثل في وقته، نال قسطاً وافراً من العلم أهله للتدريس في المدرسة الصلاحية ، ونظراً لمكانته العالية جمع له الملك الكامل محمد بين رئاسة العلم والقلم سنة 633هـ=1235م، كما كان في الوقت نفسه فارساً ماهراً كذلك لم يكن بعيداً عن شؤون السياسة والحكم فقد استعان به الملك الكامل محمد في تصريف شؤون الدولة، تم اغتياله سنة 636هـ=1238م، على يد الملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود، كما صادر أمواله وخيوله

=

مصير الممالك الأيوبية في بلاد الشام والديار المصرية، عندما لعب دوراً سياسياً هاماً في إقرار الملك الجواد مظفر الدين[1] على حكم دمشق، وإبعاد الناصر داود(ت.656هـ=1257م)،عنها[2].

ومن الفقهاء الذين عملوا في هذا المجال، القاضي الأشرف بهاء الدين بن القاضي الفاضل[3] زمن السلطان الكامل [4]، كذلك الشيخ محيي الدين بن الجوزي[5] والذي توجه من بغداد إلى مصر لحل نزاع بين الملك العادل بن الكامل وأخيه الصالح في مصر[6].

=

ومماليكه، وقد أقيمت له جنازة عظيمة وصلى عليه بجامع دمشق وكان من بين الذين حضروا جنازته المؤرخ أبو شامة. ابن واصل، مفرج الكروب، ج5، ص170-173؛ الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر، ج7، 328؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2، ص33،32.

(1) هو يونس بن مودود بن محمد بن أيوب، السلطان الملك الجواد مظفر الدين ابن الأمير مظفر الدين ابن الملك العادل أبي بكر؛ نشأ في خدمة عمه الكامل، ويقال إن أمه كانت إفرنجية، فوقع بينه وبين عمه الكامل، فتألم، وجاء إلى عمه المعظم، فأكرمه، ثم عاد إلى مصر، واصطلح هو والكامل وكان جوادا مبذرا للخزائن، قليل الحزم، وفيه محبة للصالحين، والتف حوله ظلمة، ثم تزلزل أمره،وكان يحب بالصالحين والفقراء. توفي سنة 641هـ=1243م، ودفن بقاسيون بتربة المعظم العظم. أنظر، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج23، ص184،185؛ تاريخ الإسلام، ج47، ص103، 104؛ الكتبي، فوات الوفيات،ج4، ص396؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج2، ص84،83.

(2) الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر، ج7، 328.

(3) هو عبد الرحمن بن علي بن أحمد بن عبد الرحيم بن علي، الأجل سعد الدين أبو القاسم بن زين الدين أبو الحسن ابن القاضي الفاضل البيساني الأصل المصري. كبير المنزلة عند الملوك، وكان مثابرا على سماع الحديث وتحصيل الكتب، ولد سنة 573هـ=1177م، بالقاهرة، وتوفي بها في سنة 643هـ=1245م،، ودفن بسفح المقطم إلى جانب قبر أبيه. ابن خلكان، وفيات الأعيان،ج3، ص163؛ الصفدي،الوافي بالوفيات،ج6،ص85؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج4، ص325.

(4) أنظر،ابن خلكان، وفيات الأعيان،ج3، ص163.

(5) هو يوسف بن عبد الرحمن بن عليّ بن محمد بن عليّ بن عُبَيْد الله. الصاحب العلامة محيي الدين، أبو المحاسن بن الإمام جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي، البكري، البغدادي، الحنبلي، أستاذ دار المستعصم بالله. وُلد سنة 580هـ=1184م، وتفقه، وسمع الكثير من أبيه، وتفقه عليه جماعة من البغداديين وغيرهم. وكان إماما كبيرا وصدرا معظما، عارفا بالمذهب الحنبلي، كثير المحفوظ، حسن المشاركة في العلوم، مليح الوعظ، حلو العبارة، ورأى من العز والاحترام والإكرام شيئا كثيرا من الملوك والأكابر، وكان محمود السيرة، محببا إلى الرعية. قتل هو وابنه بأمر الطاغية هولاكو سنة 656هـ=1257م.أنظر، أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص26؛ أبو الفداء، المختصر في تاريخ البشر،ج3، ص194؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج48، ص306،307،308؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج2، ص258-261؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،ج7، ص51؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص286، 287.

(6) أنظر،ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج6، ص247؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج5، ص150-152؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص159؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ص257،256.

وتوجه القاضي كمال الدين بن العديم[1] رسولاً من حلب للتوفيق بين الملك المجاهد أسد الدين شيركوه[2] صاحب حمص، والملك المظفر[3] صاحب حماة، وقد بذل ابن العديم في سفارته هذه أقصى جهوده ليوفق بين الطرفين المتنازعين، ولكن أبى كل منهما أن يجيب صاحبه إلى ما يريد فأضطر ابن العديم بالتوجه إلى حلب[4].

ونجح محتسب دمشق محمد بن أبي الفتح الصوفي[5] سنة (619هـ=1222م) في المهمة التي أوكلت له من قبل الملك المعظم عيسى(ت.624هـ= 1226م)، عندما سافر لجلال الدين خوارزم مشاه[6] طالباً منه المساعدة ضد تحالف أخويه الأشرف والكامل ضده ولما عاد الشيخ محمد بن أبي الفتح أضاف إليه الملك المعظم، لقب مشيخة الشيوخ[7]،[8].

---

(1) هو عمر بن أحمد بن هبة الله بن محمد بن هبة الله بن أحمد بن يحيى بن العديم الحنفي، القاضي، الأمير، الوزير، الرئيس الكبير، سمع الحديث وحدث وتفقه وأفتى ودرس وصنف ، وكان إماماً في فنون كثيرة وقد ترسل الى الخلفاء والملوك مراراً عديدة، وهو صاحب كتاب تاريخ حلب في اربعين مجلداً. وكان جيد المعرفة بالحديث، أقام بدمشق في الدولة الناصرية المتأخرة، وكان قد قدم إلى مصر لما جفل الناس من التتر. توفي بمصر سنة 660هـ=1261م. أنظر، ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج16، ص5، 75؛ أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص217.

(2) هو الملك المجاهد أسد الدين شيركوه ابن محمد بن شيركوه بن شادي صاحب حمص ولد سنة 569هـ=1173م، صاحب حمص، كان كثير التعدي على صاحب حماة وبينهما عداوة عظيمة، توفي سنة 637هـ=1239م وكانت مدة ملكه بحمص نحوا من 56 سنة، وقام من بعده ابنه الملك المنصور ناصر الدين إبراهيم. أنظر، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص147؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان،ج1، ص190؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك ،ج2، ص93؛ ابن العماد، شذرات الذهب،ج5، ص183.

(3) هو محمود بن محمد المنصور بن عمر المظفر بن شاهنشاه، تقى الدين، الملك المظفر ولد سنة 599هـ=1202م، صاحب حماة ، كان شجاعا كريما ذكيا محبا للعلماء، ولي حماة سنة 626هـ=1228م، بعد انتزاعها من أخيه الناصر قليج أرسلان، واستمر إلى أن توفى سنة 642هـ=1244م. أنظر،أبو الفداء، المختصر في تاريخ البشر، ج1، ص417؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج2، ص90؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج4، ص336؛ الزركلي، الأعلام،ج 7، ص182.

(4) ابن العديم، زبدة الحلب، ج3، ص235.

(5) هو صدر الدين أبو الحسن محمد بن أبي الفتح، كان محتسباً لمدينة دمشق، آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر، كان خبيراً بشؤون البلاد الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، توفي سنة 630هـ=1232م. للمزيد عن ترجمته، انظر ابن كثير، البداية والنهاية، ج 13 ، ص9.

(6) هو جلال الدين بن خوارزم شاه، كان سيئ السيرة، قبيح التدبير لملكه، لم يترك أحداً من الملوك المجاورين له إلا عاداه ونازعه الملك وأساء مجاورته، ولقب خوارزم شاه، يحمله كل من يعد نفسه خليفة سلاطين السلاجقة في ملكهم بآسيا الغربية، للمزيد عن ترجمته، انظر، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 13 ، ص 490.

(7) مشيخة الشيوخ، هي من أكبر المناصب الدينية، مهمتها النظر في أمور المؤسسات الاجتماعية والدينية، ومشيخة شيوخ الصوفية، وظيفتها الإشراف على جميع الخوانق والزوايا، ورفع مطالبهم إلى الحاكم، والتحدث باسمهم، القلقشندى، صبح الأعشى، ج 4، ص2.

(8) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص115.

ووفق القاضي محيي الدين بن زكي الدين[1] بسفارته إلى مصر سنة(594هـ=1197م) من قبل الملك العادل، إلى الملك العزيز عثمان(ت.595هـ=1198م)، طالباً إرسال المدد بسبب نزول الصليبيين على بلدة تبنين[2] "فأرسل العساكر وقدم بنفسه فرحل الفرنج خائبين لما تحققوا من قوة الجيش الإسلامي"[3].

إن سلسلة الخلافات والمشاحنات كثيرة وخطيرة على حياة الأمة والمجتمع الإسلامي ولم يتعظ أولي الأمر بما سمعوه أو شاهدوه من تلك الخلافات، لذلك سخر العلماء والفقهاء كل طاقاتهم في فض النزاع بين أبناء الأمة الإسلامية وتوحيدها تحت راية واحدة، لقد تم الصلح بين الأخوين الملك العزيز عثمان حاكم مصر والأفضل حاكم الشام، أبناء صلاح الدين بمساعي وجهود رجل الدولة القاضي الفاضل، والقاضي أبو المحاسن وقد تضرر المسلمون بهذا النزاع بين أبناء صلاح الدين، وقد تحسر القاضي الفاضل لما وقع بين الأخوة فقال:"أما هذا البيت{يعني البيت الأيوبي} فإن الآباء منه اتفقوا فملكوا، والأبناء اختلفوا فهلكوا وإذا غرب نجم فما في الحيلة تشريقه، وإذا بدا خرق ثوبٍ فما يليه إلا تمزيقه، وهيهات أن يسد على قدر طريقه، وقد قدر طروقه، وإذا كان الله مع خصم على خصم، فمن كان الله معه فمن يطيقه"[4].

هذا وقد أزال سلطان العلماء الشيخ عز الدين بن عبد السلام(ت.660هـ=1261م) الجفوة بين أبناء السلطان العادل، وصلحت الأمور بينهم[5]

(1) هو القاضي محيي الدين بن الزكي أبو الفضل يحيى بن قاضي القضاة بهاء الدين أبي المعالي محمد بن علي بن محمد بن يحيى بن علي بن عبد العزيز بن علي بن عبد العزيز بن علي بن الحسين بن محمد بن عبد الرحمن بن القاسم ابن الوليد بن عبد الرحمن بن أبان بن عثمان بن عفان القرشي الأموي بن الزكي، تولى قضاء دمشق غير مرة، وكذلك آباؤه من قبله، كل قد وليها، وقد سمع الحديث، وحدث ودرس في مدارس كثيرة، وقد ولي قضاء الشام فلم يحمد عليها، توفي سنة 668هـ=1269م، ودفن بالمقطم وقد جاوز السبعين. أبو شامة، الروضتين، ج1، ص234؛ابن كثير ،البداية والنهاية،ج13، ص299.

(2) تبنين، بلدة مطلة على بلد بانياس بين دمشق وصور. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص14.

(3) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص13.

(4) ابن خلكان،وفيات الأعيان،ج3،ص420.

(5) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج5، ص99،98.

وقد دفع الشيخ عماد الدين عمر(ت.636هـ=1238م)، حياته ثمناً لتدخله في المصالحة بين الملك العادل وابن عمه الجواد نائبه في دمشق[1].

وفي غمرة الخلافات بين أبناء الأسرة الأيوبية كانت للشيخ محيي الدين بن الجوزي مساعي محمودة في إصلاح ذات البين بين المتنازعين من هذه الأسرة المجاهدة فقد قدم من بغداد لفض الخلاف بين الأخوين السلطان الكامل صاحب مصر، والصالح إسماعيل حاكم دمشق، حيث نجحت مساعيه بأن سلم الصالح إسماعيل حكم دمشق لأخيه الكامل وظل له حكم بصرى[2] وبعلبك[3]. وكذلك قدم رسولاً من بغداد إلى الملك العادل بن الكامل سلطان مصر آنذاك، وكان أخوه الصالح نجم الدين(ت.647هـ=1249م) محبوساً في قلعة الكرك، وطلب الشيخ محيي الدين بن الجوزي من الملك الناصر داود صاحب القلعة ألا يخرج الصالح من السجن إلا بأمر الملك العادل، وعندما سئل الشيخ عن السبب، قال: "هذا ما اقتضته المصلحة العامة، وتم له ما أراد ما دامت المصلحة العامة هي الهدف[4].

وفي أواخر عهد الدولة الأيوبية، وبعد مقتل توران شاه[5] على أيدي المماليك البحرية[6] لاحت بوادر انقراض دولة بني أيوب في مصر، وبدت ملامح الدولة المملوكية في الظهور على تلك الأرض، وبدأ معها الصراع الأيوبي المملوكي، الذي ظل مستعراً في صورة مناوشات ومعارك إلى أن تم الاتفاق بينهما بتوسط الخليفة العباسي

---

(1) عن مساعي هذا العالم الجليل في إصلاح والتوفيق بين أبناء البيت الأيوبي أنظر،أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص66؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج5، ص200-202؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،ج6،ص303-314؛ الحنبلي،شفاء القلوب،ص391؛ابن العماد،شذرات الذهب،ج5،ص181.

(2) بصرى، موضع بالشام، من أعمال دمشق وهي قصبة كورة حَوران مشهورة عند العرب قديماً وحديثاً ذكرها كثيراً في أشعارهم. ياقوت الحموي، معجم البلدان،ج1،ص318.

(3) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص148؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج2،ص88.

(4) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج6، ص247؛اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج1، ص129.

(5) هو الملك المعظم غياث الدين توران شاه بن الصالح نجم الدين أيوب، بعد أن هزم الصليبيين في معركة المنصورة سنة 648هـ=1250م، بدت منه خفة وطيش، خرج عليه بسببها مماليك أبيه وقتلوه بالسيف، فهرب إلى برج خشبي فأحرقوا عليه البرج فقفز إلى النيل فقتلوه بالنبال، فمات شر موتة، حريقاً غريقاً، سنة 648هـ=1250م. للمزيد عن ترجمته، انظر، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 227 ؛اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، ج4، ص 92؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ص 457؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج 5، ص 240.

(6) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص75 ؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج 3، ص 108.

المستعصم بالله[1] في سنـــة (651هــ=1253م)، بإرسال الشيخ نجم الـــدين البـــادراني[2] رسولاً للمصالحة بين الأيوبيين والمماليك وتمكن الشيخ من إيقاف القتال وتوقيع صلح بين الطرفين[3].

تعاون السلاطين مع العلماء في محاربة الفساد:

سعى العلماء والفقهاء من خلال ما شغلوه من مراكز ووظائف مختلفة إلى التـــأثير على السلاطين والأمراء وأولي الأمر، من أجل تخليص المجتمع مـــن الأمـــراض التـــي انتشرت بين فئاته ولا تجد أفضل من التعاون بين العلماء والحكام لقيادة مركب الأمة إلـــى بر الأمان؛ فإن العلماء دعاة بألسنتهم وأصحاب السلطان دعاة بألسنتهم وسلطانهم، وباتفاق العلماء وأصحاب السلطان وتعاونهم تتقدم الأمة، ويصلح أمر الـــبلاد والعبـــاد، فالعلمـــاء ورثوا من مقام النبوة العلم وأهل السلطان ورثوا من مقام النبوة القوة، فبالعـــدل والتقـــوى تبنى الأمم ويسود الأمن وبغيرها يكون خراب العباد والبلاد[4] قال تعالي: " وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ"[5].

وقد استجاب بعض السلاطين والأمراء لنصائح وإرشادات العلماء والفقهاء في صد المنكرات والفواحش، وتعاونوا معاً في تطهير المجتمع من بعض الآفات التي انتشرت في تلك الحقبـــة وبناء على نصيحتهم أصدر الملك العزيز عثمان، أمراً بمنع

---

(1) هو الخليفة العباسي، المستعصم بالله عبد الملك بن المستنصر بالله العباسي، كان حليماً كريمـــاً ســـليم الباطن، قليل الرأي، .رزق الشهادة على أيدي التتار، سنة 656هــ=1257م. للمزيد عن ترجمته، انظر ، اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان،ج 4، ص107؛ ابن كثير، البدايـــة والنهاية، ج13 ، ص204 ؛ ابن العماد، شذرات، ج5، ص2.

(2) هو أبو محمد عبد الله بن أبي الوفاء محمد بن الحسن بن عبد الله بن عثمان بن أبـــي الحـــسن بـــن حسون البغدادي البادرائي الشافعي، ولد سنة 594هــ=1197م، ببغداد ودرس بالمدرســـة النظاميـــة، وبمدرسته التي أنشاها بدمشق وكان شيخاً فاضلاً صالحاً فقيهاً، كريماً متواضعاً، وكان رئيساً وقوراً، وكان يقدم إلى الشام والديار المصرية رسولاً من قبل آخر خلفاء بغداد المستعصم. وبنـــي بدمـــشق مدرسته المعروفة بالبادرائية للفقهاء الشافعية، وقف عليها وقوفاً حسنة، وجعل بها خزانة كتب جيدة، ثم رجع إلى بغداد وتولى بها قضاء القضاة على كره منه لذلك وكان رسول الخلافة إلى ملوك الأفاق في الأمور المهمة وإصلاح الأحوال المستعصية توفي سنة 655هــ=1256م. أنظر ترجمتـــه، أبـــو شامة الذيل على الروضتين، ص198؛ ابن كثير، البدايـــة والنهايـــة، ج13، ص209؛ المقريـــزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ص407؛ابن تغري بردي، النجوم الزاهـــرة فـــي ملـــوك مـــصر والقاهرة،ج7، ص57؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص269.

(3) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص209؛المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 1، ص407.

(4) عدوان، دور العلماء في إصلاح المجتمع، ص85.

(5) سورة المائدة، آية، 2.

ركوب المتفرجين في المراكب وخاصة في أيام المواسم والأعياد، حيث كان الناس يجتمعون رجالاً ونساء على شاطئ النيل يمرحون ويلعبون، ويصحب ذلك فساد كبير[1].

كذلك أبطل السلطان الملك العادل، المحرمات والخمور والمعازف[2]، ولم يكن أحد يتجاسر أن ينقل ملء كف خمر إلى دمشق إلا بالحيلة، وقد أثنى ابن كثير على عمل السلطان وأنكر عمل ابنه المعظم فقال:" فجزى الله العادل خيرا، ولا جزى المعظم خيرا على ما فعل الذي أعاد ضمان القيان، والخمور والمغنيات وغير ذلك من الفواحش والمنكرات، واعتذر المعظم في ذلك بأنه إنما صنع هذا المنكر لقلة الأموال التي يحتاجها للإنفاق على الجند واحتياجهم إلى النفقات في قتال الفرنج"[3].

وتجاوب السلطان الكامل، مع العلماء واستتب الأمن وانتشر في ربوع البلاد ما بين العريش[4] ومصر، حيث كان التجار المسافرون يقطعون هذه المسافة وهم يحملون الذهب الكثير دون خوف أو وجل من قطاع الطرق واللصوص، فقد حدث أن سرق مرة بساط من أحد التجار فألزم السلطان العربان الذين كانوا يقومون بحراسة الطريق بإحضار البساط فأحضروه، وأحضر معه السارق الذي أودع في السجن[5]، ويؤكد ابن كثير على استتباب الأمن في ربوع البلاد في هذه الفترة التي حكمها السلطان الكامل، إن الطرقات "كانت في زمانه آمنة، والرعايا متناصفة لا يتجاسر أحد أن يظلم أحدا، وأنه شنق جماعة من الأجناد أخذوا شعيرا لبعض الفلاحين بأرض آمد، واشتكى إليه بعض الركبدارية أن أستاذه استعمله ستة أشهر بلا أجرة، فأحضر الجندي وألبسه قباب الركبدارية وألبس الركبداري ثياب الجندي، وأمر الجندي أن يخدم الركبدار ستة أشهر على هذه الهيئة، ويحضر الركبدار الموكب والخدمة حتى ينقضي الأجل فتأدب الناس بذلك غاية الأدب"[6].

---

(1) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2، ص116.
(2) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص94.
(3) البداية والنهاية،ج13، ص96،97.
(4) العريش،مدينة كانت أول عمل مصر من ناحية الشام على ساحل بحر الروم في وسط الرمل. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص113.
(5) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ص84
(6) البداية والنهاية، ج13، ص174.

واستمر السلاطين على نفس النهج في مكافحة أنواع الفساد والمنكرات فقد اشتد السلطان الظاهر بيبرس، في محاربة كل منكر ومفسد، فأمر منذ البداية بإراقة الخمور ومنع الحانات وهي أمكنة للهو والعبث وتتبع الخواطئ في مصر والشام حتى طهر جميع البقاع[1]؛ وفي عهده ألقى القبض على عصابة من الرجال والنساء كانوا يقومون باستدراج ضحاياهم ويسلبون ما معهم بعد أن يقتلوهم ويدفنوهم في داخل الدار وسُمر[2] الجميع وحولت الدار إلى مسجد أطلق عليه مسجد الخناقة[3].

كذلك أصدر السلطان المنصور قلاوون، أمراً بإراقة الخمور، بعد أن زاد شرب الخمر، ومنع التظاهر بشيء من المنكرات[4]، وفي عهده قام الشيخ قطب الدين القسطلاني[5] بإبطال بدعة اعتاد الناس على ممارستها، فكانوا في مصر يركعون أمام أبي الهول، فما كان من الشيخ إلا أن يصعد على رأس أبي الهول يومياً إهانة له ومخالفة للناس الذين كانوا يتبركون به[6] وفي عهده تصدى والي القاهرة علم الدين سنجر المسروري[7]، إلى رجلين ارتكبا من المفاسد الشئ الكثير، إذ كانا يقومان بإرسال رسائل

(1) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج3، ص444؛ الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر، ج2، ص296؛ الكتبي، فوات الوفيات، ج1، ص245؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ص147.

(2) التسمير، عقوبة السرقة المقترنة بالقتل، وطريقتها أن يعرى المحكوم عليه من الثياب ثم يربط إلى خشبتين على شكل صليب، ويطرح على ظهر جمل، وربما طيف بالمحكوم عليه في شوارع القاهرة، وهو على هذه الحال، وقد يترك هكذا إلى أن يموت وكانت هذه العقوبة تطبق على كل مفسد ومرتكب منكر. المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ص323.

(3) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ص173؛ عدوان، دور العلماء في إصلاح المجتمع، ص92.

(4) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص276؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ص224.

(5) هو الشيخ محمد بن أحمد بن علي بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن أحمد بن ميمون الأمام الزاهد قطب الدين أبو بكر القسطلاني الأصل المصري ثم المكي ابن الشيخ الزاهد أبي العباس، ولد بمصر سنة 614هـ=1217م، ونشأ بمكة وسمع بها جامع الترمذي وقرأ العلم ودرس وأفتى ورحل في طلب الحديث إلى بغداد والشام ومصر والموصل ، وكان شيخا عالما عاملا زاهدا جامعا للفضائل كريم النفس كثير الإيثار حسن الأخلاق قليل المثل، وله بعض التصانيف الإفصاح عن المعجم من الغامض والمبهم، و اقتداء الغافل باهتداء العاقل و تفسير آيات من القرآن الكريم و تكريم المعيشة بتحريم الحشيشة. توفي سنة 685هـ=1286م.ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص190؛ الصفدي،الوافي بالوفيات،ج1، ص205؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص179؛الزركلي، الأعلام، ج5، ص323.

(6) الصفدي،الوافي بالوفيات،ج 1، ص205.

(7) هو الأمير علم الدين سنجر المسروري، متولي القاهرة الملقب (الخياط)، لقبه به أستاذه الذي اشتراه، وكان ذا شكل حسن، مهابا مصطنعا للناس بالخير في ولايته، عاقلا محتشما، متعقلا عما يبدو من الفواحش، رضى الأخلاق مع لطف وكرم توفي سنة 698هـ=1298م. أنظر،أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر،ج1، ص476؛ العيني،عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان،ج1، ص303؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك،ج1، ص226.

إلى الأغنياء يطلبان منهم دفع مبلغ من المال وإلا تعرضـــوا للـــسلب والنهـــب أو القتـــل والضرب أحياناً، وبعد إلقاء القبض عليهما شهر بهما عدة أيام ثم أمر بتسميرهما[1].

وفي سنة(554هــ=1159م)، عقد نور الدين مجلساً دعا إليه القضاة وكبار رجال الدولة للنظر في أوقاف المسجد الأموي، وكان شيوخ في الجامع قد أدخلوا في أوقافه عقارات، ويبدو أن السلطان نور الدين كان يجتهد في الصرف من هذه الأوقاف على المرافق العامة والتحصينات والمصالح العسكرية، وناقش الحاضرون القضية بحرية تامة، وخرجوا برأي مخالف لرأي السلطان أي بعدم السماح بصرف فواضل الأوقاف في تلك الوجوه، بل أجازوا أن يقترض من هذه الأموال على أن يردها فيما بعد إلى بيت المال فقبل السلطان رأيهم[2].

هذه نماذج توضح ثمرة جهود العلماء وتأثيرها على السلاطين والأمراء، وتجاوب هؤلاء معهم في قمع المخالفات والمفاسد دون أن يجدوا في استجابتهم أي غضاضة أو نقص في هيبتهم وسلطتهم التي كانت موضع تقدير واحترام من فئات المجتمع المختلفة.

---

(1)العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان،ج1، ص303،304؛ المقريـــزي، الـــسلوك لمعرفـــة دول الملوك،ج1، ص225، 226.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص278-281؛ عدوان، دور العلمـــاء فـــي إصـــلاح المجتمـــع، ص51.

المبحث الثالث:

دور العلماء في محاربة التيارات الفكرية المنحرفة:

- نقد خصائصها الفكرية العامة.
- تأليف الكتب للرد على الفلاسفة و التحذير من مؤلفاتهم.
- الإفتاء بمنع دراسة كتب الفلسفة و تدريسها وإهدار دم بعض رجالها.

إن المعارك الفكرية ليست بأقل خطراً في حياة الأمة من المعارك العسكرية، ذلك أن الغزو الفكري أسوأ وأشد خطراً على الأمة من الغزو العسكري، وخاصة إذا حمل هذا الفكر رجال كبار من المسلمين ممن لهم مكانة عريقة في المجتمع الإسلامي، وبين النــاس على مستوى أقطار العالم الإسلامي؛ وقد شكل انتشار الفكر الفلسفي بين طبقات المجتمــع في تلك الحقبة التاريخية الخاصة بالدراسة خطراً جسيماً على معتقدات الناس وســلوكياتهم مما جعل على علماء وفقهاء السنة التصدي لهذه الأفكــار ومقاومــة رجالهــا، واتخــذت المقاومة السنية العملية للفلسفة و رجالها أشكالا متعددة ووسائل متنوعة منها:

نقد خصائصها الفكرية العامة:

ركّز بعض العلماء في مقاومتهم للفلسفة اليونانية على نقــد خصائــصها الفكريــة العامة، من حيث منهجها الفكري، مبينين زيف إلهيات اليونان و أتباعهم مــن المــسلمين وغيرهم، وكشفوا أباطيلهم و ضلالاتهم، معتمدين على منهج جمع بين صــحيح المنقــول وصريح المعقول في غالب الأحيان، فمن هؤلاء العلمــاء حجــة الإســلام أبــو حـــامد الغزالـــي(ت.505هـــ= 1111م)، حيث اعتبر أن منهج الفلاسفة يفتقد إلى الإتقان، ويقــوم على الظن و التخمين[1].

وكذلك انتقد العالم والفقيه عبد الــرحمن بــن الجــوزي (ت.597هـــــ=1200م) انحراف الفلاسفة المنهجي في أنهم أبعدوا الوحي من طريقهم وانفردوا بآرائهم وعقــولهم وتكلموا بمقتضى ظنونهم في مختلف قضايا الكون وهذا كلــه مــن تلبيــسات الــشيطان عليهم[2].

وأما شيخ الإسلام ابن تيمية (ت.728هـــ= 1327م)، فقد ذكر أن منهج الفلاســفة يقوم على الظنون الكاذبة، والأقيسة الفاسدة، والتصورات الكلية الباطلــة، فيكوّنــون فــي أنفسهم تصورات كلية مجردة ثم يظنون أنها موجودة في الخارج كتصورهم لإنسان كلــي أو لفرس كلي أزلي، أو للعقول العشرة و النفوس الفلكية، و هذه كلها تصورات باطلة هي في غاية الفساد[3]. وانتقد ابن تيمية الفلاسفة المسلمين في أنهم أقاموا منهجهم الفلسفي على

---

(1) أنظر،حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج1، ص509.
(2) تلبيس إبليس، ص59-61.
(3) الرد على المنطقيين، ص308.

إبعاد الوحي و إتباع سبيل سلفهم الضالين المليء بالتناقضات، التي لا تخفى على أذكيـــاء الصبيان، فأقاموا ضلالهم على ضلال غيرهم، و تعلّقوا بالكذب في المنقولات و بالجهــل في المقولات[1].

وكذلك انتقد ابن تيمية بعض كبار الفلاسفة، كالفارابي و ابن سينا فقال:" إن كلام شيخهم أرسطو في الإلهيات ففي غاية الاضطراب مع قلته فهو لحم جمل غث على رأس جبل وعر لا سهل فيرتقي ولا سمين فينتقل هو قليل كثير الضلال عظيم المشقة يعرفه كل من له نظر"[2] لكنه مع ذلك اعترف بأن لأرسطو كلام جيد في الطبيعيات مع قليل من الخطأ، و صواب كثير في الرياضيات، و كلامه فيها ككلام غيره من الناس لهم فيها غلط قليل[3].

وذكر ابن القيم الجوزية(ت.751هـ=1350م) أن الفلسفة مبنية على الجهل والرجم بالغيــب والقول على الله بغير علم فزعمت أن العالم صدر عن العقول والنفوس، والكل صدر عن الواحد، الذي لا علم له بما صدر عنه، والواحد –أي الله – لا يصدر عنه إلا الواحد، و قولهم هذا باطل لأن العالم الذي نشاهده فيه تعدد و كثرة في المخلوقات، مما يُكذّب ما زعموه والذي هو" ضحكة للعقلاء، و سخرية لأولي الألباب مع أن هذا كله من تخليط ابن سينا وإرادته تقريب هذا المذهب من الشرائع الإسلامية"[4]. وانتقد ابن كثير(ت.774هـ=1372م)، منهج الفلاسفة في الإلهيات وأعتبره بأنه قائم على الجهل وقلــة العقل والخوض فيما لا يُدركه العقل، والقول على الله بلا علم[5].

أما الإمام ابن حجر العسقلاني (ت.852هـ=1448م)، فقد أشار إلــى أن مــنهج الفلاسفة يقوم على إنكار كثير من حقائق الدين، كإنكارهم تكوير الشمس يوم القيامة "وفتح أبواب السماء ليلة الإسراء إلى غير ذلك من إنكارهم"[6].

---

(1) مجموع الفتاوى، ج9، ص175؛ الرد على المنطقيين،ص186.
(2) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية ج1،ص372.
(3) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية ج 1،ص 372؛ علال، مقاومة أهل الـسنة للفلـسفة اليونانية، ص132.
(4) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ،ج2، ص263؛ علال، مقاومة أهــل الـسنة للفلـسفة اليونانيـــة، ص141.
(5) البداية و النهاية، ج2، ص 86،85.
(6) فتح الباري ، ج7، ص185.

تأليف الكتب للرد على الفلاسفة و التحذير من مؤلفاتهم:

رأي العلماء في تأليف الكتب وسيلة في غاية الأهمية لمقاومة الفلسفة اليونانية ورجالها، وأمر ضروري، حيث مكنتهم هذه المصنفات من توصيل فكرهم وردودهم على تلك الفلسفة إلى مختلف أقطار العالم الإسلامي في حياتهم وبعد مماتهم. فمن هؤلاء العلماء حجة الإسلام أبو حامد الغزالي، الذي لم يترك آفة من الآفات التي أصابت المجتمع في زمانه إلا وانتقدها ووضع لها العلاج، فمن أشهر مصنفاته في نقد الفلسفة و الرد على رجالها كتابه:(تهافت الفلاسفة)، الذي قال عن معتنقيها: "رأيت طائفة يعتقدون في أنفسهم التميز عن الأتراب والنظراء بمزيد الفطنة والذكاء قد رفضوا وظائف الإسلام من العبادات واستحقروا شعائر الدين من وظائف الصلوات ... واستهانوا بتعبدات الشرع وحدوده ولم يقفوا عند توفيقاته وقيوده بل خلعوا بالكلية ربقة الدين بفنون من الظنون"(1).

ووصفه الذهبي:"كشف عورهم، ووافقهم في مواضع ظنا منه أن ذلك حق، أو موافق للملة، ولم يكن له علم بالآثار ولا خبرة بالسنن النبوية القاضية على العقل"(2). وصنف المتكلم المشهور محمد بن عبد الكريم الشهرستاني(3)، كتاباً سماه (المصارعة) أبطل فيه قول ابن سينا بقدم العالم وإنكار المعاد ونفي علم الله تعالى وقدرته وخلقه للعالم، وكتاب(الملل والنحل)(4).

أما شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية(ت.728هـ=1327م)، فله مصنفات كثيرة في الرد على الفلسفة و رجالها، منها :(بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية وأهل الإلحاد)، وكتاب (إبطال قول الفلاسفة في الجواهر العقلية)،وكتاب(إبطال قول الفلاسفة بقدم العالم)، و(إبطال قول الفلاسفة في أن الواحد لا يصدر عنه إلا الواحد)

---

(1) حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون،ج1، ص509.
(2) سير أعلام النبلاء،ج19، ص328.
(3) هو محمد بن عبد الكريم بن أحمد أبو الفتح ابن أبي القاسم الشهرستاني المتكلم على مذهب الأشعري، كان إماماً مبرزاً فقيهاً متكلماً تفقه على أبي نصر القشيري وغيره وبرع في الفقه وقرأ الكلام على أبي القسم الأنصاري وتفرد به، وصنف نهاية الإقدام في علم الكلام والملل والنحل والمناهج وكتاب المضارعة وتلخيص الأقسام لمذاهب الأنام، وكان كثير المحفوظ حسن المحاورة يعظ الناس، دخل بغداد سنة 510هـ=1116م، وأقام بها ثلاثة سنين وظهر له قبول كثير عند العوام، توفي سنة 548هـ=1153م.أنظر، الصفدي، الوافي بالوفيات،ج1، ص409.
(4) ابن قيم الجوزية ،إغاثة اللهفان، ج2، ص 267.

و(الصفدية في الرد على الفلاسفة)، و(الكلام على توحيد الفلاسفة على نظم ابن سينا)، وله في نقد المنطق الأرسطي ثلاثة مصنفات[(1)].

وحذرت طائفة من العلماء من مطالعة كتب الفلسفة –كوسيلة لمقاومتها– فقد كانت لطائفة منهم تحذيرات ومواقف حازمة في النهي عن مطالعة كتب الفلاسفة، فمن ذلك أن القاضي أبى المعالي محمد بن الزكي الدمشقي(ت.668هـ=1269م)، كان ينهي الطلبة عن الاشتغال بكتب المنطق وعلم الكلام، ويمزق مصنفات من وجد عنده شيئا من ذلك[(2)].

وكان الشيخ تقي الدين أبو عمرو بن الصلاح[(3)]، "لا يُمكن أحدا في دمشق من قراءة المنطق والفلسفة والملوك تطيعه في ذلك"[(4)]. وأما الكتب الفلسفية التي حذر منها العلماء فهي تشمل كل كتب الفلسفة، ولكن أشهرها كتابان أولهما(رسائل إخوان الصفا و خلان الوفا)[(5)]وقد حذّر الحافظ شمس الدين الذهبي(ت.748هـ=1347م)، من مطالعة هذه

---

(1) ابن عبد الهادي المقدسي، العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، ص71،52.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية،ج13، ص33، 34؛ علال، مقاومة أهل السنة للفلسفة اليونانية، ص152.

(3) هو عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن موسى بن أبي نصر الإمام العلامة مفتي الإسلام تقي الدين أبو عمرو بن الإمام البارع صلاح الدين أبي القاسم الشهرزوري الموصلي الأصل المربا الدمشقي الدار والوفاة ولد سنة 577هـ=1181م، بشهرزور وتفقه على والده ثم نقله إلى الموصل فاشتغل بها مدة وبرع في المذهب الشافعي ودرس بالقدس بالصلاحية ودرس بالرواحية والشامية الجوانية ودار الحديث الأشرفية وهو أول من درس بها وأفتى وأشغل وكانت العمدة في زمانه على فتاويه. توفي سنة 643هـ=1245م. أنظر، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص243، 244؛ أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص175، 176؛السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج5، ص127؛ابن قاضى شهبة، طبقات الشافعية،ج2، ص113-115؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص221.

(4) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص243، 244؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج5، ص127؛ ابن قاضى شهبة، طبقات الشافعية،ج 2، ص115.

(5) إخوان الصفا وخلان الوفا هؤلاء جماعة اجتمعوا عَلَى تصنيف كتاب فِي أنواع الحكمة الأولى وتتمثل في أفكارها الانحرافات الباطنية والتي تعبر عنها شكلاً ومضموناً، وقد اختلف المؤرخون حول زمن نشأة حركة إخوان الصفاء، وأن أقدم من ذكر إخوان الصفاء هو أبو حيان التوحيدي، ومن خلال ما أورده عنهم يتبين أن موطن نشأتهم كان مدينة البصرة منبت حركة الاعتزال ومرتع المتشيعة والمقر التاريخي لصاحب حركة الزنج، ولقد عرفت جماعة إخوان الصفاء في منتصف القرن الرابع الهجري، وهي فترة شهدت ضعفاً وتردياً كبيراً في قوة ومكانة الخلافة العباسية وتسلطاً أجنبياً خبيثاً ومنحرفاً، وقد تهيأت الظروف خلال هذه المرحلة لظهور العديد من الأفكار والحركات، ومن بينها أفكار إخوان الصفاء، وتكاد المصادر أن تجمع على أن جماعة إخوان الصفا جماعة سرية تتألف من طبقات متفاوتة وفق أسس ذكروها في رسائلهم، وعدد هذه الرسائل إحدى وخمسون مقالة خمسون منها فِي خمسين نوعاً من الحكمة ومقالة حادية وخمسون جامعة لأنواع المقالات عَلَى طريق الاختصار والإيجاز، كما تتفق على أنهم من الشيعة الإسماعيلية وتمثل آرائهم وأفكارهم الفلسفية المبادئ الأساسية لفرقة الإسماعيلية.للمزيد عن هذه الحركة، أنظر، القفطي، أخبار العلماء بأخيار =

الرسائل، وأعتبرها داءً عضالاً، وجرباً مرداً، وسماً قتالاً[1]، ووصف شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية هذه الرسائل بأنها: "رسائل إخوان الكدر لا الصفا، وقال:"إن كُتابها هم من المشركين الصابئة، القرامطة المتفلسفة وأنهم ليسوا من ملة الإسلام و أنهم ذكروا في رسائلهم كثيرا من الأكاذيب و المخالفات الشرعية كزعمهم أن القرآن ليس بكلام الله"[2].

وذكر ابن تيمية، أن أصحاب رسائل إخوان الصفا، يضلون الناس بما ذكروه فيها من منافع دنيوية طبيعية ورياضية، من صناعات وحراثة وحياكة و خياطة[3]، وذكر أيضا أن هؤلاء ينسبون رسائلهم لجعفر بن محمد الصادق[4]، ليجعلوها من ميراث أهل البيت، وهذا من أفضح الكذب وأوضحه، لأن رسائلهم هذه صنفوها في القرن الرابع الهجري زمن دولة بني بويه، و جعفر الصادق توفي سنة(148هـ=765م)، قبل تأليف رسائلهم بنحو 200 سنة، هذا زيادة على جهلهم و ضلالهم[5].

والكتاب الثاني هو كتاب(الشفاء) للفيلسوف أبي علي بن سينا(ت.428هـ=1036م) جمع فيه فنون الفلسفة السبعة، قال عنه المؤرخ محمد اليافعي:" طالعتُ كتاب الشفاء، فلم أراه إلا جديراً بقلب الفاء قافاً، ومشتمل على كثير من

=

الحكماء،ج1،ص38، 39؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص104؛الذهبي، سير أعلام النبلاء،ج16، ص199؛ الزركلي، الأعلام،ج1، ص59،ج3، ص155.

(1) سير أعلام النبلاء، ج19، ص328، 329.

(2) مجموع الفتاوى، ج12،13،ص23، 249؛ بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية، ص221.

(3) مجموع الفتاوى، ج 12، ص23.

(4) هو جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط، الهاشمي القرشي، أبو عبد الله، الملقب بالصادق، سادس الأئمة الاثني عشر عند الأمامية. ولد سنة 80هـ=699م، في المدينة المنورة،وله منزلة رفيعة في العلم.أخذ عنه جماعة، منهم الإمامان أبو حنيفة ومالك.ولقب بالصادق لأنه لم يعرف عنه الكذب قط، وله أخبار مع الخلفاء من بني العباس وكان جريئا عليهم صداعا بالحق،له مجموعة من الرسائل في كتاب، قال عنه أبو حنيفة:ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد وكان يقول:سلوني قبل تفقدوني فإنه لا يحدثكم بعدي بمثل حديثي.توفي سنة 148هـ=765م، بالمدينة المنورة.أنظر،أبو الفداء،المختصر في أخبار البشر،ج 1،ص150؛الصفدي،الوافي بالوفيات،ج 4، ص27؛ الذهبي،العبر،ج1،ص38؛ الذهبي، تاريخ الإسلام،ج 9،ص88؛ الزركلي، الأعلام،ج 2 ، ص126.

(5) بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية، ص229،228؛ علال، مقاومة أهل السنة للفلسفة اليونانية، ص161.

الفلسفة"[1]، بمعنى أن يصبح عنوانه : كتاب الشقاء،لا كتاب الشفاء، لاشتماله على فلسفة لا ينشرح لها قلب متدين[2]. وهذا الكتاب متهم بإضلال طائفة من المتفلسفين المسلمين كأبي حامد الغزالي، فقال عنه منتقدوه: "أمرضه الشفاء يعني شفاء ابن سينا في الفلسفة"[3].

وكذلك الفقيه صدقة بن الحسين[4]، قرأ كتاب الشفاء، ففسدت عقيدته وانتابه الشك والحيرة وأصبح ينكر بعث الأجساد، ويعترض على القدر[5].

الإفتاء بمنع دراسة كتب الفلسفة و تدريسها وإهدار دم بعض رجالها:

هذا وكان للإفتاء جهداً مشكوراً وطيباً يقوم به العلماء لمحاربة الفلسفة والمفاهيم الخاطئة المتعلقة بالشريعة أو المعاملات وتوضيحها، وقد صدرت أحياناً بعض الفتاوى التي لها علاقة بمنع دراسة كتب الفلسفة وتدريسها، فقد كان للشيخ تقي الدين أبو عمرو بن الصلاح الشافعي الدمشقي (ت.643هـ=1245م)، جهدُ عظيمُ في الإفتاء في محاربة التيارات الفكرية المنحرفة حيث أصدر فتوى قال فيها: أنه من الواجب على السلطان أن يُخرج أهل الفلسفة المشائيم من المدارس و يُبعدهم عنها، و يدفع شرهم عن المسلمين[6] ومما يُعبر عن دعوة ابن الصلاح أن المتكلم المتفلسف سيف الدين الآمدي(ت.631هـ=1233م)، عندما درّس بالمدرسة العزيزية بدمشق، أخرجه منها

---

(1) مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان ،ج1،ص420.

(2) علال، مقاومة أهل السنة للفلسفة اليونانية، ص49.

(3) ابن تيمية،الفتاوى الكبرى،ج5، ص86؛ الرد على المنطقيين،ج1، ص510.

(4) وصدقة بن الحسين ابن الحسن أبو الفرج الحداد ولد سنة 479هـ=1086م، وقيل سنة 477هـ=1084م، الفقيه الأديب، الشاعر المتكلم، الكاتب المؤرخ، وكان في صباه قد حفظ القرآن وسمع شيئا من الفقه وكان له فهم فناظر وأفتى إلا انه كان يظهر من فلتات لسانه ما يدل على سوء عقيدته وكان لا ينضبط فكان من يجالسه يعثر منه على ذلك وكان يخبط الاعتقاد تارة يرمز إلى إنكار بعث الأجسام ويميل إلى مذهب الفلاسفة وتارة يعترض على القضاء والقدر توفي سنة 573هـ=1177م. أنظر، ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك،ج10، ص276؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان،ج6، ص253؛ ابن كثير، البداية والنهاية،ج12، ص366؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة،ج1، ص138؛ ابن العماد، شذرات الذهب،ج4، ص292.

(5) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ج10،ص 276؛ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج1، ص138.

(6) الذهبي، سيّر أعلام النبلاء، ج23 ،ص143؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج5، ص127؛ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية،ج 2، ص113-115؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص221.

الملك الأشرف موسى بن العادل الأيوبي (ت.635هـ=1237م)،لاشتهاره بتدريس علوم الأوائل، فأقام الآمدي في بيته خاملا إلى أن مات[1]؛ ونادى منادي الملك بأنه لا يشتغل أحد من الفقهاء بشيء من العلوم سوى التفسير والحديث والفقه، ومن اشتغل بالمنطق وعلوم الأوائل نُفي من البلد، وكان هذا الملك يكره العلوم القديمة[2].

وأفتى ابن الصلاح أن أخذ المدرسة العزيزية من المتفلسف سيف الدين الآمدي أفضل من استرجاع مدينة عكا التي كانت آنذاك بيد الصليبيين[3].

وقوله هذا يبدو أنه بناه على أساس أن مدينة عكا أمرها واضح، يحتلها الكفار الصليبيون، وسيسترجعها المسلمون منهم يوم يقدرون عليهم؛ لكن ما يقوم به السيف الآمدي من تدريس للفلسفة في المدارس السنية هو –في نظر ابن الصلاح – عمل داخلي خطير جدا، يؤدي إلى إفساد الدين و تخريب الفكر الإسلامي السني، والتمكين للفلسفة بأباطيلها و ضلالاتها في المجتمع الإسلامي[4].

وأفتى علماء حلب بقتل الفيلسوف شهاب الدين السهروردي[5]كان من بينهم أخوه مجد الدين فوافقهم على فتواهم الملك الظاهر بن صلاح الدين الأيوبي (ت.613=1216م) ثم جاءه أمر من والده صلاح الدين يأمره بقتله لما بلغه فساد عقيدته و سلوكه، فقتله[6].

---

(1) الذهبي، سيّر أعلام النبلاء، ج22 ،ص366؛ علال، مقاومة أهل السنة للفلسفة اليونانية، ص53.

(2) الذهبي، سيّر أعلام النبلاء، ج22 ،ص366؛ ابن كثير، البداية و النهاية، ج13، ص 148.

(3) ابن تيمية ،مجموع الفتاوى، ج9، ص7.

(4) علال، مقاومة أهل السنة للفلسفة اليونانية، ص54.

(5) شهاب الدين السهروردي، هو شهاب الدين يحيى بن محمد بن حبشي، ولد في سهرورد في حوالي سنة 549هـ=1154م، ودرس الفلسفة واصول الفقه على يد الشيخ مجد الدين الجيلي بمدينة مراغة من أعمال أذربيجان، كما درس علم الكلام والمنطق، وبرع في تلك العلوم حتى سار ذكره في الأفاق، وبالرغم من مصرعه وهو في ريعان الشباب، إلا أنه ترك مؤلفات ورسائل عديدة، منها: التلويحات في الحكمة، التنقيحات في أصول الفقه، وحكمة الاشراق، الغربة الغربية، هياكل النور، المعارج، المطارحات وغيرها. توفي سنة 587هـ=1190م. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص261؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص8؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص81؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج4، ص42.

(6) الذهبي، سيّر أعلام النبلاء، ج21 ،ص210، 211؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،ج6، ص9.

و سبب قتله أنه اتهم بالاستهتار والانحلال والتعطيل، واعتقاد مـذهب الأوائـل، وقـد اشتهر عنه ذلك، وافسد عقائد جماعة من الشباب المسلمين. وقال عنـه الـذهبي:" "كـان أحمق طياشا منحلا أحسن العلماء وأصابوا بقتله"[1]. وكان السهروردي يقول :"لابد لي أن أملك الدنيا"[2].

وقتل الفيلسوف القاضي رفيع الدين عبد العزيز الجيلي[3]، كان فاسـد العقيـدة و السلوك ساءت سيرته في الرعية، فأمر ملك دمشق الصالح إسماعيل(ت.648=1250م)، بسجنه و قتله[4]. وذكر الذهبي أن هذا الرجل قُتل لسوء سيرته و ليس لسوء عقيدته علـى ما يظهر [5].

وقبل أن أنهي الحديث عن مقاومة العلماء للفلسفة اليونانية، لابد من عـرض رأي بعـض الباحثين في سبب مقاومة علماء وسلاطين أهل السنة للفلسفة في تلك الحقبة؛ فقـد عـزى أحمد بدوي إلى أن السبب يعود إلى المحافظة على تعاليم الإسـلام، والتمـسك بطريقـة السلف في سلوكهم وآدابهم ومعاملتهم، ولذلك كان التعليم عندهم دينياً دنيوياً يهـدف إلـى إعداد الفرد للحياتين الدنيا والآخرة فنبذوا العلوم الدخيلة في الملة، خاصة ما اتصل منهـا بالفلسفة[6].

---

(1) سيّر أعلام النبلاء، ج21 ،ص180، 207، 211.

(2) الذهبي،سيّر أعلام النبلاء، ج21 ،ص211.

(3) هو عبد العزيز بن عبد الواحد بن إسماعيل الجيلي الشافعي، قاضي القضاة بدمـشق، كـان فقيهـاً مناظراً متكلماً متفلسفاً، وكان من الأكابر المتميزين في العلوم الحكمية، وأصول الدين والفقه والعلـم الطبيعي والطب، وكان مقيماً بدمشق، وله مجلس للمشتغلين عليه في أنواع العلوم والطب، قدم الشام وولي القضاء ببعلبك أيام صاحبها الصالح إسماعيل ووزيره أمين الدولة السامري، فلما ملك الـصالح دمشق ولاه القضاء بدمشق، فاتفق هو والوزير المذكور على المسلمين، وفعل بالناس الأفاعيل وكـان سيئ السيرة وقلة دينه و كان فاسد العقيدة دهريا يجئ إلى الجمعة سكرانا، وأن داره مثـل الحانـة. وكان يأخذ الرشوة وأموال الأيتام والأوقاف وكان عنده شهود زور ومن يدعي زوراً، فيحضر الرجل المتمول إلى مجلسه، ويحضر المدعى عليه بألف دينار أو ألفين فينكر، فيحضر الشهود فيلزمه ويحكم عليه، فيصالح غريمه على النصف، أو أكثـر أو أقـل، فاسـتبيحت أمـوال النـاس. تـوفي سـنة 641هـ=1243م. أنظر،الذهبي، تاريخ الإسلام،ج47، ص 125، 126؛سير أعلام النـبلاء،ج 23، ص109، 110؛ الصفدي،الوافي بالوفيات،ج 6، ص187؛ الكتبي،فوات الوفيات،ج2، ص354؛ ابـن أبي اصيعبة،عيون الأنباء في طبقات الأطباء،ج1،ص425؛ابن العماد،شذرات الذهب، ج5،ص213؛ الزركلي، الأعلام،ج4، ص22.

(4) ابن العماد، شذرات الذهب، ج7،ص372،373.

(5) سيّر أعلام النبلاء، ج23 ،ص111.

(6) الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية، ص289.

ولكن من المعروف أن الإسلام لم يؤخذ عليه أنه وقف موقفاً سلبياً تجاه أي علـــم من العلوم، سواء كانت دينية أم دنيوية، نقلية أم عقلية، بل كان الإسلام يحارب الجوانـــب المنحرفة في تلك العلوم، والفلسفة شأنها شأن جميع العلوم الأخرى لم يحاربهـــا الإســـلام كعلم في حد ذاتها إنما حارب فيها ذلك الجزء الذي يُفسد عقائد الناس. ومما يـــروى فـــي هذا الجانب: أن شمس الدين الأصفهاني(ت.688هـــ=1289م)، كـــان عالمـــاً بالفلـــسفة والمنطق، وحرص على أن تسلم عقيدة تلاميذه، ويتمكن الإيمان من قلوبهم، قبل اشـــتغالهم بالفلسفة، فكان الطالب إذا أراد أن يقرأ عليه الفلسفة، ينهاه ويقـــول لـــه:" حتـــى تمتـــزج بالشرعيات امتزاجاً حقيقيا جيداً فلله دره"(1).

ورأي بدوي في تفسير العوامل والاعتبارات التـــي أدت إلـــى مقاومـــة العلمـــاء والسلاطين للفلسفة في تلك الحقبة، إلى الظروف السياسية التي سادت في أغلـــب مراحـــل تلك الحقبة- خاصة ما اتصل منها بالحروب الصليبية، وظهور الفرق الدينية المنحرفـــة- كانت تدعو إلى إسلام سلفي دون بدع ولا جدل، بهدف حماية عقول الناس من الانحـــراف عن الدين(2).

(1) الصفدي، الوافي بالوفيات،ج2،ص 273؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبـــرى، ج8، ص53؛ بـــدوي، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية، ص289.
(2) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي، ص302.

الفصل الرابع:

جهود العلماء في صناعة مجتمع إسلامي مجاهد.

المبحث الأول: جهود العلماء في تحريض المسلمين على الجهاد.

المبحث الثاني: مشاركة العلماء في القتال ضد الأعداء.

المبحث الثالث: المصاعب والمعوقات التي واجهت العلماء.

المبحث الأول:

جهود العلماء في تحريض المسلمين على الجهاد.

- دور العلماء والفقهاء في إثارة حماس الحكام على الجهاد.
- دور العلماء والفقهاء في التحريض على الجهاد بالكتابة والتأليف.

سبب سقوط مدينة بيت المقدس سنة(492هـ= 1098م)، فـي أيـدي الـصليبيين صدمة لدى جماهير الشعوب العربية والإسلامية، لما لهذه المدينة المقدسة من مكانة فـي نفوس المسلمين؛ وأدركوا تخاذل الحكام إزاء العدوان الصليبي وحقيقة ذلك الغزو، الـذي هدد وجودهم ومكانتهم في مدن تلك البلاد. وأيقظت صدمة سقوط بيـت المقـدس غفـوة العديد من الفقهاء والقضاة والأمراء[1].

ولذلك بادر فقهاء وقضاة الشام ومصر بلعب دور مهم في الـصراع الإسـلامي الصليبي في الفترة ما بين(491– 690هـ =1098–1291م)، حيث كان لهم دور فاعـل في المقاومة ضد الغزو الصليبي، وقد اتخذ هذا الدور عدة أوجه بدءاً بتحـريض الحكـام والأمراء والناس على المقاومة والانخراط فيها، إلى مرحلة المشاركة في صد العدوان ثم المشاركة الفعلية في معارك التحرير التـي خاضـتها الجيـوش الإسـلامية والمقاومـة الشعبية[2].

دور العلماء والفقهاء في إثارة حماس الحكام على الجهاد:

كان لاستيلاء الصليبيين على مدينة بيت المقدس وما فعلوه بأهلهـا مـن مـذابح وحشية صدى واسع النطاق ودوي هائل في العالم الإسلامي، إذ قـام العلمـاء والفقهـاء والقضاة في بلاد الشام- على وجه الخصوص- بدورهم في توعية الناس في كـل مكـان بخطورة هذا الزحف الصليبي على بلاد الإسلام والمسلمين. كما أخـذوا يحثـونهم علـى الجهاد ونبذ الخلافات القائمة بينهم والوقوف صفاً واحداً لصد هذا العدوان الغاشم[3].

ولقد تحركت جماعات كثيرة من أبناء الشام بصحبة القاضي أبي سعد الهـروي[4] إلى بغداد مركز الخلافة الشرعية في رمضان سنة(492هـ=1098م)، بعد سـقوط بيـت

---

(1) قاسم، ماهية الحروب الصليبية، ص134، 135.
(2) شاهين والفراني، دور العلماء المسلمين في المقاومة ضد الصليبيين في بلاد الشام، ص2.
(3) نقلي، دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى في الجهاد ضد الصليبيين، ص80.
(4) هو محمد بن نصر بن منصور أبو سعد الهروي، أحد الفقهاء الرؤساء، تولى القضاء بمدن كثيرة من بلاد الشام والعجم، وتولى قضاء الشام مدة وقضاء بغداد مدة، وكان ذو مكانة لدى الخليفـة فأرسـله ليخطب له بنت السلطان سنجر فقتله الباطنية بهمذان سنة 529هـ=1134م. أنظـر، الأصـفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر،ج1، ص41؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص234؛ الـسبكي، طبقات الشافعية الكبرى،ج7، ص22؛ ابن تغري بـردي، النجـوم الزاهـرة فـي ملـوك مـصر والقاهرة،ج5، ص150، 228.

المقدس وقابلت الخليفة العباسي المستظهر بـــالله (ت.512هــــ=1118م)، والـــسلطان السلجوقي بركياروق بن ملكشاه(ت.497هــ=1103م)، واستنجدوا بهما ووضحوا لهما ما لاقاه المسلمون من مذابح على أيدي الصليبيين في بيت المقدس وقال ابن الأثير في ذلـــك: "فأوردوا في الديوان كلاماً أبكى العيون وأوجع القلوب"[1].

ولكن دون جدوى ولذلك فكر القاضي الهروي في خطة ذكية لإثارة السكان فـــي بغداد كوسيلة للضغط على الخليفة حتى يرغمه في التفكير جدياً بطلبهم فقام بالتوجه مـــع جماعته إلى الجامع وكان ذلك يوم الجمعة، فاستغاثوا بالناس "وبكوا وأبكوا الناس، وذكـــر ما دهم المسلمين ببيت المقدس من قتل الرجال، وسبي الحريم والأولاد، ونهب الأمـــوال، فلشدة ما أصابهم أفطروا"[2]، وخلال خطبته وحثه للناس أنشد القاضي أبا سعد الهـــروي أبياتاً من الشعر:

أرى أمتي لا يشـــرعـــون إلى العـــدى.....رمـــاحـــهـــم والـــديـــن واهي الـــدعـــائـــم
وتـــجتنبون النـــار خـــوفـــاً من الـــردى.....ولا تـــحســـبـــون العـــار ضـــربـــة لازم
أتـــرضي صـــناديد الأعـــارب بـــالأذى.....وتـــغـــضـــي عـــل صـــمـــاة الأعـــاجـــم
فـــليتـــهمـــوا إذ لـــم يـــذودوا حـــميـــة.....عـــن الـــديـــن شـــنـــوا غـــيرة للـــمحارم
وإن زهـــدوا فـــي الأجر إذ حـــمي.....الوغـــى فـــهلا أتـــوه رغـــبة في المغـــانم[3].

وإزاء هذه الاستغاثة ندب الخليفة ببغداد، المستظهر بأمر الله الفقهاء والعلماء إلى الخروج في البلاد ليحرضوا الملوك على الجهاد فخرج الإمام أبو الوفاء بن عقيل[4]، وآخرون، وقد بذل هؤلاء الفقهاء قصارى جهدهم لحث الملوك والناس على سرعة إنقاذ

---

(1) الكامل في التاريخ،ج9، ص19.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ،ج9، ص19؛ العليمي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج1، ص308.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص20؛ العليمي، الأنس الجليل بتاريخ القـــدس والخليـــل، ج1، ص309، 310.

(4) هو علي بن محمد بن عقيل قاضي القضاة أبو الوفاء، البغدادي، ولد سنة 431هــ=1039م، صاحب التصانيف كان إماماً زاهداً وساد أهل زمانه في كثير من العلوم، وكان يجتمع بجميع العلماء من كـــل مذهب. توفي سنة 512هــ=1118م. أنظر، ابن أبي يعلي، طبقـــات الحنابلـــة، ج2، ص259؛ ابـــن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص167، 197؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج2، ص222؛ العليمي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج1، ص273.

أهل الشام من محنتهم؛ ولكن لم يفد ذلك شيئاً، بسبب الخلاف بين سلاطين السلاجقة، وعاد الفقهاء إلى بغداد، وعاد القاضي الهروي ورفقته بغير نجدة "فأنا لله وإنا إليه راجعون"[(1)].

واستنجد علماء و فقهاء وقضاة حلب بالخليفة العباسي عندما تعرضت حلب هي الأخرى بحكم موقعها الاستراتيجي لخطر الغزو الصليبي سنة(504هـ=1111م)، وبعد أن وجدوا الاستكانة من حاكمها الملك رضوان بن تتش[(2)]، الذي صالح حاكم أنطاكية ودفع له الجزية، وقد "صالحهم على اثنين وثلاثين ألف دينار وغيرها من الخيول والثياب"[(3)]، وأمام هذه الاستكانة قام وفداً من العلماء والفقهاء وأعيان البلد بالتوجه إلى بغداد لمقابلة الخليفة العباسي المستظهر بالله(ت.512هـ=1118م)، والذي رفض مقابلة هذا الوفد، وكان الوفد الحلبي يعلق الآمال في النجدة على الخلافة العباسية بسبب العلاقة الوطيدة بين حلب والخلافة العباسية[(4)].

وأمام هذا الفشل في عدم التمكن من مقابلة الخليفة العباسي أدرك الوفد الحلبي ومعه جمع من علماء وفقهاء بغداد الذين انضموا للوفد، حقيقة ضعف الخليفة وأيقنوا أن السلطة الفعلية ليست بيده بل بيد السلطان السلجوقي بركياروق بن ملكشاه(ت.497هـ=1103م)، لذا بدءوا به أولاً وبإثارة السكان ضده، حيث دخلوا الجامع الذي يقرب من داره يوم الجمعة، فأنزلوا الخطيب عن المنبر وكسروه وصاحوا لما لحق الإسلام من الإفرنج من قتل الرجال وسبي النساء والأطفال ومنع الناس من الصلاة[(5)] وشرحوا للناس ما حل بإخوانهم المسلمين في حلب وأعماله ومدن بلاد الشام من تدمير وخراب على أيدي الغزاة الصليبين، مما أدى إلى استجابة الناس وشحذ هممهم؛ لكنهم لم

---

(1) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق ص233، 234؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص21؛ العليمي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج1، ص308؛ نقلي، دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى في الجهاد ضد الصليبيين، ص81.

(2) هو رضوان، فخر الملوك بن تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان بن داود. من ملوك السلاجقة وصاحب حلب ولد سنة 488هـ=1094م، تولى حكم حلب بعد وفاة والده وكان ملكاً جباراً ، كريماً. توفي سنة 507هـ=1113م. انظر، ابن خلكان، وفيات الأعيان،ج1، ص296؛ ابن الأثير، الكامل، ج8، ص503،504، ج9، ص151،11،4؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج19، ص315-321؛. ابن العماد، شذرات الذهب، ج2، ص22.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص71؛ رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص196، 197.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص79؛ ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، ج2، ص126.

(5) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص173؛ ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، ج2، ص157.

يستطيعوا الوصول إلى مقر السلطان بركيارق، الذي منعهم حرّاسه من مقابلته وأخذ هـذا الحشد الكبير ينادي السلطان قائلاً: "أما تتقي الله أن يكون ملك الروم أكثـر حميـة منـك للإسلام حتى أرسل إليك في جهادهم"[1]؛ وهنا يشير النص السالف الذكر إلـى أن وجـود علماء وفقهاء حلب في بغداد سنة (504هـ=1111م)، قد تزامن مع وصول وفد الدولـة البيزنطية إلى بغداد أيضاً؛ للتفاهم مع الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي حول إمكانيـة توحيد جهودهما لمواجهة الخطر الصليبي لبلاد الشام مؤكـداً للجانـب الإسـلامي بـأن الإمبراطور البيزنطي الكسيس كومنين(474-512هـ=1081-1118م)، قد مـنعهم مـن العبور إلى بلاد المسلمين وحاربهم[2]؛ ويفهم من هذه الرواية أن الجانـب البيزنطـي أراد الاستعانة بالجانب الإسلامي لمواجهة ذلك الخطر الصليبي، خاصة بعدما نقض الصليبيون الاتفاقية المُبرمة مع البيزنطيين (عـام 490هـ= 1096م)، والتـي تـضمنت إرجـاع الممتلكات البيزنطية في بلاد الشام في حالة استعادتها من الجانب الإسلامي[3].

فلم يكن تصرف الإمبراطور البيزنطي حباً في الإسلام والمسلمين وإنمـا لحقـده على الصليبيين الذين نقضوا وعدهم له.

وعلى أية حال لم يكن علماء وفقهاء حلب أوفر حظاً مع خلافة بغداد عـن بقيـة وفود المدن الشامية الأخرى. رغم ما أشار إليه ابن كثير أن فقهاء بغداد وعلـى رأسـهم الفقيه ابن الزاغوني[4] قد استجابوا لفقهاء حلب، وقرروا الخروج معهم لجهاد الـصليبيين في بلاد الشام، ولما علموا بما آلت إليه أحوال تلك المدن من وقوعها تحت الغزو الصليبي رجعوا إلى بغداد ولم يفعلوا شيئاً[5]. وهذه الرواية إنما تدل دلالة صـريحة علـى تجهـز العلماء بالسلاح للجهاد بأنفسهم في سبيل الدفاع عن بلاد الشام، وخـروجهم بالفعـل مـن

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص165.
(2) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص196، 197.
(3) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص198.
(4) هو علي بن عبيد الله بن السري بن الزاغوني البغدادي الفقيه المحدث الواعظ، أبو الحسن، ولد سنة 455هـ=1062م، وهو أحد أعيان مذهب الحنابلة، كن متفنناً في علوم شتى من الأصول والفـروع والحديث والوعظ وصنف في ذلك كله، وكان له في كل فن من العلم حظ وافر، ووعظ مدة طويلـة. توفي سنة 527هـ=1132م. أنظر ابن الأثير، الكامل في التـاريخ، ج10، ص152؛ ابـن كثيـر، البداية والنهاية، ج12، ص220؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج1، ص180؛ ج4، ص310؛ابن العماد، شذرات الذهب، ج4، ص80؛ الزركلي، الأعلام، ج4، ص310
(5) البداية والنهاية، ج12، ص184.

بغداد في طريقهم إلى بلاد الشام، ولكن مجرد أن علموا بكثرة أعداد الصليبيين وأنهم لا قبل لهم بتلك الأعداد الهائلة، اضطر بعضهم للرجوع إلى بغداد في الوقت الذي واصل فيه البعض الآخر منهم المسيرة نحو بلاد الشام[1].

وتكررت الاستغاثة بالخلافة العباسية في بغداد سنة(513هـ= 1120م)،عندما حاصر الصليبيون دمشق حيث أرسل أميرها وفداً آخر للخلافة العباسية في بغداد يطلب نجدتها مرة أخرى. وترأس هذا الوفد القاضي عبد الوهاب الشيرازي[2] وقابل الخليفة العباسي في بغداد الذي خلع عليه ووعده بالنجدة إلا أن مهمته لم تأت بشيء جديد كما هي الحال بالنسبة لمهمة زميله الهروي[3]؛ ويبدو أن الخلافة العباسية كانت عاجزة لا تملك شيئاً غير الوعود بالمساعدة ولعل القاضي عبد الوهاب الشيرازي أدرك هو الآخر عجز السلطة السياسية والشرعية في بغداد ولجأ للاعتماد على النفس والعودة إلى دمشق وتعبئة سكانها للدفاع عنها، حيث كان له مجلس يعظ فيه للجهاد، ويلقى تأييداً من حكام المدينة حتى وفاته[4].

وأدرك الشهيد عماد الدين زنكي(ت.541هـ=1146م)، ضعف قواته أمام تحالف الجيوش البيزنطية والصليبية، ولهذا لجأ إلى المناورة العسكرية والتهديد عن طريق الرسائل وإرسال السرايا كما أرسل القاضي كمال الدين الشهرزوري(ت.572هـ=1176م)، إلى السلطان مسعود [5]، يطلب العون والنجدة

---

(1) نقلي، دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى في الجهاد ضد الصليبيين، ص92.

(2) هو عبد الوهاب بن عبد الواحد بن محمد ابن علي أصله من شيراز،الدمشقي، أبو القاسم، مفسر من فقهاء الحنابلة، ويعرف بابن الحنبلي. له تصانيف، منها " المنتخب " مجلدان، فقه، و" البرهان " في أصول الدين توفي بدمشق سنة 536هـ=1141م.ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة،ج2، ص89، 199؛ الزركلي، لأعلام ،ج4، ص184.

(3) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق ص 321؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص243.

(4) ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج2، ص199.

(5) هو مسعود بن محمد بن ملكشاه، السلطان غياث الدين، أبو الفتح، السلجوقي، ولد سنة 502هـ=1108م كان سلطاناً، عادلاً، ليّن الجانب، كبيرالنفس، كان كثير المزاح، حسن الأخلاق، كريماً، عفيفاً عن أموال الرعية، من أحسن السلاطين سيرة، وألينهم عريكة، فرّق مملكته على أصحابه، ولم يكن له من السلطنة غير الاسم، وقد قتل خلقاً من كبار الأمراء، ومن جملة من قتل الخليفتين المسترشد والراشد، لأنه وقع بينه وبين المسترشد وحشة قبل استقلاله بالمُلك،وأقبل مسعود على اللهو واللذات، إلى أن حدث له علة القيء والغثيان، واستمر به ذلك إلى أن مات سنة 547هـ=1152م ودفن في إصبهان. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص174؛ابن الأثير،الكامل =

ويحثه على الخروج للجهاد ضد الصليبيين الذين أخذوا يهددون باقي بلاد الشام والعــراق وكان القاضي كمال الدين قد حذر عماد الدين من الاستعانة بالسلطان مسعود بقوله:"أخاف أن تخرج البلاد من أيدينا ويجعل السلطان هذا حجة علينا وينفذ العساكر، فــإذا توســطوا البلاد ملكوها. فقال عماد الدين : إن هذا العدو قد طمع في البلاد، وإن أخذ حلب لم يبــق بالشام إسلام وعلى كل حال فالمسلمون أولى من الكفار بها"[1]، قال كمال الدين: فــسرت طالب بغداد وجديت في المسير، فلما وصلت بغداد وحضرت قدام السلطان وأديت الرسالة بإنفاذ العساكر، وعرفته عاقبة الإهمال وأنه ليس بينه وبين الــروم إلا أن يملكــوا حلــب وينحدروا مع الفرات إلى بغداد- فلم يجد عنده حركة- وأنا أخاطب ولا أزاد على الوعد شيئاً"[2]، ويقول القاضي كمال الدين: فلما رأيت قلة اهتمام السلطان بهذا الأمــر العظــيم أحضرت فلاناً وهو فقيه كان ينوب عني في القضاء، وقلت له :"خذ هذه الدنانير وفرقهــا في جماعة من أوباش بغداد والأعاجم، وإذا كان يوم الجمعة وصعد الخطيب المنبر بجامع القصر قاموا وأنت معهم واستغاثوا بصوت واحد : وإسلاماه؛ وادين محمداه ويشق ثيابــه ويرمي عمامته عن رأسه ويخرج هؤلاء ومعهم الناس من الجامع ويقصدون دار السلطان مستغيثين ويفعلون في جامع السلطان مثله"[3].

فلما كانت الجمعة وصعد الخطيب المنبر قام ذلك الفقيه وشق ثوبه وألقى عمامته عن رأسه وصاح وتبعه ذلك النفر بالصياح والبكاء فبكى الناس وتركوا الــصلاة ولعنــوا السلطان وساروا من الجامع يتبعون الشيخ إلى دار السلطان فوجدوا النــاس فــي جــامع السلطان قد ثاروا كذلك وأحاط أهل بغداد بدار السلطان ومعهم العسكر يبكون ويصرخون ويستغثون"وخرج الأمر عن الضبط، وخاف السلطان في داره وقال ما الخبــر؟ فقيــل إن الناس قد ثاروا حيث لم ترسل العساكر إلــى الغــزاة فقــال: أحــضروا القاضــي ابــن الشهرزوري. قال القاضي: فحضرت عنده وأنا خائف منه، إلا أنني قــد عزمــت علــى صدقه وقول الحق. فلما دخلت قال :أي فتنة أثرت؟ فقلت: ما فعلت شيئاً. أنــا كنــت فــي بيتي. وإنما الناس يغارون على الدين والإسلام ويخافون عاقبة هذا التواني فقال السلطان:

=

في التاريخ،ج 11، ص57-59؛ أبو شامة، الروضتين،ج 1، ص97؛أبو الفداء، المختصر في أخبــار البشر ،ج 2،ص235؛الذهبي، تاريخ الإسلام ،ج 37،ص286، 287.

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص79.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص80.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص80.

أردد هؤلاء العامة عنا، وخذ من العساكر ما شئت والإمداد تلحقك"[1]. قال:" فخرجت إلى العامة ومن انضم إليهم، وعرفتهم الحال وأمرتهم بالعود فعادوا وتفرقوا وانتخبتُ من عسكره عشرة آلاف فارس من خيار العسكر، وكتبت إلى عماد الدين زنكي أعرفه الخبر وأنه لم يبق غير مسير هذا الجيش إليه، فأمرني بتسييرهم والحث على ذلك فشرعنا في التحميل للرحيل وإذ قد وصلني كتاب أتابك زنكي من الشام يخبر برحيل ملك الروم ويأمرني بأن لا استصحب من العسكر أحداً، فلما خاطب السلطان مسعوداً في ذلك أصر على إنفاذ العساكر للجهاد وقصد بلاد الفرنج وأخذها وكان قصده أن تطأ عساكره البلاد ويملكها، ولم أزل أحاول مع الوزير وأكابر الدولة حتى عادت عساكر السلطان مسعود من حيث أتت[2].

ومع هذا لم يتوقف العلماء عن دورهم أمام ذلك التخاذل من قبل الحكام، فقد كان لحجة الإسلام أبو حامد الغزالي(ت.505هـ=1111م)، دور بارز في حث الحكام على ضرورة الجهاد، فعندما علم أن السلطان محمد بن ملكشاه[3] تولى الحكم، أرسل له كتاباً يخاطبه فيه قائلاً:" أعلم يا سلطان العالم أن بني آدم طائفتين: طائفة غفلاء نظروا إلى مشاهد حال الدنيا، وتمسكوا بتأميل العمر الطويل، ولم يتفكروا في النفس الأخير، وطائفة عقلاء جعلوا النفس الأخير نصب أعينهم، لينظروا إلى ماذا يكون مصيرهم، وكيف يخرجون من الدنيا ويفرقونها وإيمانهم سالم، وما الذي ينزل من الدنيا في قبورهم، وما الذي يتركون لأعيادهم من بعدهم ويبقى عليهم وباله ونكاله"[4].

ومع هذا الدور البارز للإمام أبو حامد الغزالي، في حث الحكام على ضرورة الجهاد ضد الصليبيين؛ إلا أنه أخذ عليه من قبل المؤرخين عدم مشاركته في قتال

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص81.
(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج11، ص57،-59؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص81.
(3) هو محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن طغربك بن ميكائيل ابن سلجوق التركي غياث الدين أبو شجاع، ولد سنة 474هـ=1081م، كان عادلاً حسن السيرة، وكان موصوفاً بالعقل والكرم والتأني في أموره، وله الآثار الجميلة والسيرة الحسنة، كان فارسا شجاعا، وكان باراً للفقراء والأيتام، ومحارباً للطائفة الملحدة والنظر في أمور الرعية. توفي بالقرب من همذان بعلة السل سنة 511هـ=1117م، وله ثمانيا وثلاثين سنة. ابن خلكان، وفيات الأعيان،ج5، ص71،72؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر ،ج1، ص305؛ الذهبي،العبر في خبر من غبر،ج1،ص239؛ تاريخ الإسلام ،ج 35، ص270؛ الصفدي،الوافي بالوفيات،ج 2، ص94؛ الزركلي، الأعلام ،ج7، ص86.
(4) ورد هذا النص في ترجمة محمد بن ملكشاه السلجوقي. أنظر،ابن خلكان، وفيات الأعيان،ج5 ، ص72، 73.

الصليبيين، وخلو كتاباته من الدعوة لمحاربتهم، والتحريض على قتالهم؛ حيث أرجع عمر فروخ، أن سبب سكوت الغزالي كان مرضه النفسي و اتجاهه نحو التصوف، بمثلما فعل كل من محيي الدين بن العربي[(1)] وابن الفارض[(2)] بصفتهما من ابرز وجوه التصوف يومذاك ولم يصدروا أي فتوى ضد الكفار[(3)].

وإذا كان هذا التسويغ مقبولا بالنسبة لأمثال ابن العربي وابن الفارض طبقا لمشربهم في التصوف الفلسفي، فانه لن يكون مقبولا لدى الغزالي الصوفي والمتعصب في الدين وضد الفلسفة، وذلك لأنه كتب أكثر ما كتب ضد الإسماعيلية خلال تلك الفترة من أزمته الروحية[(4)].

ويؤيد هذا الرأي أيضاً زكي مبارك، في كتابه الأخلاق عند الغزالي، حيث يعتبر انشغال الغزالي بالأوراد و الأذكار والاعتكاف سببا في سكوته، فيقول بذلك:" بينما كان بطرس الناسك يقضي ليله ونهاره في إعداد الخطب، وتحبير الرسائل، لحث أهل أوروبا على امتلاك أقطار المسلمين، كان الغزالي غارقاً في خلوته، منكباً على أوراده لا يعرف ما يجب عليه من الدعوة إلى الجهاد"[(5)].

والحق أن موقف الغزالي محير من الحروب الصليبية؛ فمثله لا يجهل ما يجب أن يقال، وما يجب أن يعمل في زمن الإغارة على أهل الإسلام، وهو صاحب الكلمة

---

(1) هو الشيخ الأكبر، محيي الدين محمد المشهور بابن عربي، فقيه وصوفي مشهور، سمع الحديث، ودرس الكثير من العلوم، وله ديوان شعري معروف بترجمان الأشواق، توفى سنة 638هـ-1240م، للمزيد عن ترجمته أنظر، الصفدي، الوافي بالوفيات، ج4، ص124؛ الغراب، محيي الدين بن عربي، ص5؛ صايغ وآخرون، الموسوعة الفلسطينية، ج2، ص1537

(2) هو القاسم بن عمر بن علي الحموي، المعروف بابن الفارض، له أشعار جيدة، أشهرها القصيدة التائيه، والمعروفة بنظم السلوك، توفي سنة 632هـ=1234م، للمزيد عن ترجمته أنظر، أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج2، ص258؛ الذهبي، العبر، ج3، ص213؛ عطوي، ابن الفارض، ص26.

(3) فروخ، التصوف في الإسلام، ص9-11.

(4) طاهري، أثار الحروب الصليبية في جغرافية الصفحات الشرقية الإسلامية، مقالة في مجلة الأهرام، العدد(111)، ص142.

(5) مبارك، الأخلاق عند الغزالي، ص17.

المسموعة، والصيت المدوي، والبيان المؤثر، والحجة البالغة، وهو يرى أن الجهاد في مثل هذه الحالة فرض عين، على كل قادر من المسلمين[1].

أعتقد أن سكوت الغزالي عن تحريض المسلمين على القتال الصليبيين، وعدم مشاركته في الجهاد ضد الصليبيين، يعود إلى أن العصر الذي عاش فيه الغزالي، كان عصر ضياع وتشرذم، فيه مزيج من اختلاف المذاهب والآراء والأفكار، فأراد أن يأخذ على عاتقه عبء النهضة والإصلاح، حيث أن الصليبيين ما تجاسروا على غزو بلاد الشام، إلا بعد أن تأكدوا من ضعف الخلافة العباسية وذهاب هيبتها، وتشرذم الدولة السلجوقية، والنزاع بين سلاطينها، علاوة على صراع الخلافة الفاطمية الدائم مع الخلافة العباسية[2].

في ظل هذه الظروف الصعبة، رأى الغزالي أن لا صلاح إلا بالرجوع إلى أصل الإسلام، حتى يتماسك الجسد الإسلامي وتعود إليه العافية والسلامة، وتنتشر فيه الفضيلة التي إن تمسك المسلمون بها، تمكنوا من النصر على أعدائهم، فالإصلاح الأخلاقي عند الغزالي، كفيل بصلاح بقية نواحي المجتمع، من سياسية، وعسكرية، واقتصادية، وغيرها[3].

ويرى عبد الله طاهري أن الحرب الصليبية كانت قضية كل المسلمين و العالم الإسلامي لذلك كان على الغزالي، حيثما كان (في خراسان أو في بغداد أو في الشام)، وبصفته مجدد الثقافة السائدة يومذاك، أن يتخذ موقفه و يصدر فتواه لقتال الكفار[4].

---

(1) القرضاوي، الغزالي بين مادحيه وناقدية، ص172، 173؛ حشيش، الحركة الصوفية في بلاد الشام، رسالة ماجستير غيرة منشورة، ص91.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص315، 316؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج2، ص30

(3) القرضاوي، الغزالي بين مادحيه وناقدية، ص27، 28؛ حشيش، الحركة الصوفية في بلاد الشام، رسالة ماجستير غيرة منشورة، ص94.

(4) أثار الحروب الصليبية في جغرافية الصفحات الشرقية، ص144.

دور العلماء والفقهاء في التحريض على الجهاد بالكتابة والتأليف:

لم يكن التحرك من قبل العلماء والفقهاء والقضاة في بـلاد الـشام ضـد الغـزو الصليبي مقتصراً على الاستغاثة وطلب النجدة وحث الحكام على الجهاد، بل تعـدى ذلـك إلى العديد من الوسائل الأخرى التي من بينها الكتابة والتأليف في الجهاد ضد ذلك الغـزو لتهيئة الأجواء الفكرية، وتثقيف المسلمين عامة، حيث نالت اهتماماً كبيراً من قبل الفقهـاء والعلماء قبل وأثناء الغزو الصليبي، فقد كانت حاجة العصر للتعبئة الفكرية، ونشر الثقافـة الإسلامية، وثقافة الجهاد؛ فكانت تلك التعبئة من الأمور الأساسية آنذاك، في وقت كانـت بلاد الشام تخوض صراعاً سياسياً، ومذهبياً وعسكرياً انعكـس علـى المجتمـع وثقافتـه وسلوكه مما دفع العلماء والفقهاء إلى تنوير مجتمعاتها الإسلامية، وإلى تأليف الكتب والتي جاءت في مجموعتين الأولى: ركزت على الوعظ وتوضيح أمور وأركان الدين الحنيـف للناس، والثانية: التي توجهت للتحريض على الجهاد وحث المسلمين عليه، لأنها أدركـت الضعف العام في إيمان المسلمين وتركهم لأمور دينهم لذلك كتبت الكثير مـن المـصنفات قبل وأثناء الغزو الصليبي في بلاد الشام والذي يهمنا هنا المؤلفات التي حرضـت علـى الجهاد الإسلامي وتعريف المسلمين بأمور دينهم للوقوف في وجه ذلك الغزو[1].

ومن أبرز أولئك العلماء:الفقيه على بن المسلم السلمي[2]، حيث بدأ بإثارة حماس الناس على الجهاد على إثر مجيء ذلك الغزو وتحول إلى واعظ ومحرض علـى الجهـاد بإلقائه الخطب والدروس في المساجد التي تنقل فيها عبر مدن بلاد الشام وفلسطين، حيـث جسد ذلك في كتابه (الجهاد)، الذي جاء عقب سقوط بيت المقدس سنة(492هـــ=1098م) وذكر فيه معارك الإسلام الأولى ودور المجاهدين، مع ذكر الآيات والأحاديث النبوية التي تحض على الجهاد وتبين مكانة المجاهدين، وركز في أبوابه الأولى علـى العديـد مـن

---

(1) الصلابي، دولة السلاجقة، ص124.

(2) هو علي بن المسلم بن محمد بن علي بن الفتح أبو الحسن الـسلمي، الدمـشقي، الفقيـه الأشـعري الفرضي، الملقب(جمال الإسلام). ولد سنة 452هـ=1060م، وبرع في الفقه رافق الغزالـي ودرس في حلقاته بالجامع مدة. ثم ولي تدريس في المدرسة الأمينية سنة 514هـ=1120م. وله مصنفات في الفقه والتفسير،وكان مشهوراً بوفور العلم في التفقه وقوة الفرائض والوعظ والدين والأمانة بحيث وقع التألم لفقده وافتقر إلى مثله من بعده.توفي وهو ساجد في صلاة الغداة سنة 533هـ=1138م، رحمه الله. ابن القلانسي، ذيـل تـاريخ دمـشق، ص166؛الـذهبي، تـاريخ الإسـلام، ج36، ص327، 328؛الصفدي،الوافي بالوفيات،ج7،ص64؛ اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حـوادث الزمان ،ج2، ص18؛ ابن العماد، شذرات الذهب،ج4، ص101.

القضايا والأفكار الهامة التي كانت عليها بلاد الشام، والعالم الإسلامي إذ أنه أول من نبــه إلى وحدة أهداف الحروب الصليبية سواء في الأندلس، أو في صقلية أو في بلاد الشام[1].

وتلك الفكرة التي نبه إليها السلمي أخذها المؤرخون فيما بعد، وطوروها فقد ذكــر ابن الأثير:" كان ابتداء ظهور دولة الفرنج، واشتداد أمرهم، وخروجهم إلى بلاد الإســلام واستيلائهم على بعضها، سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، فملكوا مدينة طليطلة[2] وغيرهــا من بلاد الأندلس، ثم قصدوا سنة أربع وثمــانين وأربعمائــة جزيــرة صــقلية وملكوهــا وتطرقوا إلى أطراف إفريقية فملكوا منها شيئاً وأخذ منهم...فلمــا كانــت ســنة تــسعين وأربعمائة خرجوا إلى بلاد الشام"[3].

وأدرك السلمي أن ضعف العالم الإسلامي، وتشرذمه وتجزئته هو العامل الرئيسي وراء نجاح الغزو الصليبي في المشرق أو المغرب الإسلاميين وليس قوة الصليبيين أنفسهم فيقول في هذا الخصوص:"فقد تبين مما ذكرت أنه إذا احتيج إلى الجماعة بغزو كلهم فرضاً واجباً عليهم وذلك في مثل هذه الحال التي نحن عليها الآن مع هذه الفرقة الهاجمة على بلاد الشام"[4].

وذَكر السلمي المسلمين بفكرة استمرارية الجهاد سواء في الحرب أو السلم كجــزء من سياسة عامة يجب على الأمراء والخلفاء المسلمين القيام بها كشرط أساسي للمواجهة الناجحة، فنادى: "فشمروا عن سوق الاجتهاد إلى مفترض هذا الجهاد ومتعين الذب عــن دينكم وإخوانكم بالمؤازرة والإنجاز"[5]. وفي هذا حث للمقاومة الــشعبية علــى ضــرب الصليبيين مع علمه أن هذا العدو لا يمكن أن يستمر دون أن يأتيه المدد من أوروبا لأنــه يعاني من نقص العنصر البشري وهذا في مصلحة المقاومة الشعبية. ويبــين أن الجهــاد متوجب على الجميع ، ثم يتحدث السلمي في خطبته عن ضرورة تآلف ووحدة المــسلمين

---

(1) حلواني، ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين، ص40، 41.

(2) طليطلة كلمة طلينية معناه " فرح ساكنها " قيل أنها بنيت على الهرج والقتال،بالأندلس عظيمة القطر كثيرة البشر، وهي كانت دار الملك بالأندلس حين دخلها طارق بن زياد، وهي حصينة لهــا أســوار حسنة وقصبة حصينة، وهي أزلية من بناء العمالقة، وهي على ضفة النهر الكبير. الحميري،الروض المعطار في خبر الأقطار ،ج 1، ص394،393.

(3) الكامل في التاريخ، ج10، ص167.

(4) حلواني، ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين، ص42.

(5) حلواني، ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين، ص43.

في كل ديار الإسلام لمواجهة الغزو الصليبي ، ويطالب بعودة الوئام و الصفاء مستـــشهداً بما كان يفعله العرب حتى قبل الإسلام، ثم يصل إلى نقطة هامة، فيطالب بمساعدة أهـــالي الساحل المحاصرين المجاهدين لأنهم الآن يشغلون العدو عن هذه البلاد ومـــا يليهـــا مـــن مصر ونواحيها"[1]

ونلاحظ أن السلمي في كتابه (الجهاد)، تطرق إلى توضيح التجزئة والتشرذم فـــي المشرق الإسلامي، وخاصة في بلاد الشام من ضعف القوى الإســـلامية، وتفككهـــا مـــع ضعف الإيمان بفرض الجهاد، وهي نقطه استغلها الغزاة، ولكنه عالج ذلك الخلل بطرحـــه قضية تطهير النفوس والعودة إلى التمسك بدين الله الحنيف؛ وإصلاح الأمر فيمـــا بيـــنهم، والإقدام على الجهاد لمواجهة ذلك الغزو، وأنه لا يتم ذلك إلا بوحدة القوى الإسلامية، لـــذا جاء كتابه (الجهاد)عاماً، لم يخصصه لسلطة سياسية معينة أو لفئة من المسلمين من بـــلاد الشام مثلاً وفق رؤية إسلامية مبنية على إسناد متين تمثل في القـــرآن الكـــريم، والـــسنة النبوية، وكتب السير والمغازي، والتفاسير وربط موضوعاتها بالخطر الصليبي على بـــلاد الشام، وهذا دليل على مدى إطلاعه وفكره الثاقب في جمع المعلومات ووضعها في مكانها المناسب[2].

ونلاحظ من خلال البحث بأن الدعوة الأولى للجهاد لم تصدر عن مجالس الحكـــام بل صدرت من محافل الفقهاء والعلماء المسلمين لإحساسهم بمخاطر الغزو الصليبي علـــى بلاد الشام، ويمكن أن نستنتج أن هؤلاء العلماء والفقهاء استندوا في حـــثهم النـــاس علـــى المقاومة والجهاد من خلال استفادتهم من فكرة الجهاد التي رســـخها الإســـلام كمفهـــوم أساسي وواجب على جميع المسلمين للدفاع عن الأمـــة، وتـــأمين اســـتمرارية حيويتهـــا ونشاطها. ويعتبر السلمي من أوائل من حث على الجهاد ومن ضمن تيار الـــرفض العـــام الإسلامي المدعوم من قِبل الفقهاء والقضاة[3].

---

(1) حلواني، ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين، ص43؛ شـــاهين والفرانـــي، دور العلمـــاء المسلمين في المقاومة ضد الصليبيين في بلاد الشام، ص4.

(2) حلواني، ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين، ص48؛ الصلابي، دولة السلاجقة، ص203.

(3) الصلابي، دولة السلاجقة، ص205؛ شاهين والفراني، دور العلماء المسلمين فـــي المقاومـــة ضـــد الصليبيين في بلاد الشام، ص4،5. لقد قام الطالب رمضان حسين الشاوش بدراسة وتحقيـــق، كتـــاب (الجهاد) للسلمي وقدمه كرسالة ماجستير بجامعة الفاتح بطرابلس الغرب عام 1992م.

وألف ابن عساكر[1] كتاباً احتوى على أربعين حديثاً عن فضائل الجهاد بطلب من نور الدين محمود(ت.577هـ=1181م)، قال ابن عساكر:" وأحب أن أجمع لــه أربعــين حديثاً في الجهاد تكون واضحة المتن متصلة الإسناد تحريضاً للمجاهدين الأجــلاء"[2]، و برزت شخصية ابن عساكر إلى جانب السلطان نور الدين محمود، حيث اندفع ابن عساكر إلى تثقيف المجتمع الإسلامي آنذاك بثقافة الجهاد في سبيل الله والقيام بواجب الوقوف إلى جانب نور الدين محمود ضد الخطر الصليبي وبسبب قناعــة آل زنكــي بــأن الأعمــال العسكرية والسياسية لا تكن ناجحة مؤثره إلا بدعم فكري وعقائدي وعاطفي وديني، ولذلك استجاب ابن عساكر لطلب نور الدين وقال في مقدمته : "فسارعت إلى امتثال ما الــتمس من المراد وجمعت له ما يرتضيه أهل المعرفة والانتقاد، واجتهدت فــي جمعهــا غايــة الاجتهاد، رجاء أن يحصل لي أجر التبصير والإرشاد، والله الموفق للصواب في الإصدار والإيراد، والمسدد في الأقوال في الإسهاب والاقتصاد"[3].

وقد خصص ابن عساكر العشرة الأولى منها لتوضيح منزلة الجهاد بعد منزلة الإيمان بالله مباشرة لتحريض المسلمين على مواجهة الخطر الصليبي[4]، واختار ابن عساكر الأحاديث التي تطرقت إلى الجهاد، والتي تتحدث عن منزلة الجهاد في الإسلام، وفضل المجاهد على غيره من المسلمين، وعن أولئك المسلمين الذين يجهزون للقتال أدوات الحرب آنذاك كالخيول والسلاح والمرابطة في سبيل الله؛ وقد استفاد نور الدين من جهود ابن عساكر في تعبئته الفكرية والدينية التي كرس حياته لها وقد آتت ثمارها في مواجهة

---

(1) هو أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله، ولد بدمشق سنة 490هـ=1096م، وتلقى ثقافته الأولــى في الفقه والحديث بدمشق، ثم رحل إلى بغداد وأقام بها خمس سنين، وطاف عدة بلدان في طلب العلم حتى استقر في الشام وأصبح من كبار الفقهاء الشافعية كان مواظباً على صــلاة الجماعــة وتــلاوة القرآن، يختم كل جمعه، ويختم في رمضان كل يوم، وكان كثير النوافل والأذكار،ويحاسب نفسه على لحظة تذهب في غير طاعة وأعرض عن طلب المناصب في الإمامة والخطابــة، وأباهــا بعــد أن عرضت عليه وكانت له مكانة عند نور الدين وصلاح الدين الأيوبي، ولــه مؤلفــات فــي الحــديث والتاريخ . توفي سنة 571هـ=1175م. أنظر ترجمته،ابن خلكان، وفيات الأعيــان، ج1، ص335؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج4، ص273؛ أبو شامة، الروضتين، ج1، ص10، 261؛ الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج4، ص109؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج4، ص239.

(2) حلواني، ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين، ص107.

(3) حلواني، ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين، ص108.

(4) حلواني، ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين، ص113؛ الصلابي، عصر الدولة الزنكيــة، ج2، ص37.

الغزو الصليبي، فقد ساندتها السلطة السياسية العسكرية المتمثلة في شخص نور الدين محمود، والتي اعتمد عليها كقاعدة استند عليها في صراعه الطويل مع الصليبيين[1].

إن المتتبع للمؤلفات التي كتبت في القرن السادس الهجري- الثاني عشر ميلادي- الذي شهد غزو الصليبيين لبلاد المسلمين واحتلال أراضيهم، يلاحظ أنها كانت في أغلبهـا تحمل سمة الجد والوقار، وهذا أمر طبيعي فالحياة في تلك الفترة كانـت جـادة لمـا ألـم بالمسلمين من الكوارث والمصائب، كذلك اتجهت معظم المؤلفات إلى وجهة إصـلاحية، حتى أصبحت وسيلة للتعليم والتثقيف، كما ظهرت بعض المؤلفات التي تتحدث عن سـيرة المسلمين الأوائل لبث روح الحماسة والغيرة على الدين، ووضعت كتب في مناقب الخلفاء الراشدين، وأخرى في فضائل الشام والقدس والمسجد الأقصى، وثالثة في تـدبير شـئون الرعية، وأخـرى فـي علـم الـسياسة وغيرهـا نـذكر منهـا علـى سـبيل المثـال: كتاب(منهج القاصدين في فضائل الخلفاء الراشدين)، لشيخ الإسلام موفق الدين المقدسي[2] وضح فيه صفات الخلفاء الراشدين وشجاعتهم لتذكير الناس بعهد أسلافهم[3].

وكتـاب(مـرآة الزمـان فـي تـاريخ الأعيـان)، لبـسط ابـن الجوزي(ت.654هـ=1256م)، وكتاب(ترغيب أهل الإسلام بسكني الشام)، لعز الدين بـن

---

(1) حلواني، ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين، ص112؛الصلابي، عصر الدولـة الزنكيـة، ج2 ص78.

(2) هو الإمام موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامه المقدسي الدمشقي، أحد الإعلام في مذهب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، ولد سنة 541هـ=1146م، وله عدة تصانيف فـي الفقه منها " المغني " الذي شرح به " مختصر " الخرقي يعد من أعظم الكتب الفقهية الجامعة لمذاهب الأئمة الفقهاء، مع عناية خاصة بإيراد أقوال الأئمة الذين انقرضت مذاهبهم والتـرجيح فيمـا بينهـا. وغيرها، توفي سنة 620هـ=1223م. الذهبي،سير أعلام النبلاء ،ج 18،ص193.

(3) سلام، الأدب في العصر الأيوبي، ص171.

عبد السلام(ت.660هـ=1261م)[1]، وألف الفقيه طاهر بن نصر الله بن جهبل[2] لنور الدين محمود زنكي كتابا في فضل الجهاد[3].

وذكر ابن شداد(ت.632هـ=1234م)، أن حب الجهاد قد استولى على قلب صلاح الدين" وسائر جوانحه استيلاءً عظيماً بحيث ما كان له حديث إلا فيه ولا نظر إلا في آلته ولا كان له اهتمام إلا برجاله ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه. ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر بلاده"[4].

ولهذا جمع له ابن شداد كتاباً جمع فيه كل آدابه، وكل آية وردت فيه وكل حديث روي في فضله[5] ثم قدمه إليه تحت اسم (فضائل الجهاد)، فأعجب به صلاح الدين كثيراً وألحقه بخدمته في مستهل جمادى الأولى سنة(584هـ= 1188م)، وولاه قضاء العسكر والحكم بالقدس الشريف وهو أول قاضي ولي القدس بعد فتح صلاح الدين لها[6].

لقد تعرض الكثير من العلماء والفقهاء للنقد، واتهموا بالهروب من الحرب والنفور من حمل السيف، وأنهم لا ينفرون من حمل القلم ظانين أن الجهاد بالقلم يقوم مقام الجهاد بالسيف، فأخذوا يتقربون إلى الله مستعيضين عن جهاد الأعداء في ميادين القتال بتأليف الكتب في الرد علي اليهود والنصارى، وأهل البدع والأهواء، ومن المسلمين من كان يستبدل جهاد الأعداء بكثرة الصيام والصلاة ودوام الذكر والتسبيح معتقدين أن هذا يقربهم من الله زلفى، وكان البعض منهم يهاجر إلى مكة المكرمة ويتخذ من الحرم الشريف مقراً له ينقطعون فيه للعبادة؛ ففي ذلك العصر كان قتال الروم هو العمل الصالح الذي به

---

(1) سلام، الأدب في العصر الأيوبي، ص171.

(2) هو طاهر بن نصر الله بن جهبل بفتح الجيم وبالباء الموحدة مجد الدين الحلبي كان إماما فاضلا في الفقه والحساب والفرائض سمع الحديث من جماعة وحدث، درس في المدرسة التي بالقدس وهو والد الفقهاء الذين كانوا بدمشق: بهاء الدين نصر الله وتاج الدين إسماعيل وقطب الدين؛ توفي سنة 596هـ=1199م. الصفدي،الوافي بالوفيات،ج5،ص272؛ ابن قاضى شهبة،طبقات الشافعية، ج2، ص26.

(3) الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج3، ص115؛ اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، ج3، ص485؛ ابن قاضى شهبة، طبقات الشافعية،ج2، ص26.

(4) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص9.

(5) ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص10، 59؛ شاهين والفراني، دور العلماء المسلمين في المقاومة ضد الصليبيين في بلاد الشام، ص5.

(6) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص71؛ أبو شامة، الروضتين، ج2، ص124، 125؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج7، ص88؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج8، ص361.

تنهض الأمة وتتقدم. فكان بذلك الجهاد خير من ملازمة المسجد الحرام والصلاة فيه على عظم أجره ومثوبته[1].

وقد وصل هذا النقد اللاذع إلي مسامع هؤلاء الفقهــاء الــذين وضــعوا الكتــب والمصنفات فانبرى بعضهم للرد والدفاع عن أنفسهم مبررين اهتمامهم بالكتابة والتــأليف، نذكر منهم: ابن قيم الجوزية(ت.751هــ=1350م)، الذي قال: "ومن بعــض حقــوق الله على عبده رد الطاعنين على كتابه ورسوله ودينه ومجاهدتهم بالحجة والبيــان والــسيف والسنان والقلب والجنان وليس وراء ذلك حبة خردل من الإيمان وكان انتهى إلينا مــسائل أوردها بعض الكفار الملحدين على بعض المسلمين فلم يصادف عنده ما يشفيه ولا وقــع دواؤه على الداء الذي فيه وظن المسلم أنه بضربه بداويه قسطا به ضربا وقال هــذا هــو الجواب فقال الكافر صدق أصحابنا في قولهم إن دين الإسلام إنما قام بالسيف لا بالكتــاب فتفرقا وهذا ضارب وهذا مضروب وضاعت الحجة بين الطالب والمطلوب فشمر المجيب ساعد العزم ونهض على ساق الجد وقام لله قيام مستعين به مفوض إليه متكل عليــه فــي موافقة مرضاته ولم يقل مقالة العجزة الجهال إن الكفار انما يعاملون بالجلاد دون الجــدال وهذا فرار من الزحف واخلاد إلى العجز والضعف وقو أمر الله بمجادلــة الكفــار بعــد دعوتهم إقامة للحجة وإزاحة للعذر ليهلك من هلك عن بينة ويحي مــن حــي عــن بينــة والسيف إنما جاء منفذا للحجة مقوما للمعاند وحدا للجاحد"[2].

ولا ينبغي توجيه اللوم إلى أولئك الذين صرفوا همتهم للبحث والتنقيــب والتــأليف فللسيف رجال وللقلم رجال، ولا يمكن أن تستمر الحياة متدفقة بأحدهما دون الآخر، فكــل له رسالته يؤديها، ولكل له قدرات واتجاهات وميول يغذيها وينميها حــسب مــا أنعــم الله عليه؛ طالما سخرها في خدمة الدين، لذلك كان النصر للمجاهدين فــي ميــدان المعــارك وكان زاد النصر هذا الكم الهائل من المؤلفات في مختلف العلوم والفنون، التي أضــاءت الطريق وأنارت العقول وعمقت الوعي وخلقت أجيالاً صفت عقيدتهم وازدانت صــدورهم وامتلأت بالإيمان، فانصرفوا إلى الجهاد عن قناعة وإيمان فكان نصر الله والفتح[3].

---

(1) الشحود، الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل،ج10، ص167.

(2) ابن قيم الجوزية، هداية الحيارى، ص10؛ عدوان، دورا العلماء في إصلاح المجتمع، ص60.

(3) عدوان، دور العلماء في إصلاح المجتمع، ص61.

المبحث الثاني:

الدور الجهادي لعلماء مصر والشام:

- الأثر المعنوي للعلماء على المقاتلين.
- مشاركة العلماء في القتال.

الأثر المعنوي للعلماء على المقاتلين:

كان للعلماء والفقهاء دور بارز في حث المسلمين، وشحذ هممهم أثناء حصار الصليبيين لعكا في الحملة الصليبية الثالثة سنة(585هـ =1189م)، فكانوا يطوفون داخل المعسكر الإسلامي بين الجند يبثون الشجاعة في نفوسهم فالقراء يقرؤون القرآن ويحذرون الجند من الفرار ويذكرونهم بما أعده الله تعالى للشهداء في الجنة من جزاء عظيم ويستشهدون في ذلك بآيات الله الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، ليرفعوا من روحهم المعنوية ويزيدون من تصميمهم ومصابرتهم في الجهاد وذلك شأن كل المعارك والفتوح التي كان صلاح يخوضها، وكان للقاضي بهاء الدين ابن شداد دور عظيم في هذا الشأن، فعندما بلغت صلاح الدين أخبار بخروج الإمبراطور الألماني فردريك بربروسة بجيوشه إلى بلاد الشرق لنجدة الصليبيين بالشام، واشتد ذلك عليه ورأى حث الناس للجهاد وإعلام الخليفة بهذه الحادثة[1]، فعهد إلى القاضي بهاء الدين بن شداد بالمسير للخليفة العباسي، وإلى كافة الأمراء والحكام حتى يقوم الخليفة بدوره في حث وتحريض المسلمين في مختلف الأقطار والبلاد للنفير للجهاد ومساعدة المسلمين بالشام، ويقول ابن شداد:" فاستدعاني لذلك وأمرني بالمسير إلى صاحب سنجار وصاحب الجزيرة وصاحب الموصل وصاحب أربل واستدعاهم إلى الجهاد بأنفسهم وعساكرهم وأمرني بالمسير إلى بغداد لإعلام خليفة الزمان بذلك وتحريك عزمه على المعاونة. وكان مسيري في ذلك المعنى في الحادي عشر من رمضان، ويسر الله تعالى الوصول إلى الجماعة وإبلاغ الرسالة إليهم، فأجابوا بنفوسهم...، بكل جميل، وعدت إلى خدمته رحمه الله وكان وصولي يوم الخميس خامس ربيع الأول من شهور سنة ست وثمانين، وكنت قد سبقت العساكر وأخبرته بإجابتهم بالسمع والطاعة وباهتمامهم بالمسير فسر بذلك وفرح فرحا شديداً"[2].

---

(1) الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص330-332؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص212؛ ابن شداد، النوادر السلطانية ص84؛ أبو شامة، نقلي، دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الجهاد ضد الصليبيين، ص167.

(2) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص86.

ونلاحظ قدرة صلاح الدين على متابعة حركة الأعداء والحصول على المعلومات الدقيقة عنهم فأسعفهم الوقت للإعداد والتجهيز والاستنفار العام؛ لذلك عرض صلاح الدين على الخليفة الحضور بشخصه لتحميس المسلمين، على أن يتنازل له عن جميع بلاده[1].

ولكن الخليفة لم يكن متحمسا للانتقال من قصوره ليعيش في ميادين القتال فلم يرد على دعوة صلاح الدين واكتفى بأن أرسل إليه عدة أحمال من النفط وتوقيع بمال له عند بعض التجار، مما جعل صلاح الدين يستاء من تصرفه[2]؛ وكان من المفروض على الخليفة أن يقود الصراع مع الصليبيين رغبة في الجهاد بنفسه وماله في سبيل الله ومحاولة منه لإعادة دور منصب الخلافة في واقع الأمة، مما يترتب عليه من أثر معنوي على المجاهدين كما أنه حافز كبير لكل المسلمين للمشاركة في الحملة ضد الغزو الصليبي الكبير ومما يسجل لصلاح الدين عظمة نفسه المترفعة عن الدنيا والمطامع حيث عرض على الخليفة التنازل عن كل البلاد التي يملكها[3].

وكان للقاضي الفاضل(ت. 596هـ=1199م)، أثناء حصار الصليبيين لعكا دورا بارزا، فكان عندما بدأ حصار عكا في مصر يدير شؤونها نيابة عن صلاح الدين، وكان من خلال موقعه هذا يرتب للسلطان أموره من تجهيز العساكر، وتعمير الأسطول، وحمل المال، ونقل الميرة إلى عكا، والسلطان يكاتبه في مهماته، وترجع أجوبته لأحسن عباراته مشيرا وناصحا ومسليا وباحثا وعن مصالح الإسلام متقصيا[4]، وكانت مكاتباته تتواصل إلى صلاح الدين أثناء حصار الفرنج لعكا بصفة مستمرة، مليئة بالعبارات الصادقة بكل مشاعر الحب والإخلاص للتخفيف عنه من صعوبة هذا الحصار ومشاركته أحزانه وآماله فكان يشجعه فيها ويحثه على الصبر ويقوي من عزيمته لمواصلة الجهاد وعدم اليأس،وعدم القنوط من رحمة الله وكرمه، ويدعوه للتمسك بالأمل في نصر الله وكانت هذه العلاقة مبنية على الأخوة في الله ووحدة الهدف، وليست قائمة على تابع ومتبوع وسيد وخادم، فجاء في إحدى هذه الرسائل:" ولا يكره المولى أن تطول مدة الابتلاء بهذا العدو

---

(1) الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي،ص334.
(2) الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي،ص366-365؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص88؛ أبو شامة، الروضتين،ج2،ص141،142.
(3) الصلابي، عصر الدولة الزنكية،ج2،ص236.
(4) أبو شامة، الروضتين،ج2، ص150،149؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج12،ص 278؛ شكيل، القاضي الفاضل دوره التخطيطي في دولة صلاح الدين وفتوحاته، ص299,289.

فثوابه يطول، وحسناته تزيد، وأثره في الإسلام يبقى، وفتوحاته بمشيئة الله يعظم موقعها والعاقبة للتقوى ولينصرن الله من ينصره، والله تعالى يشكر لمولانا جهاده بيده وبرأيه بولده وبخاصتة وبعامة جنده"[1].

وظل القاضي الفاضل إلى جانب صلاح الدين يحاول بكل الطرق والوسائل الممكنة أن يخفف عنه ويخطط معه، ويكتب عنه الاستنجادات إلى شتى الأمراء وإلى الخليفة في بغداد، يناشدهم ويستشيرهم ويتوسل لإرسال المعونات بشتى أشكالها. واستنجاداته هذه مؤثرة تعكس نفسيته ونفسية صلاح الدين والمسلمين، وتصور شيئاً من اليأس الممزوج بالإيمان والأمل فأرسل إلى الخليفة العباسي ببغداد كتاباً يستحثه فيه بأقوى العبارات وأوقعها على النفس والقلب، مهيباً به أن يقف بجانب صلاح الدين والمسلمين في هذا الموقف الصعب، نصرة لدين الله ولرسوله صلى الله عليه وسلم وإعلاء لشأن المسلمين، ولعل أقوى العبارات التي أوردها في هذا الكتاب قوله مناشداً الخليفة:" فيا عصبة محمد عليه السلام، أخلفه في أمته بما تطمئن به مضاجعة، ووفه الحق فينا، فأنا والمسلمون عندك ودائعه، وما مثل الخادم نفسه في هذا القول إلا بحالة عبد لو أمكنه لوقف بالعتبات ضارعاً وقبل ترابها خاشعاً وناجاها بالقول صادعاً ولو رفعت عنه العوائق لهاجر وشافه طبيب الإسلام بل مسيحه بالداء الذي خامر، ولو أمن عدو الإسلام أن يقول قولاً آخر لسافر، ولولا أن في التصريح ما يعود على العدالة بالتجريح لقال ما يبكي العيون وينكي القلوب ولكنه صابر محتسب منتظر لنصر الله مرتقب، قائم من نفسه بما يجب"[2].

كان القاضي الفاضل بمثابة جيشاً ثانياً يحارب جانباً إلى جنب صلاح الدين خلال تلك المحنة القاسية، التي مرت به في حصار عكا؛ فكانت رسائل الاستغاثة ترسل باستمرار إلى الخليفة العباسي في بغداد والأمراء والحكام في كل البقاع الإسلامية، إضافة إلى ذلك كان القاضي الفاضل يراسل صلاح الدين برسائل شخصية باستمرار، يشدد فيها من عزمه ويحثه على الوقوف في وجه هذا العدو الغاشم، ومما جاء في رسائل القاضي

(1) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص151؛ شكيل، القاضي الفاضل دوره التخطيطي في دولة صلاح الدين وفتوحاته، ص304.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص152،151؛ شكيل، القاضي الفاضل دوره التخطيطي في دولة صلاح الدين وفتوحاته، ص315؛ نقلي، دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الجهاد ضد الصليبيين،ص170.

الفاضل لصلاح الدين من النصح والإرشاد قوله:"... وهذا دين ما غلب بكثرة وإنما اختار الله له أرباب بنات، وروى قلوب رجالات، فليكن الولي نِعم السلف، لذلك الخَلَف واشــتدي أزمة تنفرجي، والغمرات تذهب ثم لا تجيء، والله يسمعنا ما يسر القلوب، ويصرف عــن الإسلام غاشية هذه الكروب.ونستغفر الله فانه ما ابتلى إلا بذنب(1).

وجاء في كتاب آخر له:" وعسكرنا لا نشكو منه ولحمد لله منه خوراً وإنما نــشكو منه ضجراً والقوى البشرية لا بد أن يكون لها حد والأقدار الإلهية لها قــصد، وكــل ذي قصد خادم قصدها، وواقف عند حدها وإنما ذكر الملوك هذا ليرفع المولى مــن خــاطره مقت المتقاعس من رجاله، كما يثبت فيه شكر المسارع من أبطاله قــال تعــالى:" فــاعفُ عنهم واستغفر لهم وشاركهم في الأمر"(2)، يا مولانا، أليس الله تعالى اطلع على قلوب أهل الأرض فلم يؤهل، ولم يستصلح، ولم يختر ولم يسهل ولم يستعمل ولم يستخدم في إقامــة دينه، وإعلاء كلمته وتمهيد سلطانه، وحماية شعاره، وحفظ قبلة موحديه إلا أنت، هذا فــي الأرض من هو أحق بالنبوة قرابة، ومن له المملكة وراثة، ومن له في المال كثرة، ومــن له في العدد ثروة، فأقعدهم وأقامك، وكسلهم ونشطك، وقبضهم وبــسطك، وحبــب الــدنيا إليهم، وبغضها إليك وصعبها عليهم وهونها عليك، وأمسك أيديهم وأطلق يــدك، وأغمــد سيوفهم وجرد سيفك وثبطهم وسيرك، وأشقاهم وأنعم عليك، ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل أقعدوا مع القاعدين.نعم، وأخرى أهمُ من الأولــى أنه لما اجتمعت كلمة الكفر من أقطار الأرض وأطراف الدنيا ومغرب الــشمس ومزخــر البحر، ما تأخر منهم متأخر ولا استبعد المسافة بينك وبينهم مستعبد وخرجــوا مــن ذات أنفسهم الخبيثة، لا أموال تنفق فيهم، ولا ملوك تحكم عليهم، ولا عصا تسوقهم، ولا ســيف يزعجهم مهطعين(3).

واستمر القاضي الفاضل بدوره القيادي البارز في الدولة الأيوبية بعد وفاة صــلاح الدين، ولم ينقطع عن العطاء، وواصل مسيرته ومهمته الرئيسية في الحث علــى الجهــاد والمشاركة الفعلية في صد العدوان الصليبي، ويتضح ذلك عندما أعاد الصليبيون سيطرتهم على بيروت للمرة الثانية سنة (593 هــ=1197م)، مما ترتب عليه إغارات شديدة ضدهم

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص167؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج41 ،ص58،59

(2) سورة آل عمران، الآية 159.

(3) أبو شامة، الروضتين، ج2، ص168.

من قبل المسلمين بقيادة الملك العادل سيف الدين (ت.615 هـ=1218م)، انتقاماً مما فعلوه في بيروت. فنجد القاضي الفاضل يبادر بإرسال رسالة من مصر إلى الملك العادل في دمشق يحثه فيها على مواصلة القتال ضد الصليبيين، ويشكره في نفس الوقت على جهوده في محاربتهم في البلاد الساحلية، فقال:"وقد تجدد من وصول العدو اللعين وحركته إلى جانب بيروت وخطر البلاد ما أذهل كل مرضعة، وأوقع في ضائقة تنفق الأفكار فيها من سعة، وللإسلام اليوم قدم، إن زلت زل، وهمة إن ملت فإن النصر منه مل، وتلك القدم القدم العادلية، وتلك الهمة الهمة المسابقة السيفية، فالله الله ثبتوا ذلك الفؤاد ... واصبروا إن الله مع الصابرين، ولا تنهوا وإن ذهب الناصر فإن الله خير الناصرين ..."[1].

فكان لهذه الكلمات الحماسية الصادرة عن القاضي الفاضل أثر كبير في مواصلة الملك العادل غاراته على الصليبيين حتى ألحق بهم الجهد وطلبوا الصلح، فعقدت هدنة بين الطرفين لمدة ثلاث سنوات اعتباراً من شعبان(594هـ= يوليو1198م)[2]، وكانت هذه الهدنة بمثابة فسحة من الوقت أتاحت الفرصة للملك العادل في توحيد الدولة الأيوبية تحت قيادته بمساعدة فقهاء وعلماء مسلمين[3].

مشاركة العلماء في القتال:

لم يقتصر دور العلماء على حث الناس والسلاطين على الجهاد ضد الأعداء من خلال الخطب وتأليف الكتب والمصنفات؛ بل تعدى هذا إلى المشاركة الفعلية في ساحات القتال وقيادة المعارك والوقوف بجانب القادة العسكريين في وسط المعارك، وبث الحماس الجهادي لدى المقاتلين في وسط المعارك من خلال بيان عظمة الشهادة في سبيل الله والتذكير بعهد الفتوحات الإسلامية زمن عهد النبي صلى الله عليه وسلم، والخلفاء الراشدين. فمنذ أن وطئت أقدام الصليبيين أرض بلاد الشام بادر العلماء والفقهاء والقضاة بالدفاع عن الأرض إلى جانب المقاتلين، ومن أبرز الأمثلة على مشاركة أولئك العلماء للعساكر النظامية في ساحات القتال للتعبير عن حالة الإيمان المثالية بالجهاد، والدفاع عن

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج11، ص125، 126؛ أبو شامة، الروضتين، ج2، ص191-193؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص71، 74؛ ابن الوردي، تاريخ، ج2، ص169؛ نقلي، دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الجهاد ضد الصليبيين، ص175.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج11، ص128؛ أبو شامة، الروضتين،ج2 ، ص194؛ ابن واصل، مفرج الكروب،ج3، ص78؛ نقلي، دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الجهاد ضد الصليبيين، ص 176.

(3) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية،ج3،ص180.

الأرض والنفس كانت حالة القاضي أبو محمد عبد الله بن منصور المعروف بابن صليحة قاضي حصن جبلة[1] الذي تولى إمارة ذلك الحصن بعد وفاة أبيه منصور، وكان ذا خبرة عسكرية جيدة لأنه "أحب الجندية واختار الجند، فظهرت شهامته[2].

وقد برزت براعة وحنكة ذلك الأمير القاضي عند محاصرة الإفرنج حصن جبلة للاستيلاء عليه سنة (494هـ=1100م)، فقد تم حصار المدينة ثلاث مرات خلال سنة واحدة ففي المرة الأولى حاصروا المدينة فقام أهلها وقاضيها ابن صليحة بخداع القوات الصليبية واستخدامه لما يسمى اليوم بالحرب النفسية أولاً؛ وذلك عندما خطط بدهاء، لنشر الذعر بين صفوف القوات الصليبية، حيث أظهر وأشاع قدوم قوات سلجوقية من العراق لمساندتهم، فصدقوا تلك الخدعة ورحلوا عن المدينة، وعندما تحقق للصليبيين انشغال السلاجقة عنهم عاودوا الحصار، فأشاع ابن صليحة وأهل جبلة أن المصريين قد توجهوا لحربهم ومساعدته هذه المرة ولذلك تركوا محاصرة ذلك الحصن وخدع الصليبيين للمرة الثانية، ولكن سرعان ما فطن الصليبيون لتلك الحرب النفسية وأهدافها، فعادوا لمحاصرة الحصن للمرة الثالثة في شهر شعبان سنة (494هـ=1100م)، إلا أن القاضي ابن صليحة أدرك أن الصليبيين قد عرفوا أساليبه القديمة ولذلك لجأ إلى أسلوب جديد لمواجهة أولئك الفرنجة بأن قرر التعاون مع أهل المدينة من النصارى بمراسلة الصليبيين والاتفاق معهم على التعاون من أجل تسليم المدينة، ويكون ذلك بأن يقوموا بمقابلتهم عند أحد أبراج المدينة ليسلموه إليهم ومنه يقوموا باجتياح المدينة دون علم من أهل المدينة المسلمين، وقد تمت الخطة حسب ما رسم لها وانطلت على الصليبيين الحيلة، فأرسلوا ثلاثمائة من القوات الخاصة لتسلم البرج من نصارى المدينة، ويبدو أن القاضي ابن صليحة قد نصب الكمين لهم وتسللوا وبشكل فردي حتى لا يراهم المسلمون"واحداً بعد واحد وكلما صار عند ابن صليحة وهو على السور رجل منهم قتله، إلى أن قتلهم أجمعين فلما أصبحوا رمى الرؤوس فرحلوا عنه[3]

(1) جبلة Jubelet تقع بساحل الشام من أعمال اللاذقية في منتصف الطريق بين عرقة وأنطاكية. ياقوت الحموي، معجم البلدان،ج1، ص469؛ ريموندا جيل، تاريخ الفرنجة، ص188.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص35.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص35؛ الفراني، المقاومة الشعبية للاحتلال الصليبي في بلاد الشام، رسالة ماجستير غير منشورة ص93.

ورغم ذلك لم يسترح الصليبيون للطعم والفخ الذي نـصبه لهـم قاضـي جبلـة وتحقيق ذلك النجاح. ولذا قرروا أخذها منه بأية وسيلة، حيث استطاعوا هدم أحـد أبـراج سور المدينة الذي لم يكن الصباح قد أصبح عليه حتى كان الأهالي قد بنوه أقوى مما سبق ليفوتوا الفرصة على القوات الصليبية اقتحام المدينة من ذلك البـرج، ولكـن مـا يملكـه القاضي من الدهاء والحيلة جعله يفطن لذلك الخطر المحدق به، حيث لم يـركن للهـدوء والاستسلام وإنما بادر إلى وضع خطة ذكية على غرار تلك الخطط الناجحة التي كبـدت ذلك العدو الخسائر والفشل أكثر من مرة؛ ولذلك عمل هذه المرة على استدراج الـصليبيين في كمين آخر وضعه لهم بخطة محكمة حيث أحدث ثقوباً فـي أسـوار المدينـة، تتـسع لخروج المقاومين؛ ثم قام بالخروج ومعه بعض أهل المدينـة لقتـال الـصليبيين فقـاتلهم وتظاهر بالهزيمة أمامهم، بحيث انطوت الحيلة على أولئك الغزاة الذين لـم يفطنـوا لهـا وبادروا إلى مطاردته حتى أبواب المدينة في الوقت الذي استغل فيه جنده الفرصـة فـي الخروج من تلك "الثقوب فأتوا الفرنجة من ظهورهم فولوا منهزمين وأسر مقدمهم[1]

وبالإضافة إلى ذلك يبرز دور القاضي الأمير فخر الملـك بـن عمـار[2] حـاكم وقاضي طرابلس، فمنذ أن تولى حكم طرابلس سنة (492هـ =1098 م)، وقع على عاتقة مهمة الدفاع عنها وعن البلاد التابعة لها مثل عرقة[3]وانطرطوس[4]من العدوان الـصليبي الذي اجتاح بلاد الشام، وقد سلك أساليب عديدة في التصدي لهذا العدوان، وقد وفق فـي هذا الشأن، حتى نجح في أن تبقى طرابلس بأيدي المسلمين حوالي إحدى عشرة سنة، قبل أن تسقط بأيدي الصليبيين، ويعود هذا الفضل إلـى حنكتـه العـسكرية وقـوة عزيمتـه

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ،ج9، ص35؛ الفراني، المقاومة الشعبية للاحتلال الصليبي فـي بـلاد الشام، رسالة ماجستير غير منشورة، ص93.

(2) هو أبو علي عمار بن محمد بن الحسين بن قندس بن عبد الله بن إدريس بن أبي يوسـف الطـائي، من أسرة فاقت شهرتها في العلم كل ما كان لها من صفات حربية كان يجمع بين حكـم طـرابلس والقضاء بها. أنظر، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص160 ؛ الأصـفهاني، خريـدة القـصر وجريدة العصر، ج2، ص7،8 ؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملـوك، ج3، ص42 ؛ نقلـي، دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الجهاد ضد الصليبيين، ص84، حاشية 24.

(3) بلدة في شرقي طرابلس بينهما أربعة فراسخ وهي آخر عمل دمشق في سفح الجبل، بينهمـا وبـين البحر نحو ميل، وعلى جبلها قلعة. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص109.

(4) انطرطوس أو وطرطوس حصن على البحر الأبيض المتوسط شرق مدينة عرقة بينها ثمانية فراسخ وهي آخر أعمال دمشق من البلاد الساحلية. ياقوت الحموي، معجم البلدان ج4، ص30.

وإرادته[1]؛ ففي سنة(492هـ=1098م)، عند بداية الاحتلال الصليبي لبلاد الشام واقتراب جحافل العدوان الصليبي من طرابلس، أسرع ابن عمار إلى مهادنة الصليبيين، لإدراكه بعدم قدرته على مواجهة القوات الغازية؛ وخاصة أنه لا يخفى عليه تمزق الإمارات الإسلامية في بلاد الشام، وعدم قدرة الخلافة العباسية في بغداد بالقيام بأي إمداد عسكري وأن لا يعرض المسلمين ومدينته للإبادة فقام على الفور بتقديم الأموال والهدايا والمرشدين ليبعدهم عن المدينة[2].

ولكن لم تفلح سياسة المهادنة التي اتبعها ابن عمار مع الصليبيين، وخاصة بعد أن تحقق هدفهم في احتلال بيت المقدس، حتى تفرغوا له وحاصروا طرابلس سنة (495هـ= 1101م)، وتوجه ابن عمار إلى طلب النجدة من الإمارات المحلية في مدن الشام والجزيرة غير أنه لم يظفر بأي إمداد أو مساعدة وانهزم أمام الصليبيين واضطر إلى مهادنة الصليبيين مرة أخرى على المال والخيل على أن يرحلوا عن طرابلس إلى انطرسوس واستولوا عليها في جمادي الآخرة من السنة نفسها[3]

وأمام إصرار الصليبيين على الاستيلاء على طرابلس وأمام فرض الحصار وقلة الأقوات داخل المدينة؛ لم يجد ابن عمار بعد أن اشتد الحصار، إلا الاستنجاد بالخليفة العباسي والسلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه (ت.509هـ=1115م)، فخرج بنفسه في رمضان سنة(501هـ =1108م)، إلى بغداد لطلب النجدة، ورغم الحفاوة التي استقبل بها في بغداد إلا أن رحلته التي مكث فيها أربعة شهور، لم تحقق نجاحا في الأهداف التي سعى من أجلها، كما هو الحال لمدينة دمشق[4]، ثم ما لبثت طرابلس أن سقطت بأيدي

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص54؛ نقلي، دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الجهاد ضد الصليبيين، ص84.

(2) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص140؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ،ج10، ص45؛ رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص388؛ نقلي، دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الجهاد ضد الصليبيين ص85.

(3) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص141,140؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ،ج10، ص55؛ عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص243،244، 245.

(4) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص161,160؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص120,121.

الفاطميين في فترة غياب ابن عمار عنها؛ وفي سنة (502هـ =1108م)، سقطت بأيـدي الصليبيين[1].

وبرز دور القاضي أبو الفضل بن الخشاب قاضي حلب[2] عندما اشـتد الحـصار الصليبي على مدينة حلب سنة(513هـ= 1119م)، حيث أقبل القاضي ابن الخشاب علـى تحريض الناس " على القتال وهو راكب على حجر وبيده رمح حيث ألقـى فـيهم خطبـة بليغة استنهض بها هممهم وألهب مشاعرهم، فأبكى الناس وعظم في أعينهم، حتى أقدموا على قتال الغزاة[3] ورغم تمكن الحلبيين من تخليص مدينتهم في ذلك العـام لـم يتـردد الصليبيون من محاولة أخرى لأخذ حلب سنة(518هـ = 1124م)، وذلك عنـدما قـاموا بتخريب كل القرى المجاورة لحلب، حتى لا تتلقى الإمدادات و المساعدات، وكان للقاضي ابن الخشاب دور في شحذ همم الناس للقتال بل كان له دور في تحريض الأمير أق سـنقر البرسقي (ت. 478هـ = 1085م)، أمير الموصل في صد هجمات الصليبيين[4].

كذلك برز دور بطولي لأحد العلماء أثنـاء حـصار الـصليبيين لمينـاء صـور سنة(505هـ =1111م)، فلقد امتنعت صور على الصليبيين فترة طويلـة مـن الـزمن، وباءت كل محاولاتهم لاحتلالها بالفشل، وكان ذلك بفضل موقعهـا الممتـاز مـن ناحيـة ولاهتمام الفاطميين بتزويدها بالإمدادات من حين لآخر من ناحية أخرى مما مكنهـا مـن الصمود في وجه الصليبيين، وفي سنة(505هـ=1111م)، قـام الـصليبيون بمهاجمتهـا وأقاموا عليها ثلاثة أبراج خشبية عالية وبكل برج ألف رجل، وألـصقوا أحـدها بالـسور فاجتمع النائب الفاطمي بأهل البلدة للتشاور في كيفية دفع هذه الأبراج عن المدينـة، فقـام شيخ[5]من أهل طرابلس وتعهد على نفسه إحراقها، وأخذ معه ألف رجل بالـسلاح التـام يحمل كل منهم حزمة حطب وأخذوا يقاتلون الفرنج إلى أن وصلوا البرج الملصق بـسور المدينة؛ فألقى الحطب من جميع جهاته وأشعل فيه النار، ولكنه خاف أن يـشتغل الفـرنج

---

(1) ابن القلانسي، ذيـل تـاريخ دمـشق، ص،161؛ رنـسيمان، تـاريخ الحـروب الـصليبية، ج2، ص105,106.

(2) لم أعثر له على ترجمة.

(3) ابن العديم، زبدة الحلب،ج2،ص188.

(4) ابن العديم، زبدة الحلب،ج2،ص192-195.

(5) الشيخ من ألقاب العلماء والصلحاء وأصله في اللغة الطاعن في السن ولقب به أهل العلم والـصلاح توقيرا لهم كما يوقر الشيخ الكبير والشيخي نسبة إليه للمبالغة. انظر،القلقشندى، صـبح الأعـشى، ج6، ص16.

الذين في البرج بإطفاء النار وتفشل خطته في إنقاذ المدينة من الحصار فرمـــاهم بجـــرب كان قد أعدها مملوءة من العذرة[1]فلما سقطت عليهم انشغلوا بها وبما نـــالهم مـــن ســـوء الرائحة والتلويث، فتمكنت النار من البرج وهلك كل مـــن فيـــه إلا القليـــل، وأخـــذ منـــه المسلمون ما قدروا عليه بالكلاليب ثم أخذ سلال العنب الكبار وترك فيها الحطب الذي قـــد سقاه بالنفط والزفت والكتان والكبريت، ورماهم بسبعين سلة وأحرق البرجين الآخـــرين[2] وقد نتج عن هذه الخطة الناجحة التي قام بها هذا الشيخ الذي لم نعثر علـــى اســـمه فـــي المصادر، على رفع الروح المعنوية مرة ثانية لدى أهل صور فقاتلوا بكل بسالة وشـــجاعة وأمام هذه الشجاعة اضطرت القوات الصليبية إلى الرحيل[3].

وشهدت الحملة الصليبية الثانية(543هـــ=1148م)، دورا مقاوما من جانب الفقهاء والعلماء الشاميين كنوع من المقاومة الشعبية ضد الصليبيين، وقد تمثل ذلك في دور اثنين من الفقهاء هما يوسف الفندلاوي[4] وعبد الرحمن الحلحولي[5] اللذان تزعمـــا المقاومـــة الشعبية ضد الصليبيين المهاجمين لدمشق، ويصور لنا أسامة بن منقذ الحوار الـــذي دار بين الفقيهين ومدى حماسهم للقتال في سبيل لله؛ حيث قال الحلحولي للفندلاوي:" هـــؤلاء

---

(1) العذرة، الغائط الذي هو الخرأ. أنظر، ابن منظور، لسان العرب،ج15،ص321.

(2) ابن القلانسي، ذيل تـــاريخ دمـــشق، ص180,179؛ ابـــن الأثيـــر، الكامـــل فـــي التـــاريخ، ج9، ص145,144؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج3،ص56؛ رنسيمان، تـــاريخ الحـــروب الصليبية، ج2،ص152؛ نقلي، دول الفقهاء والعلماء المـــسلمين فـــي الجهـــاد ضـــد الـــصليبيين، ص93,92.

(3) ابن القلانسي، ذيل تـــاريخ دمـــشق، ص180,179؛ ابـــن الأثيـــر، الكامـــل فـــي التـــاريخ، ج9، ص145,144؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج3،ص56.

(4) هو يوسف بن درباس المغربي أبو الحجاج فقيه على المذهب المالكي، أصله من المغرب قـــدم مـــن دمشق ليحج منها، فسكن بانياس مدة، وكان خطيبا لها، انتقل إلى دمشق فاســـتوطنها ودرس بهـــا المذهب المالكي وحدث بالموطأ، وكتاب التلخيص لأبي الحسن القابسي، وقد علق عنه ابن عساكر أحاديث يسيرة، وصفه المؤرخون بأنه كان إماما عالما، دينا بارعا في فنونه وصالحا فكهـــا، حلـــو المجالسة، شديد التعصب للأشعرية، صاحب تحزق على الحنابلة وله فتوى الفندلاوي، استشهد سنة 543هـــ ودفن في دمشق. انظر ترجمته في، ابن عساكر، تاريخ دمـــشق، ج14، ص49، ج37، ص342؛ ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص298؛ ابن منقذ، الاعتبار، ص94؛ خلكان، وفيـــات الأعيان، ج2، ص452؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص353.

(5) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن الحلحولي نسبة إلى قرية حلحول في الخليل، ولـــد فـــي حلب وسار في الآفاق، وكان آخر أمره أنه انقطع بمسجد في ظاهر دمشق حتى مجـــيء الحملـــة الصليبية الثانية حيث خرج مع صديقه الفندلاوي واستشهد، وتم دفنه في بستان الشعباني في جهـــة شرقه، ولا يزال قبره موجودا إلى الآن، وهو بالقرب من جسر النحاس في حي الأكراد بدمـــشق. انظر، ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج2، ص86؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص290؛ أبو شامة، الروضتين، ج1، ص186، وهامش(2) من نفس الصفحة.

الروم؟{يعني الصليبيين} قال: نعم، قال فإلى متى نحن وقوف؟ قال: سر علـــى اســـم الله فتقدما فقاتلا حتى استشهدا رحمهما الله في مكان واحد". وكان معين الدين أنر حاكم دمشق قد طلب من الفندلاوي أن لا يشارك في القتال نظرا لتقدم سنه فقال له:" يـــا شـــيخ أنـــت معذور لكبر سنك، ونحن نقوم بالذب عن المسلمين. وسأله أن يعود فلم يفعل، وقال له: قد بعت واشترى مني، فو الله لا أقلته ولا استقلته"، وقد قاتلا الإثنين قتالا شديدا حتى استشهدا في أرض المعركة [(1)].

واشترك خلال أحداث معركة بانياس[(2)]سنة (552هـ=1157م)، التي تعد من أهم المعارك الحربية التي جرت ضد الصليبيين في العهد النـــوري عناصـــر مـــن " الفقهـــاء الصوفية والمتدينين العدد الكثير"[(3)]. وشارك العلماء والفقهـــاء صـــلاح الـــدين الأيـــوبي (ت.589هـ=1192م)، جهاده ضد الصليبيين في الجبهة الشامية بعـــد أن اســـتتبت لـــه الأمور، ومن هؤلاء العلماء الفقيه عيسى الهكاري (ت.585هـ=1189م)، الذي شـــاركه في جهاده ضد الصليبيين مشاركة فعلية وحمل السلاح وقاتل في المعارك، "وكـــان يلـــبس زى الأجناد ويعتم بعمائم الفقهاء فيجمع بين اللباسين"[(4)]، فقد شارك صـــلاح الـــدين فـــي جهاده سنة (573 هـ =1177م)، عندما خرج صلاح الدين من مصر لمحاربة الصليبيين في عسقلان، وقام بالإغارة عليها فقتل الكثير من الصليبيين وأسر الكثيـــر وأحـــرق مـــا حولها، ويذكر ابن الأثير في هذا المجال أن الفقيه عيسى الهكاري " كان أشد الناس قـــتلاً ذلك اليوم[(5)] ثم واصل صلاح الدين بمن معه إلى الرملة فوقعـــت هنـــاك معركـــة بـــين المسلمين والصليبيين عرفت بمعركة الرملة أو تل الصافية أو كما يسميها البعض بكـــسرة الرملة، فسبى وغنم فيها المسلمون الكثير في بداية المعركة؛ ولكن لمـــا تـــشاغل الجـــيش

---

(1) ابن منقذ، الاعتبار، ص14؛ عن هذه الحادثة انظر، ابن الأثير، الكامل في التـــاريخ، ج9، ص353؛ الباهر، ص89 ؛ أبو شامة، الروضتين، ج1، ص224؛ ابن تغري بردي، النجـــوم الزاهـــرة ج5، ص288 ؛ ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص126؛ ابـــن العمـــاد، شـــذرات الـــذهب، ج4، ص136؛ الفراني، المقاومة الشعبية للاحتلال الصليبي لبلاد الشام، رسالة ماجستير غير منـــشورة، ص97.

(2) بانياس، هي مدينة من ثغور بلاد الشام، تقع في شمال فلسطين، فيها نهر شديد البرودة، يخرج مـــن تحت جبل الثلج "جبل الشيخ" ، انظر، المقدسي، أحسن التقاسيم، ص140.

(3) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص340؛ أبو شامة، الروضتين، ج1، ص341؛ الفراني، المقاومة الشعبية للاحتلال الصليبي في بلاد الشام، رسالة ماجستير غير منشورة، ص98.

(4) انظر،ابن خلكان، وفيات الأعيان،ج3، ص498؛ ابن الأثير، الكامل فـــي التـــاريخ، ج10، ص197؛ العليمي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج2، ص144.

(5) الكامل في التاريخ، ج10 ص223.

بالغنائم وتفرقوا في القرى والمناطق التي حولها، وبقي صلاح الدين في طائفة قليلة مـــن جنده، قام الصليبيون فجأة بالهجوم عليهم فأربك المسلمون " وقدّر الله كسرتهم فانكـــسروا كسرة عظيمة، ... وأسر منهم جماعة منهم الفقيه عيسى الهكاري وأخيه ظهير الدين "[1]. وظل الفقيه عيسى أسيراً لدى الصليبيين مدة سنتين أي سنة (575هـــ=1179م)، حيـــث افتداه السلطان صلاح الدين بستين ألف دينار وعدد من أسرى الصليبيين [2].

وشارك العلماء صلاح الدين الأيوبي في جهاده في معركة حطـــين[3]، وتحريـــر بيت المقدس سنة(583هـ =1187م)، حيث تجلى دورهم الجهادي من خلال ما أوردتـــه المصادر التاريخية من المواقف البطولية التي قام بها الشيخ أبو عمر المقدســـي الـــصوفي (607هـ =1210م)، الذي شارك نور الدين معظم غزواته وحضر مـــع صـــلاح الـــدين معركتي حطين وفتح بيت المقدس، يقول عنه ابن كثير: "كان هو وأخـــوه وابـــن خـــالهم الحافظ عبد الغني وأخوه الشيخ العماد، لا ينقطعون عن غزوة يخرج فيها الملـــك صـــلاح الدين إلى بلاد الفرنج، وقد حضروا معه فتح بيت المقدس والسواحل وغيرها"[4].

كما حضر فتح بيت المقدس، الشيخ أحمد الصوفي المعروف بالقدسي[5] واشتهر بأبي ثور لأنه قاتل الصليبيين أثناء فتح بيت المقدس وهو راكب ثورا[6]، وقام القاضي ابن

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10 ، ص223؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص19؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص59،60؛ الحنبلي، شفاء القلوب، ص115 ؛ المقريزي، الـــسلوك لمعرفـــة دول الملوك، ج1، ص 175؛ ابن العماد، شذرات الـــذهب، ج2، ص244 ؛ نقلـــي، دور الفقهـــاء والعلماء المسلمين في الجهاد ضد الصليبين، ص125.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10 ، ص225؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص61.

(3) حطين قرية في شمال فلسطين بين أرسوف وقيسارية، في سهل خصيب غرب بحيرة طبريا، وفيهـــا وقعت المعركة الشهيرة، التي انتصر فيها صلاح الدين وشتت شمل الصليبين، للمزيد عن القريـــة والمعركة، انظر، ياقوت الحموي، معجم البلدان،ج3، ص16 ؛ الأصفهاني، الفتح القـــسي، ص75. ابن الأثير، الكامل في التاريخ،ج10، ص146؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص 188؛ أبـــي الفداء، المختصر في إخبار البشر، ج2، ص155.

(4) البداية والنهاية،ج13، ص58،59 ؛ حشيش، الحركة الصوفية في بلاد الشام، رسالة ماجستير غيـــر منشورة، ص86.

(5) هو الشيخ الإمام لزاهد العابد المجاهد شهاب الدين أبو العباس أحمد بن جمال الدين عبد الله بن محمد بن عبد الجبار المعروف بالمقدسي والمشهور بأبي ثور كان من عبـــاد الله الـــصالحين. العليمـــي، الأنس الجليل، ج2، ص144.

(6) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص144.

أبي عصرون (ت.585هـ=1189م)، بعد الانتهاء من المعركة باقتياد الأسرى الصليبيين من الملوك والأمراء ودخل بهم دمشق وهو يحمل صليب الصلبوت منكسا[1].

بعد النصر المبين الذي حققه المسلمون في معركة حطين، والفتح المبارك لبيت المقدس سنة(583هـ =1187م)، بدأ صلاح الدين بتحرير المدن الشامية الواحدة تلو الأخرى، باشتراك أعداد كبيرة من الفقهاء والعلماء وخاصة في فتح بيت المقدس، وذلك على حد تعبير ابن خلكان:" قصده العلماء من مصر والشام بحيث لم يتخلف معروف عن الحضور"[2]، فبدأ صلاح الدين فتوحاته بفتح عكا يوم الجمعة الثاني من جمادى الآخرة سنة(583هـ=1187م)، لأنها الطريق الموصل إلى بيت المقدس من ناحية؛ وحتى يضمن بفتحها قطع الإمدادات التي تصل عن طريقها من أوروبا إلى الصليبيين ببيت المقدس من ناحية أخرى وقد شارك في هذه الفتح العديد من العلماء والفقهاء، يأتي في مقدمتهم القاضي الفاضل(ت.596هـ =1199م)؛ فبعد أن تم لصلاح الدين فتح مدينة عكا قام القاضي الفاضل بتحويل الكنيسة العظمى بها إلى مسجد جامع، وأمر ببناء القبلة والمنبر ثم أقيمت به صلاة الجمعة، ويذكر ابن الأثير في هذا الصدد أنها " أول جمعة أقيمت بالساحل الشامي بعد أن ملكه الفرنج"[3].

وتولى الفقيه جمال الدين عبد اللطيف بن الشيخ أبي الشيخ أبي النجيب السهروردي[4] أمر الخطبة والإمامة، ثم اسند إليه صلاح الدين بعد ذلك مناصب الخطابة والقضاء والحسبة والوقف في مدينة عكا[5].

وخصص للفقيه عيسى الهكاري الذي كان ملازما له في معاركه وفتوحاته، بعد فتح عكا كل ما يتعلق بجماعة الفرسان الداوية[6] من منازل وضياع ومواضع، فأخذها بما

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج3، ص299. الحنبلي، شفاء القلوب، ص138.
(2) وفيات الأعيان،ج7، ص179.
(3) الكامل في التاريخ،ج12،ص27؛ أحمد، مصر والشام والصليبيون، ص96.
(4) هو عبد اللطيف بن عبد القاهر بن عبد الله بن محمد بن عمويه، السهروردي أبو محمد ابن الشيخ النجيب السهروردي، الصوفي. ولد ببغداد سنة534هـ=1139م، وقرأ الفقه بها على أبيه، وكان يتنقل من بلد إلى بلد ثم عاد إلى بغداد، ودرس بمدرسة والده، ثم سافر إلى اربل. وكان فقيها فاضلا صدوقا، متدينا، حسن الأخلاق، متواضعا، توفي بإربل سنة 610هـ=1204م؛ أنظر، الذهبي، تاريخ الإسلام،ج43، ص375,374؛ الصفدي، الوافي بالوفيات،ج6، ص229.
(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج12،ص32؛ الصفدى، الوافي بالوفيات،ج6، ص229.
(6) الداوية، هيئة عسكرية صليبية، نشأت على أساس حربي سنة512هـ =1118م، مقرها الأول يقع في جزء أقصى من بيت المقدس ولهذا اكتسبت الجماعة اسم فرسان المعبد التي عرفت فيما بعد باسم الداوية، وكان من أهم مهامها حماية الطريق مابين القدس وشاطئ البحر المتوسط ثم تطور نشاطهم فأصبح لها دور حربي يقوم به الصليبيون في بلاد الشرق الإسلامي ضد المسلمين، انظر،
=

فيها من غلال ومتاع" تكريما له واعترافا بمكانته ومشاركته في الجهاد ضد الصليبيين، وتشجيعا لاستمراره في البذل والعطاء لهذه الفريضة[1].

فكان هذا التصرف من صلاح الدين بادرة لم يسبقه إليها غيره، وكانت هذه المنحة خلاف ما وزعه صلاح الدين على المجاهدين من أموال الفيء والغنيمة التي اغتنمها المسلمون من وراء هذا الفتح المبين[2]

وشارك الشيخ أبو عمر بن قدامه المقدسي(ت.607هـ=1210م)، وأخوه الشيخ موفق الدين ابن قدامه(ت.620 هـ=1223م)، في المعارك التي خاضها صلاح الدين ومنها فتح بيت المقدس، قال عنهما ابن كثير:"وكان هو وأخوه وابن خالتهم الحافظ عبد الغني(ت.600هـ=1203م)، وأخوه الشيخ العماد[3] لا ينقطعون عن غزاة يخرج فيها الملك صلاح الدين إلى بلاد الفرنج وقد حضروا معه فتح القدس والسواحل وغيرها"[4].

ولما منَ الله على المسلمين بفتح بيت المقدس في يوم الجمعة 27 من رجب سنة (583هـ= أكتوبر1187م)، قام صلاح الدين بتفريق الأموال التي أخذت من الصليبيين نظير افتداء أنفسهم وأرواحهم على الأمراء والعلماء والفقهاء الذين حضروا معه هذا الفتح، وبلغت "نيفاً وثلاثمائة ألف دينار"[5]، ثم جلس صلاح الدين بين العلماء والفقهاء وأهل العلم لتلقي التهاني بهذا الفتح العظيم[6]، وقد قام الشعراء من العلماء والفقهاء يهنئون

=

ابن شداد، النوادر السلطانية،ص77،حاشية رقم5؛ رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية،ج2، ص249؛ عاشور، الحركة الصليبية،ج1، ص296؛ عاشور، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية في العصر الفاطمي والسلجوقي والزنكي،ص92.

(1) الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص55؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص149؛ أبو شامة،الروضتين، ج2، ص94؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص201؛ نقلي، دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الجهاد ضد الصليبيين،ص144.

(2) نقلي، دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الجهاد ضد الصليبيين،ص144.

(3) هو أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الواحد بن علي بن سرور لمقدسي، الإمام العلامة الشيخ العماد، كان فقيها، مفتيا، سافر إلى بغداد وقرأ القرآن على أبي الحسن علي يد بن عساكر بن المرحب البطائحي وغيره، وتفقه في بغداد على يد أبي الفتح ابن المنى، وأفتى وناظر وسمع الحديث الكثير ببغداد ودمشق صنف كتاب "الفروق بين المسائل الفقهية" "وكتاب الأحكام" توفي سنة 614هـ=1217م بدمشق. أنظر، أبو شامة الذيل على الروضتين، ص104– 106؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص69-71.

(4) البداية والنهاية، ج13، ص71 ؛ نقلي، دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الجهاد ضد الصليبيين، ص146.

(5) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج8 ، ص254؛ ابن الوردي، تاريخ، ج2 ، ص94.

(6) الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص114؛ أبو شامة الروضتين ج2، ص83.

صلاح الدين بهذا الفتح المجيد بقصائد من الشعر يعبرون من خلالها عن مدى ســعادتهم بهذا النصر المبين، وكان منهم الشاعر المشهور القاضي ابن سناء الملك[1] ومحيي الــدين بن الزكي[2] وأن القاضيين كانا ضمن نخبة العلماء والفقهاء الذين تنبئوا واستبشروا خيــراً بفتح بيت المقدس على أيدي المسلمين فأرسلا إلى السلطان صلاح الدين يبشرانه بذلك وقد ورد ذلك في قصيدة ابن الزكي الذي نظمها بمناسبة نجاح صلاح الدين في ضم حلب إلى الوحدة الإسلامية سنة (579هـ= 1183م)، حيث قال: "وفتحك القلعة الشهباء في صــفر ..... مبشر بفتوح القدس في رجب"[3].

ولهذا الفأل الحسن، قدم السلطان صلاح الدين القاضي محيي الدين بــن الزكــي بخطبة الجمعة بالمسجد الأقصى تكريماً له وتشريفاً على بيت الشعر الذي سبق أن مدح به صلاح الدين عند فتحه حلب والذي بشره فيه بفتح القدس في رجب ولمكانته ومكانة أسرته

---

(1) هو القاضي أبو القسم هبة الله بن القاضي الرشيد أبي الفضل جعفر بن المعتمد سناء الملك المصري الأديب صاحب الديوان المشهور والمصنفات الأدبية قرأ على الشريف الخطيــب أحــد الفــضلاء والرؤساء النبلاء، قرأ القرآن والنحو على الشريف أبو الفتوح الخطيب، وابن بري وكتب بــديوان الإنشاء مدة وكان بارع الترسل والنظم وكان كثير التخصيص والتنعم وافر السعادة محظوظاً مــن الدين اختصر كتاب الحيوان للجاحظ وسمى المختصر روح الحيوان ولــه ديــوان جميعــه مــن موشحات سماه در الطراز وجمع شيئاً من الرسائل الدائرة بينه وبين القاضي الفاضل. توفي ســنة 608 هـ في العشر الأول من شهر رمضان بالقاهرة عن بضع وستين سنة. أنظر، ابــن خلكــان وفيات الأعيان، ج2، ص61-66 ؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج18، ص335-337؛ ابــن العمــاد، شذرات الذهب، ج5، ص 35،36

(2) هو أبو المعالي محمد بن أبي الحسن علي بن محمد، أبي المعالي مجد الدين، بن يحيى أبي الفــضل زكي الدين، وبعود أصل نسبه إلى أمير المؤمنين، عثمان بن عفان، رضــي الله عنــه القرشــي، الملقب محيى الدين، المعروف بابن زكي الــدين، الدمــشقي الفقيــه الــشافعي، ولــد ســنة550 هـ=1155م، بدمشق، كان ذا فضائل عديدة من الفقه والأدب وغيرهما، وتولى القــضاء بدمــشق سنة 588هـ=1191م، ، وكان معظم أجداده قد تولوا القضاء بدمشق، وكانت له عنــد الــسلطان صلاح الدين، المنزلة العالية ولما فتح السلطان صلاح الدين مدينة حلب، سنة 579هـــ=1183م، أنشده القاضي محيى الدين المذكور قصيدة بائية، أجاد فيها كل الإجادة، وكان من جملتها بيت هــو متداول بين الناس وهو: وفتحك القلعة الشهباء في صفر مبشر بفتوح القدس فــي رجــب. تــوفي بدمشق سنة 598هـ=1201م. أنظر، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص229-236؛ أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص31،32؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج6، ص157، 158؛ ابــن العماد، شذرات الذهب، ج4، ص337.

(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص229؛ سبط بن الجوزي، ج8، ص240؛ أبو شامة الروضتين، ج2، ص46؛ ابن العماد شذرات الذهب،ج4، ص337؛ نقلي دور الفقهاء والعلماء المــسلمين فــي الجهاد ضد الصليبيين، ص149.

العلمية وصرامته في الحق، وفضائله العديدة في الفقه والأدب، فضلاً عن أنه كان يتمتـــع بموهبة فريدة وأسلوب بديع في نظم الخطب وإثارة حماس المستمعين له[1].

وكان للعلماء والفقهاء دور واضح في المشاركة في حصار الحملة الصليبية الثالثة المعاصرة لمدينة عكا سنة (585هــ =1189م)، وكانت المعركة التي وقعت في مرج عكا من أشد هذه المعارك على عكا، مما جعل بعض المؤرخين يطلق عليها –المصاف الأعظم – أو الوقعة العظمى[2]، ومن هؤلاء الفقهاء والعلماء الذين شاركوا فـــي هـــذه المعـــارك، الفقيه عيسى الهكاري (ت.585هــ= 1189م)، حيث كان يتولى مقدمة القلب فـــي جـــيش صلاح الدين[3]، كما كان القاضي بهاء الدين بن شداد (ت.632هـــــ= 1234م)، والفقيـــه العماد الأصفهاني(ت.597هــ= 1200م)، مشاركين أيضاً فـــي هـــذه المعركـــة، دون أن يوضحا دورهما في المعركة وكان النصر حليف المسلمين في نهاية هذه المعركة وتكبـــد الصليبيون خسائر فادحة في الأرواح قدرت بعشرة آلاف قتيل[4].

وقد استشهد في هذه المعركة، الفقيه ظهير الدين الهكاري[5]، أخو الفقيـــه عيـــسى الهكاري، وكان والياً على بيت المقدس، وقد "جمع بين الشجاعة والعلم والدين"[6] وعنـــدما علم الفقيه عيسى الهكاري بنبأ استشهاده أنكر عزاء الناس له قائلاً:" هذا يوم الهناء، لا يوم العزاء"[7]، كما استشهد أيضاً في هذه المعركة الفقيه أبو علي رواحة[8] عند خيمة صـــلاح

---

(1) الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص139؛ ابن خلكان، وفيـــات الأعيـــان، ج4، ص229؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص102؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمـــان، ج8، ص254؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص218، 219؛ نقلي، دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الجهاد ضد الصليبيين، ص150.

(2) الفتح القسي في الفتح القدسي، ص213؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص198؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص74؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص294،305؛ نقلـــي، دور الفقهـــاء والعلماء المسلمين في الجهاد ضد الصليبيين، ص163.

(3) الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص99؛ ابن واصل، مفرج الكروب،ج2، ص629.

(4) الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص311-314؛ ابن شداد، النوادر الـــسلطانية، ص75؛ أبو شامة، الروضتين،ج2، ص143؛ ابن واصل، مفرج الكروب،ج2، ص299 .

(5) لم أعثر له على ترجمة.

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص201؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص77.

(7) الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص237؛ ابـــن الأثيـــر، الكامـــل فـــي التـــاريخ، ج10، ص201؛ ابن شداد، النوادر السلطانية ص78؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص929؛ نقلـــي، دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الجهاد ضد الصليبيين، ص163.

(8) هو الحسين بن عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله بن رواحه أبو علي الأنصاري الحموي، الأديب الفقيه الشاعر المجيد، ولد بحماه ونشأ بها، ورحل إلى دمشق فأقام بها مدة، واشتغل بالفقه، وسمع الحديث من الحافظ أبي القاسم بن عساكر ومن آخرين، ورحل إلى مصر فسمع بها سنة585 هــ=1189م.

=

الدين مع جماعة، ويبدو أنه كان ممن يدافعون عن خيمة صلاح الدين حينما اندفع جماعة من الصليبيين إلى الخيمة يريدون الفتك بالسلطان[1]. وأصيب الفقيه عيسى الهكاري بمرض أثناء استعداده كعادته لتلبية نداء الجهاد في سبيل الله أدى إلى وفاته[2].

ومن العلماء الذين استشهدوا في القتال ضد الصليبيين المحاصرين في عكا سنة(586هـ =1192م)، القاضي المرتضى بن قريش[3]، فكانت له مواقف عديدة في مشاركة المسلمين في محاولاتهم في فك الحصار الذي ضربه الصليبيون على عكا، ولكنه استشهد في يوم الجمعة عاشر جمادى الأولى سنة(586هـ=1190م)[4].

واستمر العلماء والفقهاء على التصدي للصليبيين بعد وفاة صلاح الدين؛ ونزلوا إلى ميدان الجهاد مقاتلين في سبيل الله، خالعين العمائم متزينين بزي الجند، حاملين السلاح دفاعا عن الإسلام والمسلمين فكان في مقدمتهم الفقيه شهاب الدين بن البلاعي[5] الذي أبلى بلاءا حسنا في ميدان المعركة، مقاتلا ومدافعا بكل بسالة عن مدينة حماة[6]سنة(601هـ=1204م)، ضد العدوان الصليبي، على الرغم من هروب الكثير من

=

انظر، ياقوت الحموي، معجم الأدباء،ج1، ص410؛ الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص234؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج 2، ص300- 302 ؛ ابن العديم، بغية الطلب، ج3، ص 110-112؛ الكتبي، فوات الوفيات، ج1، ص275،276.

(1) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص82؛ نقلي، دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الجهاد ضد الصليبيين، ص164.

(2) الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص532؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص190؛ ابن شداد، النوادر السلطانية ص100؛ أبو شامة، الروضتين، ج2، ص501؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص355-361؛ نقلي، دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الجهاد ضد الصليبيين، ص163.

(3) هو القاضي المرتضى صفي الدين أبو الجد عبد الرحمن بن علي بن عبد العزيز بن علي بن قريش المخزومي، ولد سنة524هـ=1129م، وسمع عن السلفي وكان أحد كتاب الإنشاء في عصر صلاح الدين. استشهد سنة586هـ=1190م.الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص255 ؛ أبو شامة، الروضتين، ج2، ص182؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار،ج2، ص93.

(4) الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي،ص221؛ أبو شامة، الروضتين، ج2، ص182؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار،ج2، ص93.

(5) هو شهاب الدين أحمد بن شداد البلاعي، من قرية بلاعة وهي إحدى قرى حماة، وكان فقيها شجاعا من أكابر أهل حماة، وقد تولى أمر حماة مرة، ثم سلمية أرى وكان شجاعا مقاوما قاتل الفرنج مرات وكان يتزين بزي الجند. أبو شامة، الذيل على الروضتين،ص51؛ابن واصل، مفرج الكروب،ج3، ص163؛ابن الوردي، تاريخ،ج2، ص183,182،ابن الفرات، تاريخ،ج2، ص-140 134.

(6) حماة مدينة كبيرة عظيمة من مدن الشام كثيرة الخيرات رخيصة الأسعار واسعة الرقعة حفلة الأسواق يحيط بها سور محكم وبظاهر السور حاضر كبير جدا فيه أسواق كثيرة وجامع مفرد مشرف على نهرها المعروف بالعاصي. أنظر، ياقوت الحموي، معجم البلدان،ج2، ص114.

الأهالي أثناء هذا الهجوم الصليبي[1] فكان من أوائل المقاومين الذين تصدوا لهذا الهجـــوم فقاتل ذلك اليوم ورمى فارساً من الفرنج، غير أن فرسه وقعت به فوقـــع أســـيراً بأيـــدي الصليبيين وحمل إلى طرابلس مع غيره من الأسرى، ولكنه استطاع الهرب بعد وصـــوله إلى طرابلس بحيث لم يبت في حبس طرابلس ولا ليلة واحدة ورمى بنفسه في البحر، ثـــم تعلق بجبال بعلبك وعاد إلى أهله سالما[2] ويعلق أبو شامة في عرضه لبطولة الفقيه ابـــن البلاعي قائلاً:" ولولا وقوفه ما أبقوا من المسلمين أحداً[3].

ولم يكتفِ سبط بن الجوزي الواعظ (ت.654هــ= 1256م)، بالوعظ بل شـــارك في ساحات المعارك مع المقاتلين، فيذكر أنه قبل خروجه ضمن جيش المسلمين المتجه من دمشق إلى نابلس سنة (607هــ = 1210م)، جلس بجامع دمشق وأخذ يعظ الناس ويحثهم على الجهاد ضد الغزاة، وقد تجمع عنده أعداد هائلة فسار بهم على الجـــادة إلـــى نـــابلس وعندما اقترب هو وهذا الحشد الهائل من المسلمين من نابلس خرج إليهم الملـــك المعظـــم عيسى ابن العادل (ت.624هــ= 1226م)، واستقبلهم بفرحة، ثم جلـــس الـــسبط للـــوعظ بجامع نابلس لتحميس الناس على القتال وحضر الملك المعظم هذا الوعظ مع المـــسلمين، وبعد أن انتهى السبط من وعظه قال: " وخرجنا إلى نحو بلاد الفرنج، فخرجنـــا وهـــدمنا وقطعنا أشجارهم وأسرنا جماعة، وقتلنا جماعة، ولم يتجاسروا أن يخرجوا مـــن عكـــا. فأقمنا أياماً ثم عدنا سالمين غانمين إلى الطور المطل على الناصرة، والمعظم معنا"[4].

وقيل عن الشيخ اليونيني[5] أنه لم تفته غـــزوة مـــن الغـــزوات بـــين المـــسلمين والصليبين إلا اشترك فيها[6]، حيث وصف بأنه تام الشجاعة، مشارك في كـــل الغـــزوات

---

(1) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص51؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص163؛ ابن الفرات، تاريخ، ج2، ص133- 135؛ الحموي، التاريخ المنصوري، ج2 ص44.
(2) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص51؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص163؛ ابن الفرات، تاريخ، ج2، ص144؛ الحموي، التاريخ المنصوري، ج2، ص44؛ الفرانـــي، المقاومـــة الـــشعبية للاحتلال الصليبي في بلاد الشام، رسالة ماجستير غير منشورة، ص102.
(3) الذيل على الروضتين، ص51.
(4) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ص355 ،356؛ أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص69،70 ؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص63،64؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص111؛ نقلي، دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الجهاد ضد الصليبيين، ص180.
(5) اليونيني، هو أبو محمد عبد الله بن عثمان بن جعفر، أبو عثمان بن عبد العزيز، كان شيخاً مهيبـــاً، دائم الذكر، عظيم الشأن، منقطع القرين، صاحب مجاهدات وكرامات، توفي سنة617 هــ=1220م للمزيد عن ترجمته، أنظر، الذهبي، سير أعلام، ج16، ص121؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص9.
(6) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ص615 ؛ أبو شـــامة، الـــذيل علـــى الروضـــتين، ص 126 ؛الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج2، ص67 ،68؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج5 ص73.

الجهادية ضد الصليبيين في بلاد الشام، فلا يبالي بالأعداء، قلوا أم كثروا، وكان دائماً يتمنى الشهادة فحصلت له[1]، وكان يعرف "بأسد الشام" وهذا يدلل على أن هذا اللقب لم يأت من فراغ، وإنما جاء نتاجاً طبيعياً لدوره الحربي الفعال ضد الصليبيين[2].

وشارك العلماء في تحصين المدن الشامية من خلال بناء الأسوار وحفر الخنادق ويدلنا على ذلك ما ذكرته المصادر الشامية من أنه عندما شرع السلطان صلاح الدين في تحصين القدس وعمارة أسواره، وحفر خنادقه سنة (587هـ= 1190م)، عمل السلطان في ذلك بنفسه وشاركه في نقل الحجارة "جماعة خواصه والأمراء، ويجتمع لذلك العلماء والقضاة والصوفية والأولياء، وحواشي العساكر والأتباع وعوام الناس، فبنى في أقرب مدة ما يتعذر بناؤه في سنين"[3].

واشترك العلماء والفقهاء مع السلطان الظاهر بيبرس (ت.676هـ= 1277م) عندما استتبت له الأمور الداخلية، ووجه جهاده ضد الصليبيين سنة(661هـ= 1262م) فبدأ بالهجوم على الناصرة وعكا، ثم بدأ الحرب المفتوحة عليهم في سنة (663هـ=1265م)، فاستولى على قيسارية، ويافا[4]وعثليت[5]وأرسوف[6][7].

فكان طبيعياً أن العلماء والفقهاء قد اشتركوا مع الظاهر بيبرس في هذه الفتوح وهذا ما أكده المؤرخون المعاصرون لتلك الحقبة وعلى رأسهم ابن عبد الظاهر وخاصة

---

(1) الذهبي، ، العبر في خبر من غبر، ج2، ص67 ،68؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص39؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص221؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص73.

(2) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص 126؛ حشيش، الحركة الصوفية ف بلاد الشام، رسالة ماجستير غير منشورة، ص86.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص375؛ العليمي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج 2، ص144؛ الفراني، المقاومة الشعبية للاحتلال الصليبي في بلاد الشام، رسالة ماجستير غير منشورة، ص99.

(4) يافا، مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال فلسطين بين قيسارية وعكا، ياقوت الحموي، معجم،ج5، ص426.

(5) اسم حصن بسواحل الشام ويعرف بالحصن الأحمر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص201.

(6) أرسوف، تقع على عشرة أميال إلى الشمال من يافا على ساحل فلسطين. انظر، المقدسي، أحسن التقاسيم، ص54؛ ياقوت الحموي، معجم، ج1، ص151.

(7) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، ص158-162؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج28 ص362.

فتح أرسوف حيث أنهم حضروا وشاركوا في إسقاط القلعة الحصينة ومنهم الشيخ علي البكا، والشيخ إلياس[1].

وكان للعلماء مشاركة مع الظاهر بيبرس في فتح صفد سنة(664هـ= 1265م) وقاتلوا الصليبيين بكل بسالة، ويذكر القاضي ابن عبد الظاهر في هذا الصدد قائلاً:" وفي ثاني شوال حصل الاهتمام بالزحف... فتحالل الناس، واجتهدوا، وكان قد عمل من النفط أشياء من السهام الطيبة والرماح، ففرق ذلك على الزراقين{رامي النفط}. ووعد الحجارون أنه من أخذ أول حجر كان له مائة دينار، وكذلك الثاني، والثالث، إلى العشرة وأمر حاشيته بأن يلازموا مواضع قتالهم، ولا يشتغلوا بخدمته، وشرع الناس في أمر الزحف من العشاء، وكان قد وصل جماعة من الصلحاء للغزاة، وكذلك الشيخ الصالح قاضي قضاة الحنابلة بدمشق[2]، فحركت الطبلخانات[3] السلطانية نصف الليل، وركب السلطان، وهجم خندق الباشورة فقاتل الفرنج قتالاً شديداً، وابتلى المؤمنون ابتلاءً شديداً واستشهد جماعة من المجاهدين، وصار الإنسان يرى رفيقه يقتل، فيجره، ويقف مكانه وتكاثرت النقوب ... وتم لهم الفتح بفضل الله في شوال من السنة المذكورة"[4].

وكذلك اشترك العلماء، خلال خروج الجيش لحصار الشقيف في سنة (666هـ=1267م)، إذ توجه إليها السلطان الظاهر بيبرس، فنزل عليها يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رجب/ أبريل فأقام منجنيقين، ورمى بهما ثاني يوم وصوله، ووصل

---

(1) الروض الزاهر، ص238-242؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج2 ، ص121؛ نقلي، دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الجهاد ضد الصليبيين، ص218؛ الفراني، المقاومة الشعبية المقاومة الشعبية للاحتلال الصليبي في بلاد الشام، رسالة ماجستير غير منشورة، ص105.

(2) هو شيخ الجبل الشيح العلامة، شيخ الإسلام، عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن محمد بن قدامه المقدسي، شمس الدين أبو محمد الحنبلي، الفقيه الإمام الزاهد الخطيب قاضي القضاة. أول من ولي قضاء الحنابلة بدمشق وتدريس الأشرفية بالجبل، ولد سنة 597هـ=1200م ، بسفح قاسيون وكان له مكانة عند الخاصة والعامة وعظيم الهيبة لدى الملوك وكثير الفضائل والمحاسن، توفي سنة 682هـ=1283م. انظر ترجمته، ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص320؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج2، ص304-310؛ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص376.

(3) الطبلخانات، هي طبول متعددة معها أبواق وزمر تختلف أصواتها على إيقاع مخصوص تدق في كل ليلة بالقلعة بعد صلاة المغرب وتكون صحبة الطلب في الأسفار والحروب وهي من الآلات العامة لجميع الملوك والذي ذهب إليه بعض المحققين أن السر في ذلك أن أصواتها تهيجاً للنفس عند الحرب وتقوية الجأش كما تنفعل الإبل بالحداء ونحو ذلك. القلقشندى، صبح الأعشى ج4، ص9،8 ؛ نقلي، دور الفقهاء والعلماء المسمين في الجهاد ضد الصليبيين، هامش 232، ص221.

(4) ابن عبد لظاهر، الروض الزاهر، ص254، 255؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص260، 261، المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج2، ص183.

المشايخ الصالحون والعلماء مثل الشيخ شمس الدين الحنبلي قاضي القضاة في الشام والشيخ تقي الدين بن الواسطي[1]، وغيره من الصالحين، واجتهد كل واحد منهم في الجهاد على قدر حاله[2].

أبى العلماء والفقهاء إلا أن يشاركوا السلطان الأشرف خليل بن قلاوون (ت.693هـ= 1293م)، آخر أبطال الجهاد ضد الصليبيين، لينالوا بذلك شرف تطهير بلاد الشام من دنس الصليبيين، فالعلماء ومنذ أن وطأت أقدام الصليبيين هذه البلاد سخروا أنفسهم وأموالهم وعلمهم في سبيل الله، وبذلوا قصارى جهدهم من أجل رفع شأن الإسلام، دون أي ملل أو كلل؛ فعندما تسلم السلطان الأشرف خليل، السلطنة بعد وفاة أبيه سنة (689هـ=1290م)، وقبل أن يتأهب للخروج على رأس الحملة إلى بلاد الشام، أمر بجمع العلماء والقضاة والأعيان والقراء عند قبر أبيه، وباتوا جميعاً هناك وقام الأشرف بتفريق أموال كثيرة على القراء والفقراء وتصدق بالكساوي[3].

وبعد أن أتم الاستعدات اللازمة من التجهيزات لحصار عكا معقل الصليبيين،" ونودي من دمشق بالغزو في سبيل الله إلى عكا" [4]، واستجاب المسلمون لهذا النداء "فخرجت جموع العامة والمتطوعة للمشاركة في الجهاد لفتح عكا، واشترك العلماء والفقهاء والمدرسون والصلحاء في صفوف المتطوعة" [5]؛ وخرجوا يجرون عجل المنجنيقات، وخرج المسلمون من كل صوب وحدب والتفوا جميعاً مع العساكر المصرية القادمة من مصر مع الأشرف خليل وتقابلوا عند عكا، فنزلوا يوم الخميس الثالث من ربيع الأخر سنة (690هـ=إبريل 1291م)، ونصبوا عليها المنجنيقات من كل ناحية وتفانوا

---

(1) هو الشيخ إبراهيم بن علي بن أحمد بن فضل الو اسطي الصالحي، ثم الدمشقي الحنبلي، الفقيه العابد، شيخ الإسلام، تقي الدين أبو اسحق، ولد سنة 602هـ=1205م، تفقه على المذهب الحنبلي وأفتى ودرس بالمدرسة الصباحية بقاسيون قرابة عشرين سنة وولي في آخر عمره مشيخة دار الحديث الظاهرية، توفي بدمشق سنة 692هـ=1292م. انظر ترجمته، الذهبي، العبر في خبر من غبر،ج 5، ص275؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص353؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج2، ص329 – 331 ؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج6، ص66؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص419-420.

(2) ابن عبد لظاهر، الروض الزاهر، ص269 المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج2، ص254.

(3) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج2، ص273؛ العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل زمان، ج2، ص217؛ نقلي، دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الجهاد ضد الصليبيين، ص227.

(4) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص298؛ ابن أيبك، كنز الدرر وجامع الغرر، ج8، ص307؛ العيني،عقد الجمان في تاريخ أهل زمان، ج2، ص219؛ نقلي، دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الجهاد ضد الصليبيين، ص227.

(5) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص301؛ العيني،عقد الجمان في تاريخ أهل زمان، ج2، ص219.

وأخلصوا في تشديد الحصار عليها [1]، وفي أثناء ذلك اجتمع النـــاس بـــالجوامع لقـــراءة صحيح البخاري، فقرأه الشيخ تاج الدين الفـــزاري [2]، فحـــــضر القـــضاة والفـــضـــلاء والأعيان وأكثروا من الدعاء للمسلمين بالنصر [3].

وهكذا شارك العلماء والفقهاء في فتح عكا مع السلطان الأشرف خليل بن قلاوون مشاركة فعلية في ميدان القتال ضد الصليبيين، في الوقت نفسه جلس بعضهم في الجوامـــع لقراءة القرآن، والدعاء للمقاتلين بالنصر وقهر الأعداء وقاموا بقراءة صـــحيح البخـــاري على الناس المجتمعين في الجوامع حتى يزداد حماسهم لدى سماعهم الأحاديث الـــشريفة الصحيحة التي تحض على الجهاد في سبيل الله، واستجاب الله لهم في فتح عكا فـــي يـــوم الجمعة 17 جمادي الأولى سنة (690هـــ= 18 مايو 1291م)، وذلك بعد أن دام حـــصار المسلمين لها أربعة وأربعين يوماً [4]، وكان فتح عكا بمثابة الضربة القاضية للصليبيين في الشام، فبعدها طرد المسلمون بسهولة ويسر البقية الباقية للصليبيين من باقي المدن مثـــل، صور وصيدا وانطرطوس وعثليت [5]، كما قال ابن كثير:" ولم يبق بالسواحل ولله الحمـــد معقل للفرنج إلا بأيدي المسلمين، وأراح الله منهم البلاد والعباد" [6].

---

(1) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج2، ص26؛ ابن الفرات، تـــاريخ، ج8، ص111؛ العينـــي، عقد الجمان في تاريخ أهل زمان، ج2، ص313؛ نقلي، دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الجهـــاد ضد الصليبيين، ص228.

(2) هو الشيخ عبد الرحمن بن إبراهيم بم سباع بن ضياء الدين أبو محمـــد الفـــزاري، العلامـــة شـــيخ الشافعية في زمانه، ولد سنة 630هـــ=1232م وكان صاحب فنون كثيـــرة مـــن العلـــوم النافعـــة والأخلاق اللطيفة، وكان فصيحاً وحسن التصنيف ، وله من التصانيف الكثيرة منها "الأقليـــد لـــدر التقليد"، و"التنبيه"، و" شرح ورقات في أصول الفقه"وغيرهـــا، تـــوفي ســـنة، 690هـــــ=1290م بدمشق. أنظر ترجمته، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج5،ص367،368؛ الكتبي، فـــوات الوفيـــات، ج2، ص263؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج8، ص163،164؛ ابن كثير، البداية والنهايـــة، ج13، ص338؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص413،414.

(3) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص338.

(4) ابن أيبك، كنز الدرر وجامع الغرر، ج8، ص309،310؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر،ج2، ص29؛ ابن الوردي، تاريخ، ج2،ص337؛ ابن كثير، البدايـــة والنهايـــة، ج13، ص319؛ ابـــن الفرات، تاريخ، ج8، ص112؛ العيني، عقد الجمان في تاريخ أهـــل زمـــان، ج2، ص241،242؛ نقلي، دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الجهاد ضد الصليبيين، ص229.

(5) ابن أيبك، كنز الدرر وجامع الغرر، ج8، ص312؛ أبو الفداء، المختصر فـــي أخبـــار البـــشر،ج2، ص31؛ ابن الوردي، تاريخ، ج2،ص337؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص379؛ رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص710-720.

(6) البداية والنهاية، ج13، ص379.

المبحث الثالث:

المصاعب والمعوقات التي واجهت العلماء

واجه العلماء والمصلحون مشاكل وصعوبات لا حصر لها عبر التاريخ، أثناء أداء دورهم الدعوي، وأمرهم بالمعروف والنهي عن المنكر واجهوا مشاكل وصعوبات لا حصر لها وخاصة من أولئك الذين يجهلون أمور دينهم ودنياهم، أو من قبل السلاطين والأمراء الذين رأوا في دعوتهم ضرراً لمصالحهم الخاصة، وأن هؤلاء الحكام الذين عاصروا علماءنا الأبرار، ما كانوا يكرهون الإسلام وما كانوا يستكبرون عن حكمه وتحكيمه، بل كانوا يطبقونه. ويرعون شؤون المسلمين على أساسه، وأعلنوا الحرب على أعداءه، ودافعوا عن بيضة المسلمين وحموا حمى الإسلام ولكن مع ذلك، فقد نالت الدنيا من بعضهم، بعض الشيء، فحملهم على إتباع الهوى في بعض الأمور حرصا على الحكم والسلطان، وما أعظم فتنة الحكم والسلطان[1].

وهذا الأمر لا يعني أن الحكام فساق فجّار كافرون مارقون كما يتصور البعض أو يصور البعض ولا يعني أن المجتمع غير إسلامي؛ وإنما تعني أن الأمة الإسلامية كانت في تلك العصور من اسعد الأمم لتطبيق أحكام الإسلام عليها، وتلك سعادة الأمة في كل حين ولذلك أراد العلماء منهم أن يكونوا على مثل ما كان عليه الخلفاء الراشدون- إذا هو المطلوب شرعا من كل حاكم مسلم في كل حين - وإن الذين سنذكرهم من الحكام وموقف العلماء منهم، ليس من أعداء الإسلام أو من الكارهين له؛ فإذا احدث حاكم إساءة أو ارتكب مظلمة سواء كانت عن قصد أو سوء قصد أو عن نية حسنة، فإن من واجب العلماء أن ينكروا عليهم ذلك وان يحاسبوهم عليه، حفاظاً على بيضة الإسلام، ورعاية لشؤون المسلمين؛ بل يعتبرون ذلك نصرة لهم مصداقا لقول الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم " انصر أخاك ظالما أو مظلوما قلت يا رسول الله انصره مظلوما فكيف انصره ظالما ؟ قال : تمنعه من الظلم فذلك نصرك إياه"[2].

ومن العلماء من تعاون مع الحكام على إقامة الحق ونشر الخير عن طريق تولي المناصب القضائية ووظائف الدولة، مع هذا وذاك فقد وجد من العلماء من يلبس الباطل ثوب الحق ويزين للحاكم مظالمه ويبرر سيئاته، إن هؤلاء الذين اشتروا الدين بعرض

(1) البدري، الإسلام بين العلماء والحكام، ص12.

(2) مسلم، صحيح، ج12، ص144؛البدري، الإسلام بين العلماء والحكام، ص16.

زائل من الدينا فعليهم وزر صنيعهم ولا غرابة في ذلك لأنهم من البشر وليسوا ملائكة وهم يخطئون لأنهم من بني آدم " كل بني آدم خطاء وخير الخطائن التوابون"[1].

لقد تعرض بعض علماء وفقهاء مصر والشام الذين عاصروا حقبة الدراسة للإيذاء والعزل والضرب والسجن والتشرد والمصادرة، بل إن منهم من دفع حياته ثمناً لمواقفه، إلا أن هذه المحن لم تزدهم إلا إصراراً على قول الحق والمضي في سبيل الله قائلين للحق ناشرين للعدل إنها سنة الله سبحانه وتعالى في خلقه أن يمتحنهم ليميز الخبيث من الطيب.قال تعالى:" الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ"[2].

لقد دفع القاضي الرشيد بن الزبير[3]،حياته ثمناً، عندما أرسل رسولاً إلى اليمن ومدح جماعة من ملوكها، فحسده البعض هناك وكتبوا إلى شاور الوزير[4] في مصر فغضب عليه وصادر أمواله وممتلكاته، وأمر بإعدامه عند عودته إلى مصر[5].

وقبض على الفقيه كمال الدين أبي الفضل الشهرزوري(ت.572هـ=1176م) في الموصل سنة(542هـ=1147م)، من قبل الأمير غازي بن السلطان عماد الدين

---

(1) ابن العثيمين ، شرح رياض الصالحين، ص100.

(2) سورة العنكبوت، الآية، 2،1.

(3) هو احمد بن علي بن إبراهيم بن الزبير الغساني الأسواني المصري، القاضي الرشيد أبو الحسين، كان كاتباً شاعراً فقيهاً نحوياً لغوياً عروضياً منطقياً مؤرخاً مهندساً طبيباً موسيقاراً منجماً مفنناً، وكان من أهل الفضل والنباهة والرياسة، وهو من بيت كبير بالصعيد معروف بالمال، ولي النظر بثغر الإسكندرية بغير اختياره، وله تصانيف متنوعة من العلوم، منها " منية الألمعي وبينة المدعي " يشتمل على علوم كثيرة. وكتاب " المقامات " . " جنان الجنان وروضة الأذهان " فيه ذكر لشعراء مصر ومن طرأ عليهم. " الهدايا والطرف " . " شفاء الغلة في سمت القبلة " . " ديوان شعره "، " ديوان رسائله" وغيرها. قتل سنة 562هـ=1166م، وقيل 563هـ=1167م. أنظر، الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر،ج1،ص200؛ابن خلكان،وفيات الأعيان،ج1،ص160، 162، 163؛ أبو شامة، الروضتين،ج1،ص147 ؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج4، ص51؛ الصفدي،الوافي بالوفيات،ج2 ،ص 453، 454؛ ؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج4، ص197-203.

(4) هو شاور بن مجير بن نزار السعدي، من بني هوازن، أبو شجاع، أمير، من الولاة. ملك الديار المصرية ، وأصبح وزير الديار المصرية، بعد أن قام بثورة استولى بها على وزارة مصر،و بعد أن قتل رزيك بن صالح، سنة 557هـ=1161م، وكان شجاعاً فارساً شهماً، ووزر للعاضد الفاطمي، واتهم بتعاونه مع الإفرنج وأنه استعان بهم على دفع أسد الدين، شيركوه عن دخول مصر، في أيام العاضد.ودخل شيركوه مصر، فاتفق مع العاضد على قتله، وعهدا إلى صلاح الدين وكان لا يزال قائدا، فتولى قتله أمام قبر الإمام الشافعي، بالقاهرة، وبعث برأسه إلى العاضد.أنظر، ابن خلكان، وفيات الأعيان ،ج2، ص439، 440، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج11، ص125؛ أبو شامة، الروضتين، ج1، ص130؛ الزركلي،الأعلام ،ج 3، ص 154.

(5) ابن خلكان،وفيات الأعيان،ج1،ص160، 162، 163؛ أبو شامة، الروضتين،ج1،ص147 ؛ الصفدي،الوافي بالوفيات،ج2 ،ص 453، 454؛ ؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج4، ص197-203.

زنكي(ت.576هـ=1180م)، كما قبض على أخيه، وقعدا في بيوتهما وعليهما الترسيم[1] عندما تصدى لسيف الدين غازي بسبب تسامحه في أمر اللهو والشرب، والعبث في مصالح الناس ففرض عليهما الإقامة الجبرية في الموصل[2]. وفرضت أيضاً الإقامة الجبرية على القاضي محيي الدين ابن الشهرزوري (ت.586هـ=1190م)، من قبل الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين(ت.577هـ=1181م)، بعد أن "وشى به أعداؤه وحساده إلى الصالح وجرت أسباب اقتضت أنه لزم بيته"[3].

ولم يتراجع العلماء عن مواقفهم رغم الترهيب الذي تعرضوا له، ولم يضعفوا أمام تلك المحن والابتلاءات، بل كانوا يظهروا أمام السلاطين الطغاة، بأنهم أقوى من جبروتهم؛ فهذا سلطان العلماء العز بن عبد السلام(ت. 660هـ=1261م)، عندما فرض عليه الملك الأشرف موسى بن العادل الأيوبي (ت.635هـ=1237م)، الإقامة الجبرية في بيته يقول في ذلك:" إنما أنا في بستان، ومن سعادتي لزوم بيتي وتفرغي لعبادة ربي.... وهذا هدية من الله إلي"[4].وعزل الشيخ ابن السكري عماد الدين المصري[5] عن القضاء، بسبب مواقفه الفقهية ودفاعه عن أموال الأيتام[6].

ومن العلماء من تعرض للسلب والسرقة بل والقتل في بعض الأحيان، فقد دخلت جماعة على الشيخ الفقيه أبي الحسين بن الفراء الحنبلي[7]، ليلاً وأخذوا كل ما عنده من المال وذبحوه ليلة عاشوراء[8].

---

(1) الترسيم، بمعنى الامتثال للأمر، ويقال رسم له كذا... فارتسمه أي أمر به فامتثل أمره.مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، ج3، ص112.
(2) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص241؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص302.
(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان،ج4،ص246.
(4) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى،ج8، ص129.
(5) هو عبد الرحمن بن عبد العلي المصري الشيخ عماد الدين ابن السكري،قاضي القضاة بمصر ولد سنة 553هـ=1158م، وتفقه على الشيخ شهاب الدين الطوسي والفقيه ظافر بن الحسين وكان من البارعين في الفقه، توفي سنة 624هـ=1226م. أنظر، السبكي، طبقات الشافعية الكبرى،ج8، ص82؛ ابن العماد، شذرات الذهب،ج5، ص 113.
(6) أنظر،السبكي، طبقات الشافعية الكبرى،ج 8، ص82؛ ابن العماد، شذرات الذهب،ج5، ص113.
(7) هو القاضي الفقيه أبو الحسين بن الفراء محمد بن القاضي أبي يعلى محمد بن الحسين الحنبلي، ولد سنة 451هـ=1059م، صاحب مؤلف "طبقات الحنابلة"، كان عارفا بالمذهب الحنبلي ومتشددا في السنة وكان كثيرا ما يتكلم في الاشاعرة ويسمعهم، ولا تأخذه في الله لومة لائم، وله تصانيف في مذهبه، وكان دينا ثقة ثبتا، وله تصانيف كثيرة في الفروع والأصول" وغير ذلك منها "المجموع في الفروع" و"رءوس المسائل المفردات في الفقه التمام لكتاب الروايتين والوجهين الذي لأبيه المفردات في أصول الفقه طبقات الأصحاب إيضاح الأدلة في الرد على الفرق الضالة المضلة والرد على زائغي الاعتقادات في منعهم من سماع الآيات المفتاح في الفقه وغير ذلك. قتل في يوم عاشورا سنة 526هـ=1131م.أنظر، الذهبي، سير أعلام النبلاء،ج19، ص601؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج1، ص54؛ ابن العماد، شذرات الذهب،ج 4، ص78.
(8) الذهبي، سير أعلام النبلاء،ج19، ص601؛ ابن العماد، شذرات الذهب،ج 4، ص78.

وقد عزل الشيخ الإمام فخر الدين بن عساكر(ت.620هـ= 1223م)، عن التدريس من قبل السلطان المعظم عيسى بن الملك العادل(ت.624هـ= 1226م)،لأنه أنكر على المعظم لهوه وعبثه وإباحته للخمور وتضمين المكوس[1].

وضرب القاضي زكي الدين القرشي[2] في حضرة السلطان المعظم عيسى، وكان المعظم يبغض هذا القاضي من أيام أبيه، وبعدها لزم بيته ثم مات كمداً ويقال أن المعظم ندم على ما فعله مع القاضي[3]، وأيضا ضرب الفقيه محمود بن عثمان الازجي[4]،أكثر من مرة بسبب مواقفه وتصديه لمحاربة الفساد، وأنكر المنكر على بعض الأمراء وبدد خمورهم، فجرت بينه وبينهم مشاحنات كثيرة[5].

وضرب أيضاً الشيخ الفقيه عبد الله بن عمر المقدسي[6]، فقد أنكر منكراً وضرب في مقابل ذلك وكسرت ثنيته، ورغم أن الشيخ تمكن من المعتدى عليه إلا أنه سامحه وعفا عنه[7]. أما الفقيه إبراهيم بن عبد الواحد المقدسي[8]، فقد تعرض لمجموعة من

---

(1) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص136-138؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج8، ص171-186؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص154.

(2) هو القاضي زكي الدين بن محي الدين محمد بن الزكي القرشي الدمشقي قاضي القضاة ذو حشمة وسطوة، ودرس في عدة مدارس توفي سنة 617هـ=1220م.أ،نظر، ابن كثير،البداية والنهاية،ج13، ص99، 100؛ ابن العماد، شذرات الذهب،ج 5، ص72.

(3) ابن كثير،البداية والنهاية،ج13، ص99، 100؛ ابن العماد، شذرات الذهب،ج 5، ص72.

(4) هو محمود بن عثمان بن مكارم النعال البغدادي الأزجي ويقال (الأزدي)، الفقيه الواعظ، الزاهد أبو الثناء، ويقال له أبو الشكر ويلقب ناصر الدين، ولد سنة 523هـ=1128م ببغداد، وكان واعظا، وكان شيخا صالحا زاهدا، أماراً بالمعروف، نهاءً عن المنكر. وكان رباطه مجمعاً للفقراء وأهل الدين، وللفقهاء والحنابلة، وكان يسمى شيخ الحنابلة وكان يشتغل في العلم أكثر من الاشتغال بسائر المدارس، وكان السيخ محمود وأصحابه ينكرون المنكر، ويريقون الخمور، ويرتكبون الأهوال في ذلك توفي سنة 609هـ=1212م.أنظر، الذهبي، تاريخ الإسلام، ج43، ص348، 349؛ابن كثير،البداية والنهاية،ج13،ص77؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة ،ج1، ص208؛ ابن العماد، شذرات الذهب،ج5 ، ص37، 38.

(5) ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة ،ج1، ص208؛ ابن العماد، شذرات الذهب،ج5 ، ص37، 38.

(6) هو عبد الله بن عمر بن أبي بكر المقدسي، الفقيه الإمام أبو القاسم سيف الدين الحنبلي ، ولد سنة 557هـ=1161م، بقاسيون، ورحل إلى بغداد، وسمع بها من جماعة. وتفقه وبرع في معرفة المذهب الحنبلي واشتغل بالفقه والخلاف والفرائض والنحو، وصار إمامًا عالمًا، ذكيًا فطنًا، فصيحًا مليح الإيراد،وكان رحمه الله حسن الخلق والخلق، أنكر منكرًا، وشهد مع صلاح الدين، بعض غزواته، وتوفي بحران وهو شابًا رحمه الله تعالى في حياة أبيه، سنة 586هـ=1190م.أنظر، الذهبي تاريخ الإسلام،ج 41،ص239، 240؛ الصفدي، الوافي بالوفيات،ج 5،ص445؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة،ج1 ، ص151، 152؛ ابن العماد، شذرات الذهب ،ج 4 ،ص332.

(7) الصفدي، الوافي بالوفيات،ج 5،ص445؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة،ج1 ، ص151، 152؛ ابن العماد، شذرات الذهب ،ج 4 ،ص332؛ عدوان، دور العلماء في إصلاح المجتمع، ص97.

(8) هو إبراهيم بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي الدمشقي، الفقيه. الزاهد الورع العابد، ويقال له الشيخ عماد الدين، أبو إسحاق وأبو إسماعيل، أخو الحافظ عبد الغني ولد بجماعيل سنة 543هـ=1148م،هاجر إلى دمشق مع جماعتهم سنة 551هـ=1156م؛ لاستيلاء الفرنج على أرضهم، وقرأ القرآن. ورحل إلى بغداد مرتين وتفقه ببغداد على أبي الفتح بن المنى، حتى برع وناظر وأفتى، ورجع إلى دمشق، وأقبل على أشغال الناس ونفعهم، وكان يقري الضعفاء الفقراء، =

الفساق وكسر ما معهم، فضربوه ونالوا منه حتى أغشى عليه، لكن الشيخ عفى عنهم لأنهم تابوا ولزموا الصلاة[1]. وتعرض الشيخ الفقيه المؤرخ أبو شامة[2]، للضرب من قبل رجلين جاءوا له في صورة رجلين جليلين مستفتيين، ثم ضرباه ضرباً مبرحاً، ولم يزل عليلا من هذا الضرب، إلى أن توفي في (19 رمضان 665هـ=1266م)؛ وعندما قيل له لم لا تشتكي، قال الشيخ أبو شامة:

قلت لمن قال أما تشتكي.....ما قد جرى فهو عظيم جليل
يقيض الله تعالى لنا.....من يأخذ الحق ويشفي الغليل
إذا توكلنا عليه كفى.....فحسبنا الله ونعم الوكيل[3].

وطرد سنة(641هـ= 1243م)، القاضي محيي الدين بن محمد بن علي بن محمد بن يحيى القرشي، قاضي دمشق لأنه كتب إلى الملك الصالح(ت.648هـ= 1250م) يقول له: "إنه قد أورد إلى خزانته من الأموال ألف ألف دينار من أموال الناس. فأنكر الصالح ذلك، ورد عليه الجواب أنه لم يرد سوى ألف ألف درهم، فعزله لتبرأ ساحة السلطان من شناعات الناس"[4].

=

ويطعمهم ويبذل لهم نفسه. وكان من أكثر الناس تواضعاً، واحتقاراً لنفسه وخوفاً من الله تعالى.توفي سنة، 614هـ=1217م. أنظر،الذهبي، تاريخ الإسلام،ج40، ص97؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج1، ص220-224؛ ابن العماد، شذرات الذهب،ج5، ص57،56.

(1) ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة،ج1، ص220-224؛ ابن العماد، شذرات الذهب،ج5، ص 57،56؛ عدوان، دور العلماء في إصلاح المجتمع، ص97.

(2) هو عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان، الإمام العلامة ذو الفنون شهاب الدين أبو القاسم المقدسي الأصل الدمشقي الشافعي الفقيه المقرئ النحوي أبو شامة. ولد سنة 599هـ=1202م، بدمشق في أحد الربيعين، وقرأ القرآن وله دون العشر، وقرأ القراءات كلها سنة 616هـ=1219م، على الشيخ علم الدين السخاوي. وسمع بالإسكندرية من أبي القاسم عيسى بن عبد العزيز وغيره، وحصل له سنة بضع وثلاثين عناية بالحديث، وسمع أولاده، وقرأ بنفسه، وكتب الكثير من العلوم وأتقن الفقه ودرس وأفتي، وبرع في العربية وصنف شرحا نفيسا للشاطبية، واختصر تاريخ دمشق مرتين: الأولى في خمسة عشر مجلداً، والثانية في خمسة، وشرح القصائد النبوية للسخاوي في مجلد، وله كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، وكتاب الذيل عليها، وكتاب شرح الحديث المقتفى في مبعث المصطفى، وكتاب ضوء القمر الساري إلى معرفة الباري، والمحقق في علم الأصول فيما يتعلق بأفعال الرسول، وكتاب البسملة الأكبر في مجلد، والباعث على إنكار البدع والحوادث، وكتاب السواك، وغيرها. توفي سنة 665هـ.=1266م أنظر، السبكي، طبقات الشافعية الكبرى،ج8،ص165-167؛ اليافعي، مرآة الجنان، وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان،ج4،ص124؛ الصفدي،الوافي بالوفيات،ج6، ص61-64؛ ابن كثير البداية والنهاية،ج13، ص250؛ ابن العماد، شذرات الذهب،ج 5 ، ص318، 319؛ الزركلي، الأعلام، ج3، ص299.

(3) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص240؛ الصفدي،الوافي بالوفيات،ج6، ص61؛ ابن العماد، شذرات الذهب،ج5 ، ص318،

(4) ابن كثير،البداية والنهاية،ج13، ص190.

وتعرض القاضي تقي الدين بن بنت الأعز[1]، للأذى على يد الوزير ابن السلعوس[2] في سلطنة الأشرف خليل بن السلطان المنصور قلاوون(ت.693هـ=1293م)، فقد ناله منه محن وابتلاءات وتهم منها، طرده من القضاء والخطابة ونظر الاحباس والخزنة، ومصادرة ممتلكاته، واتهامه باللواط، ورغم هذا لم يظهر منه الاستكانة ولا الخضوع[3].

وحبس الفقيه إسحاق بن احمد العلثي[4]، عندما أنكر على الخليفة العباسي الناصر بعض الأمور وصدعه بالحق، وأنكر كذلك على بعض الفقهاء تهاونهم في قول الحق وإنكار المنكر[5].

وتعرض الشيخ الجليل ابن القيم الجوزية (ت.751هـ= 1350م)، للضرب والتشهير به على حمار في دمشق وذلك لأنه تكلم في مدينة القدس في مسألة الشفاعة

---

(1) هو عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن خليفة بن بدر، قاضي القضاة تقي الدين أبو القاسم ابن قاضي القضاة تاج الدين العلامي المصري الشافعي، المعروف بابن بنت الأعز.كان جده لأمه يعرف بالقاضي الأعز وزير الملك الكامل بن أبي بكر بن أيوب، كان فقيها إماما مناظرا بصيرا بالأحكام، جيد العربية، ذكيا كاملا نبيلا رئيسا، شاعرا محسنا فصيحا مفوها، وافر العقل كامل السؤدد. تولى الوزارة وولى مشيخة الخانقاه وخطابة جامع الأزهر وتدريس الشريفية وتدريس الشافعي والمشهد الحُسيني بالقاهرة. وقد جرت له محنة حاصلها أن ابن السَّلعُوس وزير السلطان الملك الأشرف كان يكرهه فعمل عليه وجهز من شهد عليه بالزور بأمور عظام بحيث وصل من بعضهم أنهم أحضروا شابا حسن الصورة واعترف على نفسه بين يدي السلطان بأن القاضي لاط به وأحضروا من شهد بأنه يحمل الزنار في وسطه فقال القاضي أيها السلطان كل ما قالوه يمكن لكن حمل الزنار لا يعتمده النصارى تعظيما ولو أمكنهم تركه لتركوه فكيف أحمله.توفي كهلا سنة 695هـ=1295م، بالقاهرة. الذهبي، تاريخ الإسلام،ج52، ص42؛ الصفدي،الوافي بالوفيات،ج6،ص79،78؛السبكي،طبقات الشافعية الكبرى،ج8، ص83، 84.

(2) هو الصاحب شمس الدين ابن السلعوس محمد بن عثمان بن أبي الرجاء الوزير الصاحب شمس الدين التنوخي الدمشقي التاجر ابن السلعوس وزير السلطان الملك الشرف، كان في شبيبته يسافر في التجارة،وكان أشقر سمينا أبيض معتدل القامة فصيح العبارة حلو المنطق وافر الهيبة كامل الأدوات خليقا بالوزارة تام الخبرة زائد الإعجاب عظيم وعظيم الهيبة. وقتل سنة 693هـ=1293م .أنظر ترجمته، الصفدي،الوافي بالوفيات،ج1، ص480.

(3) الصفدي،الوافي بالوفيات،ج6،ص79،78؛السبكي،طبقات الشافعية الكبرى،ج8، ص83، 84.

(4) هو إسحاق بن أحمد بن محمد بن غانم العلثي، الزاهد القدوة، أبو الفضل، ويقال، أبو محمد كان قدوة صالحا زاهدا، فقيها عالما، أمَارا بالمعروف، نهاء عن المنكر، لا يخاف أحداً إلا الله، ولا تأخذه في الله لومة لائم. أنكر على الخليفة الناصر فمن دونه وواجه الخليفة الناصر وصدعه بالحق. إنه لم يكن في زمانه أكثر إنكارا للمنكر منه، وحبس على ذلك مدة، وله رسائل كثيرة إلى الأعيان بالإنكار عليهم والنصح لهم توفي سنة 634هـ=1236م. أنظر ترجمته، الذهبي، تاريخ الإسلام، ج46، ص182،181؛ ابن رجب،ذيل طبقات الحنابلة،ج1 ،ص266- 269؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص163،162.

(5) ابن رجب،ذيل طبقات الحنابلة،ج1،ص266-269؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص163،162.

والتوسل بالأنبياء، فأنكر عليه المقادسة مسألة الزيارة وكتبوا فيه إلى قاضي القضاة جلال الدين القزويني[1] وغيره من قضاة دمشق[2].

ومن العلماء من فقد وظيفته[3]، ومنهم من طلب منه إصدار فتوى بإباحة الأنبـذة وعندما رفض الشيخ طرد من عمله[4].

وبالرغم مما تعرض له العلماء والفقهاء من اعتداءات ومصادرات وطرد وتـشريد؛ إلا أنهم ملكوا مكانة متميزة ومرموقة، وحرص أغلب السلاطين والأمراء على استرضاء هذه الفئة الاجتماعية، وحاولوا عدم الاصطدام بهم لتفادي غضبهم؛ وإذا اضطرت إلـى ملاحقـة بعضهم أو التنكيل بأحد منهم، كانت تحسب حساباً لما قد يثيره ذلك من سخط وإنكار وتنديد، لذلك حرصت على تفادي انشقاق العلماء عليها خشية حدوث شرخ في القاعـدة الاجتماعيـة الملتفة حولهم. فعندما انقطع الحافظ بن عساكر الدمشقي(ت.600هـ=1203م)، عن مجلـس صلاح الدين(ت.589هـ= 1192م) وتكرر طلب السلطان له، وعندما حضر عاتبه صـلاح الدين على انقطاعه، فرد عليه: نزهت نفسي عن مجلسك فإنني رأيته كبعض مجالس السُّوقة لا يستمع إلى قائل، ولا يرد جواب متكلم. وقد كنا بالأمس نحضر مجلس نور الدين فكنا، كما قيل، كأن على رءوسنا الطير، تعلونا الهيبة والوقار، فإذا تكلم أنصتنا و إذا تكلمنا استمع لنـا فتقدم صلاح الدين إلى أصحابه أنه لا يكون منهم ما جرت به عادتهم إذا حضر الحافظ[5].

---

(1) هو محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق وهو من أحفاد أبي دلف العجلي أصله من قزوين، وكان حلو العبارة، أديبا بالعربية والتركية والفارسية، سمحا، كثير الفضائل، ولد سنة 666هـ=1267م، بالموصل، ولي القضاء في ناحية بالروم، ثم قضاء دمشق سنة 724 هـ=1323م، فقضاء القضاة بمصر،سنة 727هـ=1326م، ونفاه السلطان الملك الناصر إلى دمشق سنة 738هـ=1337م ثم ولاه القضاء بها، فاستمر إلى أن توفي سنة 739هـ=1338م. وله عدة كتب منها ،"تلخيص المفتاح" في المعاني والبيان و"الإيضاح"في شرح التلخيص و"السور المرجاني من شعر الارجاني".الصفدي،الوافي بالوفيات،ج1،ص95؛ لسبكي،طبقات الشافعية الكبرى،ج9، ص89؛ الزركلي،الأعلام، ج6، ص192.

(2) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك،ج2، ص286؛ عدوان، دور العلماء في إصلاح المجتمع، ص102.

(3) أنظر، ابن خلكان، ج4، ص253، 254؛؛ عدوان، دور العلماء في إصلاح المجتمع، ص96.

(4) أنظر، ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص146؛ ابن العماد، شذرات الذهب،ج5، ص217؛ عدوان، دور العلماء في إصلاح المجتمع، ص96.

(5) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص13؛ المصري، التعليم في بلاد الشام في العهد الأيوبي، ص169.

لما كان للعلماء والفقهاء من دور قوي، وتأثير حاسم في مجريات الأحداث ومظاهر الحياة المختلفة آنذاك، فقد كان أغلب السلاطين والأمراء، يتجنبون الاصطدام معهم، خشية من سطوتهم ونفوذهم، ذلك لما كان لهم من مكانة بين فئات المجتمع، ولعل أبلغ دليل على ذلك ما قاله الظاهر بيبرس (ت.676هـ= 1277م)، لما بلغه خبر موت العز بن عبد السلام(ت.660هـ=1261م)، قال "لم يستقر ملكي إلا الساعة لأنه لو أمر الناس في بما أراد لبادروا إلى امتثال أمره"[1].

---

(1) ابن العماد، شذرات الذهب،ج5،ص301.

الخاتمة

أولاً: النتائج:

يمكن إيجاز أهم النتائج التي خلصت إليها الدراسة بما يلي:-

1- شهدت مصر وبلاد الشام في حقبة الدراسة العديد من مظاهر الفساد، والتي تمثلت في: تعاطي الخمور والمخدرات، وانتشار الملاهي وإقامة الحفلات التي يتخللها بعض المخالفات، إلى جانب وجود الخلافات المذهبية، وانتشار بعض الأفكار والبدع المنحرفة البعيدة عن الدين، وقد أثرت هذه المظاهر سلباً في قوة المجتمع، من خلال سلوكه وتصرفاته؛ الأمر الذي مكن الصليبيين من السيطرة على جزء كبير من بلاد الشام.

2- أوصل التعصب المذهبي بين الطوائف الإسلامية إلى التكفير والتضليل والتبديع، و التناحر والاقتتال، وأذهب أخوتهم ووحدتهم حتى وصل الأمر بالشيعة إلى سب الصحابة وتكفيرهم، والطعن في القرآن الكريم.

3- كذلك توصلت الدراسة إلى ما كانت تُكنّه الطوائف الإسلامية لبعضها البعض من حقد وكراهية وتآمر، فكان كل طرف يتربص بخصمه الدوائر، لإضعافه والإيقاع به تحقيقا لمكاسب مذهبية واجتماعية وسياسية، وذلك باستخدام مختلف الوسائل الممكنة جاعلا الأخوة الإسلامية من وراء ظهره.

4- كما أوصل التعصب المذهبي الطوائف الإسلامية إلى الغلو في أئمتهم، والتطرّف في كثير من أفكارهم الأصولية والفقهية، وأدخلهم في صراع مذهبي عنيف.

5- حظيت فئة العلماء والفقهاء في حقبة الدراسة بمكانة مرموقة لدى السلاطين والأمراء، وباقي فئات المجتمع.

6- عاش أغلب العلماء والفقهاء في تلك الحقبة في مستوى معيشي يليق بمكانتهم بين طبقات المجتمع؛ وإن عانى بعضهم من الفقر وقلة الدخل.

7- ساهم العلماء في تنقية المجتمع من بعض الآفات التي تعرض لها، من شيوع المنكرات، والفساد الأخلاقي، والانحرافات العقائدية والفكرية، بكل الوسائل

المتاحة لهم، من مجالس الوعظ والإرشاد، أو من خلال تأليف الكتب والمؤلفات، أو من خلال عملهم الرسمي في دوائر الحكومة.

8- كما ساهم العلماء في توحيد الأمة، وإصلاح ذات البين بين أصحاب القرار، وجنبوا البلاد الكثير من المشاكل والصعوبات.

9- نجح العلماء في خلق جيل صفت عقيدته وقويت إرادته حتى قاد الأمة إلى النصر والتحرر.

10- شارك العلماء والفقهاء القادة العسكريين والمقاتلين في الجهاد ضد أعداء المسلمين، وذلك من خلال شحذ الهمم ورفع المعنويات في وسط ساحات القتال، أو من خلال حمل السيوف، والمشاركة الفعلية في المعارك.

11- أظهرت الدراسة أسماء بعض العلماء الذين استشهدوا أثناء المعارك.

12- تعرض العلماء للكثير من المحن والمصاعب أثناء تأديتهم لواجبهم؛ إلا أن هذه المحن لم تزدهم إلا إصراراً على قول الحق والتصدي لما يخالف الشرع والأعراف والعادات.

ثانياً: التوصيات:

بعد عرض هذه النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة،أوصي بما يلي:

1- أوصي الباحثين في مجال التاريخ أن يصرفوا الهمم إلى عمل دراسات عن دور العلماء في الحياة الاجتماعية، والسياسية، ليعطوا هذه الفئة المهمة حقها أسوة بالقادة العسكريين والسياسيين؛ وليتعرف الناس عن هذه الفئة ودورها في حياة المجتمع، لذلك مطلوب منا كدارسين ومؤرخين الاعتناء والاهتمام بعمل دراسات وأبحاث عن هذه الفئة المهمة في المجتمع.

2- كما أوصي أبناء أمتنا العربية والإسلامية وأجيالها المتعاقبة بمطالعة أحداث هذه الحقبة والاستفادة من معطياتها، واستخلاص العبر و الدروس التاريخية منها واستخدامها لصالح الأجيال القادمة.

3- كما وأوصي علمائنا الأجلاء على شحذ هممهم، لأداء واجبهم الديني دون خـشية أو مراءاة لأحد، وتركهم كل المناكفات الضارة.

4- كما أوصي القاعدين الآخرين الذين انعزلوا في معاكفهم يتغنـون بعلمهـم ومكـانتهم الدنيوية ولم يستخدموا علمهم، ونفوذهم حتى في تحريض المـسلمين علـى الجهـاد و مقارعة الأعداء.

5- وأخيراً أوصي علمائنا في فلسطين بشكل عام أن يقرؤوا أحداث هذه الحقبة التاريخية بكل تفاصيلها، وأن يستخلصوا العبر والدروس من هذه الأحداث، وما كـان سـائداً مـن التعصب المذهبي، المرادف له بزمننا هذا (بالتعصب السياسي).

6- وأوصي علمائنا في قطاع غزة بشكل خاص، أن يسعوا في إصلاح المجتمع، وتوحيد الشعب؛ بعد أن مكنهم الله في الأرض وجعلهم أئمة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العـالمين، والـصلاة والـسلام علـى أشـرف الأنبيـاء والمرسلين.

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية.

ثانياً: المراجع العربية.

ثالثاً : المصادر والمراجع الأجنبية المترجمة.

رابعاً : الدوريات العربية.

خامساً: الرسائل الجامعية.

أولاً: المصادر العربية:

1- **القرآن الكريم.**

2- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني الجـزري الملقـب بعـز الـدين (ت.630هـ=1232م)، الكامل في التاريخ، 12 جزء د.ت.

3- ـــــ، التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل،تحقيق:عبد القادر أحمد طليمـات القاهرة، مصر،1963م.

4-الآجري، أبو بكر محمد بن الحسين بن عبدا لله(ت.360هـ=970م)، أخـلاق العلمـاء تحقيق الشيخ إسماعيل الأنصاري، الطبعة الثانية، النصر الحديثة الرياض، د.ت

5-ــــــ، آداب النفوس، تحقيق الشيخ إسماعيل الأنصاري، المكتبة الظاهرية، د.ت.

6- الإدريـسي، أبـو عبـد الله محمـد بـن محمـد بـن عبـد الله بـن إدريـس (ت.560هـ=1164م)،نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينيـة، القـاهرة 1415هـ-1994م.

7-ابـن أبـي أصـيبعة، موفـق الـدين أبـو العبـاس احمـد بـن القاسـم الخررجى(ت.668هـ=1269م) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، جزءان، دار المعرفة، بيروت، د.ت.

8- الإنطاكي، يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي،(ت.458هـ=1065م)، تاريخ الإنطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتيخا، تحقيق، عمر عبد السلام تدمُري، جـروس بـرس، لبنـان طرابلس، 1990م.

9-ابن إياس، محمد بن أحمد بن إياس الحنفي،(ت.930هـ=1523م)، بدائع الزهور فـي وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة، 1982م.

10- ابن أيبك، الدواداري، أبو بكر عبد الله (ت.736هـ=1335م)، كنز الدرر وجـامع الغرر،9 أجزاء،تحقيق قسم الدراسات الإسلامية بالمعهد الألماني للآثار بالقـاهرة ،صـدر في الفترة من 1961-1992م.

11- ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللـــواتي، المعـــروف بـــابن بطوطـــة، (ت.779هـــ=1377م)، رحلة ابن بطوطة ، المسماة ، تحفة النظار في غرائب الأمـــصار و عجائب الأسفار، دار صادر، بيروت، د.ت.

12- البغدادي، عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي أبو منصور، الفرق بـــين الفـــرق وبيان الفرقة الناجية، عدد الأجزاء،1، الطبعة الثانية ، دار الآفـــاق الجديـــدة ، بيـــروت، 1977م.

13- البقاعى، برهان الدين، أبو الحسن، إبراهيم بن عمر، نظم الدرر فى تناسب الآيـــات والسور، الطبعة الثانية، عدد الأجزاء، 8، دار الكتب العلميـــة ، بيـــروت، 1424 هـــــ-2002م.

14- البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد(ت.487هـــ=1094م)، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا، الطبعـــة الثالثـــة،عالم الكتـــب بيروت، 1982م.

15- البنداري، الفتح بن علي بن محمد (ت.622هـــ=1225م)، تاريخ دولة آل ســـلجوق للعماد الأصفهاني، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، الطبعة الثالثة دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1980م.

16- ــــــ، سنا البرق الشامي، مختصر البرق الشامي للعماد الأصفهاني، تحقيق فتحيـــة النبراوي، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1979م.

17- البيهقي ،أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي(ت.458هـــ=1065م)، الـــسنن الكبـــرى وفي ذيله الجوهر النقي، تحقيق، علاء الدين علي بن عثمـــان المـــارديني الـــشهير بـــابن التركماني عدد الأجزاء، 10، الطبعة، الأولى،1344هـــ،مجلس دائرة المعارف النظاميـــة الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد.

18- ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين يوسف(ت.874هــــــ=1469م)،النجـــوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تقديم وتعليق، محمد حسين شـــمس الـــدين،دار الكتـــب العلمية ،بيروت ،لبنان،د.ت.

19- ــــــ، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، 5 أجزاء، تحقيق، محمد محمد أمـــين القاهرة، 1984م.

20- ـــــــ، مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة، تحقيق نبيل محمد عبد العزيــز أحمد، دار الكتب المصرية ، القاهرة،1997م.

21- التنوخي، أبو علي الحسن بن علي بن أبي الفهم، الفرج بعد الشدة، 3 أجزاء، الــدار المصري، للطباعة والنشر، 1903م.

22- ابن تيمية، احمد بن عبد الحليم بن عبد الــسلام،(ت.728هــــ=1327م)، مجمــوع الفتاوى تحقيق، جمعه ابن القاسم، الطبعة الأولى، السعودية ، الرياض، 1381هـــ.

23- ـــــــ، الاستقامة، تحقيق محمد رشاد سالم، عدد الأجزاء2، الطبعة الأولى، جامعــة الإمام محمد بن سعود، المدينة المنورة، 1403هـــ.

24- ـــــــ، الرد على المنطقيين، عدد الأجزاء1، دار المعرفة،بيروت،د.ت.

25- ـــــــ، بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، تحقيق، محمــد بــن عبــد الــرحمن ابــن قاســم، عــدد الأجــزاء2،الطبعــة الأولــى، مطبعــة الحكــوم، مكــة المكرمة،1392هـــ.

26- ـــــــ،بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية، تحقيــق، موســى سليمان الدويش، عدد الأجزاء،1، الطبعة الأولى، مكتبة العلوم والحكم، 1408هـــ.

27- ـــــــ،الفتاوى الكبرى،تحقيق، محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القــادر عطــا، عدد الأجزاء 6، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية،1408هـــ - 1987م.

28- ثابت بن سنان، وابن العديم، تاريخ أخبــار القرامطة،ترجمــة، الحــسن الأعــصم القرطمي تحقيق، سهيل زكار، مؤسسة الرسالة، بيروت،1971م.

29- الجاحظ، أبي عثمان عمرو بن بحر،البيان والتبيين، تحقيق، المحامي فوزي عطــوي عدد الأجزاء1، الطبعة الأولى، دار صعب، بيروت، 1968م.

30- الجبرتي،عبد الرحمن بن حسن (ت.1237هـــ=1821م)، عجائب الآثــار، الطبعــة الثانية، دار الكتاب، 1967م.

31- ابن جبير، محمد بن أحمد (ت. 614هـــ=1217م)، الرحلة المسماه تذكرة الأخبــار عن اتفاقات الأسفار، دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب، المصري، بيروت،مصر، د.ت.

32- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي(ت.597هـ=1200م)، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، 17جزء، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى، بيروت، 1413هـ-1992م.

33- ـــــ، صيد الخاطر، مراجعة علي طنطاوي، جدة، دار المنارة للنشر، 1412هـ-1991م.

34- ـــــ، تلبيس إبليس، دار ابن خلدون، الإسكندرية،د.ت

35- الجوهري، الصحاح في اللغة، دار اللغة العربية، الرباط، 1971م.

36- الجيلاني، سيدي عبد القادر،(ت.560هـ=1252م) الفتح الرباني والفيض الرحماني، دار الريان للتراث، مصر، د.ت.

37- ابن الحاج، أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري،(ت.737هـ=1336م)، المدخل، 4 أجزاء، مكتبة دار التراث، مصر - القاهرة.د.ت.

38- حاجي، خليفة، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني(ت.1067هـ=1656م)،كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992م.

39- ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبي الفضل، احمد بن علي بن محمد،(ت.852هـ=1448م)،الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة،تحقيق ومراقبة، محمد عبد المعيد ضان،عدد الأجزاء6، مجلس دائرة المعارف العثمانية،1392هـ- 1972م.

40- ـــــ، أنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ، تحقيق، محمد عبد المعيد خان،عدد الأجزاء 9، الطبعة،الثانية ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1406 هـ - 1986م.

41- ـــــ،لسان الميزان، تحقيق، دائرة المعرف النظامية، الهند، عدد الأجزاء،7،الطبعة الثالثة، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت،1406هـ- 1986م.

42- ـــــ، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، عدد الأجزاء ، 13جزء، دار المعرفة ، بيروت ، 1379هـ.

43- ـــــ،رفع الإصر عن قضاة مصر، تحقيق، حامد عبد المجيد وآخرون،القاهرة، 1957م.

44- أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق، عبد السلام محمد هارون، عدد الأجزاء6، دار الفكر، 1399هـ - 1979م.

45- الحسيني، صدر الدين بن علي (ت.575هـ=1179م)، أخبار الدولة السلجوقية، اعتنى بتصحيحه محمد إقبال، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د.ت

46- الحموي،أبي الفضائل محمد بن علي بن نظيف(630هـ=232م)،التاريخ المنصوري تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان، تحقيق أبو العيد داود، مراجعة عدنان درويش مطبعة الحجاز، دمشق، 1981م.

47- الحميري، أبوعبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت.900هـ=1494م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق، إحسان عباس، عدد الأجزاء1، الطبعة الثانية، مؤسسة ناصر للثقافة ، بيروت 1980م.

48-ابن حنبل، أحمد بن محمد، المسند، تحقيق، أحمد شاكر،الطبعة الأولى، دار الحديث، 1416هـ-1995م.

49-الحنبلي، أحمد بن إبراهيم (ت.876هـ=1471م)، شفاء القلوب في أخبار بني أيوب تحقيق وتعليق مديحة الشرقاوي، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، 1996م.

50- العليمي، مجير الدين الحنبلي،(ت.927هـ=1520م)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق، عدنان يونس عبد المجيد نباتة، عدد الأجزاء2، مكتبة دنديس، عمان 1420هـ - 1999م.

51- خسرو، ناصر(ت.480هـ=1087م)، سفر نامة، ترجمة يحيى الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب،1414هـ- 1993م.

52- الخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت البغدادي أبو بكر(ت.463هـ=1070م) الرحلة في طلب الحديث، تحقيق، نور الدين عتر، عدد الأجزاء1، الطبعة الأولى،1395هـ دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

53- ـــــ،الفقيه والمتفقه،تحقيق، عادل بن يوسف العزازي، الطبعة الأولى، عدد الأجزاء2، دار ابن الجوزي،1417هـ ـ 1996م.

54- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي(ت.808هـ=1405م)، العبر وديوان المبتدأ والخبر، أو تاريخ ابن خلدون، مؤسسة العلمي، للمطبوعات، د.ت.

55- ابن خلكان،أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن ابي بكر بن خلكان (ت.608هـ=1211م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان،تحقيق، إحسان عباس، دار صادر ،بيروت،1968م.

56- الخوارزمي، جمال الدين أبو بكر (ت.373هـ=1336م)، مفيد العلوم ومبيد الهموم، تحقيق، عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، الدوحة، قطر، 1400هـ- 1980م.

57- الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل (ت.255هـ=868م)، سنن الدارمي، تحقيق، فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي، عدد الأجزاء2، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، بيروت، 1407هـ.

58- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت. 748هـ=1347م)، تذكرة الحفاظ، 4 أجزاء، وضع حواشيه الشيخ زكريا عميرات، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية بيروت 1419هـ-1998م.

59- ـــــ،سير أعلام النبلاء،17جزء،تحقيق محب الدين أبي سعيد عمربن غرامة العمروي، الطبعة الأولى، دار الفكر، بيروت، 1418هـ-1997م.

60- ـــــ،العبر في خبر من غبر،عدد الأجزاء 4، حققه وضبطه أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

61- ـــــ،دول الإسلام، تحقيق فهيم محمد شلتوت، ومحمد مصطفى إبراهيم، القاهرة 1974م.

62- ـــــ، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق،عمر عبد السلام تدمري الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، لبنان، بيروت،1407هـ - 1987م.

63- ـــــ، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، دار الكتب العلمية، بيروت 1419هـ-1998م.

64- الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الشافعي (ت.721هـ=1321م)،اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، تحقيق، محمد زينهم عزب، الطبعة الأولى،مكتبة مدبولي القاهرة،1413هـ.

65- ابن رافع السلامي، محمد بن هجرس،(ت.777هـ=1375م)، تاريخ علماء بغداد المسمى المنتخب المختار، تحقيق عباس العزاوي، بغداد، 1357هـ- 1938م.

66- ابن رجب، زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد الحنبلي،(ت.795هـ=1392م) ذيل طبقات الحنابلة، تحقيق، محمد الفقى، مطبعة السنة المحمدية،القاهرة، 1372هـ-1952م.

67- الزَّبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى الزَّبيدي، تحقيق، مجموعة من المحققين، تاج العروس من جواهر القاموس، 40 جزء ،دار الهداية، د.ت.

68- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله(ت.538هـ=1187م) الجبال و الأمكنة و المياه، دار الكتب العلمية، بيروت 1419هـ-1998م.

69- ابن الساعي، أبو طالب علي بن أنجب (ت.674هـ=1275م)، الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير، تحقيق ونشر، مصطفى جواد، بغداد ،المطبعة السريانية 1353هـ- 1934م.

70- سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبي المظفر، يوسف بن قزاوغلي (ت.654هـ=1256م)، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، تحقيق ودراسة مسفر ابن سالم الغامدي، الجزء الأول،المملكة العربية السعودية جامعة أم القرى معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، مركز إحياء التراث الإسلامي، مكة، 1987م، و الجزء الثامن، تحقيق حيدر آباد، الدكن، الهند، 1952م.

71- السبكي، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب(ت.771هـ=1369م)،طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق، محمود محمد الطناجي، وعبد الفتاح محمد الحلو، 10 أجزاء، الطبعة الثانية،هجر للطباعة والنشر والتوزيع، 1413هـ.

72- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن(ت.902 هـ=1496م)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، تحقيق، محمد جمال القاسمي، عدد الأجزاء 12، الطبعة الأولى، دار الجيل، 1412هـ- 1992م.

73- ابن سيده،أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيده، المخصص، تحقيق،خليل إبراهم جفال،5 اجزاء، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي بيروت، 1417هـ -1996م.

74-السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي،(ت.911هـ=1505م)، حسن المحاضرة في أخبار مصر و القاهرة،د.ت.

75- ـــــ، العرف الوردي في أخبار المهدي، تحقيق، أبي يعلي البيضاوي، دار المنارة، 1426هـ.

76- ـــــ،بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، عدد الأجزاء 2، المكتبة العصرية، لبنان، صيدا 1972م.

77- ابن شاكر الكتبي، محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن،(ت.764هـ=1362م) فوات الوفيات، تحقيق، إحسان عباس، دار صادر، بيروت،الطبعة الأولى، 1974م.

78- أبو شامة، شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم، (ت.665هـ= 1266م)، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية الطبعة الأولى ، تحقيق إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1997م.

79- ـــــ،تراجم رجال القرنيين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، الطبعة الثانية، دار الجيل، بيروت، 1394هـ-1974م.

80- ـــــ،الباعث على إنكار البدع والحوادث، تحقيق،عثمان احمد عنبر،دار الهدى القاهرة، الطبعة الأولى، 1398هـ- 1978م.

81- ـــــ، مختصر كتاب المؤمل للرد إلى الأمر الأول ، ضمن مجموع ، من هدى المدرسة السلفية ، الجزائر ، دار الشهاب.

82- ابن شداد، بهاء الدين يوسف(ت.632هـ=1234م)،النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، دار الفكر، بيروت، د.ت.

83- ابن شداد الحلبي،عز الدين أبي عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم (ت. 684هـ=1258م)، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تاريخ لبنان والأردن وفلسطين، عني بنشره وتحقيقه ووضع فهارسه سامي الدهان، منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، 1992م.

84- الشعراني، أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن علي الأنصاري (ت.973هـ= 1565م)،الطبقات الكبرى، المسماة بلوا قح الأنوار في طبقات السادة الأخيار، ضبطه وصححه، خليل المنصور، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، 1418هـ- 1997م.

85- الشوكاني، محمد بن علي،البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، دار المعرفة بيروت، د ت.

86- الشيرازي، عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله الشافعي (ت.598هـ=1201م)، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق، السيد الباز العريني، القاهرة، 1946م.

87- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت.764هـ=1362م)،الوفي بالوفيات، تحقيق مجموعة من الأساتذة، فرانز شتاينر بفيسبادن، بيروت، 1962-1963م.

88- ــــــ،أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق، نبيل أبو عمشة، وعلي أبو زيد، ومحمد موعد، ومحمود سالم محمد، دار الفكر المعاصر بيروت- لبنان، ودار الفكر، دمشق- سوريا د.ت.

89- الأصفهاني،عماد الدين بن عبد الله محمد بن محمد الكاتب (ت.597هـ=1201م)،الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود صبح، القاهرة، 1965م.

90-ــــــ، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، الطبعة الأولى، تحقيق شكري فيصل، المطبعة الهاشمية، نشره مجمع اللغة العربية بدمشق، 1968م، قسم شعراء مصر، تحقيق أحمد أمين وآخرون، نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، د.ت.

91- ـــــــ،البرق الشامي، تحقيق، فالح حسين، الجزء الثالــث، مؤســسة عبــد الحميــد شومان، عمان- الاردن، 1987م.

92- الصيرفي، الخطيب، الجوهري، علي بن داود، نزهة النفوس والأبدان فـــي تـــواريخ الزمان، تحقيق، حسن حبشي، دار الكتب، 1970م.

93- ابن طباطبا، محمد بن علي المعروف، بـــابن الطقطقـــي،(ت.709هــــ=1309م)، الفخري في الآداب السلطانية، والدول الإسلامية،دار بيروت للطباعة والنــشر، بيــروت، 1400هــ- 1980م.

94- ابن عبد الظاهر، محي الدين عبد الله بن رشيد الدين، بن عبد الظاهر بن نشوان بـــن عبد الظاهر السعدي المصري، (ت.692هــ=1292م)، الروض الزاهر في سيرة الملــك الظاهر" تحقيق عبد العزيز الخويطر، الطبعة الأولى، الرياض، 1976م.

95- ابن عبد الهادي المقدسي، محمد بن أحمد بن قدامة أبو عبد الله،العقود الدريـــة مـــن مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية تحقيق، محمد حامد الفقي، عدد الأجزاء 1، دار الكاتب العربي، بيروت.د.ت

96- ابن العديم، كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله (ت.660هــ=1261م)، زبدة الحلب في تاريخ حلب، تحقيق سامي الدهان، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 1986م.

97- ـــــــ،بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار، الطبعة الأولى، دار الفكــر بيروت، 1988م.

98- ابن العبري، غريفوريوس الملطي، المعروف بابن العبري،(ت.685هــــ=1286م) تاريخ مختصر الدول،د.ت

99- ابن عذاري، محمد بن محمد، المراكشي، (ت.695هــ=1295م)، البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب، الطبعة الثالثة، دار الكتاب، 1982م.

100- ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي، (ت.571هــ=1175م)، تبيـــين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، دار الكتاب العربـــي، بيـــروت، الطبعة الثالثة، 1404هــ.

101- ـــــــ،تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثـل أو اجتـاز بنواحيها من وارديها وأهلها،تحقيق، علي شيري، دار الفكر للطباعة والنـشر والتوزيـع، د.ت.

102- العليمي، مجير الدين الحنبلي،(ت.927هـ=1520م)،الأنس الجليل بتاريخ القـدس والخليل، جزءان، الجزء الأول تحقيق عدنان يونس أبو تبانـة، والجـزء الثـاني تحقيـق محمود الكعابنة، الطبعة الأولى، مكتبة دنيس، عمان، 1420هـ=1999م.

103- ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي (ت.1089هـ=1678م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، 8 أجزاء، دار الكتب العلمية، د.ت.

104- عياض، القاضي بن موسى اليحصبي(ت.544هـ=1149م)، ترتيـب المـدارك وتقريب المسالك، دار المنارة، د.ت

105- العيني، بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى،(ت.855هـ=1451م)، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، جزءان، تحقيق، عبد الرازق الطنطاوي القرموط،الطبعة الأولـى، الزهراء للإعلام العربي، 1409هـ /1989م.

106- الغزالي، محمد بن محمد، أبو حامد،(ت.505هـ=1111م)، إحياء علـوم الـدين، أربعة أجزاء، دار المعرفة، بيروت، د.ت.

107- الفارقي، أحمد بن يوسف بن علي بـن الأزرق (ت.590هـ=1094م)، تـاريخ الفارقي أو الدولة المروانية، تحقيق بدوي عبد اللطيف، دار الكتـاب اللبنـاني، بيـروت 1974م.

108- أبو الفداء، إسماعيل بن علي بن محمود،(ت.732هـ=1331م)، المختـصر فـي أخبار البشر، جزءان، علق عليه ووضع حواشيه محمود ديـوب، الطبعـة الأولـى، دار الكتب العلمية، بيروت، 1417هـ-1997م.

109-ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم، (ت.807هـ=1404م)، تاريخ الدول والملوك، المعروف بتاريخ ابن الفرات، تحقيق، قسطنطين زريق، بيروت، 1942م.

110- الفراهيدي، أبي عبد الرحمن الخليل بن أحمـد، كتـاب العـين، تحقيـق، مهـدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، عدد الأجزاء،8،، دار ومكتبة الهلال.د.ت

111-ابن فرحون،الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، دار الكتب العلمية، بيـــروت د.ت.

112- ابن قاضى شهبة، أبو بكر بن أحمد بن محمد بـــن عمـــر(ت.784هــــ=1382م)، طبقات الشافعية، تحقيق، الحافظ عبد العليم خان، عدد الأجـــزاء4،الطبعـــة الأولى،عـــالم الكتب، بيروت 1407 هــ-1987م.

113- ـــــــ،الكواكب الدرية في السيرة النورية، تحقيق محمود زايد، الطبعة الأولى،دار الكتاب الجديد، بيروت، 1971م.

114- القرشي، محيى الدين أبي محمد عبد القادر بن محمد بن محمد بن نـــصر الله بـــن سالم أبي الوفاء القرشي الحنفي،(ت.775هــ=1373م)، الجواهر المـــضيئة فـــي طبقـــات الحنفية تحقيق، عبد الفتاح محمد الحلو،عدد الأجزاء،2 ، كراتشي، ميـــر محمـــد كتـــب خانة، د ت.

115- القزويني، زكريا بن محمد بن محمود(ت.682هــ=1283م)، آثار البلاد وأخبـــار العباد، دار صادر، بيروت، 1969م.

116- القفطـــــي، جمـــــال الـــــدين علـــــي بـــــن يوســـــف ابـــــراهيم بـــــن عبـــــد الوهاب(ت.646هــ=1248م)، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، دار الآثار للطباعة والنـــشر والتوزيع، بيروت، لبنان.د.ت.

117- ابن القلانسي، أبي يعلي حمزة (ت.555هــ=1160م)، ذيل تاريخ دمشق، مطبعـــة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1908م.

118- القلقشندى،أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله (ت.821هـــــ=1418م) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تحقيق، يوسف علي الطويل، 14 جزء، الطبعة الأولى دار الفكر، دمشق،1987.

119- ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد (ت.751هــ=1350م)، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة،تحقيق، علـــى الـــدخيل الله، دار العاصـــمة، الريـــاض، 1408هــ.

120- ـــــــ،هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، عـدد الأجـزاء1، الجامعـة الإسلامية المدينة المنورة،د.ت.

121- ـــــ، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، تحقيق، محمـد حامـد الفقـي، عـدد الأجزاء2 الطبعة الثانية، دار المعرفة، بيروت، 1395هـ- 1975م.

122- الكتبي، محمد بن شاكر(ت.764هـ=1362م)،فوات الوفيات، 5أجـزاء، تحقيـق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1393هـ-1973م.

123- ـــــ، عيون االتواريخ، تحقيق، عفيف حاطوم، الطبعـة الأولـى، دار الثقافـة، 1996م.

124- ابـن كثيـر، أبـو الفـداء إسـماعيل بـن عمـر بـن كثيـر القرشـي الدمشقي(ت.774هـ=1372م) البداية والنهاية، تحقيق، البداية والنهايـة، حققـه ودقـق أصوله وعلق حواشيه علي شيري، 14 جزء، جزء13،11، الطبعة الأولى،1408هـــ- 1988م، وباقي الأجزاء دون تاريخ طبعة، دار إحياء التراث العربي.

125- الكفومي، أبو البقاء أيوب بن موسـى الحـسيني، كتـاب الكليـات، معجـم فـي المصطلحات والفروق اللغويـة، تحقيـق، عـدنان درويـش ، محمـد المـصري،عدد الأجزاء1،مؤسسة الرسالة بيروت، 1419هـ - 1998م.

126- الكندي، أبي عمر محمد بن يوسف، الكندي المصري، الـولاة وكتـاب القـضاة، تحقيق رفن كست، مطبعة الآبا، بيروت، 1908م.

127- المرسـي، أبـو الحـسن،علي بـن إسـماعيل بـن سـيده، المحكـم والمحـيط الأعظم،(ت.458هـ=1065م)، تحقيق، عبد الحميد هنداوي، 11جزء، دار الكتب العلميـة بيروت، 2000م.

128- مسلم، بن الحجاج، أبو الحسن، القـشيري، البيـسانوري (ت.261هــ=864م)، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة الأولى، دار إحيـاء الكتـب العربيـة القاهرة،1374ه - 1955م.

129- المقدسي، محمد بن أحمد(ت.390هـ=999م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقـاليم تحقيق، غازي طليمات، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1980م.

130- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر(ت.845هـ=1441م)،السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد علي بيضون، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت 1997م.

131- ـــــــ،المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، جزءان ط2، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة،1408هـ-1987م.

132- ـــــــ،اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، جزءان، تحقيق محمد حلمي أحمد، القاهرة، 1971م.

133- ابن النديم،محمد بن إسحاق أبو الفرج (ت. 380هـ= 990م)،الفهرست، دار المعرفة بيروت، 1398هـ - 1978م.

134- ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري(ت.711هـ=1311م)، لسان العرب، 15 جزء، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت، د.ت.

135- النعيمي، عبد القادر بن محمد(ت.978هـ=1570م)،الدارس في تاريخ المدارس جزءان،أعد فهارسه إبراهيم شمس الدين،الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية،بيروت،1410هـ ـ 1990م.

136- النووي،محيى الدين أبو زكريا يحيى بن شرف،(ت.671هـ=1272م)،رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، تحقيق، رضوان محمد رضوان،دمشق، د.ت.

137- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب(ت.732هـ=1331م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق، مفيد قمحية وآخرون، عدد الأجزاء33، الطبعة،الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1424 هـ- 2004 م.

138- ابن واصل ،جمال الدين محمد بن سالم(ت.749هـ=1348م)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق، جمال الدين الشيال، د.ت.

139- ابن الوردي زين الدين عمر ابن المظفر بن أبي الفوارس (ت.749هـ=1348م) تتمة المختصر في أخبار البشر، المعروف بتاريخ ابن الوردي، تحقيق أحمد رفعت البدراوي الطبعة الأولى، دار المعرفة بيروت، 1970م.

140- اليافعي، أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان، (ت.768هـــ=1366م)، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، بيروت، 1974م.

141- ياقوت الحموي، شهاب الـدين أبـو عبـد الله يـاقوت بـن عبـد الله الحمـوي (ت.626هـ=1228م)، معجم البلدان، تحقيق،فريد عبد العزيز الجندي،الطبعـة الأولـى، دار الكتب العلمية،د.ت.

142-ـــــ، معجم الأدباء، تحقيق، أحمد فريد الرفاعي،20 جزء، القاهرة، 1936م.

143- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح(ت.284هـ=897م)،البلـدان، الطبعـة الأولى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1988م.

144- ابن أبي يعلى، القاضي محمد بن أبي يعلى بـن الفـراء (ت.526هـــ=1228م)، طبقات الحنابلة، تحقيق، محمد حامد الفقي، جزءان، دار المعرفة، بيروت، د.ت.

145- اليونيني، قطب الدين أبو الفتح موسى بن أحمد، (ت.726هـ=1325م)، ذيل مرآة الزمان، 4أجزاء، الطبعة الثانية، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، 1413هـ-1992م.

ثانياً: المراجع العربية:

146-أحمد، محمد حلمي، محمد، مصر والشام والصليبيون، كليـة دار العلـوم، الطبعـة الثانية 1402هـ- 1982م.

147-أبو النصر، محمد عبد العظيم، السلاجقة تاريخهم الـسياسي والعـسكري، الطبعـة الأولى عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2001م.

148- أيوب، إبـراهيم، رزق الله، التـاريخ الفـاطمي الاجتمـاعي، الـشركة العالميـة للكتاب،د.ت.

149- البدري، عبد العزيز، الإسلام بين العلماء والحكام، المكتبة العلمية، المدينة المنورة د.ت.

150- بدوي، أحمد، أحمد، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، د.ت.

151- بدوي،عبد المجيد أبو الفتوح، التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي من القرن الخامس الهجري حتى سقوط بغداد، الطبعة الأولى، عـالم المعرفـة للنشر والتوزيع، جدة، 1983م.

152-الحجي، حياة، ناصر، صور من الحضارة العربية الإسلامية في سـلطنة المماليـك الطبعة الأولى، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، 1412هـ- 1992م.

153-حسن، حسن، إبراهيم، تاريخ الإسلام، الجزء الرابع، مكتبـة النهـضة المـصرية، الطبعة الأولى، 1967م.

154- حسنين، عبد النعيم، محمد، سلاجقة إيران والعـراق، الطبعـة الثانيـة، القـاهرة، 1970م.

155-حلواني، أحمد عبد الكريم، ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين في عهـد الدولتين النورية والأيوبية،دار الفداء، دمشق، 1991م.

156- الخطيب، مصطفى عبد الكريم، معجم المصطلحات والألقاب التاريخيـة، الطبعـة الأولى، مؤسسة الرسالة، 1996م.

157- دهمان، محمد أحمد، معجم الألفـاظ التاريخيـة فـي العـصر المملوكي،الطبعـة الأولى،دار الفكر المعاصر،بيروت،دار الفكر، دمشق،1410هـ-1990م.

158- ربيع، حسنين محمد،النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، القاهرة، 1964م.

159- الزر كلي، خير الدين، الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العـرب والمستعربين والمستشرقين، الطبعة الخامسة، 10 أجزاء، دار العلـم للملايـين، بيـروت 1980م.

160- زكار،سهيل،الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الـصليبية،مدخل إلـى تـاريخ الحروب الصليبية(المشرق)، دار الفكر دمشق،1415هـ-1995م.

161-سرور، محمد جمال، الدولة الفاطمية في مصر سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة في عهدها، دار الفكر العربي،1390هـ- 1970م.

162- ـــــــ،النفوذ الفاطمي في بلاد الشام ومصر والعراق في القرنين الرابع والخـــامس بعد الهجرة، القاهرة، 1964م.

163-سعداوي، نظير حسان،المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، 1962م.

164- شبارو،عصام، محمد، قاضي القضاة في الإسلام، دار النهضة العربيـــة للطباعـــة والنشر،د.ت.

165- الشربيني، البيومي، إسماعيل، مصادرة الأملاك في الدولـــة الإســـلامية(عـــصر المماليك)، الجزء الأول، الهيئة المصرية للكتاب، 1997م.

166- الـــشكعة، مـــصطفى،إسلام بـــلا مـــذاهب، الطبعـــة17، الـــدار المـــصرية اللبنانية،1427هـ- 2006.

167- شكيل، هادية دجاني، القاضي الفاضل، عبد الـــرحيم البيـــساني العـــسقلاني(562-596= 1131-1199م)، دوره التخطيطي في دولة صـــلاح الـــدن وفتوحاتـــه، مؤســـسة الدراسات الفلسطينية،الطبعة الأولى، 1993م.

168- الشهابي، قتيبية، معجم ألقاب أرباب السلطان في الدول الإســـلامية مـــن العـــصر الراشدي حتى بدايات القرن العشرين، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1995م.

169- الشيخ عيد، يوسف إبراهيم، أثر الحركات الباطنيـــة فـــي عرقلـــة الجهـــاد ضـــد الصليبيين الطبعة الأولى، دار المعالي، عمان، الأردن، 1419هـ- 1998م.

170- صائغ، أنيس، وآخرون. الموسوعة الفلـــسطينية،7 مجلـــدات، هيئـــة الموســـوعة الفلسطينية الطبعة الأولى، بيروت، 1411هـ-1990م

171-الصلابي، علي محمد محمد، دولة السلاجقة وبروز مـــشروع إســـلامي لمقاومـــة التغلغل الباطني والغزو الصليبي، 2007م.

172-ـــــــــ، عصر الدولة الزنكية ونجاح المشروع الإسلامي بقيادة نور الدين محمود الشهيد في مقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي، 2005م.

173- عاشور،سعيد، الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد فـــي العـــصور الوسطى، الطبعة السابعة، مكتبة الإنجلو المصرية، القاهرة، 2005م.

174- ــــــ، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليـــك، دار النهـــضة العربيـــة، القاهرة 1992م.

175- ــــــ،تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، الطبعة الأولـــى دار النهضة العربية، بيروت، 1991م.

176- عاشور، فايد حماد، جهاد المسلمين في الحـــروب الـــصليبية العـــصر الفـــاطمي والسلجوقي والزنكي، الطبعة الثالثة، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1405هـ- 1985م.

177- العاوور، صلاح،وسيسالم، عصام، محاضرات في تـــاريخ الـــدويلات الإســـلامية الطبعة الأولى،مكتبة المنارة، غزة،1997م.

178- ابن عبد الهادي يوسف المقدسي (ت.909هـ=1503م)، ثمار المقاصد في ذكـــر المساجد، حققه اسعد طلس، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ،1943.

179- العثيمين، محمد بن صالح بن محمد، العلم، مؤسسة الـــشيخ محمـــد بـــن صـــالح العثيمين، السعودية،1408هـ.

180- ــــــ، شرح رياض الصالحين، الطبعة الأولى، دار العلم للطباعة،د.ت.

181- عطوي، علي بخيت، ابن الفارض شاعر الغزل في الحب الالهي، الطبعة الأولـــى دار الكتب العلمية، 1414هـ- 1994م.

182-علال، خالد كبير، مقاومة أهل السنة للفلسفة اليونانيـــة،خلال العـــصر الإســـلامي (ق:2-13هـ)، دار المحتسب ،الجزائر،2008م.

183- ــــــ، علماء حنابلة مارسوا الاجتهاد في عصر التقليـــد خـــلال القـــرنين(6- 7 الهجريين)، دار المحتسب، الجزائر، 2007م.

184- ــــــ، التعصب المذهبي في التاريخ الإسلامي خـــلال العـــصر الإســـلامي، دار المحتسب، الجزائر، 1429هـ- 2008م.

185- ـــــــ، الأزمة العقيدية بـــين الأشـــاعرة وأهـــل الحـــديث خـــلال القـــرنين(5-6 الهجريين)، الطبعة الأولى، دار الإمام مالك، البليدة، الجزائر، 1426هـ- 2005م.

186- ـــــــ، الحركة العلمية الحنبلية وأثرها في المـــشرق الإســـلامي خـــلال القـــرنين السادس والسابع الهجريين= الثاني عشر والثالث عشر الميلادي، دار المحتسب، الجزائـــر 2004م.

187-العمر، ناصر بن سليمان، لحوم العلماء مسمومة، الرياض، 1427هـ.

188-علي، محمد كرد، خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، 1983م.

189- أبو غدة، عبد الفتاح، العلماء العزاب الذين آثروا العلـــم علـــى الـــزواج، الطبعـــة الأولى، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، 1402هـ- 1982م.

190-الغراب، محمود محمود، الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي، ترجمة حياتـــه مـــن كلامه، 1403هـ-1983م، دمشق.

191-غوانمة، يوسف درويش، التاريخ الحضاري لشرقي الأردن، في العصر المملـــوكي الطبعة الثانية، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، 1982م.

192-فروخ، عمر، التصوف في الإسلام، دار الكتـــاب العربـــي، 1401هـــ- 1981م، بيروت.

193-قاسم، قاسم عبده، عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي، الطبعـــة الأولى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 1998م.

194-ـــــــ، ماهية الحروب الصليبية، عالم المعرفة، 1991م.

195- قرضاوي، يوسف، الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه، الطبعة الرابعـــة، مؤســـسة الرسالة، 1414هـ- 1994م، بيروت.

196-الكيلاني، ماجد عرسان، هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس،المعهـــد العلمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية، 1414هـ- 1994م.

197- اللويحق، عبد الرحمن بن معلا، قواعد في التعامل مع العلماء، تقديم، عبد العزيز بن عبد الله بن باز،الطبعة الأولى، دار الوراق، 1415هـ-1994م.

198- مبارك، زكي، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، جزءان، الطبعة الأولى، مطبعة الرسالة، 1357هـ- 1938م، مصر.

199-مصطفى ، إبراهيم و أحمد الزيات و حامد عبد القادر و محمد النجار، المعجم الوسيط ،تحقيق، مجمع اللغة العربية، دار الدعوة للنشر، د.ت.

200- المناوي، محمد، حمدي، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، دار السلام للطباعة القاهرة، 1970.

201-الناصر، محمد حامد، الجهاد والتجديد في القرن السادس الهجري، الطبعة الأولى مكتبة الكوثر، الرياض، 1419هـ - 1998م.

202-نصار، لطفي أحمد، وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك في مصر،الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999م.

203-نقلى، آسيا، دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى في الجهاد ضد الصليبيين خلال الحركة الصليبية(489-690هـ=1095-1291م)،الطبعة الأولى،مكتبة العبيكان 1423هـ- 2002م.

ثالثاً: المصادر والمراجع الأجنبية المترجمة:

204- حتي، فيليب، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة جورج حداد، وعبد الكريم رافق. بيروت، 958م.

205- دفتري، فرهاد، الاسماعيليون في العصر الوسيط، ترجمة، سيف الدين القصير الطبعة الأولى، دار المدى للثقافة والنشر، سوريا، 1999م.

206- رنسيمان، ستيفن، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة، السيد الباز العريني،عدد الأجزاء 3، دار الثقافة، بيروت، لبنان،د.ت.

207- ريموندا جيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة حسنين محمد عطية، الطبعة الأولى ، دار المعرفة،الجامعية، الإسكندرية، 1990م.

208- الفيتري، يعقوب، تاريخ بيت المقدس، ترجمة، سعيد البيـشاوي الطبعـة الأولـى، عمان دار الشروق 1997م.

209- متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة، محمد عبد الهادي أبو ريدة، المطابع العربية، بيروت، 1967م.

رابعاً: الدوريات العربية:

210- جمال الدين، محمد، محمد،عبد اللطيف، العلم والعلماء في ميزان الشريعة الغـراء، مجلة الإسراء، العدد الثامن، 1417هـ- 1997م، فلسطين- القدس.

211- الجوجو، حسن، التعصب المذهبي والتطرف الديني وأثرهم على الدعوة الإسلامية (مقالة)، مؤتمر الدعوة الإسلامية ومتغيرات العصر المنعقد(7-8 ربيع الأول 1426هـ = 16-17 ابريل 2005م).

212- الخليفي، عبد الرحمن بن سليمان وظيفة العلماء والـدعاة فـي احتـواء الـسلوك الإرهابي مجلة المجتمع، العدد، 1165.

213- الزفزاف، فوزي، شجاعة العلماء في إسداء النصيحة إلى الخلفاء و الأمراء، مجلة الأزهر، الجزء الرابع، السنة السادسة والسبعون، 1424هـ- 2003م، مصر- القاهرة.

214- شاهين و الفراني، رياض مصطفى، وعبد الحميد جمال، دور العلماء المسلمين في المقاومة ضد الصليبيين في بلاد الشام (491هـ- 690هـ= 1098-1291م)، مجلـة الجامعة الإسلامية-غزة-، العدد(91-92)، دراسات تاريخية، ،بحث محكم، 1426هـ- 2005م فلسطين.

215- أبو شخيدم، عبد السلام، بين الأمراء والعلماء بين الدعاة والرعاة، مجلة الاستقامة العدد الحادي عشر، غزة، 1419هـ، السنة الثالثة.

216- صباح، عبد الحميد، العلم والعلماء في ضوء الكتاب والسنة،مجلة الاستقامة، العدد الثاني والثالث، غزة، 1417هـ، السنة الأولى.

217- طاهري، عبد الله ناصري، أثار الحروب الصليبية في جغرافية الـصفحات الشرقية الإسلامية،مجلة الأهرام، العدد،(111)، 2003م.

218-عدوان، احمد، دور العلماء في إصلاح المجتمع زمن الحروب الصليبية، 491-692هـ= 1097-1292م، الجمعية التاريخية السعودية، بحث محكم من الدراسات التاريخية والحضارية، الإصدار الحادي عشر، صفر 1422هـ- مايو 2001م.
219- فراج، عبد الستار،معجم البلدان لياقوت الحموي، مجلة العربي، العدد (141) أغسطس 1970م.
220- الفاخوري، حنا، تاريخ الأدب العربي، الطبعة الثانية، بيروت، د.ت.

221- القرني، عبد الحفيظ، فرغلي،علي، مسئولية العلماء، مجلة الوعي الإسلامي، العدد(254)، الكويت، 1406هـ- 1985م.

222- المصلح، خالد، بن عبد الله، العلماء بين الدور المنشود و الدور المفقود، مجلة البيان البريطانية، العدد، 191، 1424هـ.

223- المقوسي، نمر،الوعظ وأثره في المجتمع، مجلة المنبر، من إصدارات وزارة الأوقاف والشئون الدينية، العدد السابع، جماد ثاني، 1419هـ.

خامساً: الرسائل الجامعية:

224- إبراهيم،عبد المجيد، غفور،الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصر الأيوبي(569-658هـ=1173-1260م)رسالة دكتوراه، إشراف، الأستاذ الدكتور، دريد عبد القادر نوري معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا، 1421هـ-2000م.

225- الأغا، حسام حلمي يوسف، الأوضاع الاجتماعية في فلسطين زمن الحروب الصليبية(492-690هـ= 1099-1291م)، رسالة ماجستير غير منشورة،إشراف الأستاذ الدكتور، رياض شاهين، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية، غزة،1428هـ-2007م.

226- حشيش، رياض ،الحركة الصوفية في عهد الحروب الصليبية ،رسالة ماجستير غير منشورة ، إشراف الأستاذ الدكتور،رياض شاهين،الجامعة الإسلامية ،غزة، فلسطين،2005م.

227- زعرور، إبراهيم، الحياة الاجتماعية في بــلاد الــشام فــي العــصرين الأيــوبي والمملوكي رسالة دكتوراه غير منشورة، إشراف،الأستاذ الدكتور، سهيل زكــار، جامعــة دمشق، 1411هـ- 1990م.

228- السامرائي، يونس، الدولة المرداسية في حلب، رسالة دكتوراه غير منشورة، كليــة دار العلوم، جامعة القاهرة، 1982.

229- شاهين، رياض مصطفى، الملك المعظم عيسى(576-624هـ-1180-1227م)، سياسته الداخلية والخارجية، رسالة دكتوراه غير منشورة، إشراف، الأستاذ الدكتور، بشير أحمد بشير، جامعة الخرطوم، 1415هـ1994م.

230-الفرانى، عبد الحميد، المقاومة الــشعبية للاحــتلال الــصليبي فــي بــلاد الــشام (491-690هـ= 1098-1291م)، ،رسالة ماجستير غير منــشورة، إشــراف الأســتاذ الدكتور،رياض شاهين،الجامعة الإسلامية ،غزة، فلسطين،2006م.

231- المدني، رشاد، الحياة العلمية في فلسطين في مرحلة الصراع الصليبي الإســلامي (491-690هـ= 1098-1291م)، رسالة ماجستير غيــر منــشورة، إشــراف الأســتاذ الدكتور رياض شاهين،الجامعة الإسلامية ،غزة، فلسطين،2005م.

232- المصري،جهاد، سليمان، ســالم،التعليم فــي بــلاد الــشام فــي العهــد الأيــوبي (570-648هـ=1174-1250م)، رسالة ماجستير، إشراف، الــدكتور، محمــد الحــافظ مصطفى النقر، جامعة آل البيت، 1999م.

// ABSTRACT
This thesis has tackled the efforts of the Egyptian and Syrian erudites in the field of reforming the society in the crusades arrival to Egypt and Syria (491 A.H =1097 A.D.) to the time when they were forced out in (692 A.H =1292 A.D.)

The research heightened some of the corruption phenomena type which prevailed at that time such as taking drugs, drinking wine committing adultery, dancing and dissipating, believing in myths, foreign heresy and getting away from the Islamic habits and traditions.

The research also explored in the doctrinal fanaticism phenomena which prevailed among the Islamic doctrines (Sunahes themselves and sheaaes). It results on charging each other with infidelity, accusation, aggression such as beating and killing other each, and attacking mosques.

Moreover, the research pointed out the erudites high distinguished status in the holy Qura'n and the Sanao . Besides, their notable status for sultan's, princes and the people is made clear.

It also pointed out the erudites' efforts in fighting the social corruption which spread at that historical period in Egypt and Syria. This effort takes place is the erudites' charity works as preaching, guidance and fighting corruption.

The research clarifies the erudites' role in instigating Muslims and Christians. The erudites succeeded in repairing what was damaged by the causes of corruption. They built a new generation which is attached to religion and attached to Islamic traditions. This generation led the nation to victory and freedom.

At the end of the study, the researcher has concluded the results he reached and some recommendations.

Islamic University-Gaza
Deanery of High Studies
Department Of History Archaelogy



The Efforts of the Egyptian and Syrian Erudites in reforming the society during the Crusades (491-692 A.H. = 1097-1292 A.D.)

Prepared by:
AbdAl Fattah Abdallah Ashour Abu Jahal

Supervised by:
Full professor : Riyad Mustafa Shaheen
Professor in the Islamic History.

A Thesis submitted to the History and Archeology Department as a parfial fulfillment for the requirement of the master degree in the Islamic University

1431A.H. - 2010A.D.